

مركز دراسات الوحدة العربية



المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم
معهد البحوث والدراسات العربية

ساطع الحصري
ثلاثون عامًا على الرحيل

بحوث ومناقشات الندوة الفكرية
التي نظمها
مركز دراسات الوحدة العربية
ومعهد البحوث والدراسات العربية

أحمد يوسف أحمد
عبد الله عبد الدائم
خيرية قاسمية
عبد العزيز الدوري
محمد عبد الشفيع عيسى



مركز دراسات الوحدة العربية



المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

معهد البحوث والدراسات العربية

ساطع الحصري

ثلاثون عاماً على الرحيل

بحوث ومناقشات الندوة الفكرية
التي نظمها
مركز دراسات الوحدة العربية
ومعهد البحوث والدراسات العربية

أحمد يوسف أحمد
عبد الله عبد الدائم
خيرية قاسمية
عبد العزيز الدوري
محمد عبد الشفيع عيسى

الفهرسة أثناء النشر - إعداد مركز دراسات الوحدة العربية

ساطع الحصري: ثلاثون عاماً على الرحيل: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية ومعهد البحوث والدراسات العربية/أحمد يوسف أحمد... [وآخ.].

٣٦٨ ص.

يشتمل على فهرس.

١. الحصري، ساطع [أبو خلدون]. ٢. الوحدة العربية. ٣. القومية العربية. ٤. ندوة ساطع الحصري: ثلاثون عاماً على الرحيل (١٩٩٩: القاهرة). أ. أحمد، أحمد يوسف. ب. مركز دراسات الوحدة العربية. ج. معهد البحوث والدراسات العربية.

320.54

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «سادات تاور» شارع ليون ص.ب: ٦٠٠١ - ١١٣ - بيروت - لبنان

تلفون: ٨٦٩١٦٤ - ٨٠١٥٨٢ - ٨٠١٥٨٧

برقياً: «مرعربي» - بيروت

فاكس: ٨٦٥٥٤٨ (٩٦١١)

e-mail: info@caus.org.lb

Web Site: http://www.caus.org.lb

الطبعة الأولى

بيروت، تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٩

المحتويات

مقدمة

محمد الخولي(*)

تكاد حياة الأستاذ ساطع الحصري (١٨٨٠ ـ ١٩٦٨) تلخص حقبة بأكملها من التاريخ العربي الحديث.. بل تكاد تختزل في أحداثها وأطوارها نهج الحصري ذاته وأبعاد الدعوة العروبية القومية التي نذر نفسه لها عبر السنوات الثماني والثمانين التي عاشها.

وإذا كانت صنعاء ـ عاصمة اليمن ـ هي التي شهدت مولد الفتى «مصطفى ساطع» في عام ١٨٨٠، وإذا كانت أصول الفتى تمتد في جذورها إلى الحجاز في شرقي الجزيرة العربية إلى أن استقرت في مدينة حلب السورية، فإن أطوار حياة وكفاح ساطع الحصري عبر الأعوام الثمانية والثمانين التي عاشها اتسعت لكي تضم العديد من أسماء المدن والمواقع العربية التي عاش فيها الحصري، وقدّم منها ما استطاع أن يقدمه لأمته... عملاً وعلماً ودعوة ونضالاً.. مواقع تمتد من بغداد إلى دمشق ومن القاهرة إلى طرابلس الغرب، فضلاً عما شهدته أولى مراحل حياته العملية، وهي المرحلة العثمانية، من سياحات وجولات بحكم المنصب الإداري في بلاد الأناضول التركية وفي منطقة الروملي ـ الممتلكات العثمانية في وسط وجنوب أوروبا ما بين حدود النمسا إلى حدود بلغاريا ـ وربما كانت هذه الفترة اليافعة التي أمضاها ساطع الحصري في البلقان هي التي أتاحت له أن يعايش معنى الصراعات القومية ويرصد آفة التشرذم والتناحر بين أبناء الأمة الواحدة.. لدرجة فتحت عينيه على حقيقة الوحدة القومية كغاية مثلى، وكوسيلة لا بديل منها تكفل للشعوب تحقيق ذاتها وتحرير إرادتها وإعلاء ثقافتها.

(*) صحافي وخبير إعلامي لدى الأمم المتحدة ـ مصر.

ولقد جاءت نشأة ساطع الحصري الأولى في استانبول حيث بدايات التكوين الفكري والمعرفي في المرحلة الحميدية التي كانت تموج بتيارات متصارعة ما بين دعوات الجامعة الإسلامية التي طرحتها المؤسسة الأوتوقراطية للسلطان عبد الحميد الثاني في محاولة لتكريس وجوده فوق عرش آل عثمان، وما بين دعوات التحديث والدستور ثم الاستقلال التي تبنتها عناصر «تركيا الفتاة»، ومن بعدها عناصر «العربية الفتاة» و«الجمعية القحطانية» و«جمعية العهد» التي كانت ترفع لواء كيان عربي قومي مستقل عن هيمنة الباب العالي في الآستانة...

وعند منتصف العمر يتحول ساطع الحصري من مرحلة العثمانية ناشئاً ومتعلماً وموظفاً إدارياً إلى مرحلة العروبة التي بدأت مع عقد العشرينيات، حيث تولى الأستاذ مواقع عديدة في قمة الهرم الإداري وفي خدمة الكيانات العربية الفتية حينذاك في سوريا وفي العراق.. ومن هذه المواقع استطاع الحصري أن يؤثر بامتياز واقتدار في تفعيل وترشيد العملية التربوية ـ المعرفية في أهم أقطار المشرق، سواء من موقعه كمسؤول عن المعارف أو الآثار أو التعليم العالي أو المناهج التربوية أو من موقعه الذي ارتضاه لنفسه بعيداً عن الوظائف والمناصب ـ موقع: الداعية ـ المفكر ـ الكاتب ـ المحاور.

ولقد توج نضال ساطع الحصري كمربٍ ومفكر ومسؤول بانتقاله إلى القاهرة عام ١٩٤٧ حيث شارك في الأنشطة الثقافية لجامعة الدول العربية، إذ كانت بعد في مرحلة فتوتها ويفاعها. ومن ثم كان له الفضل في تأسيس وإدارة معهد البحوث والدراسات العربية الذي كان يهدف أساساً إلى إعداد كوادر رفيعة من المثقفين والأكاديميين القوميين العرب. ولأن ساطع الحصري كان داعية للوحدة العربية على أساس أهم عاملين رآهما ركيزة للوجود العربي القومي وهما اللغة والتاريخ، فقد انصرف إلى الكتابة والتأليف في مجالات شتى تدور كلها حول محور وحدة الثقافة والحضارة العربية، وقدم في هذا المجال إسهامات لها قيمتها، وبعضها لا يزال في زماننا ـ غروب القرن العشرين ـ يتسم بالصحة والمصداقية العلمية بفضل ما اتسمت به أفكار هذا الرائد الكبير من العمق والشمول واستشراف المستقبل.

ولأن الحصري كان ينطلق من مبدأ الوحدة في إطار التنوع، فقد كان منهاج حياته ذاتها تجسيداً لهذا المبدأ الأساسي، إذ كان يكتب في الدعوة القومية ويجري البحوث اللغوية، فيما كان يهتم بعلوم النبات ويتضلع في علوم الرياضيات ويؤلف الكتب المدرسية في علوم الفيزياء، فضلاً عن حرصه الدؤوب على الانفتاح على العالم الخارجي، وبخاصة في ما يتعلق بحركات التكامل والتوحد القومي في

أوروبا، بفضل إجادته للفرنسية إلى جانب التركية والعربية.

وإذا كانت مكتبة الحصري، بمعنى آثاره الفكرية ومؤلفاته العديدة، قد تناهت إلينا، لحسن الحظ، كاملة وموثّقة بكل ما حفلت به من ثمار إبداع هذا الرائد القومي الكبير، فإن أهم الدروس المستفادة من حياة وأعمال ساطع الحصري، وهو ما ينبغي أن يتمثله الجيل العربي الشاب، إنما تتلخص في منهج الإخلاص للفكرة القومية، واستخدام الحوار العلمي والفكري أسلوباً في تعزيزها والدعوة إليها والاستعلاء بهذه الفكرة ـ الدعوة القومية ـ بمنطق التعفف وليس الانعزال بعيداً عن أحابيل السياسة أو المصالح الحزبية أو الفئوية أو القطرية أو حتى الطبقية، هذا في الوقت الذي حرص فيه الحصري على طرح النزوع القومي والتكامل الوحدوي بوصفه تجسيداً أصيلاً وحقيقياً للمصالح العليا لجماهير الأمة العربية.

على أن هذا المنهج القائم على الإخلاص والمتوسل بأساليب الحوار مع «الآخر» ـ لا مع «الخصم» أو «العدو» ـ كان يصدر عن رؤية استشرافية جعلت ساطع الحصري يسدد عينه دوماً نحو المستقبل، ومن ثم فقد تحوّل إيمانه العميق بوحدة الأمة العربية إلى ما قد نصفه بأنه «العشق الصوفي»، يحلق بالأمل العريض إلى ذرى الحلم القومي المنشود ولكنه يقف في الوقت نفسه على مهاد أرضية وطيدة ثابتة يجسدها وجود الأمة العربية في التاريخ.

ثلاثون عاماً وأكثر مضت على رحيل ساطع الحصري، وتكاد تشكل انقضاء جيل كامل وربما حقبة بأكملها من تاريخ العرب المعاصر. وهي حقبة اتسمت ـ للأسف ـ بخط من التراجع المطرد في شتى مجالات الحياة العربية مما يكاد يهدد بتهميش الجماعة القومية العربية بعد أن عانت الخلافات التي وصلت إلى حد الاحتكام إلى لغة السلاح. وعندما يمعن العرب النظر في حياتهم وفي ما آل إليه حال أمتهم وحال العالم من حولهم فهم يصادفون ولا شك تحديات العولمة وهيمنة القطب الدولي الواحد، وسيادة الاتصالات الفضائية الكوكبية بكل ما تنطوي عليه من أخطار تشويه أو تمييع الهوية القومية والإنسانية الثقافية ـ المعرفية الأصيلة التي تحفظ للشعوب والأمم تميزها ومكانتها في الحاضر وفي التاريخ، فضلاً عن خصوصية التحدي الصهيوني الذي يعمل جاهداً على تطوير أساليبه للنفاذ إلى مواقع جديدة، وخطيرة داخل الوطن العربي في المشرق والمغرب.. يشهد على هذا دعوات من قبيل الرضا بالتعايش أو ثقافة السلام أو الشرق ـ أوسطية أو التطبيع... عندما يرصد العرب كل هذه الدعوات ويدركوا معها كيف حرصت

شعوب أخرى من العالم الأول ـ ومنها أوروبا مثلاً ـ على الأخذ بمنطق الوحدة، في إطار التعدد، ومنطق التكتل في إطار الديمقراطية، كيما تنجح، وقد نجحت في إدارة ظاهرة العولمة وما يتفرع عنها من مشكلات، تدرك الأجيال العربية أهمية التمسك بفكرة العروبة، وأهمية تعزيز الوعي العروبي والدعوة القومية، وأهمية أن يظل العمل الوحدوي هو المنارة التي تهتدي بها المسيرة العربية المعاصرة، مهما تنوعت الأساليب وتعددت الاجتهادات، وهي لا بد من أن تتنوع وتتعدد بحسب مقتضيات الحال وفي ضوء متغيرات القرن الوشيك الجديد.. وسط هذا كله نتلفت من حولنا، فإذا بحزمة كاملة متكاملة من الطروحات والمقولات والآراء التي تكرس دعوة الوحدة وتنبه إلى أهمية تعزيز الوجود القومي العربي؛ هي تلك التي ظل يطرحها ويحدب عليها بإخلاص شديد، عبر أربعين عاماً ويزيد، رائد كبير، اسمه ساطع الحصري...

كلمـات الافتتـاح

كلمة الافتتاح الأولى

مجدي حماد(*)

يسرني ويسعدني أن أرحب بكم جميعاً، وأن أعبر لكم باسم مجلس الأمناء واللجنة التنفيذية لمركز دراسات الوحدة العربية، ونيابة عن د. خير الدين حسيب المدير العام للمركز، والذي حالت ظروف طارئة وضاغطة بينه وبين المشاركة في أعمال هذه الندوة الهامة، عن اعتزاز عميق بتلبيتكم دعوة المركز ومعهد البحوث والدراسات العربية لحضور هذه الندوة، والمشاركة في أعمالها رغم معرفتنا بمشاغلكم والتزاماتكم الأخرى.

هذه الندوة الهامة تنعقد في رحاب المفكر العربي الكبير ساطع الحصري، وذلك لتدارس جوانب من جهاده واجتهاده، وتأمل بعض من أفكاره وتجاربه باعتباره واحداً من أعظم المفكرين في إطار الفكر الوطني والقومي العربي، بل وواحد من أعظم رواد الأمة العربية في العصر الحديث.

إن الأهمية التاريخية لساطع الحصري تكمن في أنه استطاع من خلال الممارسة السياسية والعملية والفكرية طوال أكثر من نصف قرن أن يضع منظومة أيديولوجية جديدة متقدمة لحركة التحرر الوطنية العربية التي كانت تناضل من أجل الاستقلال والوحدة باعتبارهما وجهين لعملة واحدة. ولقد وضع مفكرنا الكبير نظرية منهجية منسجمة للقومية العربية، وبأسلوب أكثر وضوحاً واتساقاً من أسلوب أي مفكر آخر، عندما عبّر عن التطلعات القومية المشروعة للأمة العربية، مترجماً بدقة الثوابت السائدة في هذه الأمة، كما ترجم الثوابت السائدة في عصره وفق مقتضيات ذلك العصر، مع التطلع في الوقت نفسه إلى أوسع آفاق المستقبل.

(*) معاون مدير عام مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت.

وفي هذا السياق، تتضح الأهمية القصوى لنظرة ساطع الحصري للإمكانات الكبيرة التي تنطوي عليها فكرة القومية العربية في معركة النضال ضد الامبريالية. كما يتضح أن أصالة أفكار ساطع الحصري إنما تتجسد في عصريتها، باعتبار أن العصرية الحقيقية هي التجدد في الأصالة، لا في الاستغناء عنها أو إلغائها، وليس أدل على ذلك من أنه إذا كانت الثوابت التي استجاب لها الحصري ما تزال قائمة حتى الآن، وأن استجابته لها كانت صحيحة في عصره، فإن الكثير منها ما يزال صحيحاً حتى بعد عصره، لأنها تتفق مع مصالح الجماهير العريضة وكذلك مع حركة التاريخ.

وهناك شكر واجب الأداء، وهو واجب مستحب، فالشكر أولاً للدكتور أحمد يوسف أحمد مدير معهد البحوث والدراسات العربية، الذي تحمس لهذه الندوة منذ البداية، وبذل من أجلها هذا الجهد الكبير من أجل إدارة كافة الترتيبات والإجراءات التنفيذية اللازمة لانعقاد الندوة، بهذه الصورة المرموقة. والشكر أيضاً للدكتور محمد عبد الشفيع عيسى الذي وضع المخطط الأول للندوة، وكذلك للجنة التي درست هذا المخطط وأعدته في صورته النهائية، والتي ضمت كلاً من: الدكتور خير الدين حسيب، والأستاذ جميل مطر، والدكتور أحمد يوسف أحمد، والدكتور مجدي حماد.

كلمة الافتتاح الثانية

محمد عبد الشفيع عيسى(*)

عندما طلب مني الدكتور أحمد يوسف أحمد التحدث نيابة عن الزملاء المشاركين في الندوة شعرت بهيبة شديدة، ذلك أننا نتحدث اليوم في مقام مفكر كبير، وإذا كان لي أن أتناول في عجالة أهم الأسباب التي ربطتني بهذا المفكر القومي العربي الكبير، فإنني ألخصها في جانبين؛ الجانب **الأول**، جانب شخصي، حيث شهدت فترة الستينيات من هذا القرن أوج المد القومي والناصري، وكانت هناك كتابات عديدة عن القومية، بعضها كانت كتابات كلاسيكية تناولت المبادئ العامة للقومية، مثل كتابات عبد الرحمن البزاز، وحازم نسيبة، والحَكَم دروزة، وفؤاد الركابي. . . الخ، ثم كانت هناك كتابات أخرى لها عمق فكري أكبر مثل كتابات عبد الله الريماوي وعصمت سيف الدولة، ووسط هذا الفوران الفكري الضخم حول القومية، والقومية العربية تحديداً، كانت كتابات ساطع الحصري تمثل إلهاماً خاصاً، فهي كتابات تمثل **أولاً** عمقاً تاريخياً معيناً، **وثانياً**، كان لها بعد نظري وفلسفي، قد لا تكون أشبعتنا إشباعاً كاملاً من ناحية التأصيل النظري أو الفلسفي، ولكن كان فيها عمق الريادة وعبق البداية في التفكير القومي. ولا ننسى في ذلك الوقت كتابه **أبحاث مختارة في القومية العربية** الذي جمع فيه شذرات مختلفة من التفكير القومي عبر المراحل المتعددة، وكذلك كتابه **الإقليمية: جذورها وبذورها** الذي ألفه بعد حادث الانفصال رداً عليه وتأكيداً لمبدأ الوحدة، ووقوفاً ضد كل نزعات الإقليمية.

وعندما قمت بالتدريس في معهد العلوم الاقتصادية بالجزائر في الفترة ١٩٨٤ ـ ١٩٨٧ ثم في جامعة الفاتح في ليبيا في الفترة ١٩٩٠ ـ ١٩٩٤ عاودت

(*) أستاذ في معهد التخطيط القومي ـ مصر.

الاهتمام بساطع الحصري وكتاباته وأعماله، فكانت لي معه وقفات متعددة.

ولما شرفني صديقي العزيز الدكتور أحمد يوسف أحمد بتدريس مادة الفكر السياسي العربي والقومي في معهد البحوث والدراسات العربية كانت هذه أيضاً فرصة مضافة لمزيد من التأكيد والتعميق للاهتمام الأكاديمي المنظم لساطع الحصري ونظريته في القومية العربية.

أما الجانب الثاني، وهو الجانب الموضوعي فيتجسد **أولاً** في معنى الوفاء لذلك الرجل الذي هو أبرز المؤسسين للفكرة القومية العربية. وبهذه المناسبة فقد شعرت وأنا أعد البحث المقدم لهذه الندوة، أن الرجل ما زال يتحدث معنا، فقد تناول عدة نقاط أساسية وردّ على اتجاهات سياسية كبرى مثل الشرق أوسطية والمتوسطية والاتجاهات الإقليمية والانعزالية في لبنان ومصر وسوريا الكبرى، وكأنه يتحدث إلينا الآن ويطل علينا من سنوات بعيدة ويقول لنا: احذروا وانتبهوا لهذا الخطر.

أخيراً ونحن نحتفي بهذا المفكر العروبي الكبير أجد أمامي عدة دروس هامة، يمكن استخلاصها بإيجاز شديد في ما يلي:

أولاً: التمسك بالقومية والمبدأ القومي، ولقد كان ساطع الحصري مثالاً للالتزام بالمبدأ القومي منذ اهتم بنشر فكرة القومية في أوائل العشرينيات من هذا القرن.

ثانياً: التمسك بفكرة التحرر العربي القومي، فذلك المفكر وقف ضد كل المؤامرات والدسائس التي حيكت لسوريا والعراق على أيدي الإنكليز والفرنسيين لسنوات طوال حتى انه طُرد من بغداد عام ١٩٤١ بتهمة التحريض على الثورة مع رشيد عالي الكيلاني.

ثالثاً: هناك العديد من الدروس المستقاة من شخصية وسلوكيات هذا المفكر القومي العربي الكبير، والذي كان يتمتع بالنَفَس الطويل والصبر الجميل بعيداً عن اليأس أو الاستسلام للإحباط.

وأخيراً، ونحن نتحدث عن ساطع الحصري، ونحتفي به، يجب علينا ألا نحاكمه بمعيار ما وصل إليه العلم الاجتماعي والفكر القومي من تبلور في السنوات الأخيرة، فلا شك في أن الرجل قد وضع البذرة الأولى، ومن هنا علينا أن نضع في الاعتبار أنه قد جرت مياه كثيرة في الأنهار في ما يتعلق بالفكر

القومي خصوصاً، والفكر الاجتماعي العالمي عموماً، تتحدث عنهما بمعيار عصرهما وبما أضافاه.

لقد قام الحصري وأضرابه من الآباء المؤسسين بما عليهم، وربما قام ساطع الحصري بواجبه وأكثر، وحينما ننظر إليه الآن فإنما ننظر إلى المستقبل لإعادة بناء وتأسيس الفكرة القومية إلى حيث تتجذّر وتصبح فعلاً عقيدة دافعة ترتبط مع مبادئ العدل الاجتماعي ومع أهداف التنمية والتقدم ومع الديمقراطية والحرية.

كلمة الافتتاح الثالثة

أحمد يوسف أحمد(*)

أكرر ترحيب معهد البحوث والدراسات العربية بحضراتكم جميعاً، وألاحظ باعتزاز وافتخار كبيرين أن حضور الندوة يجمع بين جيل من المفكرين والباحثين أصحاب العطاء الرفيع في الفكر القومي، وجيل من شباب الدارسين العرب من شتى الأقطار العربية، فكأن هذا الحضور المميز إنما يحمل كل معاني التقدير الواجب لهذا المفكر القومي العربي الكبير.

والحقيقة أن فكرة الندوة تعود إلى عام مضى، إذ توفي الحصري عام ١٩٦٨، وبالتالي فإن ثلاثين عاماً على رحيله قد مرت في العام الماضي، غير أن بعض الصعوبات قد اعترضت مسار عقد هذه الندوة إلى أن أسعدنا مركز دراسات الوحدة العربية بمشاركته فيها، وكان أن خرجت هذه الندوة إلى حيز الوجود.

والحقيقة أن هذه الندوة لا تحمل فقط معنى الوفاء لساطع الحصري، ولكنها تحمل أيضاً معنى ربما ألح إليه كل من د. مجدي حماد، ود. محمد عبد الشفيع عيسى وهو الأهمية التي تتسم بها إعادة قراءة أعمال هذا المفكر القومي العربي الكبير.

وهذه الندوة تمثل ـ من وجهة نظري ـ مناسبة علمية لإعادة قراءة أعمال ساطع الحصري الذي امتلك أدوات منهجية صحيحة، أصاب كثيراً وأخطأ أحياناً، ولكن أفكاره وأعماله ما زالت صالحة لأن يؤخذ بها أو بكثير منها في الواقع العربي المعاصر.

أخيراً أود أن أنوه إلى أننا قد رأينا ـ من قبيل الوفاء الرمزي لهذا المفكر

(*) مدير معهد البحوث والدراسات العربية ـ القاهرة.

القومي العربي الكبير ـ أن تتم أعمال الحلقة النقاشية الختامية لهذه الندوة، التي سيشارك فيها عدد من خيرة الباحثين والمفكرين القوميين العرب، في المدرج الذي يحمل اسمه في معهد البحوث والدراسات العربية.

المشاركــون

أحمد ثابت	أستاذ مساعد ـ كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ـ جامعة القاهرة ـ مصر.
أحمد حسين الصاوي	أستاذ جامعي ـ مصر.
أحمد يوسف أحمد	مدير معهد البحوث والدراسات العربية ـ القاهرة.
أكرم خمايسي	صحافي.
بهجت قرني	أستاذ في قسم العلوم السياسية ـ الجامعة الأمريكية في القاهرة.
جاسم علوان	سياسي ـ سوريا.
حسن البيلاوي	أستاذ جامعي.
حسين معلوم	كاتب وباحث عربي ـ مصر.
حلمي شعراوي	مدير مركز البحوث العربية للدراسات العربية والافريقية والتوثيق ـ القاهرة.
خيرية قاسمية	رئيسة قسم التاريخ ـ جامعة دمشق.
رؤوف عباس	رئيس قسم التاريخ ـ كلية الآداب ـ جامعة القاهرة.
سيد المراكبي	محام ـ دكتوراه في الدراسات العربية من قسم الدراسات السياسية بمعهد البحوث والدراسات العربية.
سيد المرصفي	باحث عربي.
عاصم الدسوقي	أستاذ جامعي ـ مصر.
عبد الله عبد الدائم	مفكر تربوي وقومي ووزير سابق ـ سوريا.
عبد العزيز الدوري	مؤرخ ورئيس جامعة بغداد سابقاً، ويعمل حالياً أستاذاً للتاريخ في الجامعة الأردنية.

عبد القادر ياسين	كاتب من فلسطين.
عز الدين اسماعيل	أستاذ جامعي ـ رئيس قسم البحوث والدراسات الأدبية واللغوية بمعهد البحوث والدراسات العربية ـ القاهرة.
عزة وهبي	دكتوراه العلوم السياسية ووكيل الوزارة بالأمانة العامة لمجلس الشعب المصري المشرفة على إدارة المؤتمرات ـ مصر.
فاروق العشري	أمين التثقيف ـ الحزب العربي الديمقراطي الناصري ـ مصر.
لويس سعد	باحث ـ المركز القومي للبحوث التربوية ـ مصر.
مجدي حماد	معاون مدير عام مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت.
محسن خضر	أستاذ مساعد أصول التربية ـ كلية التربية ـ جامعة عين شمس ـ مصر.
محمد خالد الأزعر	كاتب وباحث فلسطيني ـ القاهرة.
محمد الخولي	صحافي وخبير إعلامي لدى الأمم المتحدة ـ مصر.
محمد عبد الشفيع عيسى	أستاذ في معهد التخطيط القومي ـ مصر.
محمد عودة	صحافي وكاتب مصري.
نادية محمود مصطفى	أستاذ في قسم العلوم السياسية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية ـ جامعة القاهرة ـ مصر.
يحيى الجمل	وزير سابق ـ محام ـ أستاذ القانون العام بكلية الحقوق ـ جامعة القاهرة ـ مصر.
يونان لبيب رزق	أستاذ التاريخ الحديث ـ كلية البنات ـ جامعة عين شمس ـ ورئيس قسم الدراسات التاريخية بمعهد البحوث والدراسات العربية ـ القاهرة.

الفصل الأول

حياة ساطع الحصري: دروس وعبر

خيرية قاسمية(*)

مقدمة

عربيّ من حلب، ولد في اليمن وتلقى علومه في استانبول وعرفه قومه العرب، وهو بين الترك قبل الحرب العالمية الأولى، علماً في التربية والإدارة. وعاد إلى الوطن العربي في سن النضوج وهو يحمل ثقافة عميقة التكوين علمية التوجه، فأسهم بقسط ملحوظ في تطوير الثقافة والتربية والتعليم في سوريا والعراق ومصر، وأصبح يعد من رجال النهضة العربية الحديثة. وقد عاش حياة مديدة غنية بالتجارب والإنتاج: فكان جوّاباً في كل آفاق المعرفة، فهو الباحث في اللغة والأدب والمؤرخ وعالم الاجتماع والتربية والمفكر القومي، وهو الإداري والموظف النشط، لم يلِ عملاً إلا بعث فيه الحياة والتجديد.

وقد نذر حياته في سبيل قضية واحدة هي الدفاع عن الفكرة القومية العربية ودراسة قضاياها في إطار ظواهر إنسانية أكثر شمولاً. وقد وضع نظرية منهجية ومنسجمة في القومية العربية بأسلوب أكثر وضوحاً واتساقاً ومنطقاً وتصلباً من أي أسلوب سبقه. وكان يؤمن بضآلة كل تضحية في سبيل تحقيق الوحدة العربية لأن الوحدة ستحقق كل ما يصبو إليه المجتمع العربي من عزة ورخاء. وكان الحصري لا يدعي بأن الطريق سيكون سهلاً لكنه يصر على قدرة العرب على تحقيق الوحدة في المستقبل. وفي إطار النضال من أجل ترسيخ وحدة العرب في السياسة كان

(*) رئيسة قسم التاريخ ـ جامعة دمشق.

الحصري ينيط كبير الأهمية بتوحيد الثقافة والنظم التربوية والتعليمية، ويعلق الآمال في توحيد المجتمع العربي وتقدمه على الجيل الناشئ الذي يتربى على روح الوطنية والقومية. وكان ساطع الحصري في عمله القومي بعيداً كل البعد عن أن يتأثر بدين من الأديان أو أن يربط نفسه بقطر من الأقطار وإنما كان يصدر في عمله وفكره عن عقيدة قومية بعيدة عن التعصب أو التحزب.

وقد كان الحصري من أكثر المفكرين العرب تدويناً لدراساته وبحوثه وآرائه والحوادث التي وقعت له، ونشر أكثرها كتباً لا تزال تعد من الأعمال الأساسية في التاريخ والاجتماع والأدب والفكر القومي. وهو يضفي على كل ما يكتبه فيضاً من إيمانه بالقومية العربية واعتزازه بها. وتبرز في هذه الأعمال صفات البحث العلمي وخصائص الإقناع والحيوية والبساطة والمواجهة المباشرة بدون زخرفة أو التواء، وهي تعبر عن بنية فكرية مثالية القيم، صلدة التركيب، وجرأة أدبية، وثبات على الرأي، وإيمان بالحق بعيد عن الغرور والخيلاء.

إن إلقاء الضوء على المراحل الأساسية في حياة فيلسوف العروبة والاتجاهات الرئيسة في فكره النظري ونشاطه العملي يظهر مدى التشابك بين هذه المراحل والاتجاهات والأجواء الفكرية والسياسية التي أحاطت بالحصري. ولا تزال المسائل التي عالجها تشغل بال أصحاب القضية العربية في الوطن العربي: فقد كان فكره عصرياً حتى كدنا ننسى أنه ولد قبل مائة سنة ونيف.

أولاً: المرحلة الأولى:
الفترة العثمانية (١٨٨٠ ـ ١٩١٩)

كانت هذه الفترة من حياة ساطع الحصري قد شهدت على الصعيد العام تقلبات عدة: من حكم السلطان عبد الحميد، إلى ثورة تركيا الفتاة ثم تفكك الدولة العثمانية وانهيارها. وتعددت خلالها الحركات السرية والعلنية التي كانت تبحث عن حلول لمعالجة أوضاع الدولة العثمانية السيئة. وإذا كانت هذه الحركات متفقة في أهدافها فإنها اختلفت في السياسة التي تحقق بلوغ تلك الأهداف، فاحتدم الصراع بين مفاهيم الإصلاح و«التغريب» والفكرة العثمانية والإحياء الإسلامي وتوهج التيارات القومية. أما على الصعيد الشخصي فقد كانت هذه المرحلة، أو على الأصح النصف الثاني منها، هي المرحلة التي كان فيها ساطع الحصري يختزن المعرفة النظرية والعملية ويبني الخلفية الأولى الواسعة والعميقة لتكوينه الفكري. والبحث في هذه المرحلة، التي تمتد من طفولته وحتى الأربعين

من عمره، لا يتيح المجال للإفاضة والتوسع لقلة المصادر الأصلية عن حياته في هذه الفترة. ولعل أجدر هذه المصادر بالثقة ما تركه عن ترجمة حاله وأوراق ومذكرات يتحدث فيها عن نفسه[١]، بالإضافة إلى ما يمكن استنتاجه من بعض كتبه هو نفسه. وفي استعراض نسبه يتبين أنه من عائلة تجار مرموقة، من حي بانقوسه، في حلب، لها خدماتها الجليلة في الدولة[٢]. ووالده محمد هلال الحصري، ووالدته فاطمة بنت عبد الرحمن، من حلب أيضاً، وتنسب أمها إلى عائلة الجابري ذات الشأن التجاري العريق. ويؤكد ساطع الحصري، مستنداً إلى شجرة نسب تعود إلى القرن السابع الهجري (كان والده شديد الحرص عليها من التلف كحرص أجداده على التصديق على صحتها) أنه من أسرة عريقة في عروبتها، حجازية الأصل، شريفية المحتد، قد انتقلت إلى حلب على يد الشريف أحمد بن إدريس الحسيني عام ٨٧٧ هـ (١٤٧٢م).

وقد تلقى والده أفضل ما أتيح آنئذٍ من تعليم تقليدي، فتعلم العربية والشريعة في المدرسة الإسماعيلية في حلب، وقضى شطراً من شبابه في مصر يدرس في الجامع الأزهر علوم الشريعة والعربية، ونال الإجازة على يد شيوخ مشهورين[٣]. وقد عاد إلى حلب فعمل قاضياً في مختلف مدن الولاية في سلك القضاء الشرعي. وفي ذلك الزمن كانت الدولة العثمانية في مرحلة إعادة تنظيم قضائها، وبين ما نتج من هذا الإصلاح إنشاء محاكم نظامية في مراكز الولايات وجعلها محاكم مستقلة عن المحاكم الشرعية للنظر بالأمور المدنية. ونجح محمد هلال، المعروف بجده وسجله الممتاز في المحاكم الشرعية في الامتحانات الضرورية ليتأهل لمنصب رئيس محكمة الاستئناف الجنائية في صنعاء عاصمة ولاية اليمن

---

(١) تناول بعضها: محمد عبد الرحمن برج، **ساطع الحصري** (القاهرة: دار الكاتب العربي، ١٩٦٩)، ص ٩ ـ ٢٥؛ توفيق برو، «ساطع الحصري في الدولة العثمانية،» (مجموعة البحوث التي ألقيت في الذكرى المئوية لمولد الحصري. في نطاق أسبوع العلم السابع عشر، دمشق، المجلس الأعلى للعلوم، ١٩٧٧)، ص ٤٢ ـ ٥١؛ فريد جحا، معد، «ترجمة ساطع الحصري كما كتبها بقلمه في أواخر عام ١٩٦٠،» **المعلم العربي**، السنة ٣٠، العددان ٢ ـ ٣ (عدد خاص بالمفكر العربي ساطع الحصري بمناسبة الذكرى المئوية لميلاده) (شباط/فبراير ـ آذار/مارس ١٩٧٧)، ص ٢٤٧ ـ ٢٥٣، ووليام ل. كليفلاند، **ساطع الحصري من الفكرة العثمانية إلى العروبة**، تعريب فكتور سحاب (بيروت: دار الوحدة، ١٩٨٣). واستند وليام كليفلاند في معلوماته عن هذه الفترة على خلاصة ترجمة واستجواب أعطاهما ساطع الحصري إلى المؤلف إضافة إلى مقابلات معه.

(٢) ألبرت حوراني، **الفكر العربي في عصر النهضة، ١٧٩٨ ـ ١٩٣٩**، ترجمة كريم عزقول (بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٦٨)، ص ٣٧١.

(٣) من هؤلاء محسن الدمنهوري وحسن العدوي الحمزاوي. انظر: برو، المصدر نفسه، ص ٤٣.

(وكانت في أول عهدها بإحكام السلطة العثمانية عليها)، وهناك ولد له ابنه الثالث مصطفى ساطع في ١٨٨٠ (١٢٩٧هـ)[٤].

وأنفق ساطع الحصري السنوات الثلاث عشرة الأولى من حياته على سفر مستمر في مختلف الولايات العثمانية بسبب تواتر نقل والده (بلاد الأناضول، وطرابلس الغرب واليمن)، وهكذا كان الموظفون في الدولة العثمانية لا يستقر أحدهم في وظيفة عين فيها أكثر من سنتين على الأغلب، وكثيراً ما كان أطفال هؤلاء الموظفين يتنقلون مع آبائهم[٥].

وهذه الرحلات التي تمَّت خلال طفولته تركت في نفسه أثراً من الانطباعات العميقة والذكريات المتنوعة[٦]، ولكنها لم تهيئ له تعليماً منتظماً في المدارس. إلا أنه تلقى خلال سنواته الثلاث عشرة بعض ثقافة دينية أولية، ولا بد أنه تعلَّم القراءة والكتابة بالعربية لقراءة القرآن وفهمه[٧]، إذ لا يعقل أنه لم يتلق بتوجيه من والده، وهو من أسرة عريقة في العروبة وعلى جانب من ثقافة عالية، أي تعليم باللغة العربية في السنوات السبع التي تؤهله للتعلم، والتي سبقت تعليمه الثانوي. وعلى رغم عدم إشارة ساطع الحصري إلى ذلك، والافتقار إلى المصادر التي تثبت تعلمه اللغة العربية، يؤكد توفيق برو[٨] أنه من غير المعقول أن يكون قد بقي جاهلاً لغة أجداده طيلة أعوامه التالية حتى بلوغه سناً تقارب الأربعين. ويضيف: «صحيح أنه انصرف منذ ١٩١٩ على أثر هجره المحيط التركي إلى تعلم اللغة العربية وإتقانها، ولكن هل من المعقول أن يتولى فور قدومه وظائف عليا في الدولة العربية، (في المجال التربوي) دون أن يكون قد حصل على معرفة، ولو محدودة، باللغة العربية، اختزنها إلى حين، وغطّى عليها انصرافه التام إلى اللغة التركية، لكنها ساعدته فور انتقاله من الآستانة إلى سوريا على المضي في إتقانها». ومن المؤكد أن عائلة الحصري، كغيرها من العائلات التي احتلت مراكز مهمة في

---

(٤) ليلى صباغ، «ساطع الحصري المؤرخ،» **المعلم العربي**، السنة ٣٠، العددان ٢ ـ ٣ (شباط/فبراير ـ آذار/مارس ١٩٧٧)، ص ١٢٦. يقول كليفلاند إن ساطع الحصري أثبت صحة المكان والتاريخ للمؤلف في لقاء معه وذكر له أنه أثناء عمله في الدولة العثمانية لم يكن يعرف باسم عائلته بل باسم ساطع أو مصطفى ساطع. انظر: كليفلاند، **ساطع الحصري من الفكرة العثمانية إلى العروبة**، حاشية ص ٥٠.

(٥) عدنان الخطيب، «فقيد العروبة الأستاذ ساطع الحصري،» **مجلة المجمع العلمي العربي**، المجلد ٤٤ (تموز/يوليو ١٩٦٩)، ص ٤٤٧.

(٦) صباغ، المصدر نفسه، ص ١٢٦.

(٧) المصدر نفسه.

(٨) برو، «ساطع الحصري في الدولة العثمانية،» ص ٤٤.

المجتمع العثماني، كانت تتخذ من اللغة التركية لغة لها، فأصبحت هذه تبعاً لذلك لغة ساطع الأولى، ثم تعلم اللغة الفرنسية من شقيقه. وليس صحيحاً ما ذكره البعض أنه تعلم التركية والفرنسية قبل أن يبدأ بتعلم العربية(٩).

وجاءت ثقافته المدرسية بعد سن الثالثة عشرة عندما أدخله والده المدرسة المُلكية الشاهانية في استانبول، وكانت مخصَّصة للتدريب الحديث في الإدارة العثمانية(١٠)، وقضى فيها سبع سنوات (أربع منها في المرحلة الإعدادية وثلاث في المرحلة العليا) كان لها في ما بعد أثرها العميق في حياته الفكرية، لأن ذلك المعهد كان يعنى بالمعارف العلمية ويتبع الأساليب التربوية الحديثة في التعليم(١١). وكانت المُلكية إحدى بؤر الاختمار الفكري، فيها تخرج العديد من نشطاء حركة تركيا الفتاة، وكان بين مدرسيها أنصار متحمسون للإصلاحات، يعرّفون تلامذتهم ومنهم الحصري، على أفكار الليبرالية الغربية(١٢)، وعلى أفكار الفلسفة الوضعية الفرنسية والقومية الأوروبية(١٣) التي كانت ذائعة في أوساط المفكرين العثمانيين الشباب. واستحوذت على اهتمام الحصري الطريقة العلمانية في تدريس المسائل الاجتماعية(١٤).

ويبدو أنه خلال سنواته السبع في هذه المؤسسة العلمية، أخذت نوازعه الفكرية والوظيفية تحيد عن تلك التي رسمت له في الأصل، وتوسل بمعرفة لغة أجنبية إلى اكتشاف أسرار العلوم الغربية والرياضيات والاطلاع على بعض المؤلفات الفرنسية في تاريخ الكشوف العلمية(١٥).

وعلى الرغم من الجو السياسي المضطرب الذي ترعرع فيه ساطع الحصري

---

(٩) مجيد خدوري، **الاتجاهات السياسية في العالم العربي: دور الأفكار والمثل العليا في السياسة** (بيروت: الدار المتحدة للنشر، ١٩٧٢)، ص ٢٠٨.

(١٠) تأسست المدرسة في عام ١٨٥٩، وأعيد تنظيمها في عام ١٨٧٧.

(١١) وليم ال. كليفلند، «تكوين قومي عربي، العثمانية والعروبة في حياة ساطع الحصري وفكره،» عرض وتحليل فيصل الوائلي، **عالم الفكر**، السنة ٦، العدد ٤ (كانون الثاني/يناير ـ آذار/مارس ١٩٧٦)، ص ١٢٢٧.

(١٢) تاتيانا تيخونوفا، **ساطع الحصري: رائد المنحى العلماني في الفكر القومي العربي**، ترجمة توفيق سلوم (موسكو: دار التقدم، ١٩٨٧)، ص ١٩.

(١٣) حوراني، **الفكر العربي في عصر النهضة، ١٧٩٨ ـ ١٩٣٩**، ص ٣٧١.

(١٤) خدوري، **الاتجاهات السياسية في العالم العربي: دور الأفكار والمثل العليا في السياسة**، ص ٢٩٨.

(١٥) كليفلاند، **ساطع الحصري من الفكرة العثمانية إلى العروبة**، ص ٥٤.

والناجم عن اشتداد ظروف الاستبداد التي شهدتها الدولة العثمانية على عهد السلطان عبد الحميد ومقاومة الاتجاهات التحررية الهادفة إلى الإصلاحات الدستورية[16]، لم يبد ساطع أي نزوع إلى العمل في الحركات السياسية، فقد أولع، ولا سيما خلال المرحلة العليا من دراسته، بالعلوم الرياضية والطبيعية، واندفع وراء البحث عن دقائقها. وأخذ يواصل نهاراً الدراسات المقررة في الملكية، ومنها: العلوم السياسية والحقوق وعلم النفس والتربية وعلم الاجتماع، وينفق أمسياته في الغوص في دنيا العلوم. فكان يستعير من طلاب مدرستي الهندسة وأركان الحرب مذكراتهم المتعلقة بالرياضيات العالية والهندسة التحليلية فينكبّ على حل المسائل الرياضية العويصة، حتى أصبح رفاقه في المدرسة يلقبونه باسم أرخميدس، وكادوا ينسون اسمه الحقيقي ـ كما يقول في ترجمة حاله[17]. وبلغ ولعه بالعلوم الطبيعية حد النهم، فصار يتوسع في مواضيعها توسعاً كبيراً، فيعنى بتشريح الحيوانات وتحنيطها، وبإجراء التجارب على زراعة شتى النباتات. ونشر عدة مقالات بعضها باسم مستعار وبعضها باسمه الصريح في نقد كتب العلوم الطبيعية المقررة للمدارس الثانوية[18]. ويرى أكرم زعيتر[19] أن تفوق الحصري في العلوم الطبيعية والرياضية واندفاعه وراء البحث في دقائقها هما سر التزامه التفكير العلمي طول حياته.

وازداد هذا الاهتمام بالعلوم، وبخاصة الطبيعية، والايغال فيها بعد تخرجه بامتياز في المدرسة الملكية عام ١٩٠٠ وتعيينه مدرساً للعلوم الطبيعية في المدرسة الثانوية (التي كانت تعرف باسم الإعدادية) في مدينة يانينا (Joanina) (مركز مقاطعة أبيروس التي أصبحت الآن جزءاً من اليونان). هذا مع أن الأصول المتبعة كانت تقضي أن يعين خريجو «المُلكية» الذين تلقوا ثقافة عالية في القانون والعلوم السياسية في الإدارة، إلا أن الحصري لم تكن لديه رغبة في المناصب الإدارية التي تخوّله لها شهادته، وأحس في نفسه نزوعاً نحو نشر المعارف العلمية بين أوسع فئات الشعب وليس بقصره على الاهتمام الأكاديمي البحت[20].

---

(١٦) كليفلند، «تكوين قومي عربي، العثمانية والعروبة في حياة ساطع الحصري وفكره،» ص ١٢٢٧.

(١٧) برو، «ساطع الحصري في الدولة العثمانية،» ص ٤٤.

(١٨) برج، **ساطع الحصري**، ص ١٥.

(١٩) أكرم زعيتر، «ساطع الحصري أقوى الدعاة للقومية العربية،» **العربي**، العدد ١٢٧ (حزيران/ يونيو ١٩٦٩)، ص ٤٩.

(٢٠) جحا، معد، «ترجمة ساطع الحصري كما كتبها بقلمه في أواخر عام ١٩٦٠،» ص ٢٤٨.

وفي السنوات الخمس التي قضاها في يانينا بدا وكأنه حقق آماله تماماً، فقد أولى تعليم الطبيعة أهمية عظيمة من حيث فضلها في توسيع أفق التفكير وإغناء المدارك[٢١]، ووضع عدداً من الكتب والمقالات في المادة التي أوغل عميقاً فيها، واعتُمدت كتبه التي نشرها في يانينا للتعليم في جميع مدارس السلطنة، الابتدائية والثانوية[٢٢]، واعتنى بأساليب تعليم العلوم الطبيعية التي أحس أنها بالية وغير ملائمة، ونزعت مؤلفاته إلى وسم المادة بطابع التشويق والدقة العلمية، إذ كان اهتمامه المطرد بوسائل التعليم الصحيحة يرافقه اطراد في نقده الوسائل المعتمدة في النظام العثماني[٢٣]. وأخذ يكتب العديد من المقالات العلمية، التي أخذت الصحف في الآستانة تنشرها. وكان يستهدف منها تبسيط العلوم وتحبيب القراء فيها. وجاء بعض هذه المقالات يصف مناظر الطبيعة، وبعضها في عرض الاكتشافات والاختراعات العلمية[٢٤]. وتمكن الحصري خلال وجوده في يانينا، وبفضل سهولة اتصالها بالمدن الأوروبية، أن يحصل على كثير من الكتب الفرنسية وأن يشترك في عدة مجلات علمية، وأن يحصل على الأدوات والمواد التي استطاع بها تحنيط الحيوانات والطيور والحشرات (وتيبيس) النباتات، بحسب تعبيره، وعمل التجارب على زراعة النباتات المختلفة. وأقام متحفاً للتاريخ الطبيعي أغناه بالمعروضات «المحنطة» والمبيسة (وأهدى هذا المتحف لثانوية يانينا عند انتقاله منها عام ١٩٠٥).

إلا أن خلفيته الدراسية في الملكية الشاهانية قد دعت مسؤولي ثانوية يانينا إلى تكليفه، إضافة إلى العلوم الطبيعية، بتدريس القانون وعلم الثروة (أي الاقتصاد) والتاريخ، كما أنه نال أثناء السنوات الثلاث الأخيرة من عمله التعليمي في ثانوية يانينا قسطاً من التدريب على الأعمال الإدارية بتعيينه في «معيّة الولاية» مع الاحتفاظ بقسط من الدروس. ويشرح الحصري ذلك في ترجمته[٢٥]: «كان خريجو المدرسة المُلْكية الشاهانية يعيّنون في (معيّة الولاية) ليتدربوا على أصول الإدارة في مختلف الدوائر التابعة للولاية تمهيداً لتعيينهم قائمقاماً (كذا) في أحد الأقضية».

---

(٢١) تيخونوفا، **ساطع الحصري: رائد المنحى العلماني في الفكر القومي العربي**، ص ٩.

(٢٢) كليفلاند، **ساطع الحصري من الفكرة العثمانية إلى العروبة**، ص ٥٥، هذه الكتب هي: **معلومات زراعية، دروس الاحياء، علم الحيوان، علم النبات، والتطبيقات الزراعية**.

(٢٣) محمد كامل عياد، «ذكريات عن ساطع الحصري،» **المعلم العربي**، السنة ٣٠، العددان ٢ ـ ٣ (شباط/ فبراير ـ آذار/ مارس ١٩٧٧)، ص ١١٣.

(٢٤) برج، **ساطع الحصري**، عناوين هذه المقالات: «نشأة علم الكيمياء»، «الأشعة المجهولة»، «التلغراف اللاسلكي»، «العالم القطبي»، «لمعان البحر» و«مناظر الغروب».

(٢٥) جحا، معد، «ترجمة ساطع الحصري كما كتبها بقلمه في أواخر عام ١٩٦٠،» ص ٢٤٨.

ولا يعرف بالتحديد أسباب تخلّي ساطع الحصري عن عمله التعليمي ليلتحق بالعمل الإداري، وقد يعود ذلك إلى نفوره من تمادي العهد الحميدي في إقامة رقابة صارمة على المطبوعات، وبدأت كل مقالات ساطع تعرض على الرقيب قبل نشرها (خشية أن تكون هناك مقاصد خفية من عباراتها) ليعمل قلم الرقيب فيها حذفاً وتعديلاً، مما جعل المقالات التي يكتبها ساطع تظهر على حد قوله «بصورة مضحكة مخلّة بالمعنى المطلوب وأحياناً تعكس هذا المعنى تماماً»[٢٦]. وتمشياً مع تعليمات الرقابة تشدّدت وزارة المعارف العثمانية في ضرورة تمسّك المدرسين في المدارس باتباع ما هو مكتوب في الكتب المدرسية وعدم الخروج عليه. وكانت المادة التي احتوتها الكتب المدرسية، كما لاحظ ساطع، محشوة بالأخطار العلمية ومليئة بنظريات ثبت بطلانها بدلائل علمية حاسمة[٢٧]. وأصبح ساطع محط أنظار الرقباء، وأخذ ينمو إحساسه بعجزه في منصبه وتعذر الإصلاحات التي أحسَّ ضرورتها، وهو يعمل ضمن نظام تعليمي يشتد تعنتاً يوماً بعد يوم[٢٨].

وربما جاءت رغبته بالعمل في الحياة الإدارية حصيلة تغير نظرته خلال السنوات التي أمضاها في أقصى الغرب من البلاد العثمانية الأوروبية، فقد لمس عن قرب النزاعات القومية والسياسية والدينية التي تعصف بصرح الامبراطورية، وكان ومعاصروه من شباب الدولة العثمانيين المتنورين، يرون أن المساهمة النشطة في القيام بإصلاحات لتحديث البلاد والحفاظ على الجامعة العثمانية هما الأداة الوحيدة لدرء خطر الدول الكبرى الطامعة[٢٩]. وقد علم ساطع، بمراسلة أصدقائه، بالأحداث المثيرة في ولايات مقدونية الثلاث (قوصوه (Kosova)، ومناستير (Monastir)، وسالونيك (Salonika)) الخاضعة لنظام دولي لا يخضع عملياً للإدارة العثمانية، فرضته على السلطة العثمانية الدول الأوروبية التي تدخلت في قضايا القوميات البلقانية لتزيد في اضطرام الاضطرابات والدعوات القومية[٣٠].

---

(٢٦) عادل العوا، «الجذرية الأخلاقية لدى ساطع الحصري،» **المعلم العربي**، السنة ٣٠، العددان ٢ - ٣ (شباط/فبراير - آذار/مارس ١٩٧٧)، ص ١١٣.

(٢٧) برج، **ساطع الحصري**، ص ١٨.

(٢٨) كليفلاند، **ساطع الحصري من الفكرة العثمانية إلى العروبة**، ص ٥٥.

(٢٩) تيخونوفا، **ساطع الحصري: رائد المنحى العلماني في الفكر القومي العربي**، ص ٢٠.

(٣٠) كانت الولايات الثلاث قد شهدت اضطرابات سببها تحرك عناصر ثائرة لتحررها من الحكم العثماني ومطالبة كل دولة بلقانية بها. وقد أخضعت الولايات العثمانية عام ١٩٠٣ لنظام دولي خاص وضعته روسيا والنمسا برضى الدول الكبرى الأخرى عرف ببرنامج مورستيغ (Murstig) بحيث يكون على رأس الولايات الثلاث مفتش تركي يساعده ضباط أجانب لحفظ الأمن فيها. انظر: صباغ، «ساطع الحصري المؤرخ،» ص ١٢٧.

وقرر ساطع ترك مهنة التعليم تحفزه رؤى قدرته على الإصلاح المجدي، وتقدم بطلب إلى وزارة الداخلية لتعيينه في السلك الإداري، فعين (قائمقاماً) في قضاء أراد ويشتة (في ولاية قوصوه وضمن المنطقة النمسوية من الإشراف الدولي) قريباً من الحدود البلغارية[٣١]. وبقي بها ساطع مدة سنتين شهد الكثير من نشاط العصابات البلغارية، وحاول خلالها إجراء عدد من الأعمال الإصلاحية. وقد علم الشاب المتحمس أنه ليس بالمستطاع إحداث التغييرات الضرورية جميعاً على وجه السرعة. وكتب في ما بعد[٣٢] كيف دقق أوضاع قضائه وجمع أدلة قاطعة تتعلق بالمسلك الفاسد الذي سلكه بعض الموظفين هناك. وحث ساطع في تقرير رفعه إلى الوالي (كان والي قوصوه آنئذ محمود شوكت باشا) على صرف هؤلاء الموظفين. فلما تبدّى له عدم جدوى هذا الخطاب سافر إلى قصبة الولاية لإسناد طلبه مشافهة. ومن قوصوه نقل ساطع ترفيعاً إلى قائمقامية قضاء فلورينا التابع لولاية مناستير (ويقع داخل المنطقة الإيطالية من الإشراف الدولي وكان أهالي القضاء مزيجاً من أتراك وبلغار وأروام)[٣٣].

وعندما نقل ساطع إلى قضاء فلورينا في ولاية مناستير تجلت له معالم أخرى من الحال العثمانية، ذلك أن فلورينا كانت مقراً لنشاط مجموعات المتمردين الإغريق والبلغار وفيها لامس ساطع أول مرة حركة قومية وصفها بأنها «منازعات ضارية.. حول الكنيسة والمدرسة، وكانت تهدف إلى الاستيلاء على الكنيسة والمدرسة عن طريق تلقين العقائد تلقيناً لغوياً»[٣٤]. ولقد تمكن ساطع أثناء سنوات عمله في البلقان من الاطلاع على حقيقة الدوافع التي كانت تحرك شتى العناصر القومية التي تقطن الولايات البلقانية، وأدرك أن ما يفصل اليونان أو البلغار أو الصرب عن الأتراك ليس الدين بل أصولهم اللغوية والثقافية المتميزة، ورأى شعوب البلقان تتقاتل في ما بينها حول قضايا قومية بظروف أشد من قتالها مع الأتراك، فاستخلص من ذلك أن فوارق اللغة والثقافة أعمق بين الأمم من فوارق الدين[٣٥]. وكتب في ما بعد «كانت فترة عملي في الولايات البلقانية، هي التي فتحت عيني لأول مرة على الحقيقة

---

(٣١) جحا، معد، «ترجمة ساطع الحصري كما كتبها بقلمه في أواخر عام ١٩٦٠،» ص ٢٤٨.

(٣٢) ساطع الحصري، **صفحات من الماضي القريب** (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٤٨)، ص ١١٥ ـ ١١٦. (طبعة أولى. وقد أعيد طبع الكتاب عام ١٩٨٤ عن مركز دراسات الوحدة العربية).

(٣٣) جحا، معد، المصدر نفسه، ص ٢٤٨.

(٣٤) ساطع الحصري، **محاضرات في نشوء الفكرة القومية** (القاهرة: مطبعة الرسالة، ١٩٥١)، ص ٩٧.

(٣٥) خدوري، **الاتجاهات السياسية في العالم العربي: دور الأفكار والمثل العليا في السياسة**، ص ٢٠٨.

القومية في أوروبا. فعندما ذهبت إلى البلقان كنت أظن أن البلقانيين إنما يحاربون الأتراك فقط لأنهم مستعمرون، ولأنهم من دين غير دينهم، وهذا ما يظنه أكثر المؤرخين عندنا مع الأسف! ولكني وجدت هناك حقيقة أخرى.. وجدت إلى جانب الصراع ضد الاستعمار التركي صراعاً آخر بين البلقانيين أنفسهم، رغم اتحادهم في الدين والظروف، وكان صراعاً قومياً»[٣٦]. وهكذا اشتد وعي ساطع بعمق الفكرة القومية في النفوس، هذه القوة القادرة المحركة في التاريخ[٣٧]، كما أن احتكاكه المباشر بالمشكلات القومية التي كان يصطدم بها في عمله اليومي كانت وراء اهتمامه بنظريات الأمة والدولة لدى رينان وفخته وكانت وهيغل. واستوعب هذه النظريات[٣٨] ـ وهو أمر سيظهر مغزاه في ما بعد ـ ويفسّر سر اهتمامه بالبحوث القومية، وقوة الأسس التي ارتكزت عليها آراؤه. ولأنه لم يمارس نشاطاً سياسياً ملموساً كان قادراً على النظر إلى القضايا القومية نظرة تتصف بكثير من الموضوعية[٣٩].

وبوجه عام، فإن السنوات الثماني التي قضاها في البلقان (في عمل تربوي وإداري) أثرت في فكره تأثيراً بليغاً وأدنت وجهته الفكرية من العلوم الاجتماعية والاحتمالات غير المحصورة التي ينطوي عليها تطبيقها في صون السلطنة العثمانية ومعاودة تنظيمها[٤٠]. وفي الوقت نفسه نما وعيه السياسي وازداد اتصالاً بالجماعات المعارضة للسلطان عبد الحميد في الولايات الأوروبية العثمانية آنذاك. (وكانت مقدونية بعامة، وسالونيك بخاصة، معقل عمل الضباط الأحرار من رجال تركيا الفتاة وتكونت بها جمعية الاتحاد والترقي التي أخذت على عاتقها العمل لجمع العناصر المناوئة لحكم السلطان عبد الحميد، واتخذت مناستير المرتبة الثانية بعد سالونيك). ولا يمكن الجزم بأن ساطعاً كان مندمجاً رسمياً في الحركة كما لا يعرف بالتحديد أسلوب اتصال عناصر جمعية الاتحاد والترقي به بعد أن توسمت فيه الرجل الحر الدستوري الميل. وبرغم أن عمله في الجهاز الإداري كان يقتضي أن

---

(٣٦) صباغ، «ساطع الحصري المؤرخ،» ص ١٢٨.

(٣٧) شاكر الفحام، «ساطع الحصري في ذكرى ميلاده المئوية،» (مجموعة البحوث التي ألقيت في الذكرى المئوية لمولد الحصري، في نطاق أسبوع العلم السابع عشر، دمشق، المجلس الأعلى للعلوم، ١٩٧٧)، ص ٥٣.

(٣٨) تيخونوفا، **ساطع الحصري: رائد المنحى العلماني في الفكر القومي العربي**، ص ٢١.

(٣٩) خدوري، **الاتجاهات السياسية في العالم العربي: دور الأفكار والمثل العليا في السياسة**، ص ٢٠٩.

(٤٠) كليفلاند، **ساطع الحصري من الفكرة العثمانية إلى العروبة**، ص ٥٤.

يبلغ المسؤولين عن العناصر المناوئة إلا أنه أيّد الحركة[٤١]، وحرر في مجلتها السرية المسماة **يتر حقيقت** أي **الحقيقة النيِّرة** التي كانت تصدر في مناستير بصورة سرية قبل إعلان الدستور الثاني (المشروطية) في ٢٤ تموز/يوليو ١٩٠٨، ثم بصورة علنية بعد إعلانه[٤٢] (بعد مغادرته مناستير). ومع أنه ليس متيسراً معرفة مقدار تعبير كتاباته اللاحقة عن الموقف الذي اتخذه من الأحداث وقت حدوثها، غير أنه يتعين القول إن الحصري كان يشير بالتأييد إلى محاولات عزل عبد الحميد قبل ١٩٠٨[٤٣]. ولم يكن موقفه نابعاً فقط من تأييده لأهداف الحركة السياسية المباشرة ـ وإسقاط عبد الحميد وعودة الدستور ـ بل ومن ولائه لمُثل الجامعة العثمانية التي أمنت التفافاً واسعاً لشعوب الامبراطورية حول ثورة تركيا الفتاة[٤٤]. ويقول ساطع في ترجمة حاله[٤٥] «وقد اشتركت بحركات الانقلاب اشتراكاً فعلياً، ويوم إعلان الدستور، وفي الأيام التي تلته، عهد إليّ بمهمة إلقاء الخطب في مركز الولاية (مناستير) على الجماهير من ناحية، وعلى الوفود من ناحية أخرى». وكانت الوفود قد وفدت إلى مناستير قصبة الولاية للإعراب عن تأييدها للمشروطية (أي النظام الدستوري)، وشاعت خطبتان من خطب ساطع في هذه الوفود شيوعاً عظيماً بعد نشرها في جريدة **مناستير** وأفصحتا عن آماله في بعث سلطة جميع العثمانيين[٤٦]. وكان ساطع من المعجبين بمدحت باشا، فنشر مقالات في الصحف تشيد به وبمواقفه الحرة الدستورية ومواهبه الفذة، كما دبَّج عدة مقالات عن «آثار الاستبداد وبذوره الباقية»[٤٧].

إلا أن ساطع، مع انعطافه السياسي هذا، لم يفقد ميوله العلمية والتعليمية، فعاوده الحنين للعمل في الحقل التعليمي، وربما لأنه كان ينفر بطبيعته من الوظائف الإدارية، وبخاصة ما كان منها ذا طبيعة سياسية[٤٨]، وجد أن الجو أصبح ملائماً لانطلاق ملكاته الفكرية التربوية التي اختزن المزيد منها أثناء عمله

---

(٤١) سامي الكيالي، **الأدب العربي المعاصر في سوريا، ١٨٥٠ ـ ١٩٥٠** (القاهرة: جامعة الدول العربية، الإدارة الثقافية؛ دار المعارف، ١٩٥٩)، ص ١٢٣.

(٤٢) زعيتر، «ساطع الحصري أقوى الدعاة للقومية العربية،» ص ٤٩.

(٤٣) الحصري، **صفحات من الماضي القريب**، ص ٨٠ ـ ٨٩.

(٤٤) تيخونوفا، **ساطع الحصري: رائد المنحى العلماني في الفكر القومي العربي**، ص ٢١.

(٤٥) جحا، معد، «ترجمة ساطع الحصري كما كتبها بقلمه في أواخر عام ١٩٦٠،» ص ٢٤٨.

(٤٦) كليفلاند، **ساطع الحصري من الفكرة العثمانية إلى العروبة**، ص ٥٨.

(٤٧) برو، «ساطع الحصري في الدولة العثمانية،» ص ٤٨.

(٤٨) كليفلند، «تكوين قومي عربي، العثمانية والعروبة في حياة ساطع الحصري وفكره،» ص ١٢٢٧ ـ ١٢٢٨.

التعليمي ومطالعاته الكثيرة[٤٩]. فاستقال من وظيفته الإدارية، وعاد إلى نشاطه التعليمي الذي أخذ ينبئ هذه المرة بتوسيع رحاب سياسته الإصلاحية المحببة إليه. وكانت زعامة جمعية الاتحاد والترقي التي فتحت الطريق أمام الإصلاحات في ميدان التعليم، تقدّر له سعة اطلاعه وقوة حماسته وتقدر له وقوفه الحازم مع النظام الجديد. وهكذا خرج من ثورة ١٩٠٨ وهو يمتلك سلطة وسمعة سرعان ما جعلتاه، بفضل طاقته الشخصية ورؤاه الإصلاحية بين أكثر مربيّ السلطنة ومثقفيها نفوذاً[٥٠].

وكان ساطع الحصري قد أصدر فور عودته إلى العاصمة مجلة **أنوار علوم**، ولكنه أدرك قلة رواجها بسبب انشغال الناس بالحركة الدستورية، فعدل عن إصدارها وانصرف إلى تعميم أفكاره بمقالات نشرتها له صحف الآستانة ومجلاتها وإلقاء المحاضرات في مختلف النوادي والمدارس العالية[٥١]. وكما ورد في ترجمة حاله[٥٢]، فقد تولى منذ أواخر ١٩٠٨ التعليم في عدة معاهد عالية، وكانت أهم معاهد البلاد التربوية (الجامعة ـ وكانت تسمى دار الفنون، المدرسة الملكية الشاهانية ـ وتحول اسمها إلى مدرسة العلوم الإدارية والسياسية، ومدرسة الخلافة، ودار المعلمين العالية)، واستهوته هذه المرة، وهو النهم للمعرفة والمغرم بالتجديد، العلوم الأوروبية العصرية التي كلف بتدريسها، كعلم الاجتماع وعلم الأقوام وعلم النفس وعلم التربية، وكانت دراساته وتآليفه في ميدانها، فألف في التربية كتاب **فن التربية** في جزأين (عرّب الجزء الثاني في دمشق في ١٩٢٥)، وفيه تراجم بعض علماء التربية كالغزالي وابن خلدون وروسو وبستالوتزي وسبنسر، وألف كتابه **الإثنوغرافيا: علم الأقوام**، وله مقال في علم الاجتماع عن دوركهايم ونظرياته الاجتماعية. وكانت تلك الدراسات عاملاً هاماً في توسيع أفق ثقافته الاجتماعية[٥٣].

---

(٤٩) برو، المصدر نفسه، ص ٤٨.

(٥٠) كليفلاند، **ساطع الحصري من الفكرة العثمانية إلى العروبة**، ص ٥٩.

(٥١) زعيتر، «ساطع الحصري أقوى الدعاة للقومية العربية،» ص ٤٩.

(٥٢) جحا، معد، «ترجمة ساطع الحصري كما كتبها بقلمه في أواخر عام ١٩٦٠،» ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

(٥٣) صباغ، «ساطع الحصري المؤرخ،» ص ١٢٨ ـ ١٢٩. من أهم آثاره الأخرى التي نشرها خلال تلك الفترة وكلها بالتركية: **من أجل الوطن**، **الأمل والعزيمة**، **اليابان واليابانيون**، **تقاريري**. كما أخذ ينشر مقالات في جرائد **طنين**، **وقت**، وفي مجلات العلوم الاقتصادية والاجتماعية. الخطيب، «فقيد العروبة الأستاذ ساطع الحصري،» ص ٤٥٥ ـ ٤٥٦.

وقد عهد إليه بإدارة دار المعلمين العالية، وتولى إعادة بنائها، على أسس علمية تتفق مع آخر إنجازات العلوم التربوية، واستبدل بجميع موظفيها، إلا ثلاثة، مدرسين شباباً جداً أقدر على استيعاب مفاهيم التعليم العصرية(٥٤). وعمد إلى توزيع الدار على ثلاثة أقسام: قسم لتخريج معلمين للمدارس الثانوية، وآخر لتخريج مدرسين لدور المعلمين التي تؤسس في الولايات، وثالث لتخريج معلمين للمدارس الابتدائية. وأدخل في مناهج الدار، لأول مرة في تاريخ التعليم العثماني، علم النفس وفن التربية والتعليم، كما ألحق بها مدرسة نموذجية يطبق فيها الطلاب ما يتلقونه من معلومات نظرية(٥٥). وقد وصف هو نفسه عمله بكونه «عملاً انقلابياً جذرياً كان له أثر في اتجاهات التعليم في جميع (الممالك) العثمانية وطوّرها من أساسها. واستحق بهذه السياسة المدير الشاب صيت المجدد التقدمي المثير للجدال(٥٦).

وقد جهد الحصري في تطبيق نظرياته التربوية ووسائل التعليم المحسَّنة وفي الترويج لها، ولا سيما على صفحات مجلة **تدريسات ابتدائية مجموعة سي** (مجلة مجموعة التدريسات الابتدائية) التي كانت أول مجلة تربوية تصدر باللغة التركية، وتتألف من قسم نظري وآخر عملي جمع فيها ساطع الكثير من نماذج الدروس، وكانت وزارة المعارف توزعها على جميع المدارس الرسمية في الولايات.

وكان الحصري يتميز بالنزوع إلى انتقاء الأفضل من مذاهب المفكرين والعلماء الأوروبيين ويتفهم ضرورة توافقها مع الظروف العثمانية. هذا التفهم الذي تعمق أثناء جولاته بالبلدان الأوروبية المتقدمة بين عامي ١٩١٠ و١٩١٢(٥٧). وقد زار جنيف ولوزان وزيوريخ وباريس ولندن وبروكسل وميونيخ وبرلين واطلع على أحوال التعليم في مدارسها ودور معلميها وما يطبَّق فيها من نظم تربوية جديرة بأن تحتذى(٥٨). وكان يتصل خلال رحلاته بمشاهير رجال التربية والتعليم. وعند تأسيس معهد جان جاك روسو في جنيف ١٩١٢ تعرف على الأستاذ بيير بوفي (Pierre Bovet) المؤسس والمدير الأول لهذا المعهد، وهو الذي دعاه إلى أن يكون من أعضاء الهيئة الراعية له. وأخذ يحث وزارة المعارف العثمانية على أن توفد

---

(٥٤) كليفلاند، **ساطع الحصري من الفكرة العثمانية إلى العروبة**، ص ٦٨.

(٥٥) جحا، معد، «ترجمة ساطع الحصري كما كتبها بقلمه في أواخر عام ١٩٦٠،» ص ٢٤٩.

(٥٦) كليفلاند، المصدر نفسه، ص ٦٩.

(٥٧) تيخونوفا، **ساطع الحصري: رائد المنحى العلماني في الفكر القومي العربي**، ص ٢٢ ـ ٢٣.

(٥٨) برو، «ساطع الحصري في الدولة العثمانية،» ص ٤٩.

البعض من طلابها في بعثات تعليمية للدراسة في المعهد[٥٩]. وقد زادته هذه الرحلات اطلاعاً ومعرفةً بأحوال البلاد التي زارها وما حققته من نهضة علمية واجتماعية، وقد أعجبه نزوع الأوروبيين إلى العمل كما أعجبه ما ارتآه أنه علاقة تأثر وتأثير بين التربية والأحوال الاجتماعية والاقتصادية المحلية. لكنه لاحظ أيضاً أن الغلبة الأوروبية المادية لم تكن وليدة تفوق عقلي طبيعي، وسخر من فكرة قال بها بعض المربين أن الأطفال العثمانيين عاجزون عن التعلم بالأساليب المتبعة في أوروبا[٦٠].

وفي عام ١٩١٢ استعفى ساطع من إدارة دار المعلمين إثر خلاف مع وزير المعارف العثمانية (أمر الله أفندي)[٦١]، لكنه ظل عظيم الأثر في تجديد نظام التربية العثماني. وانصرف إلى العمل الخاص في ميدان التربية والتعليم فأصدر مجلة **تربية مجموعة سي** (مجلة التربية) كما تولى إصلاح «دار الشفقة» التي كانت تابعة لـ «جمعية التدريس الإسلامية» إصلاحاً جوهرياً[٦٢]، ثم أسس مدرسة خاصة باسم «المدرسة الحديثة» وألحق بها روضة للأطفال أسماها «عش الأطفال» (جوجوق يوغه سي)، فكانت سنَّة أول من ابتدعها ساطع. وأنشأ داراً للمربيات لتخريج المعلمات، وكان الهدف من تأسيسها تخريج مربيات ومعلمات يتولين تربية الأطفال الصغار في «أعشاش الأطفال» ويطبقن فيها أحدث طرق التدريس وأفضلها، التي نادى بها علماء النفس (وعهد بإدارتها إلى زوجته التركية وهي ابنة أميرال في البحرية العثمانية)[٦٣].

وبوجه عام كان موقع الحصري العام، إثر عودته إلى استانبول (بعد ١٩٠٨)، هو موقع المصلح والمربي، وخلت مؤلفاته عموماً من أي محتوى عقائدي صريح أو تحليل سياسي[٦٤]. ويبدو أن حدوث تغيرات في الجو الفكري السياسي بعد أن أخفقت ثورة ١٩٠٨ في تحقيق آمال الشعوب العثمانية في الحرية والمساواة قد اضطرته نوعاً ما للابتعاد عن المساهمة النشطة في الحياة الاجتماعية[٦٥]. ومما زاد الأمر سوءاً سياسة التتريك التي اتبعت بعد عام ١٩١٣، ولا شك في أن تلك

(٥٩) برج، **ساطع الحصري**، ص ٢٤.

(٦٠) كليفلاند، **ساطع الحصري من الفكرة العثمانية إلى العروبة**، ص ٧٠.

(٦١) زعيتر، «ساطع الحصري أقوى الدعاة للقومية العربية،» ص ٤٩.

(٦٢) جحا، معد، «ترجمة ساطع الحصري كما كتبها بقلمه في أواخر عام ١٩٦٠،» ص ٢٤٩.

(٦٣) زعيتر، المصدر نفسه، ص ٤٩ ـ ٥٠.

(٦٤) كليفلاند، **ساطع الحصري من الفكرة العثمانية إلى العروبة**، ص ٧١.

(٦٥) تيخونوفا، **ساطع الحصري: رائد المنحى العلماني في الفكر القومي العربي**، ص ٢٤.

السياسة العنصرية أثارت استياء في نفس الحصري، إلا أن ولاءه للفكرة العثمانية لم يتزعزع[٦٦]. ويذكر مجايلو ساطع من الأتراك تلك المناقشات التي احتدمت بينه وبين ضياء كوك آلب «الدماغ المفكر للقومية التركية» في مختلف المواضيع الاجتماعية[٦٧]، وتحولت إلى واحدة من أكثر معارك ذلك العصر إثارة وأبعدها صدى. وكان ضياء آلب (الذي ظل حتى عام ١٩٠٩ من الموالين للجامعة العثمانية) قد شن حملة من النقد العنيف على ساطع وغيره من «الغربيين» لمحاولاتهم استعارة مناهج حضارات غربية متجاهلين الثقافة القومية. وكان في طليعة مشاغل الحصري آنئذٍ أن يثبت في مساجلاته إمكان اعتماد القيم المعنوية الغربية في السلطنة دون حاجة إلى اللجوء إلى القومية التركية[٦٨]. هذه المناقشات التربوية في الظاهر، اتكأت عند الحصري على معارضته للفكرة القومية التركية التي ناقضت إيمانه بالفكرة العثمانية وباستمرار وجود سلطنة متعددة الأقوام تستطيع فيها الأقوام غير التركية أن تسهم في حياة الجماعة[٦٩]، أو بمعنى آخر، إن النزعة القومية التركية في التعليم، من وجهة نظر الحصري، لم تكن لتتفق مع التنوع القومي لرعايا الامبراطورية.

ولا يبدو خلال هذه المرحلة من حياته أي أثر في اتجاهه نحو الحركة القومية العربية[٧٠]، بل كل ما عرف عنه هو استياؤه من سياسة التتريك، إلا أن تلك السياسة لم تدفعه، وفي زمن تعاظمت فيه النقمة العربية، للالتحاق بالحركات والجمعيات العربية، رغم أن أغلبها كان لا يهدف إلى أكثر من الإصلاح ضمن الإطار العثماني. ولم تتجاوز مشاركة الحصري مع العناصر العربية على ما يظهر، حدود محاضرة ألقاها في «المنتدى الأدبي»[٧١]، وإن عرف عنه تردده على المنتدى مراراً وإظهاره التعاطف لأعضائه ولكن بتكتم. وإن صح ذلك فلا بد من أن يكون تكتمه ناشئاً عن حكم الطغيان الاتحادي[٧٢]. وبلغ ساطع من الشأن البعيد

---

(٦٦) كليفلند، «تكوين قومي عربي، العثمانية والعروبة في حياة ساطع الحصري وفكره،» ص ١٢٢٨.

(٦٧) زعيتر، «ساطع الحصري أقوى الدعاة للقومية العربية،» ص ٥٠.

(٦٨) تيخونوفا، **ساطع الحصري: رائد المنحى العلماني في الفكر القومي العربي**، ص ٢٤ ـ ٢٥.

(٦٩) كليفلاند، **ساطع الحصري من الفكرة العثمانية إلى العروبة**، ص ٧٤.

(٧٠) صباغ، «ساطع الحصري المؤرخ،» ص ١٢٩.

(٧١) كليفلند، «تكوين قومي عربي، العثمانية والعروبة في حياة ساطع الحصري وفكره،» ص ١٢٢٨.

(٧٢) ينقل برو ذلك عن أحد من عرفوا الحصري في هذه الفترة. برو، «ساطع الحصري في الدولة العثمانية،» ص ٥٠.

في الأوساط العثمانية أن كلف طلعت باشا كبير الوزراء زعيم الشبيبة العربية ورئيس «المنتدى الأدبي» عبد الكريم الخليل، إقناع ساطع بالعمل مستشاراً لوزارة المعارف، فلم يفلح، ولكنه تولى رئاسة لجنة التربية في الوزارة (تربية انحمن)(٧٣).

ومع أن الحصري ظل بعيداً بعض الشيء عن المجتمع العربي، إلا أن ابتعاده هذا لم يدفعه، يقول البرت حوراني(٧٤)، إلى عدم الاكتراث. ولا شك في أنه كان يتابع ما يقوم به طليعة الشبان العرب، الذين تحسسوا الشعور القومي من نضال ضد سياسة التتريك، وكان من شهود هذا التحرك القومي، ووصف في ما بعد معاناة جيله ومواقفه من هذا التيار العربي الجديد الذي أخذ يعلن عن نفسه والمصاعب التي وقفت في طريقه، قال «إن جيل الأمس، جيل الشيوخ مثلي، كان يجد نفسه بين تيارات عديدة تدفعه أو تجذبه إلى اتجاهات مختلفة، تبعده عن الاتجاه القومي، وذلك مثل التيارات والنزعات التي كانت تعرف باسم الجامعة العثمانية والجامعة الإسلامية والرابطة الشرقية. وأبناء ذلك الجيل كانوا في حاجة إلى التغلب على تلك التيارات القوية والقديمة لكي يتوصلوا إلى الإيمان بالقومية العربية». ويؤكد هذا المعنى بقوله «نسينا أن لنا قومية خاصة متميزة عن الأتراك العثمانيين حتى انه عندما بدأت جماعة مستنيرة من الناطقين بالضاد تنتبه إلى ذلك، وتطالب بحقوق العرب، وتتكلم عن حقوق اللغة العربية، قامت جماعات كثيرة تعارضهم معارضة شديدة، زاعمة أن هذه المطالبات تسيء إلى الرابطة العثمانية وتنافي الأخوة الإسلامية»(٧٥).

ولا شك في أن ساطع كان يتابع مجريات الحوادث السياسية وتأزم العلاقات الدولية وانفجار الحرب عام ١٩١٤، وجاء انخراطه في جمعية المطبوعات العثمانية وترؤسه لمؤتمرها وتعرّفه على مختلف الصحفيين ليطلعه على كثير من خفايا السياسة المعاصرة وليغذي اهتماماته السياسية(٧٦). ولا بد بالتالي أنه تابع التطورات أثناء الحرب في الولايات العربية، وضربات جمال باشا وحركات الثورة العربية وموقف الأتراك منها. ولا يعرف بالضبط مشاعره آنذاك تجاهها، وإن كان قد أظهر تأييده لها بعد انتقاله إلى سوريا، ولا بد من أنه في هذه الفترة وحتى نهاية الحرب كان يعيش صراعاً داخلياً شديداً(٧٧). صحيح أنه حتى انقضاء الحرب الكونية الأولى

---

(٧٣) زعيتر، «ساطع الحصري أقوى الدعاة للقومية العربية،» ص ٥٠.

(٧٤) حوراني، **الفكر العربي في عصر النهضة، ١٧٩٨ - ١٩٣٩**، ص ٣٧١ - ٣٧٢.

(٧٥) الفحام، «ساطع الحصري في ذكرى ميلاده المئوية،» ص ٣٦ - ٣٧.

(٧٦) صباغ، «ساطع الحصري المؤرخ،» ص ١٢٩.

(٧٧) المصدر نفسه.

ظل يؤمن بصون السلطنة العثمانية وتأييدها على تعدد لغاتها وأعراقها وأدبائها من طريق إرساء حس وطني يتسع لكل الشعوب العثمانية، وكان لا يرى عروبة إلا في النطاق العثماني الواسع، وفي هذا كان نموذجاً، يقول كليفلاند[٧٨]، لعرب آخرين انشئوا مثله وتسنموا مراكز سلطة في الحكومة العثمانية. إلا أن ما نقله ساطع عن مدرّس للتاريخ السياسي في المدرسة الملكية (ممن قادوا الحركة الكمالية في ما بعد) قد يجيب عن هذا الصراع الذي كان بداخله: بين انبثاق المفهوم القومي العربي والولاء للدولة العثمانية. يقول ساطع: «اذكر جيداً أنه شرح رأيه بصراحة وجرأة قائلاً ليس في استطاعة الأتراك أن يتمثلوا العرب، ولا من مصلحتهم أن يضعفوا قواهم في سبيل محاولة ذلك، ولذلك ينبغي أن يتفاهموا مع العرب بأي شكل كان، وأن يدعوهم وشأنهم ثم ينصرفوا إلى الاهتمام بالعنصر التركي نفسه، ويركزوا جلّ جهودهم في معالجة القضايا التي تتصل بمستقبل الأتراك مباشرة»[٧٩].

والغموض يكتنف ذلك القرار الذي اتخذه الحصري باعتزال العمل في تركيا ليعود إلى وطنه الأصلي عام ١٩١٩ وليس من سبيل لمعرفته سوى التخمين والاستنتاج والتساؤل. وكان ذلك يمثل منعطفاً كبيراً في حياة الحصري وأفكاره، ولا بد من أن يكون قد حصل في نفسه تجاذب وتدافع بين حاضر قلق ومستقبل يوحي بأمل مشرق في إمكان قيام دولة عربية يستطيع أن يسهم في رفع بنيانها، فاتخذ القرار الحازم يوم أحرزت الثورة العربية انتصارها الحاسم فرفرفت الأعلام العربية في سماء دمشق وسائر المدن السورية[٨٠]. وتذكر ليلى الصباغ[٨١]، وربما حدث للحصري ما قاله هو عن ابن خلدون عند كتابة **مقدمته** بأن «نظره الفاحص الناقد كان يشتغل بشدة خلال هذه الحياة الفعالة، وذهنه الباحث الوقاد كان لا ينفك عن اختزان الملاحظات تلو الملاحظات، ولو بصورة لاشعورية، فعندما انبثقت الثورة العربية حية ومجسدة، تفاعلت تلك الملاحظات المخزونة، فحدث ذلك التدفق الفجائي بعد الاختمار اللاشعوري، فشعر بذاته العربية الأصيلة (وألهم) قراره بالتحاقه بالحركة العربية».

---

(٧٨) كليفلاند، **ساطع الحصري من الفكرة العثمانية إلى العروبة**، ص ٢٥١.

(٧٩) محمد أحمد خلف الله، «ساطع الحصري: قصة حياته،» **المجلة** (الكويت)، العدد ١٤٦ (شباط/فبراير ١٩٦٩)، ص ٢٥.

(٨٠) برو، «ساطع الحصري في الدولة العثمانية،» ص ٥١. وينقل عن أحد من عرفوا الحصري في تلك الفترة أن صلة الوصل بين ساطع والأمير فيصل إثر إعلان الأخير الدولة العربية في دمشق هو إحسان الجابري (ابن خالة ساطع الذي كان يتولى آنئذ رئاسة المكتب الخاص للأمير فيصل).

(٨١) صباغ، «ساطع الحصري المؤرخ،» ص ١٣٠.

ومما لا شك فيه أن حاجة الحكومة العربية الفتية، التي جاءت تجسيداً للحركة القومية العربية، لبناء دولة عربية عصرية، واستقدام كل العناصر المؤهلة للعمل في شتى مرافقها، كانت من العوامل الهامة في قدوم أو استقدام ساطع الحصري الذي اشتهر نشاطه التربوي في استانبول شهرة لا تدانى، وكان يعرفه جيداً معظم العرب الذين درسوا في العاصمة العثمانية. وقد يكون لإعجاب فيصل بساطع من خلال ما كان يقرأ له من كتابات أو للفت إحسان الجابري انتباه الأمير إلى حاجة الدولة لمؤهلاته، الفضل في مجيئه. تلك المؤهلات التي شعرت السلطات العثمانية بفقدانها حتى منذ أن شاع في عاصمة الخلافة أن ساطعاً مزمع على الشخوص إلى سوريا. فهبّت الصحف التركية تتناول الموضوع في حدة واهتمام(٨٢). وجاء في إحداها «إننا نعرب عن عظيم آلامنا مما عزم عليه ساطع، إننا نناشده أن يبقى بيننا، إننا نعده من رأسمالنا العلمي الأصيل». وراح مفتشو المعارف والأساتذة في استانبول يوقعون بياناً موجهاً إلى ساطع يقولون فيه: «إن انتقالك من تركيا إلى بلاد العرب هو انتقال الغرسة اليانعة من التربة الخصبة إلى الصحراء الجديبة، وإن في ذلك لغدراً للطبيعة». وقال الكاتب التركي الشهير عاصم أس في صحيفة **وقت** في مقال يودع فيه ساطعاً حين غادر الآستانة ليسهم في خدمة وطنه العربي المتحرر «اليوم شعرنا بانفصال سوريا عنا».

ثانياً: خلال عهد الحكومة العربية في دمشق (١٩١٨ ـ ١٩٢٠)

وقد جرى انتقال ساطع الحصري إلى دمشق عن طريق القاهرة، ومع زوجته التركية، وربما يكون ذلك الانتقال قد جرى في ربيع عام ١٩١٩ في أعقاب عودة الأمير فيصل من مؤتمر الصلح في باريس إلى دمشق ليعلن للشعب السوري نبأ قرب قدوم لجنة استفتاء كينغ ـ كرين (King-Crane). ويتحدث ساطع الحصري عن لقائه بالأمير فيصل في ذلك التاريخ مبيناً أنه اللقاء الأول معه «لقيته لأول مرة في دمشق، عقب عودته من مؤتمر الصلح في باريس استعداداً لاستقبال لجنة الاستفتاء الأمريكية». ويتحدث عن ترحيب الأمير فيصل به ترحيباً يدل على تقديره لمكانته العلمية إذ يقول «كلما كنت أقرأ لك وأسمع عنك، كنت أتخيلك شيخاً متقدماً في السن. ولهذا السبب سررت جداً من مشاهدتك هكذا في سن الكهولة وعهد النشاط، وهذا من حسن حظ الأمة العربية. سيكون أمامك مجال واسع

---

(٨٢) نقلها: زعيتر، «ساطع الحصري أقوى الدعاة للقومية العربية،» ص ٤٨.

لتخدمها في حياتها الجديدة»[٨٣]. ومنذ ذلك الحين ربطت بين الرجلين علاقة احترام وود متبادلين، وصفها بقوله «إن العلاقة التي بدأت بيني وبينه تلك الليلة على هذا المنوال كان مقدراً لها أن تستمر وتتوطد بدون انقطاع مدة لا تزيد على أربعة عشر عاماً بقيت بجانبه، وعملت في معيته حتى أواخر أيام حياته.. خلال تلك السنين الطويلة، علمت أنه كان يمتاز بخصال ثمينة جداً، وجعلته عظيماً بكل معنى الكلمة»[٨٤].

لما ذهب ساطع إلى سوريا كان، على حد قوله، «في غنى عن تعريف الناس بي، لأن كتاباتي ومحاضراتي كانت مشهورة في كل النواحي العثمانية». وأخبره كثيرون أنهم يذكرون حضورهم بعضاً من محاضراته قبل الحرب[٨٥]. لقد أقبل ساطع إلى دمشق، وهو في التاسعة والثلاثين من عمره، أتم ما كان شباباً وأوفى ما كان نشاطاً، ليشارك في بناء الدولة العربية الحديثة في نطاق اختصاصه التربوي[٨٦]. عمل مفتشاً عاماً للمعارف من ١٦ نيسان/ابريل إلى ٣٠ نيسان/ابريل ١٩١٩، ومديراً عاماً للمعارف من ١ أيار/مايو ١٩١٩ إلى ٩ آذار/مارس ١٩٢٠، فكان عضواً في مجلس المديرين الذي كان يعمل عمل مجلس الوزراء منذ بداية تأليفه حتى إعلان الاستقلال. ويوم أعلن المؤتمر السوري استقلال سوريا ووضع دستورها الأول الملكي بتاريخ ٨ آذار/مارس ١٩٢٠ قامت في دمشق أول حكومة عربية دستورية واختير ساطع الحصري وزيراً للمعارف بها، فمارس مهام الوزارة من تاريخ ١٠ آذار/مارس ١٩٢٠ حتى تاريخ ٢٧ تموز/يوليو ١٩٢٠[٨٧].

وكانت الحكومة العربية وقبل قدوم الحصري إلى دمشق، قد واجهت، فيما واجهت من الصعوبات، قضية اللغة العربية، ذلك لأن اللغة التركية كانت هي اللغة الرسمية في البلاد، وكان على الحكومة السورية أن تحول اللغة الرسمية من التركية إلى العربية في جميع الدوائر والمدارس والدواوين. وتم ذلك بسرعة فائقة.

---

(٨٣) الحصري، **صفحات من الماضي القريب**، ص ٩.

(٨٤) المصدر نفسه، ص ٩ - ١١.

(٨٥) كليفلاند، **ساطع الحصري من الفكرة العثمانية إلى العروبة**، ص ٩٦ - ٩٧.

(٨٦) لا يعرف تماماً مدى صحة ما يذكره محمد كرد علي في مذكراته بأن تلامذة الحصري السابقين بادروا إلى الدعاوة له وبفعل هذا الإلحاح اضطر حاكم دمشق العسكري رضا الركابي إلى القبول بتعيين ساطع مديراً عاماً للتعليم. انظر: محمد كرد علي، **المذكرات**، ٣ ج (دمشق: مطبعة الترقي، ١٩٤٨ - ١٩٤٩)، ج ٢، ص ٢٧٧ - ٢٧٨.

(٨٧) الخطيب، «فقيد العروبة الأستاذ ساطع الحصري،» ص ٤٥١.

واستحدثت الحكومة دروساً خاصة بالموظفين تستهدف تعليم الإنشاء العربي، وأخذ عدد من الأدباء والموظفين يراجعون الكتب العربية القديمة ونشرات الحكومة المصرية بغية إيجاد المصطلحات وتقرير أفصح الأساليب التي تليق بحكومة عربية حديثة. وتألفت لهذا الغرض لجان عديدة سعت وراء تنسيق هذه الجهود وتعجيل ثمراتها. وأنشأت الحكومة منذ ٢٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٨ وحتى ١٢ شباط/ فبراير ١٩١٩ شعبة الترجمة والتأليف مهمتها تدبير أمر اللغة العربية الرسمية ونشر الثقافة بين الموظفين واستبدال المصطلحات العربية بالتركية، واستعانت بأساتذة اللغة وأدبائها من جميع أنحاء البلاد العربية[٨٨].

وانصبَّت جهود ساطع كمهمة أولى على تعريب نظام التعليم وتعميم الدراسة باللغة العربية[٨٩]، وفي الوقت ذاته أن يعرِّب لسانه فقد كان لا يتقن العربية «وإن توقد صدره بحبها، وغلت عروقه بدمها»، يقول أكرم زعيتر[٩٠]. وانكفأ يدرس العربية حتى أجادها كاتباً بليغاً ومحاضراً مبيناً. ويمكن القول إن تبلور (فكرية) ساطع الحصري عن القومية قد ترابط بالطبع، يقول عز الدين التنوخي[٩١]، مع تعلمه اللغة العربية وإتقانه التدريجي للتعبير الشفوي والكتابي، مضافاً إلى ذلك دراسته التاريخ العربي بعمق وتعمقه في تكوين القوميات في أوروبا عبر تجربته العملية الواقعية عن القومية في شبه جزيرة البلقان وتركيا عندما كان مدرساً ومربياً فعالاً في الدولة العثمانية.

وقد عمل الحصري حثيثاً لتوجيه التعليم وجهة تربوية قومية، والعناية بمناهج الدروس وإعداد المعلمين وتدريبهم وحثهم على اتباع أساليب التربية الحديثة[٩٢]. وأصدر باسم مديرية المعارف **مجلة التربية والتعليم** ونشر فيها ساطع

---

(٨٨) أحمد الفتيح، **تاريخ المجمع العلمي العربي** (دمشق: مطبعة الترقي، ١٩٥٦)، ص ٣ ـ ٤.

(٨٩) صباغ، «ساطع الحصري المؤرخ،» ص ١٣١.

(٩٠) زعيتر، «ساطع الحصري أقوى الدعاة للقومية العربية،» ص ٥٠.

(٩١) عز الدين التنوخي، «حول كتاب ساطع الحصري «البلاد العربية والدولة العثمانية»،» **مجلة المجمع العلمي العربي** (دمشق)، المجلد ٣٧ (١٩٦٢)، ص ١١٣.

يروي جميل صليبا، «أن الحصري لما أصبح وزيراً للمعارف في حكومة رضا الركابي ثم في حكومة هاشم الأتاسي أخذ يغير ويبدل ويصنف المعلمين بحسب شهاداتهم وقدمهم، فمن كان منهم ذا شهادات عالية وخبرة جيدة صنفه في أعلى المراتب ومن كان منهم لا يحمل شهادة ما، أقام له دورة تدريب لتعيينه بعد نجاحه في امتحاناتها في المرتبة التي يستأهلها». انظر: جميل صليبا، «تجربتي مع ساطع الحصري،» **المعلم العربي**، السنة ٣٠، العددان ٢ ـ ٣ (شباط/فبراير ـ آذار/مارس ١٩٧٧)، ص ١٠٢.

(٩٢) جحا، معد، «ترجمة ساطع الحصري كما كتبها بقلمه في أواخر عام ١٩٦٠،» ص ٢٥٢.

عدة مقالات. وكانت الحكومة قد ضمت أمور المعارف إلى أعمال شعبة الترجمة والتأليف وجعلتها كلها ديوان المعارف[(٩٣)] في ١٢ شباط/فبراير ١٩١٩، وأسندت رئاسته إلى محمد كرد علي صاحب **المقتبس**[(٩٤)]. ومن مهام الديوان النظر في أمور المعارف والتأليف والعناية بدار الكتب الظاهرية والشروع بتأسيس دار للتحف والآثار القديمة[(٩٥)]. وأخذ الديوان على عاتقه مهمة تخليد الثورة العربية في كتاب تدون فيه وقائعها وهو ما يسمى بالتركية **وقعة نويس**[(٩٦)]. وفي عهد الحصري كمدير للمعارف جرى تقسيم ديوان المعارف في ٨ حزيران/يونيو ١٩١٩ (بعد أن اتسعت أعماله وازدادت حركة التأليف والترجمة والاصطلاحات وتوفر الاختصاصيين) إلى قسمين: **الأول** يختص بأعمال المعارف العامة، **والثاني** يختص بأمور اللغة والمكتبات والآثار (وسمي بالمجمع العلمي)[(٩٧)]. ومن جملة مهامه جمع المخطوطات القديمة والشرقية والمطبوعات العربية والأجنبية على اختلاف موضوعاتها، وجمع الآثار القديمة من تماثيل وأدوات وأوراق ونقود وكتابات وما شاكل ولا سيما ما كان منها عربياً[(٩٨)]. وقد ألف المجمع لجنة لجمع المصطلحات العلمية المستعملة قديماً وحديثاً تمهيداً لانتخاب الأوفق منها وإيجاد معجم عربي[(٩٩)]. وبمجهود ساطع الحصري أعيد افتتاح المعهد الطبي ومدرسة الحقوق وانتظم العمل التدريسي فيهما إلى آخر العهد[(١٠٠)]. ويذكر طلاب تلك المرحلة بالتقدير جهود ساطع في مجال المعارف، فيقول جميل صليبا[(١٠١)] «لما تولى ساطع شؤون المعارف في عهد الحكومة العربية أحدث انقلاباً فكرياً تربوياً مصطبغاً بصبغة عربية خالصة تناسب ذلك العهد». ويضيف «كنا إذ ذاك تلاميذ في المدرسة الثانية

---

(٩٣) خيرية قاسمية، **الحكومة العربية في دمشق بين ١٩١٨ ـ ١٩٢٠**، مكتبة الدراسات التاريخية (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧١)، ص ٢٣٤.

(٩٤) الفتيح، **تاريخ المجمع العلمي العربي**، ص ٥.

(٩٥) قاسمية، المصدر نفسه، ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥.

(٩٦) الفتيح، المصدر نفسه، ص ٦.

(٩٧) المصدر نفسه، ص ٧.

(٩٨) برج، **ساطع الحصري**.

(٩٩) المصدر نفسه، ص ٤٥.

(١٠٠) تأسس المعهد الطبي، منذ ١٩٠٣، أما مدرسة الحقوق فكانت قد افتتحت في بيروت عام ١٩١٣ ونقلت إثر الحرب إلى دمشق. وقد قررت الحكومة العربية في ١٩١٩ افتتاح الكلية الطبية وإعادة تأسيس مدرسة الحقوق «نظراً لما للمعاهد العلمية من عظيم الفوائد». قاسمية، **الحكومة العربية في دمشق بين ١٩١٨ ـ ١٩٢٠**، ص ٢٣٧ ـ ٢٤٠.

(١٠١) صليبا، «تجربتي مع ساطع الحصري،» ص ١٠٢.

(عنبر) وكانت نظرتنا إلى ساطع نظرة إجلال وتعظيم لما كان الدعاة يذكرونه من علمه وقدرته على الإصلاح». ويذكر كامل عياد «كنا نحن طلاب مدرسة التجهيز (الثانوية) في حلب نتحدث باعتزاز عن قدوم ساطع من تركيا إلى سوريا لتولي مديرية المعارف ثم الوزارة وكان الجميع يعلقون، بحق، الآمال الكبيرة على مشاريعه الإصلاحية الجريئة»(١٠٢).

وفي محاولة ساطع الحصري لتنظيم شؤون المعارف في سوريا عزم على التوجه إلى مصر لدراسة نظم التربية والتعليم فيها وللاستعانة بالكتب المدرسية المطبوعة فيها والاستفادة من طرائق التدريس باللغة العربية المرعية في مدارسها. ويروي الحصري(١٠٣) كيف أن سفره إلى القاهرة قد صادف إضرام الثورة المصرية واشتداد حركة المقاطعة والإضراب فيها بحيث لم يستطع الحصول على الشيء الكثير من الفوائد التي كان يتوخاها، ولكن ـ مقابل ذلك ـ جنى فوائد معنوية أخرى إذ شاهد أروع أحداث الثورة المصرية. وأثّر فيه ما شهده من روح وطنية وتضحية، وآمن بأن المصريين يرتبطون ببقية الوطن العربي بمشاعر العروبة وكراهية للحكم الأجنبي. وكان الحصري ومن حوله من رجال الحركة العربية ينظرون إلى الثورة المصرية كجزء متمم للثورة العربية التي بدأت قبل سنوات والتي ما زالت مستمرة في مختلف أنحاء الشام ضد الفرنسيين والبريطانيين، وكانت كلها بمثابة صفحات مختلفة من ثورة عربية عامة تهدف إلى تحرير الأمة العربية من السيطرة الأجنبية واستنهاضها لتتبوأ المكانة المادية والمعنوية التي تليق بماضيها الباهر. ولم يكن ذلك إلا لأن رجال الحركة العربية كانوا يعتبرون «مصر جزءاً من أجزاء الوطن العربي الأكبر، شأنها شأن سوريا والعراق، كما كانوا يعتبرون المصريين من أبناء الأمة العربية مثل أهل الشام والعراق وسائر البلدان العربية»(١٠٤). ويستذكر ساطع الحصري بعد ربع قرن آخر محاضرة ألقاها في دمشق(١٠٥) «كان ذلك بعد إعلان

---

(١٠٢) عياد، «ذكريات عن ساطع الحصري،» ص ١٠٥.

ويستعيد كل من جميل صليبا وكامل عياد ذكرى بعض حوادث احتجاج الطلاب التي بدت في ثانوية عنبر بسبب سوء الإدارة وتغيير وتبديل المعلمين، وقد أسرع الحصري إلى معالجة الأزمة بحزم وحكمة وناقش الطلاب في شكواهم واستطاع إقناعهم بضرورة الانقياد للنظام.

(١٠٣) خيرية قاسمية، «مصر في كتابات ساطع الحصري القومية،» **المستقبل العربي**، السنة ١، العدد ٧ (أيار/مايو ١٩٧٩)، ص ١٣١.

(١٠٤) المصدر نفسه.

(١٠٥) ساطع الحصري، «الاستقلال الثقافي،» محاضرة في جامعة دمشق بتاريخ ١٩/١٢/١٩٤٤، في: ساطع الحصري، **حول الوحدة الثقافية العربية** (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٥٩)، ص ٦٧.

استقلال سوريا بحدودها الطبيعية.. كنت جمعت المدرسين والمعلمين في قاعة المعهد القائم على ضفة بردى اليمنى وألقيت عليهم محاضرة طويلة تحوم حول الاستقلال، شرحت لهم خلالها الخطط التي يجب أن يسيروا عليها لتفهيم التلاميذ معنى الاستقلال والوسائل التي يجب أن يتوسلوا بها لأجل أن يغرسوا في نفوس الناشئة حب الاستقلال، كما أني أوضحت لهم الطرائق التي يجب أن يتبعوها لتفهيم الطلاب الواجبات التي تترتب على أبناء الوطن لإدامة الاستقلال».

ولكن هذه الحقبة كانت تعتريها هموم بقاء الحكومة العربية أكثر من هموم مشروعات تربوية بعيدة المرامي. ومع أن الحصري، كعادته عندما كان في الدولة العثمانية، قد حاول رفض الانتماء إلى أية حركة سياسية، إلا أنه انغمس في مشكلات السياسة اليومية ووجد نفسه في زحمة الأحداث منذ وصوله دمشق، وتبنّيه القضية العربية. وكان الحصري يرى في فيصل رجل الدولة القوي الوحيد الذي يؤيد شعار الدولة العربية الواحدة ويعي ضرورات الإصلاحات، ولذا فقد ربط به مصيره وساهم كل المساهمة في رسم سياسته في سوريا خلال عامي ١٩١٩ ـ ١٩٢٠[١٠٦]. وكان من بين الأفكار التي طرحها فيصل في خطبه المتعددة في ذلك الحين، وفيها بدا تأثير الحصري، تقديمه رابطة العرب القومية على الفوارق الدينية الثانوية بينهم[١٠٧].

وكانت الحكومة العربية بجميع أعضائها، قد تحملت في عهد فيصل أحمالاً ثقالاً لا طاقة لها بحملها. لقد كان الجميع، بمن فيهم ساطع الحصري، يحلمون أحلاماً عظاماً مبعثها الإيمان القوي بقيام الدولة العربية الواحدة التي ما قامت الثورة العربية الكبرى إلا من أجل تحقيقها. ولكن الأيام لم تحقق هذه الأحلام، وأزعجت الحالمين وردّتهم إلى الواقع الأليم المحزن[١٠٨]. ويحلل الحصري، في كتابه **يوم ميسلون**[١٠٩]، الحالتين النفسية والفكرية التي كان يعيش فيها رجال الحكومة العربية حينذاك، فيقول «إن رجال الثورة ومفكري البلاد كانوا عاشوا منذ سنوات في حالة تشبه الحصار المعنوي، لا تساعدهم على الاطلاع على حقائق السياسة

---

(١٠٦) تيخونوفا، **ساطع الحصري: رائد المنحى العلماني في الفكر القومي العربي**، ص ٢٧.

(١٠٧) ساطع الحصري، **يوم ميسلون، صفحة من تاريخ العرب الحديث**، ط ٤ (بيروت: دار الاتحاد، ١٩٦٤)، ص ٢٣١ ـ ٢٣٢ (طبع الكتاب لأول مرة عام ١٩٤٥). خطاب فيصل في النادي العربي في حلب، حزيران/يونيو ١٩١٩.

(١٠٨) خلف الله، «ساطع الحصري. قصة حياته،» ص ٢٦.

(١٠٩) الحصري، المصدر نفسه، ص ١٠٤ ـ ١٠٦.

العالمية ودقائقها اطلاعاً كافياً. ولهذا السبب رافقت العهد الجديد... بلبلة كبيرة في الآراء والأفكار: فكان البعض يسترسل في التفاؤل، ويغالي البعض الآخر في التشاؤم، بينما كان البعض لا يضع حداً للأماني، كان البعض الآخر يتخوف من أحقر المشاكل... لا شك في أن هذه الأحوال كانت من الأمور الطبيعية التي تحدث عادة في كل ثورة سياسية وكل انقلاب فجائي، ثم لا تلبث.. أن تزول... إلا أنه قد حدث في الثورة العربية عكس ما يحدث عادة في الثورات، فالبلبلة التي ولّدتها الأوضاع الجديدة، لم تستمر فحسب، بل زادت يوماً بعد يوم. ذلك لأن الثورة كانت تصطدم بعقبات سياسية خارجية هائلة، من غير أن تظفر بأي نصير خارجي كان.

«صحيح أن انكلترا ساعدت الثورة وناصرتها بادئ الأمر، ولكن مناصرتها هذه كانت تجري طول الوقت بتردد وحذر... زد على ذلك أن هذه المناصرة الضئيلة أيضاً أخذت تتناقص بسرعة، بعد انتهاء الحرب العالمية، لأن بريطانيا العظمى نفسها كانت طامحة إلى الاستيلاء على قسم كبير من البلاد التي قامت الثورة من أجلها. لا شك في أن انكلترا ما كانت ترغب ـ من صميم قلبها ـ أن ترى فرنسا مسيطرة على سوريا ولكنها، هي نفسها، كانت عازمة على حكم فلسطين والعراق، ولهذا السبب كانت تجد نفسها مضطرة إلى مماشاة الفرنسيين في أطماعهم المتعلقة بسوريا ولبنان.

«لقد كان تحقيق أهداف الثورة الأصلية يتطلب التغلب على أطماع الدولتين المذكورتين، وهاتان الدولتان كانتا من أكبر الدول المنتصرة في الحرب، وأصبحتا ـ بعد انسحاب أمريكا من ساحة السياسة الأوروبية ـ الدولتين الوحيدتين اللتين تسيطران على السياسة العالمية وتوجهانها الوجهة التي تتطلبها منافعهما. فكان على رجال الثورة أن يعملوا في هذه الظروف المعقدة وأن يضعوا الخطط التي تضمن النجاح ـ على الرغم من هذه الأحوال المعاكسة كلها. إن وضع أمثال هذه الخطط كان من الأمور العسيرة جداً، وأما تنفيذ تلك الخطط فكان أعسر من ذلك أيضاً.

«وهذه المشاكل المتولدة من طبيعة القضايا كانت تتعقد أكثر من ذلك أيضاً ـ من جراء التبلبل الذي ينجم عن اختلاف وجهات نظر القائمين على العمل في ميدان هذه السياسة المعقدة... وكان إلى جانب هذه البلبلة المتولدة من طبيعة القضايا نفسها والمقرونة بالإخلاص التام من أصحابها ـ البلبلة الناتجة عن ضعف النفوس وعن الدسائس الفرنسية، والروح الرجعية وخيانة الموتورين». وينتهي الحصري إلى القول «هذه هي الحالة التي كانت قائمة في سوريا، عندما اتفقت

عليها دولتان كبيرتان مستعمرتان، بعد كثير من المساومات التي قامتا بها على حسابها (انتهى مؤتمر سان ريمو ١٩٢٠ بتخويل فرنسا حق الانتداب على سوريا)، وهذه هي الحالة النفسية التي كانت سائدة بين السوريين عند وصول الإنذار الفرنسي (١٤ تموز/يوليو) الذي أدى إلى حوادث ميسلون».

وقد تضمن إنذار غورو ـ في ما تضمنه ـ طلباً بتسريح الجيش والاعتراف بالانتداب[١١٠]. وبدت احتمالات النجاح ضئيلة. وقبل فيصل والحكومة الإنذار مكرهين في المهلة الأخيرة[١١١]. ولكن الأنباء تواترت في اليوم التالي أن القوات الفرنسية تسير إلى دمشق بدعوى أن غورو لم يتلق قبول الإنذار ضمن المهلة، لانقطاع الخطوط السلكية، وتقرر إرسال أحد الوزراء إلى مقر قيادة غورو في عاليه للاتفاق معه على الأمر[١١٢]. وساطع الحصري هو الوزير الذي وقع عليه اختيار الملك ومجلس الوزراء على القيام بمهمة التفاهم مع القائد الفرنسي حول نتائج الإنذارات المتتالية التي بعث بها هذا القائد إلى الملك فيصل والتي تظهر تصميمه على الزحف نحو العاصمة. وفوجئ الحصري باختياره للمهمة الخطيرة «لا أدري لماذا أجمع رأي الزملاء على الفور على إلقاء هذه المهمة على عاتقي»[١١٣]. ولعل السبب إتقانه الفرنسية، ولربما اختير أيضاً لاحتمال أن تحدث صفته المدنية أثراً ملائماً في نفس غورو[١١٤]. ودخل ساطع بذلك في قلب السياسة وفي قلب صنع التاريخ لها[١١٥].

وبعد ظهر ٢١ تموز/يوليو غادر الحصري دمشق من أجل المهمة الدقيقة[١١٦]. وأعاقته تحركات الجند حتى بلغ مقر غورو، وطلب الأخير ضمانات جديدة لم يأنس الحصري في نفسه السلطة على بتّها قبل مراجعة فيصل والحكومة[١١٧]. وعاد ساطع إلى دمشق وهو جازم كل الجزم «بأن القوم مصممون

---

(١١٠) من مواد إنذار غورو كذلك: وضع سكة حديد رياق ـ حلب تحت تصرف الجيش الفرنسي، قبول الأوراق النقدية التي أصدرها البنك السوري، معاقبة المجرمين الذين اشتركوا في معاداة فرنسا. المصدر نفسه، ص ١١٨.

(١١١) حول ملابسات قبول الإنذار، انظر: المصدر نفسه، ص ١١٩ ـ ١٢٠ و١٢٤ ـ ١٢٥.

(١١٢) المصدر نفسه، ص ١٢٩.

(١١٣) المصدر نفسه.

(١١٤) حوراني، **الفكر العربي في عصر النهضة، ١٧٩٨ ـ ١٩٣٩**، ص ٣٧٢.

(١١٥) صباغ، «ساطع الحصري المؤرخ،» ص ١٣١.

(١١٦) رافق الحصري في مهمته جميل الألشي وهو معتمد الحكومة العربية سابقاً في بيروت والكولونيل طولا (Towlat) وهو ضابط فرنسي.

(١١٧) الحصري، **يوم ميسلون، صفحة من تاريخ العرب الحديث**، ص ١٣٥ ـ ١٤٥.

على احتلال بلادنا احتلالاً تاماً، وعاملون على استكمال وسائل هذا الاحتلال مهما تقلبت الظروف والأحوال، حتى لو أننا أذعنّا لمطاليبهم الجديدة، ونفذنا كل ما جاء فيها»[١١٨]. وعرض ساطع عند عودته تلك الليلة إلى دمشق طلبات غورو الجديدة، وكان من شأن قبولها أن يجابه مقاومة في العاصمة الثائرة. وتخلفت الحكومة عن الإجابة إلى الطلبات لدى انقضاء المهلة. وفي صبيحة ٢٤ تموز/يوليو التحم المعسكران في مناوشة غير متكافئة، وأخلت الحكومة دمشق عندما دخلها الفرنسيون وقضت قوات الشرق الفرنسية على الاستقلال العربي.

وكان يوم ميسلون عميق الأثر في نفس المربي العربي، كما كان في نفس الشعب العربي في الشام. «ويمكن الحكم»، يقول الحصري، «ان هذا اليوم الذي اندرست فيه الدولة العربية كان من أخطر الأيام التي مرت على الأمة العربية في تاريخها الحديث وخاتمة الفصول الأولى من اليقظة العربية، وفاتحة فصولها الجديدة»[١١٩]. وكان يوم ميسلون المدرسة الواقعية التي عمَّقت عند الحصري الحس القومي العربي، وانغمس تماماً في خضم القضية العربية، ولم يعد يقوى على البقاء في سوريا، «بعد أن تبعثر رجال الثورة ودعاة القومية في مختلف الأقطار وأخذوا يجابهون حياة كفاح جديدة شاقة ومتشعبة تختلف شروطها عن شروط الصفحة الأولى اختلافاً جوهرياً»[١٢٠]. ولقد سطر ساطع الحصري تفاصيل هذه الأحداث في كتابه **يوم ميسلون**[١٢١]، وقد كان في «قلب مسرح الأحداث، وفي موقف خاص ييسر له الاطلاع على جميع صفحات الوقائع بتفاصيلها التامة.. واطلع على مقدمات القضية من أولها إلى آخرها اطلاعاً مباشراً»[١٢٢]. واستطاع أن يسجل تلك الأمور حتى لا تضيع على التاريخ وحتى يظهر حقائقه للعيان، وأرفقها بتلك المجموعة الكبيرة من الوثائق التي تسهل سبل التأريخ للدولة العربية المنهارة، والتي شاءت الظروف أن تكون بحوزته[١٢٣].

---

(١١٨) المصدر نفسه، ص ١٥١ ـ ١٥٢.

(١١٩) المصدر نفسه، ص ١٧ ـ ١٨.

(١٢٠) المصدر نفسه، ص ١٩.

(١٢١) قرر الحصري نشر مؤلفه في السنة الدورية الخامسة والعشرين ليوم ميسلون في دمشق الشام بعد أن شاهد فيها الوقائع الدموية للعدوان الفرنسي عام ١٩٤٥ على سوريا ودمشق بالذات.

(١٢٢) المصدر نفسه، ص ٣ ـ ٤.

(١٢٣) المصدر نفسه، ص ٢٠٧ ـ ٣٦٨. وكان فيصل قد سلمه الوثائق حين كلفه بمساعدة بونفانتي أستاذ الحقوق الدولية في روما في إعداد التقرير القانوني العام في القضية قبل ربع قرن من نشر الكتاب أثناء وجوده في إيطاليا ١٩٢٠ ـ ١٩٢١.

وخرج الحصري مع فيصل[١٢٤] «مودعاً حياة حافلة بشتى الأعمال والذكريات ملتمساً حياة جديدة تكتنفها أنواع الاحتمالات»[١٢٥]. وبعد رحيله من دمشق أمضى ساطع السنة التالية على سفر شبه متصل معظمه بصحبة فيصل، وحمّت علاقتهما في هذه الحقبة وهما يستحثان التأييد لقضية بعثر الاحتلال الغربي أنصارها. وكان فيصل بعد خروجه من حدود مملكته، قد عزم على الذهاب إلى سويسرا مستهدفاً الاتصال بمجلس السلم وبجمعية الأمم. ولما كان سفره إلى سويسرا عن طريق فرنسا من الأمور المستبعدة فقد أصبح من المحتم أن يسافر إلى سويسرا عن طريق إيطاليا. وأقام في إيطاليا عدة شهور جهد خلالها في البحث عن حلفاء للقضية العربية وكان الأمل لا يزال يراود فيصل في استعادة عرش سوريا.

وفي محاولة يائسة، وبسبب صلات الحصري السابقة بالأتراك، أوفد وزيره إلى استانبول في أواخر آب/أغسطس ١٩٢٠ للالتقاء بالكماليين والتنسيق معهم ليتحرى احتمالات القيام بعمل مشترك ضد الاحتلال الفرنسي لسوريا[١٢٦].

ولخص ساطع المسائل التي يود معرفة رأي الكماليين فيها بخطاب بعث به إلى صديق له من الكماليين (كان يشغل وظيفة وزير المالية)، يود الاستعلام عن بعض الأمور «هل تستطيع حكومتكم أن تساعد سوريا في جهادها ضد الاحتلال، وبالأخص هل تستطيع أن تزوِّد القوى الوطنية التي قد تتألف في جهات الشمال بالأسلحة والعتاد؟»[١٢٧]، ونفذ ساطع رغبة فيصل، ولكنه علم حين وصل إلى أرض الدولة التركية أن الكماليين كانوا في ذلك الحين مغلوبين على أمرهم، وأنهم بدأوا يسعون للتفاهم مع الفرنسيين كي يتمكنوا من مقاومة الإنكليز[١٢٨].

ولما أنفق ساطع ثلاثة أسابيع في التفاوض بلا جدوى مع الكماليين رجع إلى إيطاليا فقابل فيصل عند بحيرة كومو، ثم سافر إلى روما من تشرين الأول/اكتوبر

---

(١٢٤) بعد أن تلقى فيصل إنذاراً أخيراً من الفرنسيين غادر دمشق بسكة حديد الحجاز مع عائلته وحاشيته وأعضاء الحكومة فجر يوم ٢٨ تموز/يوليو ١٩٢٠ متجهاً نحو درعا فحيفا ثم بور سعيد. ويصف جميل صليبا «وقوف الوزراء على رصيف محطة الحجاز ينتظرون انطلاق القطار وفي السماء طائرات فرنسية تلقي المناشير على دمشق. وقد بكى الحصري بكاءً طويلاً حتى سالت دموعه على خديه يوم غادر دمشق». انظر: صليبا، «تجربتي مع ساطع الحصري،» ص ١٠٢.

(١٢٥) الحصري، **صفحات من الماضي القريب**، ص ١١.

(١٢٦) الحصري، **يوم ميسلون، صفحة من تاريخ العرب الحديث**، ص ١٧٨ ـ ١٩٤.

(١٢٧) خلف الله، «ساطع الحصري: قصة حياته،» ص ٢٧.

(١٢٨) برج، **ساطع الحصري**، ص ٤٢.

إلى كانون الأول/ ديسمبر ١٩٢٠. ومكث الحصري يكتب الرسائل إلى استانبول شارحاً ومؤيداً القضية العربية. وفي إحدى الرسائل (إلى يونس نادي أحد قدامى أصدقائه)[١٢٩]، تلميح إلى رغبته في توضيح الموقف العربي: فقد دفع الحصري التهمة أن الثورة العربية على السلطنة العثمانية أضعفت العالم الإسلامي ومكنت الغرب من اجتياحه. ثم أضاف قوله إن الثورة في الواقع لم تسهم على الإطلاق في اندحار المانيا والسلطنة العثمانية الاندحار النهائي «فالثورة أياً كانت ضآلتها في ميزان تبدل القوى العالمية أحيت المشاعر الوطنية لدى العرب». واحتج الحصري في هذه الرسالة بأن القوى الاستعمارية هي التي استهدفت الثورة لا السلطنة العثمانية. واختتم الحصري رسالته سائلاً يونس نادي أن يبدل من رأيه السابق في الثورة العربية وينسى الماضي «وأن يتهيأ للتعاون مع العرب في المستقبل»[١٣٠].

ومع أن الحصري قد لعب دوراً هاماً في مثل هذه الاتصالات مع الكماليين، لم تكن مهمات كهذه لتشفي غليله، فقد أحس وهو المفكر النهم للمعرفة وللحقيقة، بحاجة ملحة ومتزايدة للتعرف وفهم كل ما يجري ويدور على الساحة العالمية والعربية فيها بالذات[١٣١]. وقد حاول وهو في روما الاستخبار بشأن خطط فرنسا وبريطانيا للبلاد العربية من طريق وزارة الخارجية الإيطالية، وتهيأت له هذه الفرصة حين كلفه الملك فيصل الاتصال بالأستاذ بونفانتي ـ أستاذ الحقوق الدولية في روما ـ وتزويده بالوثائق اللازمة والمعلومات التي يحتاج إليها من أجل إعداد التقرير القانوني في القضية السورية. وأنهى مع الأستاذ بونفانتي التقرير المطلوب بعد جلسات طويلة[١٣٢].

وقبل أن يرفع الأستاذ بونفانتي تقريره إلى مؤتمر السلم كان الإنكليز قد

(١٢٩) الحصري، **يوم ميسلون، صفحة من تاريخ العرب الحديث**، ص ١٨٨ ـ ١٩٣.

(١٣٠) كليفلند، «تكوين قومي عربي، العثمانية والعروبة في حياة ساطع الحصري وفكره،» ص ١٢٢٩.

(١٣١) صباغ، «ساطع الحصري المؤرخ،» ص ١٣٣. تذكر ليلى صباغ أنه في هذه المرحلة انفتح ذهنه المبني بناء علمياً سليماً على آفاق منهجية البحث التاريخي العلمي وبدأ محتوى التاريخ نفسه يستثيره ويشغل حيزاً كبيراً في تفكيره، وتضيف «أتاحت فترة وجوده في إيطاليا فرصة دراسة التاريخ الغربي والعربي على حد سواء بتوسع وتعمق وقد تكون كوّة تكوين الوحدة القومية الإيطالية التي أطل منها ساطع على المعرفة التاريخية الحقة ونفذ منها إلى الممارسة الفعلية لمنهجية البحث التاريخي العلمي هي العامل الأول في حفزه نحو دراسة الفكر القومي بعامة والتعمق في تكوين القوميات في أوروبا في القرن التاسع عشر».

(١٣٢) الحصري، **يوم ميسلون، صفحة من تاريخ العرب الحديث**، ص ٣ ـ ١٣، ويؤكد الحصري في الكتاب أن مذكراته قد كتبها بعد تأدية مهمته مع بونفانتي، أي قبل ربع قرن من نشر كتابه.

أخذوا يحولون أنظار فيصل عن التفكير في القضية السورية إلى العراق، وقد دعوه إلى لندن لإجراء المفاوضات في هذا الخصوص(١٣٣)، لم يرَ ساطع ـ على حد قوله ـ فائدة من مرافقته خلال هذه الفترة، ورأى العودة إلى القاهرة التي وصلها في ٩ كانون الأول/ديسمبر ١٩٢٠ ليترقب نتيجة المفاوضات بين فيصل وانكلترا من أجل عرش العراق(١٣٤). وقد رفض ساطع دعوات المنفيين السوريين الذين حضّوه على الانضمام إليهم في نضالهم في عمان، وغيرهم ممن حثّوه على العودة إلى أوروبا والإسهام في حملة الدعاوة المعادية لاحتلال الدول الأجنبية الأراضي العربية(١٣٥).

وقد أقام الحصري في القاهرة مدة تقرب من العام واتخذ له سكناً ضاحية الزيتون، وكانت فترة إقامته ذات أهمية خاصة في فكره القومي ودعوته للوحدة العربية، فقد أقلقه الموقف المصري من العروبة(١٣٦). وصدم في هذه المرحلة، هو واخوانه الشاميون الذين لجأوا إلى مصر بعد سقوط دولة فيصل، بما لم يكونوا يتوقعونه أبداً، فقد لاحظوا أن المصريين ـ بما فيهم معظم رجال الثورة وزعمائها ـ ما كانوا يبادلونهم هذه المشاعر، بل إنهم كما يقول الحصري «ما كانوا يشعرون بقوميتهم العربية، وما كانوا يسلمون بأن مصر جزء من البلاد العربية، ولا يعترفون بأن الشعب المصري جزء من الأمة العربية، وكذلك قلما كانوا يكترثون بما حدث ويحدث في بلاد الشام، حتى إن أخبار انقراض الدولة العربية السورية نفسها لم تحرك في نفوسهم شيئاً يذكر من الأشجان. ولم يكتفوا بعدم الاكتراث، بل كانوا يستنكرون الثورة العربية نفسها، ويلومون رجالاتها ودعاتها». ومرجع ذلك في رأي الحصري إلى جهلهم دوافع الثورة وظروفها الحقيقية، واستنكارهم لأنها قامت ضد الخليفة العثماني. وفي تفكيره بأسباب مواقف المصريين تجاه حركات القومية العربية، توصل بعد الدرس إلى أنها نتيجة طبيعية للانعزال المادي والمعنوي الناجم عن الظروف التاريخية وأن هذه المواقف لا بد من أن تتغير وتزول بتغير ظروف الحياة الجديدة. وظل الحصري منذ ذلك التاريخ يحث المصريين على

---

(١٣٣) المصدر نفسه، ص ١٩٦ ـ ٢٠٣.

(١٣٤) المصدر نفسه، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

(١٣٥) يذكر الحصري في يوم ميسلون: «كان الإخوان المجاهدون قد انقسموا إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول اختفى في داخل البلاد السورية، والقسم الثاني ذهب إلى عمان، والقسم الثالث لجأ إلى مصر. وكان القسم الأول يسعى لتقوية روح المقاومة في الداخل لتنظيم ثورة داخلية، وكان القسم الثاني يأمل بجعل عمان مركز احتشاد للقوى الوطنية، وأما القسم الثالث فكان يهتم بالدعاية وكان يرى من الضروري تأليف وفد يتولى الدفاع عن حقوق سورية في البلاد العربية». المصدر نفسه، ص ٢٠٤.

(١٣٦) قاسمية، «مصر في كتابات ساطع الحصري القومية،» ص ١٣١.

تحمل تبعات دورهم في الحركة القومية العربية(١٣٧).

وبدأ ساطع وهو في القاهرة، يعد نفسه للأعمال التربوية والتعليمية بالعراق بناءً على اتفاق بينه وبين فيصل، ذلك أن فيصل بعد إبرامه اتفاقاً مع بريطانيا لترشيحه ملكاً على عرش العراق (لاسترداد ثقة العرب وتلطيف حدة الثورة العراقية)، مر بالقاهرة وهو في طريقه إلى الحجاز قبل التوجه إلى العراق، وأبلغ الحصري أنه سيدعى إلى العمل في النظام التربوي العراقي في أقرب وقت(١٣٨). وانصرف الحصري، وهو ينتظر دعوة فيصل إلى التعرف على العراق، ولم يعرف من قبل الكثير عن البلد، فدرس تاريخه القديم وتحادث مع رجال اشتركوا في الثورات الأخيرة هناك، وشؤونه الأخرى استعداداً لخوض غمار مهمته المقبلة(١٣٩)، هذا بالإضافة إلى ملاحقة أنباء السياسة العالمية الجارية وما يخص البلاد العربية منها(١٤٠).

وأراد ساطع الحصري انتهاز فرصة إقامته في مصر للوقوف على حالة التعليم فيها لأنها سبقت البلدان العربية في ميدان التعليم باللغة العربية(١٤١)، فكتب إلى وزير المعارف المصري (جعفر والي باشا) في ذلك الحين خطاباً يلتمس له التصريح بزيارة بعض المدارس المصرية، وجاءته الموافقة ودعا إلى مرافقته الأستاذ أحمد برادة كبير المفتشين لذاك العهد(١٤٢). وطلب ساطع من الوزير أن ترافقه زوجته لدى زيارته مدارس الإناث (وهي من المشتغلات بأمور التربية وكانت مديرة في دار المربيات في الآستانة)(١٤٣).

وكان هدفه الثاني من التعرف عن كثب على أنظمة التربية والتعليم في مصر اكتشاف النواقص التي تشوب النظام التعليمي الإنكليزي في البلدان المستعمَرة وذلك تمهيداً لما سيقدم عليه من إصلاحات في العراق(١٤٤). وقد آثر حرصاً على

---

(١٣٧) كليفلند، «تكوين قومي عربي، العثمانية والعروبة في حياة ساطع الحصري وفكره،» ص ١٢٢٩.

(١٣٨) كليفلاند، **ساطع الحصري من الفكرة العثمانية إلى العروبة**، ص ١٠٤.

(١٣٩) ساطع الحصري، **مذكراتي في العراق، ١٩٢١ ـ ١٩٤١**، ٢ ج (بيروت: دار الطليعة، ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨)، ج ١: ١٩٢١ ـ ١٩٢٧، ص ١٤ ـ ١٥.

(١٤٠) المصدر نفسه، ص ١٣ و٢٦ ـ ٣١.

(١٤١) المصدر نفسه، ص ١٥.

(١٤٢) خلف الله، «ساطع الحصري: قصة حياته،» ص ٢٨.

(١٤٣) الحصري، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٣.

(١٤٤) المصدر نفسه، ص ٢١.

مصلحة مصر وحبّها أن يقدم للمسؤولين فيها اقتراحاته بخصوص ما يراه واجباً من إصلاحات[١٤٥]، وأن يكتب لوزارة المعارف المصرية رأيه في برامج التعليم المصري[١٤٦]. وقد لاحظ الحصري إهمال المدارس المصرية خصوصاً في المدارس الأولية والابتدائية تدريس مادة التاريخ، ذلك أن ساطع ينظر إلى التاريخ على أنه الأساس المتين الذي تقوم عليه التربية الوطنية[١٤٧].

ولاحظ كذلك عدم العناية بالعلوم الطبيعية في المدارس المصرية «ومعلوم أن العلوم الطبيعية ذات تأثير عظيم في التربية العقلية، ولا بد من الاستفادة من هذا التأثير في الدراسة الابتدائية والثانوية، ولا سيما في الشرق، لأننا نحن المشرقيين ميالون إلى الخياليات والكلاميات، بعوامل عديدة أثرت ولا تزال تؤثر في تربيتنا منذ قرون، وهذا ما يجعلنا أشد افتقاراً من سوانا إلى العلوم التي تعدل هذا الميل فينا»[١٤٨]. وسيفيد ساطع من هذه الدراسة التي قام بها عن أحوال التعليم المصري في ما يقدم عليه من إصلاحات بالعراق.

وفي ما كان الحصري منكباً على دراسة نظم التربية في مصر تلقى في ٢٣ تموز/يوليو برقية من فيصل تدعوه إلى العراق بعد أن تم تتويجه هناك ملكاً. وعشية رحيله من بور سعيد بات ليلة في الفندق عينه الذي أقام فيه وفيصل قبل سنة لدى خروجهما من دمشق. ولكن هذه المرة بدلاً من الرحيل غرباً، رحل شرقاً ليبدأ مرحلة جديدة من حياته[١٤٩].

ثالثاً: في العراق (١٩٢١ ـ ١٩٤١)

كتب ساطع الحصري في **صفحات من الماضي القريب**[١٥٠] مقالاً بعنوان «لو لم يخرج الفرنسيون الملك فيصل من سوريا»، يتوّم فيها عمل فيصل في العراق جاء فيه «إن إخراج الملك فيصل من سوريا غداة ميسلون كان من الأمور التي نفعته ونفعت الأمة العربية منفعة كبيرة، وأرى أنه يجب أن يحمد الجنرال على فعلته هذه لأنني أعتقد أنه خدم بها القضية العربية من حيث لا يقصد ولا يدري، إذ أفسح

(١٤٥) خلف الله، المصدر نفسه، ص ٢٨.
(١٤٦) زعيتر، «ساطع الحصري أقوى الدعاة للقومية العربية،» ص ٥٠.
(١٤٧) برج، **ساطع الحصري**، ص ٤٤.
(١٤٨) الحصري، **مذكراتي في العراق، ١٩٢١ ـ ١٩٤١**، ج ١، ص ١٨.
(١٤٩) المصدر نفسه، ص ٢٢.
(١٥٠) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٩ ـ ٢٣.

أمام الملك فيصل مجالاً للعمل في بيئته وتحت ظروف أكثر مساعدة للعمل المثمر، فأكسب العراق مؤسساً داهية وأكسب الأمة العربية بطلاً مغواراً مثل فيصل العظيم». ويفسر الحصري ذلك بقوله «لأن ما أعلمه من سجايا الملك فيصل ونزعاته الأصيلة من ناحية، وعن عقلية الإنجليز والفرنسيين وسياستهم من ناحية ثانية، وعن أوضاع العراق وسوريا في تلك الحقبة من التاريخ، ونزعات أهليهما من ناحية ثالثة، يحملني على القول بأن الملك فيصل لو بقي في سوريا بعد وقائع ميسلون لما استطاع أن يقوم بخدمات تماثل الخدمات التي قام بها في العراق».

سافر الحصري إلى العراق وهو يشعر بثقل المسؤولية التي ستلقى عليه، فهو يعرف أحوال العراق الداخلية كما يعرف أحوال السياسة العالمية والأوضاع السيئة التي فرضها الاستعمار بعد التسوية النهائية على البلاد العربية، وعلى سوريا والعراق بوجه خاص. وكتب «نحن نعيش الآن في أسوأ الظروف العالمية وأضرها بالمصالح العربية في سوريا والعراق، فلا بد لنا أن نعمل تحت هذه الظروف السيئة والقاسية، دون أن نأمل في أية مساعدة مادية ومعنوية من أية دولة من الدول الداخلة في عصبة الأمم أو الباقية خارجها»[١٥١].

إن حياة الحصري في العراق كانت عشرين عاماً طويلة وشاقة من الكفاح المتواصل ابتدأها وهو في الواحدة والأربعين وخرج منها وهو في الواحدة والستين، خلال مرحلة من أدق المراحل التاريخية التي اجتازها القطر العربي، وهي مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى وبدايات الحرب الثانية أو بتعبير أدق خلال المرحلة التي تكونت فيها المملكة العراقية الثابتة بزعامة فيصل فسلالة الهاشميين من بعده[١٥٢]. عمل الحصري أثناء ذلك بقدم ثابتة وعلم راسخ من أجل رفع صرح التربية والتعليم على أسس علمية تربوية معاصرة. وهو في عمله الرسمي وغير الرسمي لم ينقطع عن الدعوة إلى وحدة الأمة العربية وإشاعة الشعور بأمجادها بالمناهج، بالبلاغات الرسمية، بالمعارض، بالمحاضرات، بالرسائل، «في همة عز نظيرها لدى أبعد الشبان همة»[١٥٣]. وقدم الحصري عن هذه المرحلة الغنية من حياته، بعد ربع قرن من مغادرته العراق، أضخم مؤلف له وهو **مذكراتي في**

(١٥١) المصدر نفسه، ص ٣١.

(١٥٢) ليلى صباغ، «ست سنوات من كفاح الحصري للإنكليز في العراق،» (مجموعة البحوث التي ألقيت في الذكرى المئوية لمولد الحصري، في نطاق أسبوع العلم السابع عشر، دمشق، المجلس الأعلى للعلوم، ١٩٧٧)، ص ٦٤ ـ ٦٥.

(١٥٣) زعيتر، «ساطع الحصري أقوى الدعاة للقومية العربية،» ص ٥٠.

جزأين (في ألف ومائتين وخمسين من الصفحات) خص الواحد منهما بالسنوات الست الأولى التي قضاها في العراق، وخص ثانيهما، وهو الذي صدر قبل وفاته، بالسنوات المتبقية. وقد «رسم الحصري في مؤلفه بأسلوب حركي شائق، صورة تاريخية زاخرة وحية، لا عن حياته مربياً عربياً، علمياً وقومياً.. ومناضلاً منافحاً.. بحماسة وتشبث، من أجل مبادئه القومية والتربوية، والعلمية فحسب، وإنما خط فيها لوحة تاريخية ملونة، تبرز بعلمية ودقة وبالوثائق الرسمية الكثير والهام من تفاعلات الحياة في المجتمع العراقي وضمن الحكم»[١٥٤]. ويرى البرت حوراني[١٥٥] أن كتاب **مذكراتي** يزخر بالوقائع المفصلة ولكنه يتجنب التحليل الذاتي.

كان فيصل قد استدعى الحصري إلى العراق ليكون رفيق دربه وعضده في بناء المعارف فيها، ثم في تأسيس المملكة العراقية على أسس عربية متينة، كما كانت عند تكوين الدولة العربية في سوريا، وليتعاون الاثنان معاً على نزع السلطات من الإنكليز تدريجياً وتحرير العراق شيئاً فشيئاً حتى إيصاله إلى الاستقلال التام، ولا سيما أن «أمور المعارف ـ والتربية والتعليم ـ يجب أن تكون في مقدمة الأمور التي ستؤخذ من الإنكليز»[١٥٦]. وكان الملك فيصل يريده في الحقيقة خبيراً تربوياً يستطيع أن يناقش الخبراء البريطانيين مناقشة علمية. فمن المعروف أن الحصري كان قد درس شؤون التربية والتعليم دراسة شاملة وعميقة وعمل في ميدانها منذ كان في تركيا، كما اطلع عن كثب على أحوالها في كثير من البلاد الأوروبية، فوجوده في المعارف العراقية سيقطع دابر ادعاءات الإنكليز بحاجتهم إلى خبراء منهم يملأون بهم الوزارة[١٥٧].

وقد ظل الحصري خلال الشهور الستة الأولى التي جاء فيها إلى العراق لا يتولى أحد المناصب وإنما بقي في «معيَّة» الملك فيصل بمثابة مستشار في أمور المعارف. وكان عدم تولي ساطع لأحد المناصب طيلة هذه الفترة بناء على رغبته هو، كي تكون فترة للدراسة والبحث والاستطلاع[١٥٨]. وبرأيه «أن الأعمال الإصلاحية والإنشائية لا تثمر الثمرات المنشودة منها ما لم تجر وفق خطط مرسومة

---

(١٥٤) صباغ، المصدر نفسه، ص ٦٥.

(١٥٥) حوراني، **الفكر العربي في عصر النهضة، ١٧٩٨ ـ ١٩٣٩**، ص ٣٧٢.

(١٥٦) الحصري، **مذكراتي في العراق، ١٩٢١ ـ ١٩٤١**، ج ١، ص ١٣ ـ ١٤.

(١٥٧) المصدر نفسه، ص ٤٧.

(١٥٨) المصدر نفسه، ص ٤٠.

بوضوح وشمول وإتقان. هذه القاعدة العامة تكتسب خطورة خاصة في أعمال التربية والتعليم»[١٥٩]. ونظراً لأن الأهداف الأساسية كثيراً ما تكون صعبة المنال ـ بل ومستحيلة التحقيق ـ في حملة واحدة، وذلك لبعدها عن الأحوال الراهنة بعداً شاسعاً، ولعدم وجود الوسائل اللازمة للوصول إليها، فلا بد بنظره «من وضع مخططات انتقالية لضمان الوصول إلى الأهداف المنشودة بشيء من التدرج، على أن تكون هذه المخططات الانتقالية بمثابة (محطات) تقام في السبل المؤدية إلى الأهداف الأساسية. إن هذه القاعدة أيضاً تكتسب أهمية خاصة في أمور التربية والتعليم، فالمنهج الذي يوضع على أسس (نظرية ومثالية) بحتة دون الالتفات إلى الأحوال الراهنة ـ من مستوى التلاميذ ومقدرة المعلمين ـ يبقى حبراً على الورق، وأما المنهج الذي يوضع على ضوء الأحوال الراهنة وحدها ـ ومستوى المعلمين الحاليين وحدهم ـ فيؤدي إلى تحجر الأمور في أوضاع سيئة تماماً. فالمنهج يجب أن يأخذ الأحوال الراهنة بنظر الاعتبار، غير أنه لا يجوز أن يكتفي بها.. بل يجب أن يكون (واسطة) لتحسين تلك الأحوال... وفضلاً عن ذلك كله، فإن المنهج نفسه، يجب أن يتطور، ويرتفع كلما ارتفع مستوى التلاميذ والمعلمين. لكي يصبح أكثر تقرباً من (الشكل الأمثل) في كل مرحلة من مراحل هذا التطور»[١٦٠].

وازداد الحصري يقيناً بالصعوبات التي توقعها بعدما عاش ستة أشهر في «معية» الملك فيصل، قبل أن يعين رسمياً وهو يتنقل في أنحاء العراق ويتعرف من الواقع المحسوس، على مختلف البيئات ويلمس شتى النواقص في بيئة المجتمع ويتحسس مباشرة القوى المضادة التي ستتصدى له. وتبينّ له أن هناك صنفين من القوى المضادة: صنف أهلي عراقي، وصنف أجنبي مجاور ودخيل[١٦١]. ويدخل تحت الصنف الأول بالطبع الوهن الاقتصادي الذي كان يعانيه العراق، والتشعث الاجتماعي من وجود بدوي شبه طاغ على الحياة الحضرية، إلى تفكك ديني ومذهبي وقومي، إلى جهل مستحكم، وأفكار سلفية بالية، إلى ضمور في الشعور القومي العربي، وتعصب للتيار الإقليمي وقلة في الكفايات. ويدرج تحت الصنف الثاني الجيران الطامعون من أتراك وإيرانيين والإنكليز السائدون منذ عام ١٩١٤[١٦٢]. فلقد حكم الإنكليز حكماً مباشراً منذ مدة سبع سنوات في المناطق

(١٥٩) المصدر نفسه، ص ٣٤.

(١٦٠) المصدر نفسه، ص ٣٤ ـ ٣٥.

(١٦١) صباغ، «ست سنوات من كفاح الحصري للإنكليز في العراق،» ص ٦٦.

(١٦٢) المصدر نفسه.

الجنوبية، أربع أو خمس سنوات في المناطق الوسطى، ثلاث سنوات في المناطق الشمالية، «فلا ينتظر منهم أن يتخلوا ـ الآن، وفي دفعة واحدة ـ عن جميع السلطات التي كانوا يمارسونها»[١٦٣].

وقد توصل الحصري إلى قناعة بأن حقائق الأحوال الراهنة آنذاك تدل دلالة قاطعة على أنه من العبث أن يطلب فيصل من بريطانيا أن تتنازل عن جميع مكاسبها السياسية والعسكرية، وأن تتخلى عن كل مصالحها ومطامعها الاقتصادية مرة واحدة: «إذ لا يمكن أن تفعل ذلك، بعد أن استولت على البلاد نتيجة لحروب دامية.. وصارت تدير البلاد إدارة مباشرة.. وبعد أن أخمدت الثورة العراقية، وبعد أن ذللت جميع الموانع والعقبات الدولية التي كانت تعرقل سيرها، كان يمكنها أن تتخلى عن بعض الأقسام من مكاسبها ومصالحها ولكن لا يمكنها أن تتنازل عن جميعها مرة واحدة في الظروف الحالية، فضلاً عن أنه لو فعلت ذلك ـ على فرض المحال ـ لانتفى احتمال تكوين دولة عراقية موحدة تضم ولايات الموصل وبغداد والبصرة، وتدير شؤون جميع المناطق الممتدة من أقاصي الجبال المتاخمة لتركيا شمالاً إلى منتهى الشواطئ المتصلة بسواحل الخليج العربي جنوباً. ذلك نظراً لأطماع جاراتها القوية.. ونظراً لحرمانها من أجهزة الحكم والإدارة اللازمة لها وجيش وطني... إن تكوين الدولة العراقية الموحدة والحالة هذه ما كان يمكن أن يتم إلا بالاتفاق مع بريطانيا، وبضمان مساعدتها للعراق.. وكان فيصل يعبر عن هذه السياسة بقوله (خذ وطالب)، وهذه السياسة كانت تعني السير بالبلاد في طريق الاستقلال مرحلة بعد أخرى»[١٦٤].

لقد كان الحصري معجباً بمرونة فيصل التي تمكنه من التكيف مع مقتضيات الظروف والأحوال، وكتب في **صفحات من الماضي القريب** «إن هذه السياسة المرنة كان يمكن أن تؤدي إلى الاكتفاء بما تم أخذه وإلى التقاعس عن طلب المزيد، لو لم تحركه على الدوام هذه الوطنية الطامحة التي لا تكتفي بالنزر الذي وصل إلى اليد، بل تبقى تطالب بما وراء ذلك وتصبو إلى الأتم فالأتم على الدوام.. وتعتبر كل خطوة من خطوات الفوز مقدمة للخطوات التالية ومقفزاً للوثوب إلى الأمام»[١٦٥]. وبرأي ليلى الصباغ ان هذا كان يعني «مواكبة الملك فيصل في سياسته المعروفة (خذ وطالب) التي رأى الحصري ـ على الرغم من جذريته الأخلاقية والقومية ـ انها

---

(١٦٣) الحصري، المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٦.

(١٦٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٢٧ ـ ٥٢٨.

(١٦٥) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٣ ـ ١٤.

سياسة حكيمة وبناءة. وسوّغ هو نفسه. . هذا الخط من العمل بحجج واقعية وعقلانية موضوعية». وتضيف «وهذه السياسة تنسجم في الواقع مع تفكير الحصري التربوي ذاته في وضع مخططات انتقالية إلى جانب الخطة الكبرى والهدف الأسمى، على الرغم من تكوينه المثالي العميق الذي لا يقبل إلا الكمال في كل أمر»[(١٦٦)].

كان على الحصري أن يوطد نفسه، في ما يخص ساحة عمله، أنه سيكون هناك مستشارون ومفتشون بريطانيون، كما في مختلف الوزارات، وأنه سيترتب عليه أن يسعى «إلى إصلاح معارف البلاد وترقيتها وإيصالها إلى مدارج النهوض والاعتلاء من الوجهتين العلمية والقومية، على الرغم من وجود هؤلاء»[(١٦٧)]. ووضع في ذهنه، في إطار تنفيذ السياسة التي اتفق عليها مع الملك فيصل، تخليص شؤون المعارف تدريجياً من سلطة الإنكليز وتأثيرهم[(١٦٨)]. وقبل أن يتولى عملاً رسمياً في معارف العراق أتيحت له لقاءات مع «فارل» المستشار البريطاني لوزارة المعارف العراقية والمهيمن على شؤونها. وكان فارل «جامد الفكر ومتعجرف الطبع»[(١٦٩)]، ويشعر بأن النظام التعليمي الذي وضعته الإدارة البريطانية هو النظام الأمثل. لكن ساطع يؤمن بأن العراق ليس بحاجة إلى أن يطبق نظم التعليم الإنكليزية أو الفرنسية أو التركية، وإنما النظام الأمثل له هو ما ارتبط بأحوال العراق العامة وظروفه التاريخية، وهذا ما ينبغي أن يكون شأن النظام التعليمي في كل بلد[(١٧٠)]. ولم يباشر الحصري عمله معاوناً لوزير المعارف إلا بعد أن سوّى الملك فيصل مع المندوب السامي البريطاني «كوكس» أمر نقل فارل إلى فلسطين[(١٧١)].

وقد باشر ساطع الحصري العمل معاوناً لوزارة المعارف مدة كانت أقل من

---

(١٦٦) صباغ، المصدر نفسه، ص ٦٦ ـ ٦٧.

(١٦٧) الحصري، المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٧.

(١٦٨) زعيتر، «ساطع الحصري أقوى الدعاة للقومية العربية،» ص ٥٠.

(١٦٩) الحصري، المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٢.

(١٧٠) المصدر نفسه، ص ٦٦ ـ ٦٧.

(١٧١) زعيتر، المصدر نفسه، ص ٥٠، كان فارل قد عارض تعيين الحصري معاوناً لوزير المعارف بحجة أنه لن يسمح أبداً أن يدخل بينه (أي فارل) وبين الوزير شخص ثان واقترح للحصري وظيفة مدير معارف في كركوك لأنه يجيد التركية، ولما عاد الحصري إلى الملك اقتنع بتسلط فارل وانتهى الصراع بتعزيز السيادة العربية العراقية على المعارف ممثلة بشخص الحصري. انظر: صباغ، «ست سنوات من كفاح الحصري للإنكليز في العراق،» ص ٧١.

عام منذ ٥ تموز/يوليو ١٩٢٢ وحتى ١٧ كانون الثاني/يناير ١٩٢٣ حين عيّن مديراً للمعارف حتى ٣١ آب/أغسطس ١٩٢٧[١٧٢]. وقد اجتنب الحصري خلالها العمل السياسي ويفسر هو هذا الإعراض بعض الشيء[١٧٣]، بأن الملك عقد العزم على ضمان الاستمرار للنظام التربوي العراقي عن طريق ضمان مكوث الحصري مديراً عاماً للتربية، فأعطيت له حصانة من تولية الحكومات وصرفها، وحُفظ له موضعه الثابت، فيما كان وزراء التربية يتداولهم الصرف ثم التولية من جديد، كذلك رأى الحصري من تلقاء نفسه أن إسهامه في السياسة الحزبية من شأنه أن يخفّ بالخطر عمله المجدي في التربية. وكان الحصري قد اقتنع، منذ أيام إقامته بدمشق، بقصر عهد الحكومات في ظل عدم الاستقرار السياسي فاختار نهج عدم المشاركة في نشاط الحكومات والأحزاب السياسية. وقد ذكر في معرض تفسيره لموقفه هذا أن عمله لإعادة بناء معارف العراق على أسس متينة تتطلب أن يبقى في منصبه مدة لا تقل عن عشر سنوات مما لا تسمح به المناصب الوزارية، ولذا رأى أن يحصر جهوده في ميدان التربية والتعليم لأن السياسة في رأيه، ترتبط بالمصالح الشخصية التي لا علاقة لها بالمصلحة العليا. ولذلك كان يميز بين سياسة الإدارة والحكم ونوع آخر من «السياسة العليا» التي ترمي إلى بث الشعور الوطني والقومي في نفوس المواطنين بوجه عام وفي نفوس النشء الجديد بوجه خاص[١٧٤]. واختار الحصري متعمداً أن يصرف جهوده في هذا الصنف من السياسة، وسجل في مذكراته قراراً مكتوباً[١٧٥] «سأتوسل بكل الوسائل لتقوية الشعور الوطني والقومي في نفوس أبناء العراق، وبث الإيمان بوحدة الأمة العربية بينهم، وذلك دون أن أنتسب إلى حزب من الأحزاب السياسية التي لا بد أن تتألف عاجلاً أو آجلاً»، دون أن يعني هذا عدم اهتمامه بالأحوال السياسية في العراق أو عدم الاكتراث بها «فإنني لم أنقطع عن تتبع تطورات السياسة، دون أن أشترك فيها»[١٧٦].

---

(١٧٢) استطاع المستشار الإنكليزي لوزير المالية ووزير المالية اليهودي صاصون حسقيل التآمر على الحصري وإلغاء وظيفة المعاون بإقناع مجلس الوزراء بحجة توفير النفقات وإحلال وظيفة مدير المعارف العام مكانها على ألا يتسلمها إلا عراقي لضمان إقصاء الحصري من ميدان العمل في وزارة المعارف. إلا أن الملك اعتبره عراقياً وعينه مديراً عاماً للمعارف. الحصري، **مذكراتي في العراق، ١٩٢١ ـ ١٩٤١**، ج ١، ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤.

(١٧٣) المصدر نفسه، ص ٤٦ ـ ٤٧.

(١٧٤) المصدر نفسه، ص ٣٧.

(١٧٥) المصدر نفسه، ص ٣٨.

(١٧٦) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٢٥.

أنجز الحصري خلال سنوات عمله في وزارة المعارف العديد من الأعمال(١٧٧): فكان مجدداً ومربياً مبادراً وأخذ يرسي قواعد نهضة تعليمية ويحقق إصلاحات ارتآها ضرورية للتعليم في العراق، وحرص على إقامة صرح المعارف على أسس متينة دون الالتفات إلى المظاهر الخداعة وأن يعمل عملاً متواصلاً لرفع مستوى التعليم وزيادة كفاءة المعلمين، ويتخذ من التدابير كل ما يمكن اتخاذه لقطع دابر التساهل والمحاباة في أمور التربية والتعليم(١٧٨). وكان في الواقع يحكم الإشراف على التنظيم التربوي. وكانت نقمة الحصري على سياسة التفرقة القومية والطائفية التي كانت الإدارة البريطانية قد أشاعتها في معارف العراق، وسعى إلى إنقاذ المعارف من النظم الموروثة عن العهد البريطاني، ووحد التربية والتعليم في مدارس الحكومة والمدارس الأجنبية والطائفية ووجه التعليم اتجاهاً وطنياً(١٧٩). وكان نهجه الثابت في توحيد أنظمة التعليم يهدف في الوقت ذاته إلى دمج العشائر العديدة في الكيان العراقي الموحد، في حين كانت الإدارة البريطانية تسعى لإبقائها بمعزل عن المدن بإقامة نظام تعليمي خاص يتوافق مع ظروف الحياة البدوية(١٨٠).

ولم تصرفه اعتبارات الطابع القومي للتربية، وتقوية الشعور الوطني والقومي(١٨١)، عن الاهتمام بالاعتبارات التربوية المهنية وتحسين نوع التربية أو التفريط بالمعايير التعليمية الصحيحة(١٨٢). وقد أصدر في هذه الفترة الكثير من التعليمات والتوجيهات التربوية وطائفة من الأنظمة والقوانين والمنشورات الرسمية، كما نشر عدداً من الكتب منها **القراءة الخلدونية** و**مرشد القراءة الخلدونية** و**دروس الأشياء**(١٨٣). وأثار كتابه **أصول التدريس** إعجاب عيسى

---

(١٧٧) المصدر نفسه، صفحات متعددة من الجزء الأول.

(١٧٨) المصدر نفسه، ص ٦١١.

(١٧٩) زعيتر، المصدر نفسه، ص ٥٠، ويذكر أن الحصري اعتمد على علمي التاريخ والجغرافيا وعلى الإحصاء لتعزيز الجهود في سبيل الإبقاء على عروبة ولاية الموصل وعراقيتها حين قدمت لجنة ألفها مجلس عصبة الأمم للتحقيق بدعاوي الأتراك في الولاية. وكان لجهوده فضل كبير في ما انتهت إليه اللجنة من قرار بأن الموصل تعود إلى العراق جغرافياً واقتصادياً. الحصري، المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٨٧ ـ ٥١٢.

(١٨٠) تيخونوفا، **ساطع الحصري: رائد المنحى العلماني في الفكر القومي العربي**، ص ٢٩، وكليفلاند، **ساطع الحصري من الفكرة العثمانية إلى العروبة**، ص ١١٥.

(١٨١) الحصري، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢١٥ ـ ٢١٦.

(١٨٢) المصدر نفسه، ص ٢١٢ ـ ٢١٥.

(١٨٣) جحا، معد، «ترجمة ساطع الحصري كما كتبها بقلمه في أواخر عام ١٩٦٠،» ص ٢٥٢.

اسكندر المعلوف[١٨٤] لأنه «حسن الترتيب والتبويب.. وعلى أحدث الطرق المعروفة اليوم في أوروبا، كثير الفوائد جزيل العوائد». ويشكر للمؤلف (الحصري) «غيرته في وضع مثل هذه الكتب الحديثة الأساليب الغزيرة النفع». ودعا لها بالرواج والانتشار «لتعميم فوائدها وتطبيق الدروس على حاجات العصر».

ولم يتردد الحصري، في إحضار معلمين عرب أكفاء من خارج العراق للتعليم الثانوي للوفاء بشرطين معاً: أي مستلزمات القومية الحقة ومبادئ التربية الصحيحة. وكان هؤلاء أنصاراً متحمسين للإصلاحات وتركوا تأثيراً بالغاً في حياة البلاد التعليمية[١٨٥].

وعلى رغم مآثر الحصري العديدة في خدمة البلد، فقد أحفظت أساليبه الإدارية، التي لم تكن مألوفة، الناس عليه في بلده الثاني: فقد كان يعمل بمجموعة عصرية من النظريات والوسائل وأخفق كثيرون في فهم دعواته إلى التغيير والاستجابة لها. واستهدفت مثلاً سياسة الإشراف المركزي التام على إدارة النظام العراقي التربوي إلى نقد متواتر، هذه السياسة التي تستند إلى المبدأ القائل بأن وحدة المنهاج تنشئ حساً بالكيان القومي[١٨٦]. وكان موقف الحصري من اللغات الأجنبية[١٨٧] من العوامل التي أثارت عليه انتقاد العديد من العرب والأجانب على السواء، بل وصل الأمر بالبعض إلى حد اتهامه بالتعصب الأعمى. وكان الحصري يدافع عن موقفه النابع من رأي تربوي وهو أمر قابل النقاش والجدل، ولكنه كان على كل حال موقفاً بعيداً كل البعد عن الدوافع العنصرية، ولم ينبع من تعصب ضد كل ما هو أجنبي، وبخاصة أن الحصري كان يدعو إلى الاستفادة من العلوم الأجنبية وهو أمر لا يمكن تحقيقه دون تعلم لغة من اللغات الأجنبية[١٨٨].

---

(١٨٤) **مجلة المجمع العلمي العربي** (دمشق) المجلد ٤، ج ٨ (آب/أغسطس ١٩٢٤)، ص ٣٠٣. وطبع كتاب الحصري في دار السلام ببغداد «وهو الجزء الأول من الدروس والمحاضرات التي ألقاها الحصري وبعضه ألقاه بالتركية في الآستانة والآخر بالعربية في دمشق وبغداد».

(١٨٥) الحصري، **مذكراتي في العراق، ١٩٢١ ـ ١٩٤١**، ج ١، ص ٥٧٧.

(١٨٦) انتقدت لجنة أمريكية للتحقيق التربوي من جامعة كولومبيا برئاسة بول مونرو عام ١٩٣٢، الإشراف الكامل من القمة على البنية التربوية الأساسية التي أنشأها الحصري وهو مدير عام للتربية. تفاصيل التقرير ونقد الحصري له في: المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٦٥ ـ ٢٥٥.

(١٨٧) في المنهج الجديد حذفت اللغة الأجنبية في السنوات الأولى من المدارس الابتدائية. المصدر نفسه، ج ١، ص ٢١٣.

(١٨٨) كليفلند، «تكوين قومي عربي، العثمانية والعروبة في حياة ساطع الحصري وفكره،» ص ١٢٢٩ ـ ١٢٣٠.

واتخذ الحاقدون من عدم ولادته بالعراق وسيلة للكيد له، واستغلوا النوازع الإقليمية وراحوا يتهمونه باحتقار العراقيين (وبخدمة الدخلاء)[189]. ولم تكن معارضة (التقليديين) بأقل ضراوة، فقد كانوا يشغلون مناصب هامة في كافة ميادين الحياة الاجتماعية والتربوية، وكان هؤلاء غالباً ما يرون في إجراءات الحصري الرامية إلى رفع مستوى التعليم العصري نيلاً من الدين ومساساً بأركانه. وسجل الحصري في مذكراته نماذج بالغة الدلالة من الآراء[190]. واتخذ الناقمون على ساطع سبيلاً إلى التشهير على رغم ما قام به من تدابير فعالة للكف من سياسة التفرقة القومية والطائفية التي كانت الإدارة البريطانية قد أشاعتها في معارف العراق: فقد عمد إلى تصفية الوضع المتميز للمدارس الأجنبية المسيحية[191] والحد من تأثير المدارس الإيرانية في العراق[192]، ورفض رأي المنادين بضرورة فتح مدارس خاصة بأبناء القبائل[193]، مع أنه كان ينطلق في عمله من عقيدة قومية وأسلوب علمي بعيد عن التعصب.

ويعتقد الوائلي أن أساليب الحصري وآراءه في التربية كانت «جديدة غير مألوفة في ذلك الوقت، وكان المجتمع حين ذاك يخضع لتقاليد (وعنعنات) من الصعب تغييرها بالسرعة التي أرادها الحصري، وكان هو نفسه ـ كما سبقت الإشارة ـ يعترف بصعوبة تحقيق أهدافه مرة واحدة»[194]. يضاف إلى ذلك أن الحصري «لم يكن مرناً في أساليبه وكان عنيداً شديد التمسك برأيه. وكان إلى جانب ذلك سريعاً في توجيه الانتقاد اللاذع الممزوج بالسخرية إلى أولئك الذين لم يتمكنوا من فهم أهدافه وأساليبه. . . في الوقت الذي كان عليه أن يدرك واقع الأحوال، وحقائق الأمور في العراق». وبرأي كليفلاند «أنه كان من شأن حصانة الحصري إحداث مشكلات أخرى له وتوريطه في خلافات متصلة مع وزراء

---

(١٨٩) الحصري، المصدر نفسه، ج ١، ص ٦١١ ـ ٦١٤.

(١٩٠) المصدر نفسه، ص ٤٩ ـ ٥٤، ١٥٤، ٢٣٧... الخ.

(١٩١) المصدر نفسه، ص ١٦٣ ـ ١٧٥.

(١٩٢) المصدر نفسه، ص ٦١٢ ـ ٦١٣. يذكر خلف الله، أن الحصري كان يصدر عن عقيدة قومية وكان ينشئ إلى جانب كل مدرسة إيرانية مدرسة عربية وييسر سبل الالتحاق بها مما دفع الكثيرين إلى الانصراف عن المدارس الإيرانية إلى المدارس العربية الأمر الذي ساعد على غلق الكثير من المدارس الإيرانية «وان الاخوان الشيعة لم يفسروا هذا الصنع تفسيراً قومياً وإنما فسروه تفسيراً مذهبياً». خلف الله، «ساطع الحصري: قصة حياته،» ص ٣٠.

(١٩٣) الحصري، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٤٧ ـ ١٥٥.

(١٩٤) كليفلند، «تكوين قومي عربي، العثمانية والعروبة في حياة ساطع الحصري وفكره،» ص ١٢٣٠.

المعارف الذين عمل معهم مديراً عاماً»[195]. ونجم هذا التخالف في المبدأ من إخفاق الحصري والوزراء في تعيين حدود السلطات، فالحصري أحس أنه هو الخبير، فأراد لنفسه سلطة القرار العليا وكان يتجاهل الوزراء ويحاول تخطيهم، أما الوزراء فرغبوا في تثبيت سلطان منصبهم مما زاد في حدة النزاعات[196].

وفي عام ١٩٢٧ بلغت المعارضة للحصري حداً أقر معه بضرورة التنحي من المديرية العامة للمعارف لكي يتسنى للحكومة أن تنتخب من يستطيع مواصلة العمل في الاتجاهات الأساسية التي سار عليها، مع أنه وصف معارضيه بأنهم أولئك المتضررة مصالحهم من أساليبه المباشرة لتحسين التربية وإدارتها[197]. وأبدى رغبته في الانصراف إلى التعليم في دار المعلمين العالية بهدف رفع مستوى التدريس فيها وزيادة كفاءة متخرجيها، وكي يتيح له العمل الجديد التوسع والتعمق في أبحاثه العلمية والاجتماعية[198]. واضطر الملك للموافقة على إبعاده مؤقتاً عن إدارة نظام التعليم[199].

وفي السنوات الأربع التالية (بين ١ آب/أغسطس ١٩٢٧ و٣٠ أيلول/سبتمبر ١٩٣١) تولى منصب أستاذ في دار المعلمين العليا (وكانت الدار قد أقيمت بمبادرة منه عام ١٩٢٣)[200]. وكان الدافع الذي حدا ساطعاً على طلب تعيينه في دار المعلمين هو إيمانه أن السبيل الوحيد لإصلاح التعليم هو البدء بإعداد المعلم الجيد، وأنه عن طريق التدريس في هذه الدار يستطيع أن يعد المدرس الكفء. وقام ساطع بتدريس علم النفس وأصول التدريس والتطبيقات التدريسية، وفضلاً عن ذلك كان يلقي سلسلة محاضرات على الطلاب في ما يحتاج إليه المربون في أبحاث علم الاجتماع وفلسفة العلوم[201]. وصار طلبة دار المعلمين العليا، وهم

---

(١٩٥) كليفلاند، **ساطع الحصري من الفكرة العثمانية إلى العروبة**، ص ١١٦.

(١٩٦) أمثلة عن الخلافات في: الحصري، **مذكراتي في العراق، ١٩٢١ ـ ١٩٤١**، ج ١، ص ٢٧١ ـ ٢٩٥.

(١٩٧) ينقل كليفلاند عن أحد مؤيدي الحصري وهو طالب مشتاق، انه يشبه الحصري «بالمصلحين في كل مكان الذين يستهدفون للإشاعات الملفقة وحملات الافتراء يجردها عليهم أولئك الذين يذعرهم التغيير التقدمي». كليفلاند، المصدر نفسه، ص ١١٦.

(١٩٨) الحصري، المصدر نفسه، ج ١، ص ٦١٥.

(١٩٩) المصدر نفسه، ص ٦١٧.

(٢٠٠) كان الحصري قد سبق ورتب دور المعلمين على ثلاث درجات: دار المعلمين الأولية يقبل فيها خريجو المدارس الابتدائية، ودار المعلمين الابتدائية يقبل فيها خريجو المدارس المتوسطة، ودار المعلمين العادية يقبل بها خريجو المدارس الثانوية. المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٠٢.

(٢٠١) المصدر نفسه، ص ٧ ـ ٩.

معلمو المستقبل الذين أناط بهم الحصري الدور القيادي بالتوعية القومية، أول من تعرف على نظرية الحصري المتكاملة في القومية العربية[٢٠٢].

ولم تنحصر أعماله خلال هذه المدة بتدريسات دار المعلمين، إذ انخرط في أعمال أخرى بعضها رسمي وبعضها غير رسمي: فقد اشترك في أعمال لجان لتدقيق الكتب المدرسية وإصلاح البرامج المدرسية. كما قام بالدور الرئيسي في وضع مشروع قانون المعارف لعام ١٩٢٩، وأنظمة المدارس والامتحانات عام ١٩٣٠[٢٠٣]. ومعنى هذا أن تأثير الحصري في مسيرة إعادة تنظيم التعليم ظل قوياً[٢٠٤]. أما أعماله غير الرسمية فكانت إصداره **مجلة التربية والتعليم** (وأصدر منها خمسة مجلدات) كما ألقى محاضرات عامة في نادي المعلمين وفي نادي التضامن، وألف كتاب **أصول التدريس** في مجلدين وأعاد ترجمة **دروس الأشياء** (التي كان قد نشرها بالتركية لتدريسها في المدارس الابتدائية، ودقق في ما ترجمه بعض الأساتذة عن كتبه في العلوم الطبيعية ـ بالتركية ـ كما وسع علاقاته بمكتب التربية الأممي في جنيف)[٢٠٥].

ولكن اليد التي مضت تقاوم ساطع الحصري لم تيأس، وبخاصة الإنكليز، الذين رأوا في دار المعلمين بؤرة من «بؤر الانفجار الوطني» فقد ألحوا ـ وكانت لا تزال لهم اليد الطولى في البلاد حتى بعد إعلان الاستقلال الشكلي عام ١٩٣٠ ـ على إغلاق الدار وتم ذلك في أواخر أيلول/سبتمبر ١٩٣١. ويجزم الحصري أن رغبة «التخلص من ساطع الحصري ومن آثاره»[٢٠٦]. كانت من جملة دوافع الإلغاء، ولم تعد الدار إلى الحياة من جديد إلا عام ١٩٣٥.

وعلى الرغم من ارتياح البعض لتنحية الحصري عن مركز السلطة الإدارية منذ عام ١٩٢٧، أخذ آخرون في مجلس النواب العراقي يلاحظون تردياً واضحاً في النظام التربوي بعد استعفائه. وبتوسط جماعة من النواب الوطنيين عهدت للحصري مجدداً المساهمة في تسيير أمور التعليم ولكن بمنصب «مراقب التعليم العام» الذي استحدث خصيصاً له، وعاد مصلحاً لا تلين له قناة. واستمر مراقباً عاماً من ١ تشرين الأول/اكتوبر ١٩٣٠ إلى ٣١ كانون الأول/ديسمبر

---

(٢٠٢) تيخونوفا، **ساطع الحصري: رائد المنحى العلماني في الفكر القومي العربي**، ص ٣١.

(٢٠٣) الحصري، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧ ـ ٩.

(٢٠٤) جحا، معد، «ترجمة ساطع الحصري كما كتبها بقلمه في أواخر عام ١٩٦٠،» ص ٢٥٢.

(٢٠٥) الحصري، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٩ ـ ١٠.

(٢٠٦) المصدر نفسه، ص ١٠٨.

١٩٣١[٢٠٧]. ولكن الخلاف استفحل بينه وبين المدير العام للمعارف سامي شوكت، وكان الحصري هو الذي رشحه للمنصب على اعتقاد أنه سيكون خير ضمان لاستمرار الاتجاه القومي الذي كان الحصري يلتزمه في التنظيم والتوجيه في المدارس[٢٠٨]. ولكن سامي شوكت، يقول الحصري «سرعان ما خيب أملي فيه لأنه لم يظهر أثراً للرغبة في التعاون معي في إصلاح الأمور.. والأحوال برهنت لي بأني كنت مخدوعاً حتى في حقيقة تفكيره القومي»[٢٠٩]. وتعذر تعاون الرجلين بعد أن أبدى سامي شوكت تخوفه من غضب المستشار البريطاني في حال الموافقة على اقتراحات الحصري لاستبدال عدد من مفتشي المعارف بآخرين مؤهلين تأهيلاً عالياً[٢١٠]. وهذا ما دفع الحصري للتخلي عن منصبه على طريقته في مثل هذه الحال المنذرة بالتحول نزاعاً سياسياً[٢١١].

وأبدى الحصري رغبته في العمل بكلية الحقوق، فكان له ما أراد حين عين رئيساً لها مدة قاربت السنوات الأربع (٢٢ كانون الأول/ديسمبر ١٩٣١ وحتى ١٥ أيلول/سبتمبر ١٩٣٥). وقد أسند إليه خلال السنة والنصف الأخيرة منصب مدير الآثار القديمة علاوة على منصبه[٢١٢]. ومنذ توليه منصب الرجل المسؤول عن كلية الحقوق (التي كان على علم بنظامها وأحوالها العامة وبحاجاتها وإمكانياتها) أعد مذكرة بما ينبغي بشأنها من إصلاحات أهمها في نظره ضرورة الاهتمام بمكتبة الكلية إذ «ان المكتبات في كلية الحقوق تعتبر بمثابة المختبرات في كليات العلوم، فهي بمثابة آلات البحث ووسائل التنقيب لدى الطلاب»[٢١٣]. وكان من الضروري اتخاذ التدابير لحمل الطلبة على مطالعة كتب القانون المكتوبة باللغات الأجنبية. وقد اضطرته الظروف إلى أن يأخذ على عاتقه تدريس الإحصاء

---

(٢٠٧) المصدر نفسه، ص ١٣.

(٢٠٨) المصدر نفسه، ص ١١٤.

(٢٠٩) المصدر نفسه، ص ١١٦ ـ ١١٧.

(٢١٠) المصدر نفسه، ص ١١٨ ـ ١١٩.

(٢١١) وقد عمل شوكت مديراً عاماً للمعارف حتى ١٩٣٨ ورأس تنظيم الشبيبة شبه العسكري (الفتوة). وقد عارض الحصري الأفكار القومية المتطرفة التي كان يدعو لها شوكت واتهمه بالتعصب الأعمى عندما دعا إلى نبش قبر ابن خلدون وحرق كتبه بسبب ما جاء فيها من نقد للعرب، كما انتقد الحصري محاضرة شوكت المسماة «صناعة الموت».

(٢١٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٤٣، ويقول الحصري إن اختلاف ساعات الدوام في هاتين المؤسستين مكنه من القيام بأعمال الوظيفتين.

(٢١٣) المصدر نفسه، ص ١٥١.

في كلية الحقوق وحمل الطلاب على استخراج كثير من المعلومات الإحصائية من النشرات الحكومية المختلفة وعرض تلك المعلومات بجداول إحصائية وإظهارها بغرافيكات متنوعة[٢١٤]. وكان إصلاح كلية الحقوق إصلاحاً جدياً يتوقف على الحصول على أساتذة قديرين يستطيعون أن يتفرغوا للتدريس، وذلك ما كان يمكن تحقيقه في تلك الظروف إلا باستقدام بعض الأساتذة من مصر. وكان ذلك يستوجب زيادة في اعتمادات الكلية، وبسبب الضيق المادي لم يستطع الحصري أن يعمل شيئاً إلا بعد أربع سنوات[٢١٥].

ولم يكن منصبه في كلية الحقوق منعزلاً، فقد جمع الحصري بين العمل لإصلاح الكلية وبين المشاركة النشيطة في الصراع الفكري السياسي الذي دار آنذاك في ميدان التعليم العراقي. ذلك لأن جماعة من خريجي الجامعات الأميركية وبخاصة من بيروت، التفّت حول المدير العام للمعارف سامي شوكت واسترسلت في توجيه أمور المعارف نحو النظم الأمريكية «دون تفكير وروية». يقول الحصري[٢١٦]، وقد أسرّ الحصري إلى جميل صليبا في ما بعد هذا الأمر: «كان همي الأول تطهير مناهج التربية من رواسب الثقافة الإنكليزية وإحياء الروح العربية وبث الفكرة القومية في نفوس النشء، فقاومني بعض رجال التعليم الذين تخرجوا من أمريكا وبلغ من مقاومتهم لإصلاحاتي أن حملوا الحكومة على استقدام بعثة تربوية برئاسة بول مونرو، وكان بيني وبين هذه البعثة جدل طويل نشرته في تقرير خاص»[٢١٧]. وكان هؤلاء قد نجحوا باستقدام لجنة من الخبراء الأمريكيين وبذلوا شتى الجهود لتكون اللجنة برئاسة بول مونرو مدير المعهد الأممي للتربية في جامعة كولومبيا. وعندما وصلت اللجنة (بين أول شباط/ فبراير إلى أواخر نيسان/ ابريل ١٩٣٤) أحاطوها بجدار معنوي حال دون اطلاعها على حقائق الأمور.

ونشر الحصري مجموعة مقالات في جرائد العاصمة العراقية عام ١٩٣٢، شن فيها انتقاداً عنيفاً على التوصيات التربوية لـ «لجنة الكشف التهذيبي» الأمريكية[٢١٨]

---

(٢١٤) المصدر نفسه، ص ١٤٨.

(٢١٥) المصدر نفسه، ص ١٤٧.

(٢١٦) المصدر نفسه، ص ١٤٣.

(٢١٧) صليبا، «تجربتي مع ساطع الحصري،» ص ١٠٣.

(٢١٨) نشر الحصري المقالات في كتيب مستقل بعنوان رسائل إلى بول مونرو مدير المعهد الأممي في كلية التربية بجامعة كولومبيا حول التقرير الذي قدمه إلى وزارة المعارف العراقية باسم «لجنة الكشف التهذيبي». وقد أعاد طبع الكتيب في: الحصري، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٦٥ ـ ٢٧٥. وكان الحصري قد التقى ببول مونرو بعد انتهاء مهمته وقبل مغادرته العراق وصارحه ببعض الآراء.

لتنوير الرأي العام في حقائق الأمور، لأن التقرير الذي قدمته اللجنة احتوى ـ يقول الحصري ـ على أغلاط فاحشة في وصف الحالة الراهنة. كما تضمن بعض التوصيات والاقتراحات الضارة، لأنها كانت مستوحاة من سياسة الاستعمار في ميادين التعليم[٢١٩]. ومن وجهة نظر الحصري (كما ورد في مقدمة رسائله الانتقادية) «إن جلب لجنة مؤلفة من الأخصائيين في التربية والتعليم لدرس أحوال معارف العراق واقتراح الإصلاحات اللازمة لها.. كان من أخطر الأعمال التي أقدمت عليها الحكومة العراقية في السنين الأخيرة... انني لم أكتب هذه الرسائل، ولم أجمع هذه الوثائق إلا بقصد تسهيل مهمة مؤرخي المستقبل في هذا الباب (المعارف).. هل ان الظروف التي تقرر فيها جلب لجنة الخبراء، كانت من الظروف الملائمة للقيام بمثل هذا العمل؟ وهل أن تأليف اللجنة من الاخصائيين الأمريكيين وحدهم، كان موافقاً لمصلحة البلاد؟.. هل انهم كانوا ممن ليس لهم أية فكرة أو غرض سياسي في هذه البلاد؟ وهل قامت وزارة المعارف بالواجبات التي تترتب عليها إزاء لجنة كهذه؟ وهل أحضرت المعلومات والوثائق اللازمة؟ وهل اتخذت التدابير المقتضية لإطلاعها على أحوال المدارس المختلفة كما هي، وعلى التيارات الفكرية المتنوعة كما يجب؟.. وهل اللجنة نفسها شعرت بعظم المسؤولية الملقاة على عاتقها، ونهجت نهجاً علمياً في أبحاثها؟ وهل أرادت أن تروّج بعض آراء خاصة بها؟ أو أنها صارت ـ عن علم أو غير علم ـ ترساً للبعض أو عكازة للآخرين؟». وقد أخذ ساطع على التقرير كما ورد في إحدى رسائله إلى مونرو «تنوع المسائل التي تطرقت إليها اللجنة دون أن يكون أمامها متسع من الوقت لدرسها وكثرة الأحكام التي أسرفت في إصدارها دون أن تتكلف باستقصاء مقدماتها ودلائلها وفرط الثقة التي وضعتها في الأخبار التي نقلت إليها دون أن تحاول التوثق من صحتها». كما وجد في التقرير عدداً كبيراً من المعلومات التي تدل على نقص واضح في البحث والاستقصاء، وعدداً غير قليل من الآراء التي تدل على التسرع في التعميم. ويرى أكرم زعيتر أنه «كان لرسائل الحصري (الاثنتي عشرة) دويّا وحالت دون الأخذ بالكثير مما اقترحته اللجنة المذكورة»[٢٢٠].

وقد فجع ساطع في أيلول/سبتمبر ١٩٣٣ بوفاة الملك فيصل: لقد كان وثيق

(٢١٩) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٤٣ ـ ١٤٤. يؤكد كامل عياد في ذكرياته عن الحصري أن الخبراء الأجانب الذين كانت تستجلبهم الحكومات العربية بمصر والعراق في ظل الحماية والانتداب كانت لهم أغراض استعمارية. عياد، «ذكريات عن ساطع الحصري،» ص ١٠٥.

(٢٢٠) زعيتر، «ساطع الحصري أقوى الدعاة للقومية العربية،» ص ٥١.

الصلة به وكان من الطبيعي أن يحز في نفسه خسارته لصديق، يقول «إنني كنت بجانبه عندما أخذ يتجول في مختلف أنحاء العراق، بعد انتخابه ملكاً عليه وبقيت إلى جانبه طوال سني كفاحه وعمله هناك. عاشرته معاشرة مستمرة خلال جهوده المضنية في سبيل حل المشاكل الداخلية والخارجية التي كانت تتوالى بدون انقطاع على ملكه الجديد»[٢٢١]. ورأى أن وفاته خسارة كبرى للعراق وللأمة العربية ذلك أن «حياته مثال رائع للتطور الدائم والتقدم المستمر والارتفاع السريع فأصبح البون بين بداية حياته السياسية ونهايتها شاسعاً جداً، وكان من سوء حظ الأمة العربية، أن شعلة حياته انطفأت في الوقت الذي كانت شخصيته السياسية وصلت فيه إلى أقصى درجات النضوج وأشد حالات التوهج، وفي الوقت الذي أصبحت فيه الأمة أحوج ما تكون إلى خدماته... إنه كان مرناً، خارق المرونة، يتكيف بسرعة كبيرة وفق مقتضيات الأحوال والظروف من الوجهتين المادية والمعنوية»[٢٢٢]. وكان الملك غازي الذي تبوأ عرش المملكة العراقية في ٨ أيلول/سبتمبر ١٩٣٣[٢٢٣] برأي الحصري «مفعماً بالعواطف الوطنية ومستعداً للعمل بالخطة التي سار عليها والده إلا أن شهوات الحكم عند بعض الساسة كانت انطلقت من عقالها بعد وفاة الملك فيصل»[٢٢٤].

وفي أيلول/سبتمبر ١٩٣٥ عبّر بعض أعضاء الحكومة عن قلقهم من سياسة أمْركة التعليم التي كان يقوم بها فاضل الجمالي، مدير المعارف العام، وتوجهوا إلى الحصري يلحون عليه بالعودة إلى وزارة المعارف. وعين هذه المرة «مديراً عاماً للتدريس والتربية العام» من ١٦ أيلول/سبتمبر ١٩٣٥ وحتى ١٢ أيلول/سبتمبر ١٩٣٦. وتولى المنصب بدلاً من رئاسة كلية الحقوق وظل معه منصب مدير الآثار القديمة. وانطلاقاً من إيمانه بمصر وأنها الدولة التي يجب أن تقود الأمة العربية نحو بناء الدولة العربية العصرية، كان قد طلب خلال توليه لمنصبه الرسمي الأخير إيفاده إلى مصر لتنظيم الروابط الثقافية معها ودرس أحوال معارفها وفق ما رسمه من خطة لذلك. واستغرقت زيارته لمصر مدة شهر (تشرين الثاني/نوفمبر ـ كانون الأول/ديسمبر ١٩٣٥) تعاقد فيها مع بعض الأساتذة المصريين ومن بينهم عبد الرزاق السنهوري وعبد الوهاب عزام على العمل في العراق[٢٢٥]. ومع أن

---

(٢٢١) الحصري، **صفحات من الماضي القريب**، ص ١٠.

(٢٢٢) المصدر نفسه، ص ١٠ ـ ١١.

(٢٢٣) الحصري، **مذكراتي في العراق، ١٩٢١ ـ ١٩٤١**، ج ٢، ص ٥٧٨ ـ ٥٨١.

(٢٢٤) المصدر نفسه، ص ٣٢٠.

(٢٢٥) المصدر نفسه، ص ٣٣٣.

فكرة القومية العربية، كما لاحظ الحصري، كانت لا تزال تتعثر في مصر بين «نوازع الفرعونية وجواذب الوحدة الإسلامية وخيالات الرابطة الشرقية واغواءات الانعزالية»، إلا أن الحصري لم يقنط في انتشارها فكتب في جريدة **البلاد** (بغداد) في ١٩/٤/١٩٣٦ مقالاً عن «دور مصر في النهضة القومية العربية» جاء فيه «سرني أن أرى هذه السنة في مصر تخمراً اجتماعياً عميقاً يدفعها نحو الفكرة العربية بقوة شديدة ويجعلها تشعر بواجبها الطبيعي ورسالتها القومية شعوراً واضحاً. ولا شك في أن هذه ليست إلا مقدمة مباركة سيعقبها شعور ماض نحو القومية العربية وعمل جبار في سبيل إنهاض هذه القومية»[٢٢٦]. وكان الحصري، بعد عودته من مصر، قد أعد مذكرة برأيه في السياسة التي ينبغي أن تتبع في تسيير أمور المعارف وإصلاحها. وبعدما رأى الحصري أن ما يقترحه من إصلاحات لا يؤخذ به، وبعد سنة مضطربة أخرى في وزارة المعارف، اضطر إلى الاستقالة ليتفرغ لأعمال مديرية الآثار القديمة[٢٢٧]، ولكن استقالته لم تكن تعني الابتعاد عن المساهمة النشيطة في حل المشكلات التربوية. فقد بذل كل ما في وسعه لضمان تنفيذ خطة السنوات الخمس لأحوال التعليم العرقي، التي قدمها إلى وزارة المعارف في ١٥ كانون الثاني/ يناير ١٩٣٦، التي تتضمن، في ما تتضمن، التوسع في نشر التعليم الابتدائي في الأرياف وبين العشائر. وبالنسبة للتعليم العملي طالب بفتح ورش صناعية ملحقة بالمدارس الصناعية، كما اقترح رفع مستوى التعليم العالي، وتزويد كلية الحقوق ودار المعلمين العليا بالأساتذة وضرورة الاهتمام بكلية الطب كي تكون هي والحقوق نواة الجامعة العراقية في المستقبل، إلى جانب ما اقترحه من اهتمام بالمكتبات والمباني[٢٢٨].

وبوجه عام صار عمله الرسمي بين ١١ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٣٦ و١١ حزيران/ يونيو ١٩٤١[٢٢٩] قصراً على مدير الآثار القديمة فقط (وكان قد تولى المنصب منذ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٣٤). وكان تعيينه في هذا المنصب نوعاً من الإقصاء الكامل عن الشأن التربوي الذي أصبح فيه موضع خلافات كثيرة، وارتؤي أنه في هذا المنصب سوف يسدي خدمة في إحياء اهتمام قومي بالآثار العراقية وفي حصر نشاط علماء الآثار الأوروبيين في الوقت ذاته. وكان هو أول

(٢٢٦) قاسمية، «مصر في كتابات ساطع الحصري القومية،» ص ١٣٤.

(٢٢٧) الحصري، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٧٨.

(٢٢٨) المصدر نفسه، ص ٣٤٤ ـ ٣٤٩.

(٢٢٩) المصدر نفسه، ص ٣٨٩.

عربي يتولى أمر المديرية التي تأسست عام ١٩٢٠ تحت اسم «الدائرة الاركيولوجية»، وبدأ باتخاذ العديد من التدابير الجذرية الرامية إلى تغيير سنة أسلافه بدءاً من غرترود بل (السكرتيرة الشرقية للمندوب السامي البريطاني والمديرة البريطانية الفخرية للآثار القديمة)[٢٣٠] وانتهاءً بالدكتور يوردان مدير بعثات التنقيبات الألمانية. وأبدى الحصري طاقة لا حد لها في منصبه وبرهن على مقدرة في سرعة التعلم حتى حظي في هذا الصعيد باحترام أهله لأن تضمه المؤسسة الدولية للتعاون الفكري التابعة لعصبة الأمم إلى الهيئة الاستشارية للمتاحف في ١٩ تموز/يوليو ١٩٣٧[٢٣١].

وكان الحصري شديد الإصرار على حق العراق بالحصول على حصة عادلة من الكنوز التي تستخرجها البعثات الأجنبية، وبمبادرة منه استصدر قانوناً جديداً للآثار[٢٣٢] وضع حداً لنهب بعثات التنقيبات الأجنبية للآثار، فقلَّص إلى حد كبير حصة المنقبين من الآثار المكتشفة. وقد أعطى القانون بموجبه للعراق حق الاحتفاظ بآثاره الفريدة، وتقسيم ما يتبقى من الآثار المكررة مع البعثات الأجنبية. وقد برهن الحصري في ذلك على بعد نظر وبصيرة لأن ذلك القانون أصبح نموذجاً لقوانين غالبية الدول التي نالت استقلالها بعد الحرب الثانية[٢٣٣]. وأثار القانون سخط سفارتي الولايات المتحدة والمانيا كما أثار قلق وزير الخارجية نوري السعيد وتخوفه من أثر هذه السياسة في العلاقات بين العراق والولايات المتحدة، واتهم الحصري بوضع العقبات أمام المنقبين عن الآثار وعرقلة البحوث التاريخية[٢٣٤]. غير أن ما قام به لم يكن الغرض منه أكثر من تنظيم العلاقة بين البعثات الأجنبية وحكومة العراق وحفظ التراث الحضاري وحمايته من التهريب إلى المتاحف الأوروبية والأمريكية، كما أنه لم يؤدِ إلى الحد من نشاط بعثات التنقيب التي كان هدفها

---

(٢٣٠) فريد جحا، «ساطع الحصري والآثار،» **المعلم العربي**، السنة ٣٠، العددان ٢ ـ ٣ (شباط/فبراير ـ آذار/مارس ١٩٧٧)، ص ٢٢٤. وكان الحصري (عندما كان معاوناً لوزير المعارف) قد وقف في وجه مشروع قانون الحفريات الذي تقدمت به غرترود بل طالبة اقراره لصالح بعثات التنقيب متقدماً بمشروع معاكس يحافظ على الثروة الأثرية، مما اضطر غرترود بل بعد أن وجدت الحصري خصماً عنيداً، إلى نقل مصلحة الآثار من وزارة المعارف إلى وزارة الأشغال حيث استطاعت إقرار مشروعها الذي تقدمت به عام ١٩٢٤.

(٢٣١) الحصري، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٤٨، ونشر الحصري نص رسالة التعيين بالفرنسية.

(٢٣٢) المصدر نفسه، ص ٤١٢ ـ ٤٢٧.

(٢٣٣) كليفلند، «تكوين قومي عربي، العثمانية والعروبة في حياة ساطع الحصري وفكره،» ص ١٢٣١.

(٢٣٤) الحصري، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤١٩ ـ ٤٢٠.

البحث العلمي والكشف عن التراث الحضاري وليس التهريب والسرقة[٢٣٥].

وقد وجد الحصري في حقل الآثار ميداناً فسيحاً لتنمية الاعتزاز القومي عن طريق الاهتمام بالتراث الحضاري الإسلامي والعربي، وفي ضوء الدور الذي ينيطه بالتاريخ كأساس للوحدة القومية، كان ينظر إلى أهمية عمله في مديرية الآثار لخدمة القضية القومية[٢٣٦]. وجاءت الأعمال التي تمت بإشرافه مثل ترميم القصور والمساجد والمباني التاريخية والقيام بحفريات أثرية عراقية وافتتاح متاحف جديدة وتوسيع القديم منها، وتنظيم المعارض ونشر العديد من المطبوعات الدعائية، جاء كله ليصب في مجرى التربية الوطنية ويثير في نفوس العراقيين مشاعر الفخر القومي[٢٣٧].

وفي هذه المرحلة تابع الحصري أسفاره وخص البلدان العربية بنصيب أكبر في مهام تتعلق بعمله في الآثار: بلدان المغرب للاطلاع على المباني العربية القديمة وجمع المعلومات والصور عنها، وإلى مصر لحضور مؤتمر الحفريات الدولي عام ١٩٣٧، وأثنى المشاركون على قانون الآثار العراقي الجديد[٢٣٨]. ولحرصه على تمتين روابط العراق الثقافية بالبلدان العربية الأخرى خصَّ مصر بالكثير من كتاباته، وعن دورها في النهضة القومية العربية «انني أهتم بمصر أكثر مما أهتم بسوريا والعراق لأنني أعرف أن مصر ـ بحسب أوضاعها العامة ـ أصبحت «القدوة المؤثرة» في العالم العربي بأجمعه، فأعتقد بذلك أن كل تقدم يحصل في مصر لا يخلو من النفع لسائر البلاد العربية، كما أن كل نقص يعيش ويستمر في مصر لا يخلو من ضرر العدوى إلى سائر البلاد العربية، فكل خدمة تسدى إلى مصر تكون كأنما أسديت إلى سائر البلاد العربية بأجمعها»[٢٣٩]. وكتب في مجلة

---

(٢٣٥) كليفلند، المصدر نفسه، ص ١٢٣١.

(٢٣٦) جحا، «ساطع الحصري والآثار،» ص ٢٢٣.

(٢٣٧) المصدر نفسه، والحصري، **مذكراتي في العراق، ١٩٢١ ـ ١٩٤١**، ج ٢، ص ٣٩١ ـ ٣٩٤.
من هذه الأعمال: كشف بقايا القصر العباسي في بغداد، ووضع اليد على خان مرجان وترميمه وإجراء دائرة الآثار في العراق، بتوجيهه، حفريات في سامراء والكوفة وواسط (وبخاصة بعد توقف البعثات الأجنبية حين أعلنت الحرب)، وتسجيل مخزونات المتحف الأثرية، وتصويرها، وتزويد مكتبة الآثار بالكتب الهامة باللغات الأجنبية، وجلب نسخ من بعض الآثار القديمة والقيام بتدابير لصيانة المدرسة المستنصرية.
وقد لمس كامل عياد في ذكرياته عن الحصري اهتمام ساطع الزائد بمكتبة دار الآثار العراقية التي كان يعمل على توسيعها، وكان عياد يتردد عليها للدراسة والمطالعة. عياد، «ذكريات عن ساطع الحصري،» ص ١٠٥ ـ ١٠٦.

(٢٣٨) الحصري، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٣٥ ـ ٤٤٨.

(٢٣٩) نشر المقال في مجلة: **الرسالة**، العدد ١٨٧ (شباط/فبراير ١٩٣٧).

الرسالة مقالاً عن شمال افريقيا والعروبة(٢٤٠).

ولما كان الحصري مؤمناً بضرورة بث العقيدة القومية العربية في أوسع نطاق فهو لم يقصر نشاطه على مهامه الرسمية، ونرى الحصري مرة أخرى يحاول العمل على صعيد «السياسة العليا» في منظمات قومية كنادي المثنى والنادي الثقافي وفي قاعة محاضرات دار المعلمين وفي الإذاعة وفي مقالات عديدة، وذاع صيته ناطقاً عن القومية العربية ورائداً للوحدة العربية(٢٤١). وتطرق الحصري في محاضراته ومقالاته إلى مشكلتين ستغدوان محوراً لنشاطه الفكري في السنوات اللاحقة: الأولى تقديم البرهان على الوحدة العربية، والثانية الرد على أهم التيارات الفكرية والسياسية المعارضة للعروبة(٢٤٢). ويروي كامل عياد في ذكرياته عن ساطع الحصري(٢٤٣) أنه، أي عياد، كان قد نشر في مجلة **المعلم الجديد** العراقية (حين كان مدرساً في دار المعلمين العالية في بغداد) مقالاً بعنوان «التربية السياسية للناشئة» يدعو فيه إلى ضرورة التوفيق بين الشعور الوطني والفكرة القومية وبين النزعة الإنسانية ومبدأ التفاهم بين الأمم والدول. واعترض الحصري بصورة خاصة على التحذير الذي ورد في هذا المقال من «المبالغة في الفكرة القومية وتأليه الوطن». وكان من رأي الحصري «أننا نحن العرب في هذا العصر نحتاج قبل كل شيء إلى تنمية الفكرة القومية والروح الوطنية وإلى العمل في سبيل الوحدة العربية». ولم يكن يرى من فائدة في نشر فكرة السلام العالمي والمبادئ الإنسانية بين الأمم المستضعفة.

وبعث الحصري إلى مؤتمر بلودان حول قضية فلسطين مذكرة(٢٤٤) تبين رأيه حول أعمال الدعاية الضرورية لمقاومة الصهيونية «يجب علينا أن نتخذ جميع أنواع التدابير الفعالة لكي ينشأ كل عربي مطلعاً على أخطار الصهيونية بالنسبة إلى الأمة

---

(٢٤٠) **الرسالة**، السنة ٨، العدد ٣٣٩ (١٩٤٠)، ص ٣٩. وورد في: خلف الله، «ساطع الحصري: قصة حياته،» ص ٢٩.

(٢٤١) ساطع الحصري، «فكرة القومية العربية ووحدة الأمة العربية،» في: الحصري، **مذكراتي في العراق، ١٩٢١ - ١٩٤١**، ج ٢، ص ٤٦٣ - ٤٩٣. وبعض مقالاته نشرت في مجلة **الرسالة** (القاهرة) والجرائد العراقية: **البلاد**، **الاستقلال**، **والأخبار**. وقد أعاد نشر قسم منها في القاهرة عام ١٩٤٤ في: ساطع الحصري، **آراء وأحاديث في الوطنية والقومية** (القاهرة: مطبعة الرسالة، ١٩٤٤).

(٢٤٢) تيخونوفا، **ساطع الحصري: رائد المنحى العلماني في الفكر القومي العربي**، ص ٣٤.

(٢٤٣) عياد، «ذكريات عن ساطع الحصري،» ص ١٠٥ - ١٠٦.

(٢٤٤) ساطع الحصري، «حول قضية فلسطين،» في: الحصري، **مذكراتي في العراق، ١٩٢١ - ١٩٤١**، ص ٤٦٩ - ٤٧٣.

العربية، ومقدراً للواجبات التي تترتب على كل فرد تجاه هذه القضية الحيوية.. لأنني أعتقد بأننا إذا قصرنا في أداء هذه المهمة ينشأ الجيل القادم في العالم العربي أكثر غفلة عن المخاطر الصهيونية وأكثر استسلاماً للأمر الواقع التي أحدثتها وستحدثها القوة الغاشمة، في حين أن مصلحة العروبة تقضي علينا بتنشئة الجيل القادم أكثر يقظة وأشد حماسة وأكثر تضحية من الجيل الحاضر تجاه أخطار الصهيونية».

وفي خطاب ألقاه على فريق الكشافة العربي في قاعة متحف الآثار العربية في بغداد عام ١٩٣٧ قال «إن حياة كل أمة من الأمم تقوم بلغتها، ويجب أن نعرف في الوقت نفسه أن شعور كل أمة من الأمم يتكون من ذكرياتها التاريخية الخاصة بها. فالأمة التي تحافظ على لغتها وتنسى تاريخها تكون بمثابة فرد فاقد الشعور... إن إهمال التاريخ القومي يكون بمثابة الاستسلام إلى الذهول والكرى... إن حركات النهوض والانبعاث تبدأ بوجه خاص، بتذكر الماضي واستلهام التاريخ... فإن التاريخ يكون مفيداً عندما يفرغ على شكل (قوة دافعة)، تحركنا إلى الأمام.. غير أنه يصبح مضراً حين يأخذ شكل (قوة جاذبة) تدفعنا إلى العودة إلى الوراء، فلا يجوز لنا أن نعتبر الماضي هدفاً نتوجه نحوه ونسعى للعودة إليه، بل يجب علينا أن نجعل منه نقطة استناد نستند إليها في اندفاعنا إلى الأمام»[٢٤٥].

إلا أن انغماس الحصري في العمل القومي واحتجاجه بحجج حماسية ومقنعة في آن معاً لأجل القضية القومية لم يجنحا به إلى التطرف أو إلى النزعة العسكرية، وكان يدعو إلى التماسك الوطني والوحدة العربية بأسلوب منطقي بعيداً عن النزعة المتطرفة[٢٤٦].

وكان لمقالات الحصري ومحاضراته وقع قوي في الوطن العربي توافق مع اشتداد عود حركة التحرر الوطني وتعمق إدراك ضرورة توحيد صفوف العرب في نضالهم ضد النير الأجنبي. وكان رجال الحركة القومية العربية في تلك الفترة، وبخاصة في سنوات ١٩٣٦ ـ ١٩٤١، يرون في العراق مركز الحركة القومية العربية، وخُصّ العراق بسمعة لم تكن لغيره في الوطن العربي. وزاد في حدة المشاعر القومية تواتر الثورات في فلسطين (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩) وتوافد كثير من

---

(٢٤٥) ساطع الحصري، «بين الماضي والمستقبل،» في: المصدر نفسه، ص ٤٧٩ ـ ٤٨٦.

(٢٤٦) كليفلند، «تكوين قومي عربي، العثمانية والعروبة في حياة ساطع الحصري وفكره،» ص ١٢٣١.

الوطنيين من فلسطين وسوريا. وفي الوقت ذاته لاقت الدعاوى الألمانية قبولاً وتعاطفاً من قبل العديد من العراقيين[٢٤٧].

وكان العراق، بعد نشوب الحرب العالمية الثانية، قد شهد تشديد الإنكليز قبضتهم على أمور البلد، واختلف ساطع الحصري مع تيار الوصي الأمير عبد الإله ونوري السعيد، هذا التيار الذي يرى أن تلبية الحاجات العربية على أفضل وجه يشترط التكيف أو الوقوف مع بريطانيا. وكان موقف الحصري، وغيره من القوميين، يطلب الحياد العراقي والسعي إلى الضغط على الدول الغربية من أجل بعض التنازلات في شأن فلسطين وسوريا[٢٤٨]. وكانت شهرة الحصري كرائد قومي ذائعة ذيوعاً واسعاً لما حدثت حركة رشيد عالي الكيلاني. وكانت الحركة حصيلة خلافات مزمنة مع بريطانيا ومشاعر الإحباط القومي والتنافس الداخلي السياسي ورغبة العراق في الحياد في الحرب[٢٤٩]. وبعد قيام حركة الكيلاني، (نيسان/ابريل ١٩٤١)، هرب مؤيدو بريطانيا من أمثال عبد الإله ونوري السعيد ولكن الثورة أخفقت، وعاد الهاربون، يقول الحصري «تحت حماية الدبابات الإنكليزية التي يقودها غلوب المعروف بلقب أبو حنيك»[٢٥٠].

وكان الحصري من بين الذين وقع عليهم العقاب، وفي الحادي والعشرين من حزيران/يونيو ١٩٤١ جاء شرطي لساطع في منزله يطلب جواز سفره وبعد ساعتين جاء رجل من قبل الحكومة يبلغه أن الحكومة قررت إخراجه من العراق، وأركبته القطار المتجه شمالاً إلى خارج حدود العراق، إلى تل كجك عند الحدود العراقية ـ السورية. واحتُمل على القطار إلى حلب في ٢٣ حزيران/يونيو ١٩٤١ مجرداً من ألقابه المهنية ووظائفه التعليمية وحقوق التقاعد أو المعاش[٢٥١]. ويقول

---

(٢٤٧) كليفلاند، **ساطع الحصري من الفكرة العثمانية إلى العروبة**، ص ١٢٤، وخيرية قاسمية، «خصائص الحركة العربية في الفترة بين الحربين العالميتين، ما بين الكفاح الوطني والتطلع القومي،» **قضايا عربية**، السنة ٦، العدد ٥ (أيلول/سبتمبر ١٩٧٩)، ص ٢٦٥.

(٢٤٨) الحصري، **مذكراتي في العراق، ١٩٢١ ـ ١٩٤١**، ج ٢، ص ٥٩٤ ـ ٥٩٨، وكليفلاند، المصدر نفسه، ص ١٢٤ ـ ١٢٥، نقلاً عن: رسالة خلدون الحصري للمؤلف في ١/١١/١٩٦٩.

(٢٤٩) خيرية قاسمية، «الحركة العربية خلال الحرب العالمية الثانية وفي أعقابها، ١٩٣٩ ـ ١٩٥٢،» **دراسات تاريخية** (دمشق)، العدد ١ (آذار/مارس ١٩٨٠)، ص ٩٨ ـ ٩٩.

(٢٥٠) الحصري، المصدر نفسه، ج ١، ص ٧.

(٢٥١) خلف الله، «ساطع الحصري: قصة حياته،» ص ٢٩. ويذكر كامل عياد في ذكرياته عن ساطع الحصري «أن الحصري اضطر إلى التخلي عن مكتبته التي تعد من أغنى المكتبات الخاصة وأكملها مع كثير من الأسف والألم». عياد، «ذكريات عن ساطع الحصري،» ص ١٠٥ ـ ١٠٦.

الحصري عن تلك الأحداث «ويؤلمني أن أقول ان هذا كان من جملة الأسباب التي حملت حكومة عبد الإله على طردي من العراق، مع تجريدي من الجنسية العراقية[٢٥٢] عام ١٩٤١، بعد أن تنكرت لكل المبادئ الوطنية، ونبذت السياسة العربية التي كان يلتزمها الملك فيصل الأول، ثم نجله الملك غازي»[٢٥٣].

وغادر ساطع العراق بعد أن أقام فيه زهاء العشرين عاماً وبعد أن أحدث به نهضة تعليمية وثقافية لا ينساها له شعب العراق. والحصري نفسه يرى أن أعماله في العراق تتفق تماماً ومبادئه القومية، وقال في مذكراته: «إن من أهم مقاصده في العراق بث الإيمان بوحدة الأمة العربية مع إشاعة الشعور بأمجادها الماضية. إني عملت لهذه الغاية، تارة بصورة مباشرة، وطوراً بصورة غير مباشرة، داخل نطاق الوظائف، وخارج ذلك النطاق... خلاصة القول إني انتهزت كل الفرص وتوسلت بكل الوسائل للعمل في هذا السبيل»[٢٥٤].

رابعاً: في ربوع لبنان وسوريا (١٩٤١ ـ ١٩٤٧)

كان القطار الذي أركب ساطعاً من بغداد قد اتجه شمالاً إلى تل كجك عند الحدود العراقية السورية، ثم احتُمل على القطار إلى حلب فبلغها في ٢٣ حزيران/ يونيو ١٩٤١. ويذكر أكرم زعيتر[٢٥٥] أن ساطعاً قد حار في تعيين المكان الذي يلجأ إليه. وكان زعيتر وهو في «دار الهجرة» ـ تركيا ـ حينذاك قد التقى ببعض «كبار القوم» الذين لا يفتأون يسألونه عن «البروفسور ساطي ـ هكذا يلفظون اسمه ـ ويعتزون بالتلمذة له أو لتلاميذه، فكتبت إلى صديق لي ولساطع في حلب، لماذا لا يجيء أستاذنا ساطع إلى تركيا التي تجلّه وتقدره حق قدره؟ فأجابني على

---

(٢٥٢) استند هذا إلى قرار كان موجوداً آنذاك وينص على عدم منح الجنسية العراقية لكل شخص سكنت أسرته في العراق بعد ١٩١٤، وعرف باسم مرسوم مار شمعون وهو زعيم ديني آشوري. وقد صدر المرسوم بالأصل من أجل طرد الآشوريين بعد ثورة ١٩٣٣. ويقول الحصري «أصبحت مضراً لسلامة العراق مثل مار شمعون». الحصري، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥١٩ ـ ٥٢٠.

(٢٥٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٠. وينقل خلف الله، أن جماعة من العراقيين كانوا في ليلة ساهرة بمنزل الصحفي روفائيل بطي وكانوا يتذاكرون في الأحوال العامة وكان حكمهم على عبد الإله وعمالته للاستعمار قاسياً، وكان رأي ساطع الحصري أن رصاصة واحدة قادرة على أن تخلص العراق من عبد الإله، ونقل ما قاله ساطع إلى عبد الإله. انظر: خلف الله، المصدر نفسه، ص ٢٩.

(٢٥٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٠.

(٢٥٥) زعيتر، «ساطع الحصري أقوى الدعاة للقومية العربية،» ص ٥٠.

لسان ساطع: لئلا يشمت به أولئك الذين نصحوه بالبقاء في تركيا، وأولئك الذين وقّعوا الرسالة الموجهة إليه، أو أن يسمع من يقول له: أرأيت إلامَ انتهى بك غدر الطبيعة؟».

لم يكن ما حدث لساطع في العراق ليفتّ في عضده، فقد كان يؤمن بأمته العربية وكان يعتقد أنها أحوج ما تكون إلى جهود أبنائها المؤمنين بها العاملين من أجلها. وقد أقام بعد أن أخرج من العراق في لبنان، وامتدت إقامته هناك حوالى أربع سنوات، وانصرف الحصري خلالها إلى دراسة مقدمة ابن خلدون. ويقول أكرم زعيتر «كان ساطع معجباً الإعجاب كله بابن خلدون وسمى ولده «خلدوناً» «وكانت كنيته الأثيرة أبا خلدون»[٢٥٦]. ويرى برج «أن الشبه كبير بين الرجلين، عاش ابن خلدون وقد دمر التتار بغداد، والأندلس يفلت من يد العرب، ورأى ابن خلدون حصار تيمورلنك دمشق، وشهد ساطع حصار الفرنسيين لها، وكما فشلت سفارة ابن خلدون لدى التتار فشلت سفارة ساطع لدى الفرنسيين»[٢٥٧].

وقد نشر الحصري، أثناء وجوده في العراق عدة مقالات يرد فيها على ما حاول البعض إلصاقه بابن خلدون بأنه نعت العرب بأوصاف تحقّر من شأنهم وبأنه كان من الكافرين بالعروبة. وكان بسبب هذا الفهم الخاطئ لكلمة العرب في استخدام ابن خلدون أن هاجمه الكثيرون حتى ان مدير المعارف العراقي سامي شوكت دعا، بسبب هذا الفهم الخاطئ، في خطبة ألقاها على المعلمين العراقيين إلى نبش قبره وإحراق كتبه[٢٥٨]. وانبرى ساطع في ذلك الحين يردّ على مزاعم المدير العراقي في مقالة نشرتها له مجلة لبنانية، ودعا ساطع إلى أنه ينبغي أن يكون لدى العرب «نظرة قومية متنورة»، كما كتب بحثاً آخر حول هذا المعنى في صحيفة **البلاد** العراقية[٢٥٩]. ويضيف أكرم زعيتر «ومما ألح فيه وأصر عليه البرهنة على أن كلمة (العرب) في مقدمة ابن خلدون، وهي التي ولدت أغرب الالتباسات وأنتجت أسوأ النتائج، إنما عني بها البدو الأعراب. وفي هذا ردّ على الشعوبيين الذين لا يفتأون يستشهدون بابن خلدون انتقاصاً للعرب. وقد بلغ اهتمامه (الحصري) بهذه النقطة أن أصدر حين كان مديراً عاماً للمعارف العراقية بياناً رسمياً يدعو فيه المعلمين إلى إزالة هذا الخطأ وإفهام التلاميذ أن كلمة (العرب) لا تدل على

---

(٢٥٦) المصدر نفسه.

(٢٥٧) برج، **ساطع الحصري**، ص ٥٨.

(٢٥٨) الحصري، **مذكراتي في العراق، ١٩٢١ ـ ١٩٤١**، ج ٢، ص ١٦٠.

(٢٥٩) زعيتر، «ساطع الحصري أقوى الدعاة للقومية العربية،» ص ٥٢.

صنف من الخلق بل تدل على جميع أفراد الأمة».

وأصبح جلّ هم الحصري، يقول جميل صليبا «أن يؤلف كتاباً في ابن خلدون يظهر فيه منزلته ويقارن بينه وبين فلاسفة الغرب الاجتماعيين»(٢٦٠). وأصبح من جملة المشاريع الفكرية التي وضعها ساطع لنفسه، بغية إنجازها في الوقت الذي يتخلص فيه من أعباء الأعمال الرسمية، ويتفرغ إلى الدرس والتأليف في المسائل التربوية والاجتماعية، هي كتابة مفصلة عن **مقدمة** ابن خلدون(٢٦١).

وقد شعر ساطع وهو في بيروت، أن ظروف السنة الأخيرة قد رفعت عن عاتقه أعباء الأعمال الرسمية فمنحته الوقت اللازم لتحقيق هذا المشروع، غير أنها ـ في الوقت نفسه ـ أبعدته عن كتبه وأوراقه فحرمته من وسائل تحقيق أمنيته بالإحاطة التي كان يستعد لها والدقة التي كان يتوخاها. ويضيف الحصري «ومع هذا فقد رأيت أن أشغل أوقاتي بكتابة بعض الدراسات عن **مقدمة** ابن خلدون بقدر ما تسمح لي الذاكرة من جهة، وبقدر ما تساعدني المراجع التي أستطيع الحصول عليها في ظروفي الحالية من جهة أخرى. . . آملاً أن تكون هذه الدراسات ممهدة للدراسة التامة التي لا أزال أمنّي النفس بها». ومن أجل ذلك، يتابع الحصري، «أقدمت على كتابة هذه الدراسات على شكل مقالات متفرقة، ولما تجمعت لدي هذه الكمية منها رأيت أن أنشرها، لاعتقادي بأنها ستكون مفيدة في حالتها الحاضرة أيضاً إذا سمحت لي الظروف في المستقبل لاستئناف العمل بها، وادماجها في الدراسة التامة التي ذكرتها، فسأكون مغتبطاً بإكمال المشروع الذي كنت قد وضعت خططه منذ سنين عديدة، وإلا فسأكون قد قدمت بعض (النماذج) وبعض (الخطط) لدراسات علمية عن **مقدمة** ابن خلدون يستطيع أن يستفيد منها كل من يقدم على مطالعة **المقدمة** بإمعان. . كما يستطيع أن ينسج على منوالها ويقدم على إتمامها كل من يريد التوسع والتعمق في دراسة هذه **المقدمة** الخالدة دراسة علمية شاملة»(٢٦٢).

إلا أن الظروف التي تلت كتابة هذه الكلمة، لم تسمح له بالإقدام على الدراسة التامة التي كان يمنّي النفس بها، ولكنها ساعدته على مواصلة الأبحاث

---

(٢٦٠) جميل صليبا، «حول كتاب ساطع الحصري، دراسات عن مقدمة ابن خلدون،» **مجلة المجمع العلمي العربي**، المجلد ١٩، ج ١ ـ ٢ (كانون الثاني/ يناير ـ شباط/ فبراير ١٩٤٤)، ص ٦٣.

(٢٦١) ساطع الحصري، **دراسات عن مقدمة ابن خلدون**، طبعة موسعة (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٣)، مقدمة الجزء الأول من الدراسات، الذي طبع في مطبعة الكشاف في بيروت عام ١٩٤٣.

(٢٦٢) المصدر نفسه، ص ٩.

وكتابة الدراسات ولو بصورة متفرقة ومتقطعة. وخلال عام ١٩٤٣، وكان لا يزال في بيروت، اشتغل بالإشراف على طبع الجزء الأول من الدراسات من ناحية، وبكتابة بعض الدراسات الجديدة من ناحية أخرى، وقدم إلى المطبعة في عام ١٩٤٤ الدراسات التي كونت الجزء الثاني.

ويعتقد ساطع أن الجيل المثقّف الحاضر (وقت أن أعدَّ بحثه عن ابن خلدون) مقصّر في أداء واجباته نحو هذا المفكر العربي العظيم تقصيراً كبيراً. وأن هذا التقصير لا يتجلى في نظره، في ضآلة الدراسات فحسب، بل في رداءة الطبعات التي ظهرت فيها **مقدمة** ابن خلدون[٢٦٣]، ويفسر الحصري في توطئة كتابه **دراسات عن مقدمة ابن خلدون**[٢٦٤] أسباب اختيار الموضوع، على رغم أن المقدمة «منتشرة بين أيدي جميع المتنورين من الناطقين بالضاد، كما أن عدداً غير قليل من المفكرين والكتاب نشروا عدداً لا بأس به من البحوث والفصول والمقالات عن ابن خلدون ومقدمته. ويرد على هذه الاعتراضات بأنه مع احترامه للكتب والمقالات والدراسات التي نشرت بالعربية، فقد ظلت بعيدة عن استيفاء حاجة البحث في هذا الموضوع الخصب الهام «فاعتقد بأن هناك حاجة ماسة إلى إكمال تلك الأبحاث.. كما أن هناك ضرورة قصوى لإعادة النظر واستئناف البحث في معظم تلك الدراسات بطرق وأساليب أخرى وفق وجهات نظر جديدة». وكذلك فإن بعض الدراسات المنشورة باللغات الأوروبية، وبعضها لشبان عرب (كامل عياد وصبحي المحمصاني) لم تترجم إلى اللغة العربية. ويشير الحصري إلى قضية هامة تستحق العناية هي أن موقفنا ـ نحن الناطقين بالضاد ـ تجاه **مقدمة** ابن خلدون، يختلف بطبيعته عن مواقفنا تجاه مؤلفات أمثاله من الغربيين، ذلك لأننا لا نطّلع ـ عادة ـ على آراء القدماء من الغربيين إلا من خلال بعض المقتطفات والدراسات، فنتوهّم بأن كل ما قاله هؤلاء وكتبوه كان على ذلك الطراز، مع أن تلك المقتطفات والدراسات تستهدف ـ بوجه عام ـ إظهار منزلتهم العلمية، فلا تحتوي في حقيقة

(٢٦٣) يقول برج بأن ساطع الحصري قد أسدى خدمة كبيرة للتراث العربي حين أخذ يقارن بين الطبعات التي وجدت للمقدمة والنسخ الخطية التي عثر عليها، ويدعو الباحثين إلى محاولة الحصول على جميع النسخ المخطوطة للمقدمة، ودراستها وبخاصة النسخة التونسية التي أشار إليها صاحب الطبعة المصرية للمقدمة وهي نسخة قدمها المؤلف إلى السلطان الحفصي في تونس، لأن اكتشاف هذه النسخة بنظره سيكون ذا قيمة علمية وتاريخية. وفشل الحصري في العثور عليها ودعا الباحثين للقيام بهذه المهمة. برج، ساطع الحصري، ص ٦٠ ـ ٦١.

(٢٦٤) الحصري، المصدر نفسه، توطئة الجزء الأول كتبها المؤلف في بيروت في ١٩٤٣/٣/٢، ص ١ ـ ٩.

الأمر إلا على الجوهر الهام والزبدة المنتقاة من آرائهم وكتاباتهم الأصلية، بينما نحن نطلع على ما قاله ابن خلدون من قراءة مقدمته مباشرة، ونحيط علماً بكل ما جاء فيها من غث وسمين. . فالمقارنة التي تحدث في أذهاننا، بهذه الصورة بين ابن خلدون وبين أمثاله الغربيين تكون بعيدة عن الحق والحقيقة بطبيعة الأمر. . إن المقارنات يجب أن تجري تحت شروط متساوية». وتنتهي توطئة الحصري لـ «الدراسات» بقوله «إن المقالات التالية ترمي، قبل كل شيء، إلى تطبيق هذا المبدأ في دراسة **مقدمة** ابن خلدون، وإظهار منزلة مؤلفها العظيم، على هذا الأساس القويم».

وينقل جميل صليبا، عن ساطع الحصري رأيه بضرورة النظر إلى ابن خلدون في سياقه التاريخي، إذ يقول «إن الذين يطالعون **مقدمة** ابن خلدون يقرأونها عادة كما تقرأ الكتب الحديثة وينتقدونها بوجه عام كما تنتقد المؤلفات العصرية. . ويميلون إلى وزن الآراء الواردة فيها بموازين المكتسبات العلمية الحالية من غير أن يلتفتوا إلى عدد القرون التي تفصل بيننا وبين تاريخ كتابة **المقدمة** المذكورة، في حين أن قيمة المؤلفات القديمة ومنزلة المفكرين القدماء ـ في تاريخ العلوم والأفكار ـ لا يمكن أن تقدّر على هذه الطريقة، ذلك أن كل عالم ومفكر يشترك ـ بوجه عام ـ مع معاصريه في معظم آرائهم، فيشاطرهم أكثر أخطائهم، ولا يمتاز عليهم إلا في «بعض الآراء» التي يتوفق إلى ابتكارها و(بعض المعلومات) التي يتوصل إلى اكتشافها». وأبدى جميل صليبا إعجابه بهذا التحفظ العلمي الصادر عن الحصري «وهذا لعمري خير طريق لبيان منزلة العالم أو الفيلسوف أو الكاتب في تاريخ العلوم والأفكار، إذا خالفه الباحث وقع في مهاوي الزلل وخفيت عليه الآراء المبتكرة والحقائق الجديدة التي أضافها إلى حظيرة العلم»[٢٦٥].

لقد كان همّ الحصري في دراساته التي وضعها في بيروت عن **مقدمة** ابن خلدون أن يتابع عمله بالاتجاه السابق الذي بدأه في بغداد ليكشف عن خطل العديد من الآراء الخاطئة حول العلاّمة العربي في الأدبيات الأوروبية والعربية. ورأى جميل صليبا في تقييمه لكتاب الحصري عن **مقدمة** ابن خلدون[٢٦٦] أن المؤلف قد أدى خدمة لذكرى مؤلفها العظيم وأنه أثبت في **دراساته** النفيسة «أن ابن خلدون هو مؤسس فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع معاً، وأنه جاء قبل عصره بأجيال، وأنه أول من عالج القضايا الاجتماعية بأسلوب علمي، وأول من تكلم

---

(٢٦٥) صليبا، «حول كتاب ساطع الحصري، دراسات عن مقدمة ابن خلدون،» ص ٦٣ ـ ٦٨.
(٢٦٦) المصدر نفسه.

عن أثر الحياة الاقتصادية في تطور التاريخ، وأول من قال بخضوع الحوادث الاجتماعية لروابط طبيعية ضرورية، وأول من تكلم عن الرابط الاجتماعي، وأوضح تكوّن الجماعات والدول، وبحث عن طبائع الأمم وسجاياها». فـ **المقدمة**، في تقييم الحصري، هي كتاب اجتماعي تام، مشتمل على الاجتماعيات العامة، والاجتماعيات السياسية واجتماعيات الأمصار والاجتماعيات الاقتصادية والاجتماعيات الأجنبيّة.

ووجد أكرم زعيتر في مؤلف الحصري عن ابن خلدون «تأليفاً عجيباً في عمقه، فذاً في أسلوبه، وفيه أسهب الحديث البليغ عن مكانة ابن خلدون في فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع وقارنه بأعلام فلاسفة الاجتماع، كما قارن مقدمته بـ **روح القوانين** لمونتسكيو. ولا يتردد قارئ ذلك الكتاب الأنفس في الحكم بأن ابن خلدون أحق من أوغست كونت بلقب مؤسس علم الاجتماع»[٢٦٧]. واستحسن جميل صليبا، من مؤلف **الدراسات** «حرصه على الضبط العلمي، وقدرته على الاستقراء والتحليل والنقد والتحليل، وميله إلى انتقاء أحسن نصوص **المقدمة** واتّباعه في دراستها طريقة تاريخية محضة، فلم يشوه حقيقتها ولا خفيت عليه مقاصد صاحبها، بل شرحها شرحاً وافياً وانتقدها انتقاداً تاريخياً كافياً»[٢٦٨]. كانت (دراسات) الحصري بنظر صليبا «أحسن ما كتب حتى الآن باللغة العربية عن **مقدمة** ابن خلدون، فهو لم يتعصب على صاحب **المقدمة** كما فعل بعض الكتاب المعاصرين ولا تعصب له، بل وزن آراءه بميزان علمي».

وكان في نيّة الحصري أن يعد الجزء الثالث من **دراساته** عن **مقدمة** ابن خلدون. وقبل الانتهاء من ذلك وجد نفسه أمام ظروف وواجبات جديدة ألقت على عاتقه سلسلة مهام في سوريا (ثم في مصر) استأثرت بكل جهوده وأوقاته فأبعدته عن **مقدمة** ابن خلدون ولم تسمح له بالعودة إلى دراستها إلا بعد سنوات[٢٦٩]. وجدير بالذكر أن مجموعة الدراسات الأخيرة تلك ظلت في حالة مقالات مستقلة تناولت كل واحدة منها دراسة **المقدمة** من ناحية خاصة، وظلت

---

(٢٦٧) زعيتر، «ساطع الحصري أقوى الدعاة للقومية العربية،» ص ٥١ ـ ٥٢.

(٢٦٨) صليبا، المصدر نفسه، ص ٦٣ ـ ٦٨.

(٢٦٩) طبعة دار المعارف، القاهرة عام ١٩٥٣ وهي طبعة موسعة من دراسات عن مقدمة ابن خلدون حافلة بالموضوعات الجديدة، وكان الحصري قد قدم بحثاً إلى المؤتمر الأممي الخامس عشر لعلم الاجتماع، استانبول، ١٩٥٢، انتقد فيه آراء الباحث الفرنسي غاستون بوتول الذي اتهم ابن خلدون بالجبرية وتصديق الروايات التاريخية الشائعة بين عامة الناس. تيخونوفا، **ساطع الحصري: رائد المنحى العلماني في الفكر القومي العربي**، ص ٣٥ ـ ٣٦.

في حالة «خطط» و«نماذج» لدراسات علمية عن المقدمة.

أقام ساطع الحصري في لبنان زهاء أربع سنوات إلى أن تلقى في كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٣ دعوة حكومة سوريا المستقلة حديثاً لإصلاح معارف البلاد (وكان الوطنيون في سوريا قد بدأوا بتسلم مقاليد الحكم من الفرنسيين وأصبحوا قاب قوسين أو أدنى من نيل الاستقلال التام، على رغم المحاولات الفرنسية البقاء والتمسك بعدد من الامتيازات[٢٧٠]، وكان من الطبيعي أن تقع دعوة الحكومة السورية من نفسه ومن قلبه موقعاً محبباً، ذلك أن لسوريا مكانتها الخاصة في نفس ساطع، فكانت له تجربته التربوية العميقة فيها حين تسلم أمور المعارف فيها (١٩١٩ ـ ١٩٢٠)، وعاصر فيها الأحداث السياسية التي أطاحت بأول حكم عربي شهدته سوريا في عصرها الحديث وخرج منها بعد استيلاء الفرنسيين عليها. وعاد إلى وطنه سوريا وهو يحمل مبادئه وأساليبه في التربية والتعليم في نطاق من أهدافه القومية.

وقد بدأت خطى الحكومة السورية في مفاوضة الفرنسيين لاستكمال الاستقلال من جهة، وفي الإصلاح الداخلي من جهة أخرى. وكان بدء الإصلاح في وزارة المعارف الاتفاق الذي عقد بين رئيس الوزارة سعد الله الجابري وساطع الحصري في ٢٧ كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٣[٢٧١]، وأسند فيه (أي وفق الاتفاق) إلى ساطع الحصري وظيفة مشاور فني لوزارة المعارف[٢٧٢]، ليقوم «بدرس أحوال المعاهد العلمية والتعليمية في الجمهورية السورية ودرس جميع الشؤون المتعلقة بالتربية والتعليم والآثار والثقافة العامة وتقديم ما يراه لازماً من الاقتراحات في هذا الصدد واقتراح ما يجب لتنظيم وتوثيق العلاقات الثقافية ما بين سوريا والبلاد العربية»[٢٧٣]، في محاولة لتعريب النظام التربوي تعريباً كاملاً واجتثاث ما علق به من شوائب الانتداب الفرنسي[٢٧٤].

---

(٢٧٠) كانت القوات البريطانية وقوات فرنسا الحرة قد انتزعت سوريا ولبنان من قوات فيشي (الفرنسية الموالية للمحور) عام ١٩٤١، ومُنح البلدان وعوداً بالاستقلال، وفي ١٧ آب/أغسطس ١٩٤٣ انتخب شكري القوتلي رئيساً للجمهورية.

(٢٧١) صُدّق الاتفاق بالمرسوم رقم (٢٦٠) المؤرخ في ١٩٤٤/٣/٥ ونشر في: **الجريدة الرسمية** (٣٠ آذار/مارس ١٩٤٤). انظر أيضاً: مديحة العنبري، «تقارير الأستاذ ساطع الحصري في حالة المعارف في سورية،» **المعلم العربي**، السنة ٣٠، العددان ٢ ـ ٣ (شباط/فبراير ـ آذار/مارس ١٩٧٧)، ص ٢٠٤.

(٢٧٢) جحا، معد، «ترجمة ساطع الحصري كما كتبها بقلمه في أواخر عام ١٩٦٠،» ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠.

(٢٧٣) من نص الاتفاق بين رئيس الوزارة وساطع الحصري.

(٢٧٤) زعيتر، «ساطع الحصري أقوى الدعاة للقومية العربية،» ص ٥١.

وتجرّد الحصري للمهمة الثقيلة التي أنيطت به وبدأ عمله في ١٥ كانون الثاني/يناير ١٩٤٤ وقد ناهز الرابعة والستين، وكان له من عزمه وحماسته وحبه للإصلاح ومن واسع معرفته، وغنى تجربته، وإيمانه بوحدة العرب ما أعانه على النهوض بأعباء الأمانة والتصدي لجملة القضايا التربوية ومعالجتها. وقد عكف على دراسة واقع التربية والتعليم وأحوال المعارف في سوريا قبل التقدم، بتقاريره لإصلاحها[٢٧٥]. ويشهد معاصرو تلك الحقبة من رجال التعليم في سوريا بأن إصلاحاته ومناهجه قد تمّت بطريقة ديمقراطية ونهج سليم، ذلك ما أكده فاخر عاقل «بأن الحصري استشار كل صاحب رأي وناقش كل ذي علاقة وتفاهم مع كل راغب في التفاهم»[٢٧٦]. ويذكر جميل صليبا «أن ساطعاً كان يتردد عليه في دار المعلمين ويسأله رأيه في بعض القضايا حتى أكمل تقاريره»[٢٧٧]. ويتحدث كامل عياد مطولاً في ذكرياته عن ساطع خلال المدة التي عمل فيها تحت إشراف الحصري حين تولى مهمة شؤون التربية والتعليم في سوريا، فيقول «لا يمكنني أن أنسى الحماسة التي بعثها في نفوس المدرسين الذين فرض علينا أن نتعاون معه ونتنقل من التدريس إلى مختلف الوظائف في وزارة المعارف (بينهم جميل صليبا وعزة النص وتوفيق المنجد وفاخر عاقل)، ولا أبالغ إذا قلت ان ساطعاً كان يعمل عشرين ساعة كل يوم عندما كتب تقاريره عن أحوال المعارف (١٩٤٤) وعن إصلاح المعارف (١٩٤٥) وعندما كان يشرف بنفسه على تنظيم دوائر وزارة (التربية والتعليم) وإنشاء المدارس وتوسيع «الجامعة السورية» ووضع المناهج والبرامج الجديدة»[٢٧٨]. ويضيف كامل عياد «لم يكن عملنا يقتصر على أوقات الدوام الرسمي في الوزارة، بل أذكر أننا كثيراً ما كنا نسهر مع الأستاذ ساطع في فندق الشرق حيث كان يسكن إحدى الغرف ويستمر البحث والنقاش إلى ما بعد منتصف الليل»[٢٧٩].

---

(٢٧٥) ساطع الحصري، **تقارير عن حالة المعارف في سورية واقتراحات لإصلاحها** (دمشق: وزارة المعارف، ١٩٤٤).

(٢٧٦) فاخر عاقل، «ساطع الحصري الرجل،» **المعلم العربي**، السنة ٣٠، العددان ٢ ـ ٣ (شباط/ فبراير ـ آذار/مارس ١٩٧٧)، ص ١٢٠.

(٢٧٧) صليبا، «تجربتي مع ساطع الحصري،» ص ١٠٤.

(٢٧٨) عياد، «ذكريات عن ساطع الحصري،» ص ١٠٦ ـ ١٠٧.

(٢٧٩) العوا، «الجذرية الأخلاقية لدى ساطع الحصري،» ص ١٠٩. وقد أتيحت له ظروف الاجتماع إلى الحصري في بهو فندق الشرق «وكان يلقى بعض الأساتذة والشباب أو «المريدين» ليتبادل معهم الرأي في الظاهر وليفيدهم في الحق من تفكيره النيّر اليقظ دوماً».

واستكمل الحصري إعداد تقاريره الستة عشر في شأن إصلاح التعليم السوري بين ٦ آذار/مارس و٩ تموز/يوليو ١٩٤٤[(٢٨٠)]، تلك التقارير الشهيرة التي تضمنت خلاصة تجربته التربوية الغنية العميقة التي دوت أصداؤها في أرجاء الوطن العربي، وثار حولها كثير من الجدل والنقاش. وقدم فيها الحصري مقترحات رآها كفيلة بالإصلاح والتقدم لأوضاع وزارة المعارف ونظمها وبنى التعليم ومناهجه في مختلف المراحل. وتتميز التقارير بعمق النظرة وسعة الأفق والمزاوجة بين متطلبات البيئة وتطور الفكر التربوي العالمي وتنبثق من إيمان عميق بالوحدة العربية وتفاؤل بالنهضة والانبعاث.

كانت أهداف إصلاحات الحصري المتصورة ثلاثة: تعريب النظام التربوي والتخلي عن أثر الانتداب الفرنسي، وتوثيق الصلات الثقافية مع البلاد العربية والتقريب بين أنظمتها التعليمية تحقيقاً للهدف القومي، وبناء مجتمع عصري برفع كفاءة التعليم وتقويته. لقد وصف الحصري السياسة التربوية في عهد الانتداب بأنها «تقليد تام للنظام الفرنسي»، وندد بمحاولة عزل سوريا عن المسار القومي العربي العام بافتراض للغة والثقافة الفرنسيتين[(٢٨١)]. ومثلما جاهد ساطع في العراق لتخليص التعليم من تبعيته للتعليم الإنكليزي، كان أهم ما استحدثه ساطع من إصلاح هو تخليصه للتعليم السوري من أن يكون تابعاً للتعليم الفرنسي. وكان ساطع يؤمن أن النفوذ الثقافي مقدمة للنفوذ السياسي وهو مكمل له، فإذا ما تخلص بلد من سيطرة سياسية عليه، فعليه أن يتخلص من التبعية الثقافية. وليس معنى ذلك كما يؤكد ساطع الاستغناء عن ثمار الثقافات الأجنبية[(٢٨٢)].

نبه الحصري في التقرير **الأول** حول «ماكينة المعارف ومعاملات التقنين» إلى بطء المعاملات الجارية، ورأى أن نظم الإدارة في سوريا هي عكس ما تتطلبه أبسط قواعد التنظيم لأنها تتلخص في تطوير المعاملات. وعالج التقرير **الثاني** موضوع «ملاك موظفي التعليم» الذي نظمه المرسوم التشريعي ١٦٣ في آب/أغسطس ١٩٤٣. ووجد في أحكام المرسوم مآخذ كثيرة لمخالفتها حقائق التربية والتعليم ولمنافاتها مبادئ العدل والإنصاف. أما التقرير **الثالث** فقد خصصه لبحث تشكيلات وزارة المعارف، وأبرز ما أخذه الحصري على التشكيلات أنها أغرقت

(٢٨٠) الحصري، تقارير عن حالة المعارف في سورية واقتراحات لإصلاحها.

(٢٨١) كليفلاند، ساطع الحصري من الفكرة العثمانية إلى العروبة، ص ١٢٨، وتيخونوفا، ساطع الحصري: رائد المنحى العلماني في الفكر القومي العربي، ص ٣٦.

(٢٨٢) برج، ساطع الحصري، ص ٧٢.

الوزارة في أمور فرعية شغلتها عن أعمالها الأساسية، وتقدم باقتراحات لإعادة تنظيم الوزارة في ظل تقسيمها إلى ثلاثة أقسام: هيئات علمية، وإدارية، وتفتيشية. وتناول التقرير **الرابع** تشكيلات المعاهد التعليمية مع إحصاءات. أما موضوع التقرير **الخامس** فكان التعليم الابتدائي. وذكّر الحصري بواجب وزارة المعارف في إعداد المعلمين وإنشاء المدارس لتلبية متطلبات تعليم التلاميذ في سن المرحلة الابتدائية، وخصص جزءاً من التقرير للأهداف والمناهج مع تقديم اقتراح للإصلاح بحذف اللغة الفرنسية في الدراسة الابتدائية، وتوزيع ساعاتها على بعض الدروس، وإذا كان لا بد من تدريس اللغة الأجنبية فيرى حصرها في السنة الخامسة[٢٨٣]. أما التعليم الثانوي فكان موضوع التقرير **السادس**، فعرض للتشكيلات الإدارية وانها مقتبسة من الطرائق المتبعة في المدارس الفرنسية، وتناول البرامج بالنقد لعدم ترابطها، وارتأى القيام بإصلاحات أساسية في البرامج والمناهج[٢٨٤]، واقترح تقصير مدة الدراسة الثانوية إلى ست سنوات وتوحيد مصطلحات المعارف مع سائر البلدان العربية[٢٨٥]، والسعي لاستكمال تجهيزات المدارس الثانوية. والتقرير **السابع** كان عن المعلمين ودور المعلمين مع إحصاءات، والحصري يعتبر المعلم «روح المدرسة ومحركها الفعال» في جميع معاهد التربية والتعليم على اختلاف أنواعها ودرجاتها، وواجب الوزارة إعداد المعلمين علمياً ومهنياً، ولا بد من الاهتمام بدور المعلمين ورفع كفايتها. وخصَّ التقرير **الثامن** بالمباني المدرسية «التي يجب أن يلاحظ في تصميمها ما تقتضيه قواعد الصحة وأهداف التعليم وأحوال التربية». وعالج تقرير الحصري **التاسع** قضية الآثار القديمة والمتاحف[٢٨٦]، وهو قسمان: الأول وصف حالة الآثار والمتاحف، والثاني مشروع نظام جديد لمديرية الآثار يصفّي الأحكام الباقية من صك الانتداب بحيث يحفظ آثار البلاد وينظم مصلحة الآثار لتوسيع دائرة خدماتها وتنسيق أعمالها.

---

(٢٨٣) يبرر ذلك لصعوبة تعلم الطفل لغتين في وقت واحد حسبما قرر خبراء التربية والدارسون لأمور الطفل، هذا من جهة ومن جهة أخرى لصعوبة اللغة العربية ذاتها مما لا يدع مجالاً للشك «ان تعلم قواعد هذه اللغة وهذا الخط يتطلب من أطفال العرب جهداً ذهنياً أكبر بكثير مما تتطلبه سائر اللغات».

(٢٨٤) يقول عادل العوا: «انطوت خطة إصلاح المعارف على إلغاء ما كان معروفاً بالبكالوريا الأولى والثانية وجعل الشهادة الثانوية شهادة واحدة ينالها الطالب بعد الصف الحادي عشر بدلاً من الصف الثاني عشر، وقد قضى ذلك بإرجاع تدريس الفلسفة إلى مبادئ في علم النفس والمنطق والأخلاق وإهمال الفلسفة العامة أو الميتافيزياء صوناً لعقول الشباب من البحوث الغيبية والضباب الكلامي الذي لا طائل له». العوا، «الجذرية الأخلاقية لدى ساطع الحصري،» ص ١١٠.

(٢٨٥) اقترح إلغاء اسم المدرسة التجهيزية وتسميتها بالثانوية، كما في مصر، وكذلك اسم الإكمالية اقترح تسميتها بالمتوسطة كما في العراق.

(٢٨٦) جحا، «ساطع الحصري والآثار،» ص ٢٢٥ ـ ٢٢٨.

وكان التقرير **العاشر** خاصاً بالتعليم المسلكي (المهني)، وبيّن حاجة البلاد إلى مثل هذه المدارس لتلافي النقص في انتشارها. وعرض الحصري في التقرير **الحادي عشر** لموضوع التفتيش وتبيان مهماته وهما الاستطلاع والمراقبة والتوجيه والإرشاد. وجاء التقرير **الثاني عشر** قصراً على التعليم العالي والجامعة السورية مع إحصاءات، وبيَّن أن الجامعة كانت تتألف من معهدي الطب والحقوق (وكانا قد أسسا منذ العهد العثماني وأعيد تأسيسهما عام ١٩١٩)، وجعلت العربية لغة التدريس فيهما، وعرفا باسم المعهد الطبي ومعهد الحقوق العربي ثم جمعا معاً باسم الجامعة السورية عام ١٩٢٣. وأشاد الحصري بالمأثرة التي تفرد بهما المعهدان وهي التدريس باللغة العربية، وبيَّن المآخذ على التعليم الجامعي، ودعا إلى إصلاحات شاملة. وتساءل عن إمكانية إتمام الجامعة بافتتاح كليات أخرى لتلبية الحاجة إلى اختصاصيين، وإلى حين ذلك دعا للاستعانة بعدد من الأساتذة الجامعيين العرب من غير السوريين. وفي (لاحقة) للتقرير نوَّه إلى ضرورة توحيد المصطلحات في نظم التعليم العالي مع سائر البلاد العربية (كما اقترح ذلك بالنسبة للتعليم الثانوي).

ولاحظ الحصري في تقريره **الثالث عشر** الخاص بالامتحانات العامة، الإفراط، إذ إن عدد الامتحانات أربعة، وانتقد أنظمة الامتحانات لأن أحكامها بعيدة عن مقتضيات الحكمة والمنطق ومخالفة لقواعد التربية والتعليم، وطالب بتعديل تلك الأنظمة. وورد في التقرير **الرابع عشر** موضوع تنويع المدارس وتكييف المناهج، وبيّن في مطلعه احتياجات المجتمعات المتنوعة والمتشابكة، وضرورة العمل على تأسيس مدارس على أنماط تقابل جميع الاحتياجات. ويرى الحاجة إلى التنويع، وأن تكون المناهج ذات مرونة كافية، وعلى أن تجري التدريسات وفق طرق مستمدة من أحوال المحيط، ويكون لطرائق التعليم أهمية أكبر من المناهج[٢٨٧]، وتعرّض التقرير للتعليم النسوي والزراعي. أما التقرير **الخامس عشر** فهو الذي يتعرض للأنظمة العامة والقوانين في أمور المعارف. وأوضح الحصري في التقرير أن أمور المعارف والمدارس تنظم بسلسلة قوانين ومراسيم وتعليمات وقرارات وبلاغات، وبيّن الأسس التي اعتمدها حين وضع «مشروع قانون المعارف العام» (وكان قد قدمه في ٩ أيار/مايو ١٩٤٤) ليكون قانوناً أساسياً ينظم أعمال وزارة المعارف ومعاهدها، وأعقبه بإيراد نص مشروع «نظام تشكيلات وزارة المعارف (وكان قد قدمه في ١٦ أيار/مايو ١٩٤٤). ويذكر

---

(٢٨٧) تناول الحصري موضوع «تنويع المدارس وتكييف المناهج» بالتفصيل في: الحصري، **حول الوحدة الثقافية العربية**، ص ٥٤ ـ ٦٢.

الحصري أن الحكومة السورية قد وافقت على المشروعين بقانون وقدمتهما للمجلس النيابي الذي وافق عليهما وأصبحا قانونين نافذين[٢٨٨].

أما التقرير الأخير وهو السادس عشر فاختص بتوثيق الصلات الثقافية بين سوريا وسائر الأقطار العربية وكيفية السبيل إلى تحقيقها. واستهل الحصري التقرير ببيان «أن الصلات الثقافية القائمة بين سوريا وسائر البلاد العربية متينة وطبيعية في حد ذاتها، لأنها تنشأ من وحدة اللغة وتتغذى بوحدة التاريخ، وتنمو بوحدة المنافع، وتتوثق بوحدة الآلام والآمال، فهي عميقة الجذور وشديدة الحيوية. غير أن هذه الصلات الثقافية متروكة إلى تيارات الطبيعة وأحكام الفطرة، فهي لم تصب حظاً يذكر من عمل تنظيم الجماعات والحكومات، ولقد آن الأوان لتبديل هذا الوضع العام وتنظيم هذه الصلات الثقافية وتوثيقها بغية إيصالها بأعظم ما يمكن من السرعة إلى أقصى درجات الإمكان». وباعتقاد الحصري أن الواجبات التي تترتب على وزارة المعارف لتوثيق وتنظيم الصلات الثقافية تنقسم إلى ثلاثة أقسام أساسية: رفع الموانع والحواجز التي تعرقل الصلات الثقافية وتحول دون توثقها، والعمل لضمان التقارب بين مناهج الدراسة في البلاد العربية المختلفة وتوحيد الاتجاهات الأساسية المرسومة لها، والتعاون مع وزارات معارف البلاد العربية الأخرى في جميع الأعمال الإنشائية التي تساعد على تكوين ثقافة عربية موحدة.

وقد وضع ساطع الحصري نصب عينيه في إصلاحه للتعليم السوري خدمة الهدف القومي، فنصت المادة الأولى من مشروع «قانون المعارف العامة»[٢٨٩] الذي وضعه في سوريا ما يلي بخصوص واجب وزارة المعارف: «إن مهمة وزارة المعارف الأساسية هي تربية الجيل الجديد تربية صالحة، من جميع الوجوه البدنية والخلقية والفكرية لينشأ كل فرد من أفراده قوي البدن، حسن الخلق وصحيح التفكير، محباً لوطنه، معتزاً بقوميته، مدركاً لواجباته ومزوداً بالمعلومات التي يحتاج إليها في حياته، قادراً على خدمة بلاده بقواه العقلية والبدنية وبجهوده الإنتاجية». واشترط ساطع في المادة الخامسة والأربعين من المشروع ذاته «ان تدريس اللغة العربية وتاريخ العرب وجغرافية البلاد العربية حسب منهج وزارة المعارف إجباري في جميع المدارس الخاصة الابتدائية والثانوية ويجب أن لا تقل دروس اللغة العربية عن

---

(٢٨٨) حول قانون ١٩٤٤ إضافة إلى معلومات إحصائية تتعلق بالتربية في سوريا عموماً فور انتهاء الحرب، انظر: ساطع الحصري، **حولية الثقافة العربية، ١٩٤٨ ـ ١٩٥٨**، ٦ ج (القاهرة: جامعة الدول العربية، ١٩٤٩ ـ ١٩٥٨)، السنة الأولى، ص ٧٣ ـ ١٨٨.

(٢٨٩) الحصري، **تقارير عن حالة المعارف في سورية واقتراحات لإصلاحها**، ص ٢٦٥.

خمس ساعات أسبوعية في الصفوف الابتدائية وعن ثلاث ساعات في صفوف المدارس الثانوية».

وقد عاش ساطع يؤمن بأهمية توحيد الثقافة العربية بين جميع البلاد العربية كسبيل إلى وحدة عربية. ورأى من الموافق تثبيت ذلك بنص قانوني، فوضع في مشروع القانون ليكون قانوناً أساسياً لأعمال وزارة المعارف فقرة تنص على «أن تقوية الصلات الثقافية بين سوريا وشقيقاتها بغية تكوين ثقافة موحدة بين جميع البلاد العربية يجب أن تعتبر من جملة الواجبات الأساسية المترتبة على وزارة المعارف (فقرة ط من المادة الثانية من مشروع قانون المعارف)[٢٩٠] علاوة على حكم الطبيعة وضرورات القومية والوطنية». والوحدة الثقافية التي يتطلع لها الحصري «لا تعني (عينية) التفكير في كل شيء وإنما تعني الوحدة في لون التفكير والتناسق في الاتجاه السائد فيه، حتى مبدأ (وحدة التعليم) نفسه لا تعني (عينية التعليم) فلا يطلب إفراغ جميع المدارس وجميع الدروس في قالب واحد.. يجب أن يكون هناك وحدة عامة في الأسس والاتجاهات.. وليس من العسير إيجاد هذه (الوحدة العامة) دون الإخلال بشيء من التنوع، المبحوث عنه»[٢٩١].

لا شك في أن الإصلاحات التي قام بها في مدة لا تزيد على ثلاث سنوات تعتبر بنظر كامل عياد «عملاً جباراً كان له أعظم النتائج وأعمق الآثار في تطور سوريا وتقدمها الثقافي»[٢٩٢]. إلا أنه واجه عقبات (مصطنعة) من الداخل وعقبات (مصنوعة) من الخارج وصفها شكري فيصل بهذه الكلمات «وأشهد لقد كانت مقاومة عنيفة من الداخل والخارج على السواء.. كانت حيناً في داخل الحكم الذي كان يحب ساطع ويقدره، وكانت من بين جدران وزارة المعارف حيناً آخر، وأغرب ذلك أنها كانت في أوساط بعض المثقفين الذين انتظر الحصري أن يكونوا عضداً له ومساعداً، والذين أفسح لهم من عقله وقلبه وتجاوز تقديرهم إلى تكريمهم.. وأخيراً كانت في بعض السفارات أو المؤسسات الثقافية، وكانت في بعض الأوساط التي تكوّن الرأي العام، وهي في أكثر ذلك، كانت مقاومة تغيب عنها الأهداف العلمية والتربوية والقومية التي يهدف إليها الحصري». ويضيف شكري فيصل «ولا شك في أنه كان يعاني في هذه الفترة في أعماقه الكثير على

(٢٩٠) المصدر نفسه، ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠.

(٢٩١) المصدر نفسه، ص ٢٩٧ ـ ٣٠٠.

(٢٩٢) عياد، «ذكريات عن ساطع الحصري،» ص ١٠٦ ـ ١٠٧.

نحو ما يعاني في حياته الخارجية.. ولقد تمثلت هذه المعاناة وتجسدت عملاً فكرياً بارزاً في هذه المحاضرة التي ألقاها على مدرج الجامعة السورية. كانت هذه المحاضرة توضيحاً لآرائه من نحو، كما كانت تجميعاً لمعاناته وتصعيداً لها، وأذكر أنها واحدة من أقوى المحاضرات التي تجاوبت أصداؤها في الجامعة ثم في أوساط التعليم وخلفت من الأثر في حياة سوريا الثقافية ما لم تخلفه محاضرة أخرى»[٢٩٣].

شرح ساطع في هذه المحاضرة (في ١٩ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٤)[٢٩٤] أسباب تردده في التحدث في المحافل العامة حتى عندما اطلع على الدعايات التي عمد إليها الفرنسيون لإثارة آراء المنوّرين على اقتراحاته ومشاريعه، ولكن بعد أن لمس الآن تبدل الأوضاع بعد أن «تبنت الحكومة المشاريع الإصلاحية التي كنت وضعتها والخطط الأساسية التي كنت رسمتها لمعارف البلاد ورفعت إلى المجلس النيابي مشروع القانون الذي كنت هيأته لتنفيذ تلك المشاريع الإصلاحية عملاً بتلك الخطط الأساسية، والمجلس النيابي شارك رأي الحكومة في هذا المضمار وأقرّ القانون بحماسة واندفاع، وأصبحت بهذه الصورة المشاريع التي كنت وضعتها مشاريع الحكومة السورية نفسها». وهكذا وجد الحصري أن من حقه، بل من واجبه، أن يشرح أسس هذه المشاريع ومرامي هذه السياسة. وشرح ساطع في المحاضرة جملة إصلاحاته «ووقف الوقفة الأطول عند حكاية البكالوريا الموحدة التي اقترحها بديلاً من ثنائية البكالوريا، كما وقف مثل هذه الوقفة عند إلغاء اللغة الأجنبية من الدراسة الابتدائية»[٢٩٥]. وأشار الحصري في محاضرته إلى أن الحكم الأجنبي بثّ كثيراً من البذور الضارة وربما كان أسوأها وأخطرها ـ بنظره ـ هي التي امتدت في أرض الثقافة والمعارف، وكان أقصر السبل سن قانون جديد يلغي في جملة واحدة جميع نظم المعارف الموضوعة في عهد الانتداب، إنه بمثابة «صك الاستقلال الثقافي» في هذه البلاد. واختتم الحصري المحاضرة بالقول «إني من الذين يؤمنون بالوحدة العربية إيماناً عميقاً ومن الذين يقولون بوجوب العمل من أجلها عملاً متواصلاً دون توانٍ أو تخاذل. إنني أعتقد اعتقاداً جازماً بأن الوحدة العربية (ضرورية) لحفظ كيان الشعوب العربية، كما اعتقد أنها (طبيعية) بالنسبة إلى حياة الأمة العربية وتاريخها الطويل، فلا أشك أبداً في أنها ستتحقق يوماً من الأيام

(٢٩٣) شكري فيصل، «ساطع الحصري والثورة الثقافية في سورية،» المعلم العربي، السنة ٣٠، العددان ٢ ـ ٣ (شباط/ فبراير ـ آذار/ مارس ١٩٧٧)، ص ١١٢ ـ ١١٣.

(٢٩٤) الحصري، «الاستقلال الثقافي،» ص ٦٥ ـ ١٠٧.

(٢٩٥) فيصل، المصدر نفسه، ص ١١٣.

إن عاجلاً أو آجلاً. لا أدري فيما إذا كان ما بقي لي من العمر سيسمح لي بإدراك ذلك اليوم»[٢٩٦].

لقد اتخذت اقتراحات الحصري (بعد أن وافقت عليها الحكومة السورية وأقرها المجلس النيابي وأصبحت قوانين نافذة) أساساً للنظام التربوي في سوريا بعد الحرب على الرغم من الخلاف حولها. ويذكر المعاصرون من رجال التعليم بعض مآثر ما فعله الحصري: يقول فاخر عاقل «ويذكر معي الذين عملوا مع ساطع الحصري أن الفرنسيين قبل أن يجلوا عن البلاد كانوا يلحون على عقد معاهدة ثقافية مع سوريا وأنهم تقدموا بمشروع للوفد السوري لينظر فيها ويقرها، ولم يكن ساطع عضواً في هذا الوفد وإن كان مستشاراً له. ولقد قدم الوفد مشروع المعاهدة إلى الحصري الذي أخذه وغاب ثلاثة أيام عاد بعدها يردّ على مشروع المعاهدة الفرنسي وتعليقاته عليه. والذي حصل أن الحصري سافر إلى بيروت وحصل منها على مناقشات عصبة الأمم في الثلاثينيات وفيها مشروع معاهدة ثقافية قدمته المانيا النازية إلى يوغسلافيا، وعلّق عليه مندوب فرنسا في عصبة الأمم وقال عنه ـ في جملة ما قاله ـ انه ليس مشروع معاهدة ثقافية وإنما هو مشروع استعمار ثقافي. ولقد قارن الحصري بين المشروع الألماني المقدم إلى يوغسلافيا، والمشروع الفرنسي المقدم لسوريا، وأظهر أن المشروع الألماني خير من المشروع الفرنسي بمراحل. ولما قُدّم الرد للفرنسيين تهيبوا وانسحبوا وتركوا سوريا دون معاهدة ثقافية وكان الفضل لرد الحصري»[٢٩٧].

ومع أن حافظ الجمالي، يقر بأنه لم يكن مرتاحاً للتطور الذي أدخله ساطع الحصري على النظام التعليمي السوري (لأسباب يوردها تحمل الرأي الذاتي)، ولكنه يقول «لا شك في أن مقترحات الحصري لتطوير النظام التربوي في سوريا تصوّر شخصيته الواعية أكمل تصوير. انها تنبئ عن الحاجة التي يشعر بها كل عربي إلى حرق المراحل الفاصلة بينه وبين الأمم المتقدمة، ومن هنا جاء تكثيف المواد الدراسية واختصار سنة من سنوات الدراسة على حساب هذا التكثيف، ومن هنا

---

(٢٩٦) ساطع الحصري، **آراء وأحاديث في القومية العربية**، سلسلة التراث القومي. الأعمال القومية لساطع الحصري؛ ٧ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥)، ص ١٧. (نشر الكتاب لأول مرة عام ١٩٥١ وأعيد نشره عام ١٩٥٦).

(٢٩٧) عاقل، «ساطع الحصري الرجل،» ص ١٢٠ ـ ١٢٢. وقد أشار الحصري إلى تنفيذ مشروع الاتفاقية الثقافية هذه في ١٩ آذار/مارس ١٩٤٥ في: ساطع الحصري، **تقارير عن أحوال المعارف في سورية خلال سنة ١٩٤٥** (دمشق: وزارة المعارف، ١٩٤٥)، ص ٧٩ ـ ٨٣، مغفلاً دوره الشخصي.

أيضاً جاء اختصار المواد الفلسفية كتعبير عن الاعتقاد بأن الحضارة الحديثة هي بنت العلم والتقنية». ويضيف حافظ الجمالي «لكن شخصيته الحقيقية تتجلى بالدرجة الأولى في الحاجة المتصلة إلى العمل والتأثير، والتطوير والارتقاء بما حوله إلى مستوى أعلى، وإليه (الحصري) ولا ريب يعود الفضل في توسيع الجامعة وإغنائها بكليتي العلوم والآداب ودار المعلمين العليا. وقد يقال إن هذه الجامعة كانت ستنمو على كل حال به وبدونه، ولكن الفضل يعود إليه في استعجال الخطى وتوسيع الآفاق، وكان رصيده في كل أعماله رصيداً ضخماً من الحزم والعزم ومهابة ملحوظة وحضوراً شخصياً لا يمكن تجاهله بل يفرض نفسه فرضاً على مستوى المعرفة من جهة أولى، ومستوى القدرة على صياغة الأفكار في قوالب تنظيمية صالحة للتطبيق من جهة ثانية»[(٢٩٨)].

وقد تعرّض الحصري لهجوم اتخذ أشكالاً ومظاهر متعددة، يقول فاخر عاقل «ولكن الحصري وقف منها جميعاً موقفاً حازماً صلباً يوضح جانباً آخر من جوانب خلق الحصري الرجل ومواقفه وسلوكه». ويعتبر فاخر عاقل أن هذا الهجوم كانت تشنه فئتان الرجعية والاستعمار وأعوانهما، وأن «الاستعمار كان يعد الحصري عدوّه الأول، فلقد عاداه في سوريا في العشرينيات، وبخاصة في العراق في الثلاثينيات، وعاد لمقارعته في سوريا في الأربعينيات»[(٢٩٩)]. ولذلك لما قرر الحصري رفع المستوى الأدنى المقبول للنجاح في الامتحانات رتّبت العناصر الناقمة في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٦ تظاهرة قام بها الطلبة في دمشق استنكاراً لإصلاحاته التربوية هاتفين «لا إله إلا الله، وساطع الحصري عدو الله»[(٣٠٠)].

ولقد حزّ في نفس حافظ الجمالي وهو يرى الطلاب يثيرون مظاهرات

---

(٢٩٨) حافظ الجمالي، «الحصري: شخصية وفكراً،» (مجموعة البحوث التي ألقيت في الذكرى المئوية لمولد الحصري في نطاق أسبوع العلم السابع عشر، دمشق، المجلس الأعلى للعلوم، ١٩٧٧)، ص ٢٠.

(٢٩٩) عاقل، «ساطع الحصري الرجل،» ص ١٢٠ ـ ١٢١.

(٣٠٠) كتب أحمد أمين في العدد ٤١٥ من مجلة **الثقافة** التي تصدر في القاهرة مقالاً تحت عنوان «مأساة» ذكر فيه الحادث نقلاً عن كتاب تلقاه من صديق سوري يقول فيه (أمين) «عندنا مثل ما عندكم.. لا يستطيع مصلح جاد أن يتم إصلاحه حتى تتألب عليه الجهات المأجورة والمضللة وذوات الأغراض فترميه بأشنع التّهم حتى يضطر إلى الفرار من الميدان تاركاً الدار تنعى من بناها». وردّ الحصري على المقال برد تحت عنوان «لا داعي لليأس» يقول فيه «ولا أزال أؤمن إيماناً راسخاً بأن الأمة العربية ستصل إلى المكانة التي تصبو إليها، بفعل طبيعتها، وبجهود أبنائها المخلصين دون أن تحتاج إلى معجزة من المعجزات». الحصري، **صفحات من الماضي القريب**، ص ٧١ ـ ٧٩.

صاخبة ضد الحصري، بعد أقل من سنتين على تطبيق برامجه ويضطرونه إلى الاستقالة من منصبه ميمّماً وجهه، كما فعل قبل خمس سنوات خلت، شطر بيروت «ويذهب كل الجهد الذي بذله سدى كأنه لم يسهر عليه الليالي، ولم يضع فيه كل قلبه، ولم يستخدم له كل عمله. فيجب أن نذكر أن مقاييس النجاح في بلادنا ليست كلها العلم والإخلاص، بل هي أيضاً في أشياء أخرى ذات صيغة اجتماعية، ما كان أجدره هو ـ وهو من هو اطلاعاً على العلوم النفسية والاجتماعية أن يقدّرها. . ان قضية الحصري هي أكثر من قضية شخصية، إنها مشكلة الأمة في مرحلة من مراحل تطورها، وليست هذه أول مرة تضحي فيها هذه الأمة بالكثير من رجالاتها الذين كانوا يمتلئون حماسة لقضيتها وإخلاصاً لمستقبلها، وعندما تقف هذه التضحية عند حدود الرحيل عن البلد، والاضطرار إلى الهجرة عنها، فإن القضية تظل محتملة إلى حد ما، إذ لا شك في أن الرجل أغنى بكثير من سنواته الثلاث هنا، ولا شك في أن عطاءه الفكري وزاده من الثقافة باقيان على كل حال». وينهي الجمالي تقويمه لمنجزات الحصري بهذه الكلمات «فليخطئ الحصري إذن أو فليصب، ولتكن إصلاحاته سليمة أو غير سليمة، فقوميته وحدها كافية لوضعه في القمة من المودة والاحترام»[٣٠١].

خامساً: السنوات الاثنتان والعشرون الأخيرة من حياة الحصري (١٩٤٧ ـ ١٩٦٨)

في ٢٥ شباط/فبراير ١٩٤٧ انتقل الحصري إلى القاهرة وبدأت مرحلة جديدة من حياته تميزت من سابقاتها، فهو رغم تعدد أوجه نشاطه ومناصبه، صار في المقام الأول منظّراً للقومية العربية واستكمل سلسلة الأبحاث التي بدأها في بغداد وبيروت ودارت خصوصاً حول النظرية القومية والدفاع عن القومية العربية[٣٠٢]، التي هي ليست انفعالاً عاطفياً وإنما هي حركة لها أسسها العلمية، وجاءت أبحاثه تخدم هذا الاتجاه، ومضى ساطع يخدم في إخلاص الفكرة التي عاش من أجلها ونذر نفسه فداءً لها. وصعد نجمه بوصفه مناضلاً صلباً في سبيل وحدة البلاد العربية. وكان انتقال الحصري إلى مصر قد توافق مع اشتداد التيار الفكري الداعي للتكتل العربي الذي تنامى خلال الحرب العالمية الثانية (وكان الحصري قد أعلن منذ الثلاثينيات عن دور مصر القيادي في حركة الوحدة) وبلغ

(٣٠١) الجمالي، «الحصري: شخصية وفكراً،» ص ٢١.

(٣٠٢) حوراني، **الفكر العربي في عصر النهضة، ١٧٩٨ ـ ١٩٣٩**، ص ٣٧٢.

حده الأقصى بعد تأسيس الجامعة العربية[٣٠٣]. وقد رأى الحصري في تأسيس الجامعة منعطفاً جديداً في تاريخ الأمة العربية وخطوة جادة في الطريق إلى الوحدة وأنها تشكلت وليدة (احتياج حقيقي)، وانها تكونت تحت تأثير عوامل قومية عميقة وتيارات طبيعية دائمة[٣٠٤]. غير أن الجامعة لم تحقق آماله وسوف يوجه النقد لها، في ما بعد، وبخاصة في المجال الثقافي، وبسبب سوء أدائها لإنقاذ فلسطين[٣٠٥].

بدأت مهمته في القاهرة بإلقاء محاضرات في اجتماعيات التربية والتربية الوطنية والقومية في معهد التربية بالمنيرة بصفته أستاذاً زائراً بدعوة من وزارة المعارف المصرية مدة ثلاث سنوات. وألقى خلالها ست محاضرات في نشوء الفكرة القومية في قاعة الجمعية الجغرافية بجامعة القاهرة[٣٠٦]. وتحدث فيها عن إشراق الفكرة القومية في أوروبا، وكانت محاضراته تلك فتحاً بيّناً في تاريخ الدعوة إلى الفكرة القومية في مصر. وفي الوقت نفسه قامت جامعة الدول العربية بتعيينه مشاوراً فنياً للإدارة الثقافية التابعة للجامعة (فضلاً عن مشاركته في لجان أخرى تابعة لها) فشغل هذا المنصب في ١ كانون الثاني/يناير ١٩٤٨ واستمر في العمل المذكور بما عرف فيه من دأب على العمل وإخلاص فيه حتى ٣٠ كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٠[٣٠٧]، وبذل كل ما في وسعه للتقارب الثقافي بين البلدان العربية، وبخاصة في ميدان التعليم.

وكان إنشاء متحف للثقافة العربية من أول الأمور التي فكر فيها واقترحها على الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية عندما تولى مستشاريتها[٣٠٨] بهدف تحقيق الغرضين الخاصين الآتيين، فضلاً عن الأغراض التي يهدف إليها كل متحف بوجه

---

(٣٠٣) قاسمية، «مصر في كتابات ساطع الحصري القومية،» ص ١٣٠.

(٣٠٤) الحصري، **صفحات من الماضي القريب**، ص ٦٧ ـ ٧٠.

(٣٠٥) رأى الحصري في كارثة فلسطين تجسيداً لأضرار الانقسام السياسي. ذكر زعيتر أن أحدهم كتب له يوم نزلت بالعرب كارثة فلسطين «كيف غلب الصهيونيون العرب ونحن سبع دول عربية؟» فأجابه بجملة واحدة «لقد غلب الصهيونيون العرب لأنهم سبع دول». زعيتر، «ساطع الحصري أقوى الدعاة للقومية العربية،» ص ٥٢. ووردت هذه الفقرة في: الحصري، **آراء وأحاديث في القومية العربية**، ص ٢٥. وكانت قد نشرت في جريدة الزمان البغدادية في نيسان/ابريل ١٩٥٠.

(٣٠٦) ساطع الحصري، **محاضرات في نشوء الفكرة القومية** (القاهرة: مطبعة الرسالة، ١٩٥١)، وأعيد طبعها عام ١٩٥٥.

(٣٠٧) جحا، معد، «ترجمة ساطع الحصري كما كتبها بقلمه في أواخر عام ١٩٦٠،» ص ٢٠٥.

(٣٠٨) تفاصيل المتحف في كتاب: ساطع الحصري، **ثقافتنا في جامعة الدول العربية** (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٢)، ص ١١٤ ـ ١٢٧.

عام: كان يجب على المتحف أن يظهر الفروق القائمة بين نظم التعليم ومناهج الدراسة في مختلف البلاد العربية لاستثارة الهمم على السعي وراء إزالة تلك الفروق، كما أنه كان يجب على المتحف أن يستكمل الوسائل اللازمة لاستفادة الدول العربية من تجارب بعضها البعض حتى تقتبس كل دولة أحسن ما تراه عند غيرها، وتكون هي قدوة لغيرها بأحسن ما عندها. ولذلك وضع ساطع خطة المتحف على هذا الأساس، وخدمة لهذه الأغراض اقترح في مذكرة رسمية أن يجمع المتحف جميع الوثائق المتعلقة بالنظم التعليمية وتشكيلات الوزارات والإدارات التي تدير شؤون التربية والتعليم وسائر المؤسسات والحركات الثقافية في البلاد العربية، وأن تستعين الإدارة الثقافية بالكتب والأنظمة والتقارير والصور التي تطلبها من وزارات المعارف المختلفة، وحبّذت الإدارة الثقافية الفكرة وتبنتها على الفور وأخذت تستكمل الوسائل اللازمة لتحقيقها(٣٠٩)، وتمّ افتتاح المتحف بحضور ممثلي جميع الدول العربية عام ١٩٤٩، وأعدّ دليل مطبوع للمتحف وزّع على الزوار الذين حضروا حفل الافتتاح. وقد صدر الدليل بمقدمة توضح الغرض من تأسيس المتحف: جمع المعلومات والوثائق المتعلقة بشؤون الثقافة ونظم المعارف في مختلف الأقطار العربية وتهيئتها للباحثين، وعرض خلاصة تلك المعلومات وأهم تلك الوثائق بغية إعطاء فكرة واضحة عن حالة المعارف والمدارس في كل قطر من الأقطار العربية، مصحوبة بمقارنات إحصائية ورسوم بيانية. وكان من المقرّر ألا يبقى المتحف جامداً على شكل واحد بل يتبدل ويتجدد من حين لآخر إلا أنه توقف عن النمو. وسجّل الحصري أساه العميق لإهمال المتحف بعد ذلك لأن الجامعة لم تتابع استكمال الوثائق المطلوبة، ولأن الاهتمام بالمتحف قد أخذ يضعف حتى غدت الغرف المخصصة له قليلة من جهة، وشبيهة بالمخازن من جهة أخرى(٣١٠).

إلا أن هذه الفترة قد شهدت أضخم نشاط لساطع الحصري في مجال الثقافة والتعليم حين بدأ بإصدار سلسلة حولياته الثقافية عن الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية. وفي عام ١٩٤٩ صدرت الحولية الأولى وتتناول الشؤون الثقافية في البلاد العربية منذ عام ١٩٤٥ وحتى نهاية السنة الدراسية (١٩٤٧ ـ ١٩٤٨)(٣١١).

---

(٣٠٩) كانت الإدارة الثقافية تشغل غرفتين من غرف مبنى الأمانة العامة في شارع البستان، وعندما تبنت الإدارة فكرة المتحف توفقت إلى استئجار طابقين مستقلين في فيلا كبيرة في العجوزة، وخصّت الطابق الأرضي منها للمتحف والأول لمكاتبها.

(٣١٠) جحا، «ساطع الحصري والآثار،» ص ٢٢٩.

(٣١١) الحصري، **حولية الثقافة العربية، ١٩٤٨ ـ ١٩٥٨**، السنة الأولى.

واستهدف ساطع الحصري في استهلال عمله في **الحوليات** أن تكون بداية الطريق لإزالة الفروق الثقافية بين البلاد العربية لإيمانه بأن الوحدة الثقافية ينبغي أن تتحقق كبداية للوحدة السياسية بين الدول العربية وأنه ما دامت الفروق الثقافية قائمة بقيت الإقليمية بظلّها الكئيب باسطة سلطانها بين أبناء الأمة العربية[٣١٢].

وفي مقدمة **الحولية** الأولى[٣١٣] عرّف الحصري الهدف الذي رمى إليه من إصداره لهذه الحوليات والصعوبات التي تعترضه: «من المعلوم أن الحوليات تُؤلّف ـ من حيث الأساس ـ لاستعراض ما يستجدّ من الأمور خلال العام الواحد ولكن، لما كان فهم الأمور المستجدة حق الفهم يتوقف على معرفة الأحوال السابقة معرفة وافية، فإن مؤلفي الحوليات يضطرون إلى افتتاح مباحثها بمعلومات عامة عن الأحوال الراهنة وعن عوامل تلك الأحوال». ويكتسب هذا الاضطرار بنظر الحصري خطورة خاصة بالنسبة إلى شؤون الثقافة العربية «لأن الكتب التي تصف الأحوال الراهنة في ميادين الثقافة تكاد تكون مفقودة.. فمن يود أن يحصل على فكرة واضحة.. ولو إجمالية عن الأوضاع الثقافية.. يضطر إلى مراجعة عدد كبير من الكتب والمطبوعات». ولهذا السبب أصبح من المتحتم على الحولية، يقول الحصري، «أن تأخذ على عاتقها هذه المهمة أيضاً، وأن تتوسع في المعلومات التي تعرضها لوصف الأحوال الراهنة توسعاً وافياً».

ويلفت الحصري الأنظار من جهة ثانية إلى «أن الأوضاع الثقافية في مختلف الأقطار العربية متنوعة تنوعاً شاذاً، فهناك دول عربية مستقلة تشرف على شؤون الثقافة فيها وزارات وطنية، غير أن كل واحدة منها قد ورثت عن الماضي ميراثاً يختلف عما ورثه غيرها فاتجهت لذلك اتجاهاً يختلف عن اتجاهات زميلاتها. وهناك بلاد عربية غير مستقلة ظلت الثقافة فيها تحت هيمنة دول أجنبية، تتحكم في شؤونها عن طريق الانتداب أو الحماية أو الاستعمار وتوجهها الاتجاه الذي تتطلبه مصالحها السياسية»[٣١٤].

---

(٣١٢) برج، **ساطع الحصري**، ص ٨٢.

(٣١٣) الحصري، **حولية الثقافة العربية، ١٩٤٨ ـ ١٩٥٨**، السنة الأولى، ص هـ ـ ح.

(٣١٤) وجد الحصري من الضروري حصر أبحاث الحولية الأولى بالأوضاع الثقافية القائمة في البلاد العربية المستقلة وحدها، وعلى الأصح في خمس فقط من تلك البلاد (مصر، العراق، سوريا، لبنان، الأردن) ذلك لأن ظروفاً خاصة كانت قد أطلعته على سير المعارف والثقافة في تلك البلاد الخمسة اطلاعاً مباشراً ومتابعة هذا السير عاماً بعد عام في حين لم تتح له فرصة الاطلاع على أحوال المعارف والثقافة في اليمن والسعودية اطلاعاً كافياً ورأى من الأوفق تركهما إلى الحوليات القادمة. وينقل جحا عن الحصري أنه في ١٩٥٤ «دعتني الحكومة العربية السعودية لدراسة أحوال معارفها وتقديم تقرير عن وسائل إصلاحها فقمت بالواجب المذكور أيضاً». جحا، معد، «ترجمة ساطع الحصري كما كتبها بقلمه في أواخر عام ١٩٦٠»، ص ٢٥٠.

وقد حرص الحصري في فاتحة **الحولية الأولى** (وهو ما سيكرره في السنوات التالية من الحولية أيضاً) على القول بأنه وصف الأحوال الراهنة وصفاً علمياً حيادياً دون إبداء رأيه الشخصي لا «استحساناً ولا استهجاناً»، لاعتقاده بأن للنقد ميادين ومناسبات أخرى غير صحائف الحولية التي تصدر باسم الإدارة الثقافية للجامعة. وينبّه القارئ إلى أن ورود ما يشبه نقد بعض الأوضاع أو الدفاع عنها منقول عن الوثائق الرسمية بغية إظهار النزعات والاتجاهات ولا تعبر قط عن رأيه الشخصي. ولكنه يستدرك القول بأنه قد أبدى رأياً شخصياً في موضع واحد هو خاتمة النظرات التاريخية (التي تتقدم على المقارنات العامة) وفيها يعبر عن رسالته القومية التي نذر نفسه لها فيقول «يظهر من هذه النظرات السريعة التي ألقيناها على تاريخ المعارف في مختلف الأقطار العربية، أن الفروق التي تشاهد بين هذه الأقطار من حيث نظم التعليم واتجاهات الثقافة لم تكن نتاج طبيعة البلاد الأصلية وحاجاتها الحقيقية، إنما كانت من نتائج السياسات الأجنبية التي سيطرت على مقدراتها، عن طريق الانتداب أو الاحتلال، فلا مجال للشك في أن هذه الفروق ستتضاءل، كلما تخلصت الدول العربية من النظم التي ورثتها عن عهود الاحتلال أو الانتداب، وكلما عدّلت النظم والأوضاع القائمة في بلادها وفق ما تقتضيه مصالحها الحقيقية بنظرات شاخصة نحو المستقبل البعيد، والمثل الأعلى الذي تنطوي عليه فكرة العروبة الخالدة». لقد كان طموح الحصري، كما ختم به فاتحة الحولية الأولى «بأن الذين بيدهم زمام أمور المعارف والثقافة في مختلف الدول العربية عندما يلمسون الحقيقة التي سردتها آنفاً ـ من بين صفحات هذا الكتاب ـ لمس اليدين، سيشعرون شعوراً أقوى وأوضح مما كانوا يشعرون به، بوجوب العمل على إزالة هذه الفروق بكل اهتمام واندفاع».

وكانت خطة ساطع في **الحولية** الأولى[٣١٥] (التي ظلت متبعة في **حولياته** التالية) تقسيم محتوياتها إلى قسمين: **الأول** استعراض عام للمعاهد التعليمية مع النظم والمناهج، والقسم **الثاني** خاص بالمؤسسات العلمية والثقافية مع تذييل الحولية بإحصاءات. إلا أن الحولية الأولى تميزت مما سيليها بأمرين: **الأول** أنه تصدرتها نظرات تاريخية تحاول تفسير الفروق العظيمة التي تميز الأقطار العربية بعضها من بعض في نظم التعليم القائمة والاتجاهات الثقافية السائدة والعودة إلى العوامل السياسية التاريخية التي أدت إلى حدوث هذه الفروق والاختلافات والتعرف إلى عمق جذور هذه العوامل ومدى تأثيرها في الأحوال الحاضرة. والأمر **الثاني** هو

(٣١٥) الحصري، المصدر نفسه، السنة الأولى، ص ٢ ـ ٣.

اختصار القسم الثاني (الخاص بالمؤسسات العلمية والثقافية) ويعلل ذلك بـ «كثرة أنواع المعاهد التعليمية واختلاف نظمها وتنوّع مناهجها في مختلف الدول العربية حتى اننا اكتفينا في الفصول الأخيرة فيه بالتعداد والإحصاء والتسجيل دون شرح وتفصيل». ويعد الحصري بأن يكون الأمر عكس ذلك في الحوليات القادمة، إذ سيتقلص القسم الأول لأنه سيكتفي بعرض ما يستجدّ من معاهد التعليم على أن يفسح المجال لتوسيع القسم الثاني توسيعاً يتلافى الاختصار الذي لازمه في الحولية الأولى.

واستمر ساطع في عمله الرسمي مشاوراً فنياً للإدارة الثقافية حتى ٣٠ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٠ حين قدّم استقالته، وعلل ذلك[٣١٦] ـ في ما بعد ـ بأن نشاط الإدارة أخذ يخبو ويتضاءل بعد أن أظهرت نشاطاً كبيراً خلال السنوات الأولى من إنشائها، وحتى خلال سنوات نشاطها الأولى كانت تكثر من المشاريع دون أن تقرنها بدراسات جدّية ودون أن تتبعها بأفعال تنفيذية وأنها كانت قليلة الحظ من (أ) روح المثابرة التي تستلزم مواصلة العمل بدون كلل، ومغالبة المشاكل بدون فتور، حتى يتحقق الغرض المنشود، ومن (ب) شيمة العمل التقني التي تتطلب دراسة الأحوال ورسم الخطط بالطرق العلمية مع تثبيت الغايات بصورة واضحة. ويعتبر الحصري أن هذا كان مصدر جميع ضروب الأخطاء والتقصير التي تجلّت في أعمالها: «انها لم تنجز معظم المشاريع الهامة التي وضعتها وتعهدت بها وأعلنت عنها، فضلاً عن أنها قصّرت كثيراً في الأمور والدراسات التي كان يجب عليها أن تقوم بها»[٣١٧].

وقد تفرّغ الحصري بعد استقالته من الإدارة الثقافية إلى إصدار الحوليات وجمع المعلومات والوثائق المتعلقة بها[٣١٨]. كما أنه نشر عام ١٩٥١ عدداً من

(٣١٦) الحصري، ثقافتنا في جامعة الدول العربية، فيها نقد لأعمال الإدارة الثقافية.

(٣١٧) أمثلة لهذه المشاريع التي قصّرت فيها الإدارة الثقافية هي: تقويم البلاد العربية، فهرس المطبوعات العربية، كتاب جغرافية البلاد العربية وأطالس عن البلاد العربية، السينما الثقافية، الإذاعة، استكتاب مقالات، ترتيب محاضرات، تشجيع التأليف والكتابة والترجمة، التربية الوطنية... الخ. المصدر نفسه، ص ٤٩ ـ ١٠١.

(٣١٨) صدرت بعد الحولية الأولى حوليات ثلاث من العام الدراسي ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨ وحتى نهاية العام الدراسي ١٩٥٢ ـ ١٩٥٣. وكان الحصري يودّ أن تكون الحولية الرابعة خاتمة حوليات الثقافة العربية التي أخذ على عاتقه مهمة تأليفها قبل نحو خمسة أعوام. وتؤلف الحوليات بنظره شبه موسوعة تضم مجموعة من المعلومات والوثائق الأساسية عن أوضاع التعليم واتجاهات الثقافة في مختلف أقطار الوطن العربي عند أواسط القرن العشرين. وكان من المتوقع كما ذكر في مقدمة الحولية الرابعة ١٠/١١/١٩٥٣، بعد أن تحرر من أعباء تأليف الحوليات بأنه «يترتب عليّ واجب آخر هو نقد هذه الأوضاع وإبداء رأيي فيها، مع اقتراح التدابير الكفيلة بإصلاحها». ولكن بعد ثلاث سنوات عدل عن القرار وأصدر الحولية الخامسة في ١٥/ ١١/١٩٥٦.

بحوثه حول القومية بوجه عام، والقومية العربية على وجه خاص[٣١٩]. كما أصدر عدداً آخر من المؤلفات في الثقافة والتربية والأخلاق واللغة والآداب[٣٢٠] تتصل بنحو أو آخر بالقضية القومية نظراً لدور هذه الميادين في التنشئة الوطنية والقومية، وفي التقريب بين الأقطار العربية. وفي العام ذاته ـ ١٩٥١ ـ تصدى لحملة التشكيك بفكرة الوحدة العربية التي شنّها بعض الصحفيين في مصر[٣٢١] (بمناسبة تقديم سوريا مشروعاً إلى مجلس الجامعة العربية يدعو إلى إيجاد روابط اتحادية في مواجهة الأخطار التي تحيق بالبلاد العربية)، ورداً على ما ذكره مصطفى أمين «بأن هذا المشروع يكون عملياً لو جاء بعد انتصارنا في حرب فلسطين، وبعد أن حاربنا صفاً واحداً كرجل واحد» بقوله: «إن تحقيق الوحدة أصبح من أوجب الواجبات علينا، لأننا خسرنا حرب فلسطين، ولم نحل دون قيام دولة إسرائيل التي تهدد مستقبلنا جميعاً. . يجب أن نشرع في العمل لتحقيق الوحدة، كي نستطيع أن نحارب في المستقبل صفاً واحداً. . إننا خسرنا الحرب لأننا كنا سبع دول. . فيجب علينا أن نتعظ من درس حرب فلسطين فنسعى لتكوين دولة عربية متحدة كي لا نخسر حروب المستقبل».

ولم يفقد الحصري إيمانه بأن مصر ستندفع نحو فكرة العروبة وأن الأحوال التي غذّت عزلة مصر، والتي هي وليدة ظروف شاذة لا بد من أن تزول. وفرح ساطع فرحاً عظيماً حين قامت الثورة في مصر، وكان من أسباب فرحه أن الذين قادوا الثورة كانوا ممن اشتركوا في معارك فلسطين، وان حسهم القومي قد نما ووعيهم القومي قد عمق باشتراكهم في هذه المعارك[٣٢٢]. إلا أن التطور لم يكن سهلاً فقد توقفت ثورة ١٩٥٢ قليلاً قبل أن تطرح هويتها العربية. وشارك الحصري في المناقشات التي دارت في أوساط كتاب مصر بشأن الاتجاهات القومية والوطنية[٣٢٣] «ليس من باب التطفل»، مذكراً بما كتبه في مجلة **الرسالة** قبل سبعة

---

(٣١٩) منها: **محاضرات في نشوء الفكرة القومية** وهي المحاضرات الست التي ألقاها في الجمعية الجغرافية. وفي العام نفسه وفي القاهرة أصدر **آراء وأحاديث في القومية العربية** ضمت مقتطفات من أعماله منذ العشرينيات. وكرس الحصري مجموعة **العروبة بين دعاتها ومعارضيها** (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٥٢) لنقد التيارات الإقليمية والانعزالية.

(٣٢٠) منها: ساطع الحصري: **آراء وأحاديث في العلم والأخلاق والثقافة** (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٥١)، **وآراء وأحاديث في التاريخ والاجتماع** (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٥١).

(٣٢١) قاسمية، «مصر في كتابات ساطع الحصري القومية،» ص ١٣٦.

(٣٢٢) خلف الله، «ساطع الحصري: قصة حياته،» ص ٢٩.

(٣٢٣) قاسمية، المصدر نفسه، ص ١٣٦.

عشر عاماً بأن «مصر أصبحت القدوة المؤثرة على العالم العربي بأجمعه.. كل تقدّم يحصل في مصر لا يخلو من النفع لسائر البلاد العربية.. كما أن كل نقص يعيش ويستمر في مصر لا يخلو من ضرر العدوى». ولم يعترض الحصري على من يقول مصر أوّلاً لأن باعتقاده أن كل من يفكر في مصالح مصر الحقيقية تفكيراً مقروناً بالتبصر والتعمق يصل إلى الحكم بأن مصر عربية وبأنها تقع في موقع القلب من جسم الوطن العربي، فيجب عليها والحالة هذه أن تسير على سياسة عربية فتسعى إلى توحيد العرب بصورة فعلية. وكان يرقب بتفاؤل ازدياد أصوات الذين يقولون إن المصرية والعروبة متلازمتان.

كان الحصري منكبّاً على جمع معلومات الحولية الثقافية الرابعة ومنصرفاً إلى وضع تصور لإنشاء مؤسسة عربية تخدم قضية القومية العربية خدمة علمية، لما عهدت له الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية اعتباراً من أول نيسان/ابريل ١٩٥٣ بإدارة معهد البحوث والدراسات العربية العالية الذي قرر مجلس جامعة الدول العربية، بمساعيه، إنشاءه في القاهرة[٣٢٤]، ليكمل به عمل الأمانة العامة، كما يذكر أحمد خلف الله[٣٢٥] الذي رافق الحصري في هذه المرحلة. ويؤكد كامل عياد[٣٢٦]، وهو شاهد معاصر أيضاً «إن إنشاء هذا المعهد كان لا بد أن يستغرق سنوات عديدة لولا جهود ساطع الحصري الذي تولى وضع نظامه (الأساسي) واختيار دار له وتزويده بمكتبة ممتازة خلال سنة. فقد كنت في تلك الفترة التقي يومياً بالأستاذ الحصري، وأذكر أنني رافقته عدة مرات لمشاهدة الدور التي تصلح مقراً للمعهد ثم لمراقبة أعمال الترميم والبناء والتأثيث، ولكني كنت أتابع بصورة خاصة تنظيم مكتبة المعهد، وكان ساطع الحصري يتجول بنفسه بين مختلف المكتبات في القاهرة لانتقاء الكتب اللازمة ثم يراسل المكتبات في سائر الأقطار العربية وفي البلاد الأجنبية لشراء أمهات المصادر والمراجع الضرورية».

وبدت بصمات الحصري واضحة جلية في مواد النظام الأساسي (١٤ مادة) الذي أقره مجلس الجامعة العربية، وفي مواد النظام الداخلي (١٨ مادة) الذي يحدد ويوضح المبادئ الأساسية التي ستراعى في دراسات المعهد وهذه المواد جميعاً جاءت وهي تحمل خلاصة توجهات الحصري وأفكاره[٣٢٧]. وقد نصت المادة الأولى من

---

(٣٢٤) الخطيب، «فقيد العروبة الأستاذ ساطع الحصري،» ص ٤٥٣.

(٣٢٥) خلف الله، «ساطع الحصري: قصة حياته،» ص ٢٩.

(٣٢٦) عياد، «ذكريات عن ساطع الحصري،» ص ١٠٧.

(٣٢٧) جميع المعلومات عن المعهد في: الحصري، **ثقافتنا في جامعة الدول العربية**، ص ١٣٥ - ١٧٠.

النظام الأساسي على أن أغراض المعهد هي «إعداد شباب عربي مثقف ثقافة عربية عالية، نشر الثقافة العربية عن طريق التدريس والتأليف والنشر والمحاضرات العامة، إقامة القومية العربية على أسس علمية صحيحة، تكييف أسس الثقافة العربية بحيث تنتفع من تقدم المدنية الحديثة». كما نصت المادة الثانية من النظام الأساسي على عناوين الدراسات التي يقوم بها المعهد: مجموعة الدراسات اللغوية، ومجموعة الدراسات التاريخية والجغرافية، ومجموعة الدراسات الاقتصادية والاجتماعية والدولية، ومجموعة الدراسات القانونية، وأية مجموعة أخرى من الدراسات يقرها مجلس إدارة المعهد. وجاء في مقدمة النظام الداخلي للمعهد «ان المهمة الأولى لمعهد الدراسات العربية العالية هي الدرس والبحث، أي: درس الأحوال الراهنة في مختلف أقطار العالم العربي، دراسة علمية من النواحي السياسية والقانونية والإدارية والاقتصادية والأدبية، ومقارنة هذه الأحوال بعضها ببعض مقارنة دقيقة، لإظهار الفروق والمشابهات القائمة بين هذه الأقطار من النواحي المذكورة، وبحث العوامل التي قامت عليها هذه الفروق والمشابهات واستكشاف الظروف التي أوجدتها، وتحري الوسائل التي تساعد على زيادة التقارب بين البلاد العربية». والغاية القصوى من كل ذلك، تضيف المقدمة، «هي تقوية الوعي القومي في العالم العربي مع إشاعة الشعور بوحدة الأمة العربية وبث الإيمان بمستقبلها».

لقد كان الحصري يعلق الآمال الجسام على هذه المؤسسة (التي ستضم طلبة وأساتذة من جميع الدول العربية)، والدور الذي يجب أن تضطلع به في الحياة العربية، للعمل على رفع مستوى التربية القومية العام في كل المجالات ولتكون ذروة التطبيق لنظرياته التربوية والقومية. وفي المحاضرة الافتتاحية التي ألقاها ساطع على طلبة المعهد في ٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٣[٣٢٨]، أوضح ما يتمناه من وراء إنشاء هذا المعهد في سبيل خدمة الأمة العربية خدمة صادقة. واستعرض في المحاضرة بنظرة تاريخية متفحصة ماضي الأمة العربية، وأسباب تخلّفها الحاضر، وبخاصة في ميدان الوعي القومي، مرجعاً إلى المطامع الاستعمارية والنزعات الإقليمية التي تولدت منها سبب هذا التأخر. والحصري يبدي إيمانه بأن «تطور الأحوال الاجتماعية والسياسية في البلاد العربية يسير على الدوام نحو إضعاف

(٣٢٨) ساطع الحصري، المحاضرة الافتتاحية على طلاب المعهد في بدء العام الدراسي الأول ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤ في ٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٣ (جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٥٤).

النزعات الإقليمية وتقوية الإيمان بوحدة الأمة العربية»، ولكنه يرى أن «التطور الطبيعي يكون بطيئاً بوجه عام إذا لم يقترن بمساع جدية تبذل في سبيل مساعدة هذا التطور والإسراع فيه، لذا فإن «أهم أهداف المعهد هو المساهمة في الأعمال التي ترمي إلى تعجيل التطور الذي ذكر آنفاً وتقوية فكرة القومية العربية بين جميع الناطقين بالضاد، بأحسن الصور وأنجع الوسائل». لقد كان الحصري ينتظر من أعمال المعهد، كما ورد في محاضرته الافتتاحية، أن يقوم «بتنشيط الوعي القومي في العالم العربي مع إشاعة الشعور بوحدة الأمة العربية وبث الإيمان بمستقبلها». وينبّه الحصري إلى أن ذلك سيتم ليس بأساليب الدعاية والتبشير، بل بـ «بناء الدروس والدراسات على أسس متينة من العلم الصحيح وتقوية فكرة القومية العربية بالاستناد إلى الحقائق العلمية على الدوام». وختم محاضرته الافتتاحية بالقول: «لا نرضى أن تكون (القومية العربية) فكرة غامضة تجول في الخواطر من غير أن تستقر على شكل واضح، إنما نريدها فكرة نيرة قوية، قائمة على أسس متينة عميقة من العلم الصحيح، نريدها فكرة واضحة فعالة، تهدي العقول، وتثير العواطف، وتشحذ الهمم وتدفع إلى العمل، وتبعث الإيمان في النفوس».

بدأ ساطع العمل في المعهد وسنّه قد تجاوز السبعين لكنه كان يعمل بروح شابّة وفكر يقظ يثير كل تقدير وإعجاب[٣٢٩]، ولقد امتاز بقدرته المتواصلة على العمل: فكان يشرف على المعهد إدارياً بحكم منصبه ويتتبع كل ما يلقى فيه ويسعى وراء كل مشكلة بنفسه، ويحاضر في المعهد، ويعدّ البحوث، ويواصل إصدار مؤلفاته القومية[٣٣٠]، ويراجع أبحاث الطلبة ويجتمع بهم ويتناقش وإياهم. كان يريد طلبة المعهد رسلاً لحركة القومية العربية المؤمنين بأمّتهم العربية الغيورين عليها المجنّدين لخدمتها. من أجل هذا كان يريد أن يكون عند كل واحد منهم ما عنده

(٣٢٩) العوا، «الجذرية الأخلاقية لدى ساطع الحصري،» ص ١١٥.

(٣٣٠) منها: ساطع الحصري، **العروبة أولاً**، ط ٢ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٥٥)، وفيها يصوغ أفكاره صياغة أكثر دقة وتحديداً بعد أن أصبحت الوحدة نزعة واقعية في سياسة عدد من الحكومات العربية، وخاصة بعد أن انتهت الثورة المصرية إلى اعتناق العروبة بصورة رسمية. ورحب الحصري بما جاء في ديباجة الدستور المصري في كانون الثاني/يناير ١٩٥٦ ومادته الأولى، ووصف الحصري هذا التحول «وكأنه القفزة الرائعة التي قفزها التفكير السياسي والعمل الوطني والشعور العام في مصر من فوق متاهات اللاعروبة إلى مرتفعات العروبة الحقة». قاسمية، «مصر في كتابات ساطع الحصري،» ص ١٣٩. وتبدّت نزعة الحصري بجلاء أكثر في المجموعة النظرية التي أصدرها في بيروت عام ١٩٥٦، وتضم مقالات كتبها في النصف الأول من الخمسينيات **دفاع عن العروبة**، كما أصدر لأول مرة كتاب: **البلاد العربية والدولة العثمانية** (القاهرة: جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٥٧)، الذي يتضمن عرضاً لآرائه حول الدور السياسي والاجتماعي للإسلام في تاريخ الامبراطورية العثمانية وأطماع الدول الكبرى.

من حماسة[٣٣١]. ويذكره بالإكبار والإجلال الطلبة الذين تتلمذوا عليه والأساتذة الذين عملوا معه: يقول عادل العوّا «كان الأستاذ الحصري في ذلك الحين يبذل كل ما في وسعه لمزيد من دعم المعهد وإغناء مكتبته وتزويدها بالوثائق العربية وتكليفه إياي وغيري بالعمل في هذا السبيل. لقد أراد الحصري أن يقوم هذا المعهد، معهده في الحقيقة، وثمرة فكره القومي في مرحلته العملية الأخيرة، أراد أن يقوم بدور الموجّه والمرشد في مجال الدراسات العربية، وأن يتعمّق الأساتذة والطلاب معاً في جو من المناقشة والبحث لا الإلقاء والتلقين، في المواضيع القومية المتصلة بالأمة العربية ماضياً وحاضراً ومستقبلاً»[٣٣٢]. ويتحدث خلف الله، وكان إلى جانب ساطع أيام عمله بالمعهد، عن الكتب التي أخرجها المعهد والمحاضرات التي ألقيت فيه أيام ساطع الحصري، فيقول «كنت أدرك في وعي تام ما يهدف إليه ساطع من هذه الأعمال العلمية التي يشرف عليها. لقد بدأ بالدراسات المقارنة بين النظم المختلفة للبلاد العربية لينتهي من ذلك إلى نظام علمي موحد يكون أساساً للوحدة العربية، ولقد بدأ في طبع سلسلة من الوثائق والنصوص يضعها تحت تصرف الباحثين والدارسين من الأساتذة والطلاب ليدركوا واقع الأمة العربية ولينطلقوا من هذا الواقع إلى تحقيق الوحدة العربية والمجتمع العربي التقدمي ومن ذلك دساتير البلاد العربية.. وقوانين العمال في البلاد العربية وقوانين الجنسية في العالم العربي.. واتفاقيات البترول». إن هذه الكتب والمجموعات من الوثائق والنصوص التي لا تزال قائمة، يقول خلف الله، «تشهد لساطع بما لم يشهد له به إنسان من الجهود الجبارة التي بذلها في ميدان القضية القومية خدمة للأمة العربية»، بل إنها بنظره «خدمت القومية العربية والأمة العربية أكثر بكثير مما خدمتها به الأمانة العامة ورجال السياسة»[٣٣٣].

وظل الحصري يدير المعهد بنشاط عارم على الرغم من خبوّ أحلامه، فقد كان من المقرر للمعهد أن يكون مركزاً للدرس والبحث يعدّ رسلاً للقومية العربية، لكنه تحول إلى مؤسسة تعليمية شبيهة بغيرها. وبرغم كل الجهود التي بذلها الحصري، الذي كان يسعى، كما جاء في مذكرات زملائه، للإشراف شخصياً على كافة أوجه نشاطات المعهد، لم يُقدّر له تذليل عطالة التقاليد التدريسية، ولا إدخال المناهج المرغوبة في التعليم. فبدلاً من أن تكون قاعات المعهد منابر للمناقشة

---

(٣٣١) برج، **ساطع الحصري**، ص ٨٨ ـ ٨٩.

(٣٣٢) العوا، «الجذرية الأخلاقية لدى ساطع الحصري،» ص ١١٤ ـ ١١٥.

(٣٣٣) خلف الله، «ساطع الحصري: قصة حياته،» ص ٢٩.

والبحث وتتيح للطلبة قدراً كبيراً من الاستقلالية في الدراسة، سيطرت عادة إملاء المحاضرات وتلقينها. ونظراً لغياب المعونات المالية للطلبة وتوفير الأماكن لهم صارت الأغلبية فيه للمصريين الذين يتابعون الدراسة فيه مع مزاولة أعمال أخرى. ولم يتم التقيد بالمدة المحددة للأساتذة الذين يعملون فيه (سنتين ـ ثلاث سنوات) الأمر الذي حدّ من إطار المشكلات المعالجة ومن إمكانية الاستفادة من الكفاءات في البلدان العربية[٣٣٤].

وكان الحصري، قد عمد في تقاريره ومذكراته إلى تنبيه الجامعة العربية إلى الحال التي صار إليها المعهد، ويدعو إلى المبادرة للإصلاح المنشود لهذه المؤسسة العلمية التي طالما جاهد من أجل إنشائها، فلمّا أعيته الحيلة، ولم يستطع تطبيق جميع ما يدين به من آراء، ورأى وهو المتسم بالجذرية الأخلاقية، أن المعهد قد انحرف عما أراده له[٣٣٥]، آثر تقديم استقالته من إدارة المعهد عام ١٩٥٦ على الرضوخ للانحراف والتحريف. يقول «الذي حدث ـ مع الأسف الشديد ـ أننا أخذنا نتناسى رسالة المعهد السامية، وإني بناءً على ذلك أرى من الواجب أن أسجل وأعلن استنكاري لهذه الأوضاع والاتجاهات، وأقول بكل صراحة إذا استمرت الأحوال على هذا المنوال، أخشى أن يتحول المعهد إلى مؤسسة تمنح الشهادات لجماعة من الطلاب وتوزع أجور المحاضرات لطائفة من الأساتذة دون أن تسعى سعياً جذرياً وراء تحقيق الأغراض العلمية والقومية التي أنشئت من أجلها». ولم تمضِ سنة دراسية واحدة بعد ذلك حتى قرر ترك المعهد نهائياً، فاستقال من التدريس أيضاً[٣٣٦].

وكان تقاعد الحصري من جميع مناصبه الرسمية وهو في السابعة والسبعين، لا كفراً بما دعا إليه ونادى به، ولا تهرّباً من مسؤوليته، وإنما مضى قدماً في جهاده من أجل أمته. ولم يهمد سعير الحماسة للقضية التي ناصرها وهو يتابع الأحداث على الساحة العربية. وكانت فرحته بقيام الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٥٨ لا تعدلها فرحة، لأن قيام هذه الوحدة قد حقق حلم العرب القديم[٣٣٧].

---

(٣٣٤) وردت هذه الانتقادات في: الحصري، **ثقافتنا في جامعة الدول العربية**، ص ١٤٦ ـ ١٦٣، وقد نشر الكتاب أيضاً جملة الاقتراحات التي وضعها في مذكرات متعددة (ص ١٦٤ ـ ١٧٠) لإصلاح حالة المعهد.

(٣٣٥) العوا، «الجذرية الأخلاقية لدى ساطع الحصري،» ص ١١٥.

(٣٣٦) الخطيب، «فقيد العروبة الأستاذ ساطع الحصري،» ص ٤٥٣.

(٣٣٧) خلف الله، «ساطع الحصري: قصة حياته،» ص ٢٩.

ومع أن هذه الوحدة بنظره ليست غاية مقصودة لذاتها بل خطوة في سبيل تحقيق الاتحاد العربي العام، إلا أن المسألة هي «الإيمان أو عدم الإيمان بوحدة الأمة العربية»[٣٣٨]. ومن هنا كان حزن ساطع عظيماً حين وقع الانفصال عام ١٩٦١، ولم يغفر للقائمين به وخصّهم بكتاب مستقل. وعلى رغم ذلك فقد كتب في ١٥ تشرين الأول/اكتوبر ١٩٦١ «إن إيماني بمستقبل الأمة العربية الزاهر ووحدتها المحتومة لم يتزلزل على الرغم من النكسة الأليمة التي منيت بها أخيراً»[٣٣٩]. وهزّته نكبة حزيران/يونيو ١٩٦٧ من الأعماق، لكنها لم تبلغ به حد اليأس ولم تزعزع ثقته في نصر قريب. لقد كان يؤمن أنه ما من أمة وصلت إلى الكمال الذي تنشده إلا بعد أن اجتازت عقبات كثيرة واضطرت إلى تضحيات عديدة، كانت عقيدته هي أن الاستعداد التام مصحوباً بروح التضحية ومدعوماً بالأمل الذي لا يقهر هو أهم ما يترتب علينا وما يجب أن يلتزم به أبناء هذه الأمة العربية[٣٤٠].

وكانت السنوات الأخيرة من حياته خصبة معطاءة، خصصها لمتابعة التأليف والبحث، ومن غرفته الصغيرة في نزل لافينواز في القاهرة (التي أصبحت ملتقى لطلابه ومريديه وحوارييه) أو من بغداد التي عاد إليها عام ١٩٦٥، أخرج عشرات الكتب ومئات الأبحاث والمقالات التي تناولت القضية العربية وصاغت عقيدتها، وأكّد إنتاجه الكبير[٣٤١] إيمانه العظيم بأمته وحبه لها والعمل جاهداً من أجلها.

ولم يؤمن ساطع بأن للإنسان سناً ينبغي عنده أو بعده أن يخلد إلى الراحة، فقد وضع لنفسه خطة لعام ١٩٦٩ بأن يصدر ثلاثة كتب عن مذكراته في تركيا ثم

---

(٣٣٨) قاسمية، «مصر في كتابات ساطع الحصري القومية،» ص ١٤٠.

(٣٣٩) المصدر نفسه.

(٣٤٠) برج، **ساطع الحصري**، ص ٤ ـ ٥.

(٣٤١) من مؤلفات ساطع الحصري في هذه المرحلة: **آراء وأحاديث في اللغة والأدب** (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٥٨)؛ **ما هي القومية؟ أبحاث ودراسات على ضوء الأحداث والنظريات** (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٥٩)؛ **حول الوحدة الثقافية العربية** (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٥٩)؛ **حول القومية العربية**، ط ٢ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦١)، وهو أكبر مؤلفاته ضخامة، يضم مقالات كتبها عام ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠؛ **أحاديث في التربية والاجتماع** (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٢)؛ **ثقافتنا في جامعة الدول العربية؛ الإقليمية: جذورها وبذورها** (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٣) وقد نال جائزة الدولة في ميدان العلوم الاجتماعية عام ١٩٦٥ وسلمه إياها جمال عبد الناصر). وفي عام ١٩٦٣ نشر آخر حولياته (السادسة بين ١٩٥٧ ـ ١٩٦٢). وفي عام ١٩٦٤ اختار من مؤلفاته ومقالاته التي نشرها بين ١٩٢٣ ـ ١٩٦٣ أدلها عن مراده وأهداها لمقاصده، أصدرها بكتاب **أبحاث مختارة في القومية العربية** (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٤). وبعد انتقاله إلى بغداد عكف على كتابة مذكراته عن فترة وجوده في العراق بين ١٩٢١ ـ ١٩٤١، ونشرها في جزأين في بيروت عامي ١٩٦٧ و١٩٦٨.

في سوريا ومصر. وشاء الله أن تفيض روحه قبل أن يحلّ العام، في ٢٤ كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٨ وهو في الثامنة والثمانين من عمره. وافتقدت الأمة العربية الطاقة الهائلة التي قلّ أن يجود علينا الزمن بمثلها. ولكنه نقل إيمانه العميق الصادق بقضية العروبة والوحدة إلى أبناء أمته بفضل ما خلّفه من زاد فكري.

تعقيب

عبد الله عبد الدائم(*)

طلب مني القائمون على تنظيم هذه الندوة التعقيب على هذا البحث التاريخي المعمق، وقد طلب إليّ ذلك في الزمن الأخير، ولم يكن بين يدي المراجع اللازمة، ومع ذلك، فقد كانت المهمة في حقيقة الأمر يسيرة، لأن الدكتورة خيرية قاسمية سهلت لي هذه المهمة حين قدمت عرضاً أستطيع أن أسميه ـ بحق ـ جامعاً مانعاً بحيث لم يترك صغيرة ولا كبيرة في حياة الحصري إلا وأحاط بها، فهو بالفعل عرض دقيق لكامل جوانب حياة الحصري، كما أنه عرض موثق توثيقاً علمياً، فضلاً عن أنه عرض مؤرّخ متمرس بأصول البحث التاريخي.

لقد تحدثت الأستاذة الباحثة بوجه عام عن المراحل الكبرى في حياة الحصري بدءاً من ولادته ثم عمله بالدولة العثمانية، وعمله بالحكومة الفيصلية، ثم انتقاله للعراق حيث أقام ردحاً من الزمن، ثم تركه العراق إلى لبنان لسنوات ثلاث حيث عُني بكتابه الذي كان يحبه عن ابن خلدون، ثم انتقاله بعد ذلك من جديد إلى سوريا بعد أن بدأت بوادر الاستقلال عن الانتداب الفرنسي عام ١٩٤٣، ثم عمله لسنوات ثلاث مشاوراً فنياً لوزارة المعارف السورية، وأخيراً انتقاله بعد ذلك إلى مصر عندما دُعي للعمل في جامعة الدول العربية، ثم بدئه إعداد **حولياته الثقافية** الست الشهيرة، كما بدأ حينذاك في تأسيس معهد الدراسات العربية العليا، وكان مديراً له وأستاذاً دائماً للقومية العربية فيه، وأخيراً استقالته من كل هذه المناصب وعودته إلى بغداد حيث وافته المنية عام ١٩٦٨.

الحقيقة أن الدراسة التي قدمتها الدكتورة خيرية قاسمية ليست مجرد عرض

(*) مفكر تربوي وقومي ووزير سابق ـ سوريا.

تاريخي جاف، وإنما هي دراسة تحمل معاني كثيرة لمن أراد أن يقرأها بدقة، ففي هذا البحث التاريخي عرض لولادة أفكار الحصري وتكوّن هذا الفكر وتبلوره، ومن ثم يمكن أن نستخلص من الدراسة في مراحلها المختلفة دراسة تكوينية ـ كما يقول علماء الاجتماع وعلم النفس ـ تبين لنا كيف تكوّن فكر الحصري، وكيف اغتنى عبر الزمن. وكيف سار إلى ما سار إليه. وعلى سبيل المثال، فقد أشارت الباحثة إلى اطلاعه في المرحلة العثمانية على تجربة البلغار والصرب، وإلى ولادة فكرة لعلها كانت بذرة أنتجت بعد ذلك واشتد سوقها، وهي أن الخلاف بين البلغار والصرب لم يكن خلافاً دينياً وإنما هو خلاف لغوي وقومي، ومن هنا انتهى الحصري منذ ذلك الحين إلى القول بأن لكل أمة خصائصها القومية، ولكل أمة قوميتها تبعاً للظروف التي تحيا فيها، وقد زاد في إيمانه بهذه النتيجة زياراته للبلدان الأجنبية عندما كان في الدولة العثمانية واطلاعه على التجارب القومية هناك.

المنـاقشـات

١ ـ يونان لبيب رزق (رئيس الجلسة)

يسعدني ويشرفني أن أسند إليّ المعهد والمسؤولين عن تنظيم هذه الندوة إدارة هذه الجلسة لأستاذين كبيرين ومرموقين هما الدكتورة خيرية قاسمية، والدكتور عبد الله عبد الدائم. وأتصور أن نبدأ الكلمة بطرح بعض التساؤلات لعلها تعين على المناقشة، فالتساؤل الأول الذي ظل يساورني لفترات طويلة، هل يا تُرى أبناء ساطع الحصري فلول أم طلائع؟ هل الجالسون الآن في هذه القاعة أبناء عصر مضى؟ أم طلائع فجر جديد؟ والحقيقة أنني ممن يرون أن هناك فجراً جديداً، فمنذ شهور قليلة مضت جاءني حفيدي وعمره ١١ عاماً بشريط كاسيت مسجل عليه أنشودة «الحلم العربي»، ودهشت أن يكون حفيدي مهتماً ومتعلقاً بهذا الموضوع، ولما سألته عن مصدر الاهتمام بهذا الموضوع، وهل هو اللحن أم الطرب؟ اكتشفت أن للقضية مضموناً لديه، ومن هنا فأنا منحاز تماماً للقول بأن هؤلاء الجالسين في هذه القاعة وغيرهم هم من طلائع أبناء الحصري وليسوا من فلول عصره.

وثمة نقطة أخيرة أشير إليها وهي خاصة بعنوان البحث الذي اختارته الدكتورة خيرية قاسمية وهو «حياة ساطع الحصري: دروس وعبر»، وأنا أراه عنواناً تقليدياً لبحث غير تقليدي، وكنت أفضل لو كان العنوان مثلاً: «ساطع الحصري: المعلم والرسالة»، فإذا قاسمتني الدكتورة خيرية قاسمية هذا الرأي لأصبح إذن اسماً على مسمى، وإذا لم تقاسمني فلها أن تختار.

وكما يتضح من عرض الأستاذة الباحثة فالرجل كان طوال حياته معلماً، وكانت رسالته التعليم والتبشير. وقد أشارت الباحثة في عرضها إلى أنه قد عاوده الحنين للتعليم، وهذا ـ في رأيي ـ غير صحيح، لأنه طول الوقت كان معلماً، وكان قليلاً ما يخرج عن التعليم.

وفي ما ذكرته من جانبي حول الفلول والطلائع كان ساطع الحصري دائماً طليعة، وكان يبدو ـ كما أشارت الدكتورة قاسمية ـ مثيراً للمشاكل في كل مكان يذهب إليه ويعمل به، فهو من نوع البشر من أصحاب التمرد النبيل، فهو متمرد على الواقع ولكن بشكل نبيل، وها نحن بعد ثلاثين عاماً على رحيله نحتفي به، لأن مثل هؤلاء المتمردين النبلاء لا ينساهم التاريخ، كما لا ينساهم أبناؤهم.

٢ ـ محمد عودة

لقد شهدت مصر وعياً بالقومية العربية منذ فترة طويلة ولم يكن الموقف عدم اكتراث بالثورة العربية (١٩١٥)، فكانت جريدة **المؤيد** ـ على سبيل المثال ـ تحذر من الأطماع الإسرائيلية الكبيرة في فلسطين، حيث خطط الإسرائيليون في سبيل الحصول عليها وخطوا خطوات واسعة في هذا الصدد حتى أصبح لهم من النفوذ والسلطان ما جعلهم يؤسسون شبه حكومة صهيونية مستقلة ضمن الحكومة العثمانية.

كما كان هناك في مصر تشكك في أن الإنكليز سوف يجعلون من العرب أمة مستقلة، وقد أثبتت الأحداث صدق هذا التشكك من خلال معاهدة سايكس ـ بيكو التي قسمت الأمة العربية ووزعتها بين الفرنسيين والإنكليز واليهود، وتمت تجزئة العرب هذه التجزئة، وعندما قامت الثورة الروسية عام ١٩١٧ نشر الروس المعاهدات السرية التي كانت موجودة وأرسلوها إلى العرب، وتسربت بدورها إلى مصر وانكشف المخطط الأساسي لسايكس ـ بيكو، ومن هنا كان لدى المصريين الأسباب والمبررات القوية لتشككهم في ما حدث.

٣ ـ فاروق العشري

أظن أنه علينا أن نفرق بوضوح ـ كما انتهى كل من البحث والتعقيب ـ بين القومية العربية والقوميات الأخرى على أساس عاملين أساسيين، وهما؛ اللغة والتاريخ، إلا أن هناك بعداً آخر لم يتضح في اطلاعاتي السريعة على كتابات ساطع الحصري وهو الخطر المشترك كأحد دوافع الاتجاه القومي، فإلى جانب اللغة والتاريخ، هناك الخطر المستقبلي أو النظرة المستقبلية. ولعل ما أدهشني في فكر ساطع الحصري ـ وهو الرائد الذي لم يكف إطلاقاً عن التفكير في الهمّ القومي ـ كيف أنه لم يثر مسألة الخطر الصهيوني بصورة عميقة ومؤثرة، ولا سيما بعد وعد بلفور عام ١٩١٧، وبعد تحديد اليهود لفلسطين ـ بعد المؤتمر الصهيوني السابع ـ لكي تكون وطناً قومياً لهم، فهذه المسألة لم تكن عاملاً ملحّاً في قراءاتي واطلاعاتي للفكر القومي لدى ساطع الحصري.

٤ ـ عبد القادر ياسين

لي بعض الملاحظات الأساسية، أوجزها في ما يلي:

ان افتقار ساطع الحصري إلى المرونة إنما كان يعود ـ في رأيي ـ إلى ثلاثة أمور أساسية:

(أ) انه غرق في الفكر ولم يعمل في السياسة، فهو لم ينضم إلى أي حزب أو تنظيم سياسي.

(ب) ان الشأن الثقافي صميم الصلة بالشأن الاستراتيجي الحاسم دون التكتيكي المرن.

(ج) لأنه غرق في الفكر، فقد كان يريد أن يطابق الواقع الصورة التي في ذهنه.

وفي تقديري أن الحسّ السياسي لساطع الحصري ـ نظراً لأنه لم يعمل بالعمل السياسي ـ كان ضعيفاً، حتى انه توهم أن تكون الجامعة العربية هي قلعة القومية العربية المقاتلة، وعندما صُدم في ذلك آثر الاستقالة، كما أنه عندما طُلب منه تأسيس معهد الدراسات العربية ظن أنه سيؤسس طابية تقصف الاستعمار وتوحد الأمة العربية، ثم استقال.

٥ ـ رؤوف عباس

ان هناك علاقة استفهام أود أن ألفت النظر إليها، وقد تكون مجالاً للمناقشة والحوار فيما بيننا، وهي الخاصة بتحول ساطع الحصري من العثمانية إلى العروبة، فالحصري في حياته في الدولة العثمانية السابقة على عام ١٩١٩ كان ضد القومية وكانت له أقوال وكتابات يرد فيها على اتجاهات القومية التي تهدف إلى تقسيم الدولة العثمانية وبالذات في البلقان، ولم يكن متعاوناً مع القوميين العرب بمعنى قبول الانضمام لهم بشكل تنظيمي، فقد كان جل اهتمامه وتركيزه منصباً على تكوين نموذج ثقافي للدولة العثمانية يحفظ لها الولاء.

وهنا أطرح السؤال التالي، هل خيبة أمل ساطع الحصري في إمكانية أن يحقق «الاتحاد والترقي» هذه الرابطة التي كان يبحث عنها وكانت تجمع شعوب الدولة العثمانية دون تفرقة، هل كان هذا دافعاً إلى عملية إعادة مراجعة منه أدت إلى تحوله إلى تيار العروبة؟

٦ ـ محمد الخولي

سوف أنطلق من الحديث عن شخصية ساطع الحصري، وأشير إلى أنه قد آن الأوان لتغيير منهج نظرتنا لزعمائنا الفكريين والسياسيين، بمعنى «أنسنة» الزعيم أو الكاتب أو المفكر، فنحن نتصور دائماً أن الكاتب أو المفكر أو الزعيم شخصية جامدة أو فوق إنسانية، وكما أشير في سياق الندوة، فإن ساطع الحصري كانت له مشاكله وتردداته ومخاوفه وأحياناً ضعف شخصيته، بل إن الحصري يبدو متردداً في خياراته بين اللغة والتاريخ، وخياراته بين المدرسة الألمانية والفرنسية، ومن هنا فإن منهجنا في النظرة للرؤساء والزعماء والقيادات يتباعد أحياناً عن النظرة الإنسانية للزعيم أو الشخصية القيادية كشخصية لها اجتهاداتها ولها أيضاً ضعفها وتطورها من مرحلة إلى مرحلة، فنحن ورثة «ابن هشام» الذي أعلى من شأن جميع الصحابة إلى مرتبة عالية لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا خلفها، ونحن أيضاً ورثة النظرة إلى أن كل رئيس زعيم، وكل زعيم ملهم، وكل ملهم تاريخي، وكل خطاباته وأقواله تاريخية، وكل اجتماعاته مع زملائه الرؤساء اجتماعات قمة. . . الخ، من هنا أرجو أن ننتقل إلى النظرة إلى ساطع الحصري وأمثاله بمقياس تشريح هذه الشخصية ومحاكمة فكرها محاكمة تجعله في البداية إنساناً ثم تنظر ثانية إلى نواحي ومواطن الضعف والسلبية والثغرات التي شابت فكره والتي يمكن أن تكون دروساً مستفادة عندما نتحرك صوب المستقبل.

٧ ـ عزة وهبي

ثمة سؤالان أتوجه بهما للدكتورة خيرية قاسمية في ما ذكرته عن حياة وتاريخ ساطع الحصري، **الأول** ما هو رد فعل الحصري إزاء إنشاء وقيام جامعة الدول العربية باعتبارها تجسيداً لحلمه على أرض الواقع؟ **والثاني**، في تناول البحث لفترة وجود الحصري في مصر أثناء محطته ورحلته الأخيرة منذ عام ١٩٤٧ وحتى وفاته، ألم توجد علاقة أو صلة فكرية بين الحصري وممثلي التيار العروبي الذي بدأ ينشأ في مصر في تلك الفترة وكان له ممثلون داخل البرلمان؟

٨ ـ جاسم علوان

الحقيقة أنني كنت ممن تظاهروا ضد ساطع الحصري عندما كنت طالباً في ثانوية حلب، وكان أساتذتنا يومها ـ وهم وطنيون ولكن ثقافتهم فرنسية ـ يهاجمون الأستاذ ساطع الحصري على أساس أنه ضد العروبة، وأنه مع الانكلوساكسون بناء على منهجه التربوي الذي اتبعه، وكنا ممن يشككون في اتجاهات هذا الرجل، وقد

زاد هذا الشعور عندما جاءنا الحصري وتحدث إلينا بلكنة تركية واضحة.

ولكن بعد أن اطلعنا على كتبه ومقالاته اختلفت الصورة كلياً، وقد قابلته هنا في مصر مع المرحوم إحسان الجابري الذي ذكر أن الحصري كان في البداية ضد العروبة ومع الأتراك إلى أن انقلبت تركيا على العروبة، فعندئذٍ انقلب الحصري انقلاباً كاملاً. وأذكر أن إحسان الجابري سافر إلى أتاتورك وكان سكرتير السلطان قبل سقوط السلطنة، وأرسله الملك فيصل الأول إلى أتاتورك بوساطة، وطلب منه أتاتورك ـ بشدة وإصرار ـ أن يعمل على عودة الحصري إلى تركيا ليعمل في مجال التربية والتعليم مقابل ما يريده، إلا أن الحصري رفض هذا الطلب وتابع سيرته في العروبة مكرساً حياته كلها للدفاع عنها.

٩ ـ أحمد الصاوي

أود الإشارة إلى ملاحظة سريعة تتعلق بالحقبة البلقانية في حياة الحصري، وأرى أن يتم تقسيمها إلى جزأين: ما قبل كوسوفا وما بعدها. وبالنسبة لما قبل كوسوفا فقد كان الحصري مثل كل الأتراك يعتقد أن هناك ثمة تحريضاً أرثوذكسياً في هذه المنطقة، وكانت الفترة التي قضاها في كوسوفا من عام ١٩٠٤ إلى عام ١٩٠٨ حيوية جداً لأنه صادف ـ لأول مرة ـ مسلمين مناهضين لتركيا، ومن ثم بدأ يدرك أن الخلاف هناك ليس خلافاً دينياً، وهذا الرأي موجود وتثبته الأدبيات القومية الألبانية الموجودة في تلك الفترة.

١٠ ـ خيرية قاسمية (ترد)

في ما أثاره البعض عن لماذا سلم ساطع الحصري مع الملك فيصل سوريا... الخ، أشير إلى أن هذا الحديث يعود بي إلى الحقبة نفسها التي كانت مملوءة بالبلبلة والأطماع الدولية، وكان الحصري جزءاً من الحكومة، ومن ثم فلم يكن هو الذي سلم، وبدون الدخول في تفاصيل إنذار القائد الفرنسي غورو وملابساته نجد أن الحصري أخبر الوزارة بأن غورو عازم تماماً على احتلال سوريا ولا مفر من ذلك، ولعل هذا ما أجبر الحكومة على رفض الإنذار، بيد أن فترة الساعات أو الدقائق القليلة لم تكن مهيأة لمعركة متكافئة، والحصري لم يترك يوسف العظمة وحيداً في المعركة بل ودعه قبل ذهابه إلى ميسلون.

وفي ما أثاره أ. محمد عودة عن عروبة مصر، أذكر أنني تناولت في مقال لي في العدد الخامس من مجلة **المستقبل العربي** عروبة مصر في كتابات الحصري، وكان

ذلك خلال أزمة كامب ديفيد، وقد كتبت هذا المقال وأنا أشعر بأن مصر مهددة في عروبتها إلى حد ما، وحاولت قراءة فكر الحصري في هذا الصدد، وهو الذي كان يرى مصر قدوة مؤثرة في الوطن العربي، وكان دائماً يطلب من المصريين أن يتولوا زمام العروبة، ومن ثم فقد حزن الحصري كثيراً لهذه المرحلة الحرجة التي شهدت شقاقاً بين تصور شامل للقومية العربية وتصور مصري، كلاهما يلتقي في هدف واحد، ولكن شاءت الظروف أن يفترقا.

وأذكر في هذا الصدد أن (السياسي الأردني) أ. عوني عبد الهادي قال لي، إن سعد زغلول كان يلقي إحدى خطبه في بعض المجتمعين في بهو القاعة السفلى بفندق شبرد، وكان صوته يعلو للطابق الأول الذي كان يقيم فيه فيصل ومن معه، وكان قادماً من لندن يحمل الاتفاق الذي يرشحه ملكاً على العراق، ولما سأل فيصل عن مصدر هذا الصوت وعرف أنه لسعد زغلول تساءل كيف يفعل هذا ونحن في الطابق الثاني نعمل لشيء آخر!! فهذه الواقعة تدل ـ وبشكل واضح ـ عن حالة التمزق العربي آنذاك (١٩١٩ ـ ١٩٢٠).

وأنا أؤكد في هذا الصدد على وجود الفكر القومي العربي في مصر قبل الحرب العالمية الأولى، بيد أنه كان يتسم بالطابع الإسلامي بينما قامت الحركة القومية العربية في بلاد الشام بفصل الدين عن مفهوم القومية وأخذت من الدين فقط جانبه الحضاري الروحي.

وفي ما يتعلق بالخطر الصهيوني الذي أشار إليه الأستاذ فاروق العشري، فاعتقادي أن ساطع الحصري لم يهمله ولم يغفله، ولعل مذكرته التي أرسلها إلى مؤتمر بلودان المنعقد في عام ١٩٣٧ لدراسة القضية الفلسطينية بعد مشروع التقسيم، تعتبر قراءة مفصلة تدل على رؤيته لهذا الخطر وكيفية مواجهته، وتكفي هنا الإشارة إلى موقفه من كارثة فلسطين، ولماذا هُزم العرب وهم سبع دول حيث ذكر أنهم هُزموا لأنهم سبع دول.

وبالنسبة لما أثاره الأستاذ عبد القادر ياسين فأنا لا أتفق معه كثيراً، وبالنسبة للحس السياسي عند الحصري فلا أظنه كان ضعيفاً على نحو ما أشار أ. عبد القادر، فالحصري لم يزج بنفسه في السياسة، وهو ـ كما أشار ألبرت حوراني ـ لم ينتم إلى حزب سياسي، ولكنه كان مطلعاً على كافة التطورات السياسية الحادثة آنذاك.

وأما ما أثاره الدكتور رؤوف عباس حول تحول الحصري من العثمانية إلى العروبة، فأود الإشارة في هذا الصدد إلى أن هناك باحثاً أمريكياً اسمه كليفلاند قد

ركز في كتاب صدر له على هذه الناحية، وكأنها قفزة هائلة من مجال إلى مجال، واعتقادي أن ساطع الحصري لم يكن استثناءً، فمعظم النخبة العربية التي عملت في استانبول جاء تحولها طبيعياً بعد انهيار الدولة العثمانية وانهيار الفكر الولائي العثماني. وأذكر هنا أن إحسان الجابري انتقل ـ وبسهولة لا تحتاج إلى اتخاذ قرار مصيري ـ من بلاط السلطان إلى بلاط الملك فيصل.

وبالنسبة لما أثارته الدكتورة عزة وهبي حول رد فعل الحصري لإنشاء جامعة الدول العربية أشير إلى أنه كان من المؤيدين لها، ورآها بداية لتحقيق الحلم، ولما خيّبت آماله، ولا سيما في أدائها بالنسبة للقضية الفلسطينية، وكذلك من الناحية الثقافية، فقد آثر الاستقالة. أما عن وجوده في مصر فقد شارك في ذلك الحوار الذي دار بين الوطنيين المتمسكين بمصريتهم وأولئك المتمسكين بعروبتهم، وكتب كتابه **العروبة أولاً**، وكان يشعر بالتفاؤل والفرح كلما أصبحت العروبة والمصرية متلازمتين، فهو إذن قد زج بنفسه في هذا الحوار الضخم ليس من باب التطفل وإنما لاعتباره أن ما يهم مصر إنما يهم كل عربي.

وبالنسبة لما أثاره الأستاذ جاسم علوان أشير إلى أن وجود ساطع الحصري في سوريا قد أثار تساؤلات عديدة، أما أن يُتهم بأنه انكلوساكسوني، فالحقيقة أني لم أسمع بهذه التهمة من قبل، وأشير في هذا الصدد إلى أن د. حافظ الجمالي ـ أطال الله عمره ـ وهو أحد المعادين لفكر ونهج ساطع الحصري التعليمي والتربوي على أساس أنه ألغى اللغات الأجنبية في المدارس الابتدائية، إلا أنه مع هذا كان يقر بفضله، وأنه كانت له مبرراته التربوية، وأنه لم يفعل ذلك من باب الحقد على الثقافة الغربية.

وفي ما أثاره د. أحمد الصاوي عن الحقبة البلقانية هي ـ بحق ـ معلومة أضيفها لما توفر لي في هذا البحث.

الفصل الثاني

نظرية ساطع الحصري في القومية العربية: جدلية الإثبات والنفي

محمد عبد الشفيع عيسى

أولاً: فكرة القومية العربية قبل الحصري

بواكير الفكرة القومية العربية: مقدمة تاريخية

لقد حدث اختمار فكري هائل في المنطقة العربية في القرن التاسع عشر، بعد إرهاصات فكرية وعملية بارزة في القرن الثامن عشر.

وكان هذا الاختمار علامة على التململ العميق من جراء تفاعلات حقبة «الانقطاع الحضاري النسبي» الطويلة التي أعقبت حقبة «الازدهار الحضاري الممتد» والتي افتتحها ظهور الإسلام، ثم امتداده بالفتوح في تحرك إيجابي عريض، وانتهت بدخول العرب في طور الدفاع عن الذات سلباً وإيجاباً في مواجهة هجمات الصليبيين والتتار.

وفي قلب «الانقطاع الحضاري العربي النسبي» جاءت السيطرة التركية ـ العثمانية على مجمل المنطقة العربية منذ أوائل القرن السادس عشر حتى أوائل القرن العشرين (عدا المغرب الأقصى وأجزاء من شبه الجزيرة العربية وعدا ما احتلته بريطانيا وفرنسا، وبخاصة في الجناح الغربي من الوطن العربي).

وفي حين مثلت هذه السيطرة علامة من علامات التقدم العام الذي أخذت

تحرزه حركة المد الإسلامي العام في القارتين الآسيوية والأوروبية، وبخاصة منذ القرن الخامس عشر، فإنه كان لها معنى خاص بالعرب وهو القبول بمظلة إسلامية غير عربية، متماثلة معهم عموماً من حيث مستوى التطور الاقتصادي ـ الاجتماعي.

وبالفعل فقد واجه العرب بمدد تركي ـ عثماني، التحديات القادمة من شمال البحر الأبيض المتوسط، انطلاقاً من الأندلس المفقود (البرتغال وأسبانيا)، سعياً إلى السيطرة على طرق المواصلات الجديدة بين قارات العالم القديم وبعضها البعض، وبينها وبين العالم الجديد، اعتباراً من نهاية القرن الخامس عشر بالذات وأوائل القرن السادس عشر.

ولما حدثت الانطلاقة الأوروبية الكبرى متحولة من موجة الدفاع العام في مواجهة المد التركي ـ العثماني في أوروبا الشرقية والوسطى إلى موجة الهجوم على جبهة البحر المتوسط والمحيط الهندي. . . وأخذت الرأسمالية الأوروبية الناشئة تبني مراكز قوتها الاقتصادية داخلياً (بالتراكم المبدئي) وخارجياً (بالاستعمار. . .)؛ حينذاك أخذت السيطرة التركية ـ العثمانية على المنطقة العربية تفقد «مغزاها الأساسي». . . وتحول الوجود التركي إلى مجرد قوة تعمق الوضع الركودي العام في المنطقة، وتفتح الباب ولو جبراً أمام النفاذ والنفوذ الأوروبي المتغلغل بقواه الناهضة: بريطانيا، فرنسا، روسيا.

وفي الوقت ذاته الذي شهد العلامات الأولى على هذا الموقف، أي في القرن الثامن عشر، ظهر «التململ العربي» في وجه امتزاج الوضع الركودي والسيطرة التركية ـ العثمانية بغير مبرر والتغلغل الأوروبي السريع. . . وتمثل هذا التململ في عدة أحداث رئيسية في المشرق جسدتها زعامات سياسية وفكرية (الشيخ ظاهر العمر ـ علي بك الكبير ـ محمد بن عبد الوهاب) بالإضافة إلى تطور الاتجاه الديني في أفق اجتماعي (الصوفية في الجزائر وفي ليبيا الحالية ـ والسلفية في المغرب الأقصى).

وخلال القرن التاسع عشر وحتى نهاية الربع الأول من القرن العشرين تسارع معدل الاختمار الفكري والسياسي في المنطقة العربية لمواجهة تحدي الواقع المعقد عبر فترات متعاقبة نستعرضها اختصاراً فيما يلي، من وجهة نظر نمو «الفكرة القومية العربية»:

أ ـ اليقظة الفكرية ـ السياسية العربية في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين

فترات رئيسية[1]:

الفترة الأولى: الفكرة العربية المختلطة بغيرها من الأفكار الاجتماعية والسياسية:

وتستوعب هذه الفترة ثلاثة أرباع القرن التاسع عشر تقريباً، حيث لم تكن ثمة فكرة عربية قومية بالمعنى الذي أخذ ينتشر بعد ذلك، أي الفكرة المركزة على تحرير وتوحيد الأمة العربية في وطنها المحدد، بحركة قومية مؤثرة.

لقد وجد وعي عام، وغامض، بتميز الوجود العربي بشراً وأرضاً، ولكن هذا الوجود، في الوعي، كانت تغلفه غلالات مختلفة، أو تحتويه مضامين أخرى لأفكار لعلها كانت أشد تأثيراً في ذلك الوقت ومنها: الفكرة الإسلامية الأولى المتمثلة في العودة إلى النبع السلفي ـ النبوي الصافي، من خلال حركات دينية ذات توجه سياسي (الوهابية ـ المهدية ـ السنوسية. . .).

ومنها أيضاً: الفكرة الوطنية المرتبطة بالتحرر من شباك النفوذ الاستعماري، والأخذ بأسباب النهوض الحديث ممثلاً في التعليم ومشاركة «الشعب» في الحياة السياسية (الطهطاوي وخير الدين التونسي ـ علي مبارك ـ مقدمات الثورة العرابية في مصر. . . الخ).

الفترة الثانية: الفكرة العربية السياسية العامة (مواجهة التتريك اللغوي والأوروبي):

وتشمل هذه الفترة الربع الأخير من القرن التاسع عشر تقريباً والسنوات الأولى من القرن العشرين، حتى وصول «جماعة الاتحاد والترقي» إلى سدة السلطة في «الآستانة» عام ١٩٠٨.

وقد أخذت الفكرة العربية تتضح بوصفها ممثلة للاهتمام والتركيز على جماعة بشرية معينة ذات حدود لغوية وثقافية وبشرية وجغرافية معينة، هي الجماعة العربية، كما أنها تحددت بمضمون سياسي معين هو مقاومة «التتريك»، وإعطاء الولايات العربية في الدولة العثمانية حصة أكبر في السياسة والثقافة. . . وتشمل

---

(١) محمد عبد الشفيع عيسى، **القومية العربية (الإطار النظري ـ المسار التاريخي ـ الأزمة والتجديد)**، **ملحق مجلة البحوث والدراسات العربية**، العدد ٢٨، كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٧ (القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٩٧)، ص ٧٣ ـ ٩٠.

هذه الولايات الأجزاء التي يطلق عليها الآن سوريا ولبنان والأردن وفلسطين والعراق، بالإضافة إلى الحجاز واليمن، وكذلك ليبيا (حتى تاريخ الاحتلال الإيطالي عام ١٩١١).

أما مصر والسودان فكانتا خاضعتين للاحتلال البريطاني، وكانت تونس والجزائر خاضعتين للاحتلال الفرنسي، وكان المغرب الأقصى معرضاً بصفة مستمرة للتدخل الفرنسي.

ولقد كانت الفكرة العربية في الأجزاء العربية المعينة في تلك الفترة موجهة ـ كما ذكرنا ـ نحو مقاومة (التتريك) الإداري واللغوي بصفة خاصة.

ولمواجهة التتريك انبعثت فكرة تأكيد الذاتية العربية، لغة وثقافة وسياسة، داخل الالتزام بالإطار السياسي العام للدولة العثمانية، وذلك من خلال إعطاء نصيب أكبر للغة العربية في الجهاز الإداري والتعليم، ونصيب أكبر للعرب في الوظائف الحكومية[٢].

وقد تمثل الأساس الاجتماعي للدعوة العربية السياسية في كتلة اجتماعية من علماء الدين وملاك الأرض والعسكريين العرب في الجيش العثماني، بالإضافة إلى بعض التجار، وكان لهم جميعاً طموح واسع للمشاركة بدرجة أكبر ضمن هيكلية السلطة العثمانية في وجه تزايد مركزية الدولة بفعل المشروع التحديثي (التنظيمات) منذ أواسط القرن التاسع عشر والذي ترتب على انتهاجه تقليل هامش الاستقلال الذي تحققت به المناطق الخاضعة للعثمانيين[٣].

الفترة الثالثة: الفكرة السياسية العربية المحددة (من اللامركزية إلى الاستقلال العربي الكامل عن تركيا):

وتمتد هذه الفترة بصورة تقريبية منذ وصول «الاتحاديين» إلى السلطة عام ١٩٠٨ حتى خروج فيصل الأول (ابن الشريف حسين) من سوريا بعد تنصيبه ملكاً عليها عام ١٩٢٠.

وتغطي هذه الفترة بدورها فترتين فرعيتين: تغطي **أولاهما** السنوات الخمس من عام ١٩٠٨ إلى عام ١٩١٣ وشهدت تطور الدعوة إلى اللامركزية، ثم اتخاذها إطاراً سياسياً ـ تنظيمياً محدداً من خلال إنشاء «حزب اللامركزية الإدارية العثماني»

---

(٢) زين نور الدين زين، نشوء القومية العربية، مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية التركية، ط ٢ (بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٧٢)، ص ٥٥ ـ ٦٩.

(٣) وليد قزيها، «فكرة الوحدة العربية في مطلع القرن العشرين،» المستقبل العربي، السنة ١، العدد ٤ (تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٨)، ص ١٢ ـ ٢٦.

في أواخر عام ١٩١٢ بمبادرة من المثقفين الشوام المهاجرين إلى القاهرة آنئذ.

أما الفترة الفرعية الثانية فتغطي السنوات السبع الأخرى بادئة بانعقاد «المؤتمر العربي الأول» في باريس عام ١٩١٣ مارة بحدث «الثورة العربية الكبرى» في الحجاز سنة ١٩١٦ ومنتهية بـ «الفترة الفيصلية» في سوريا (١٩١٨ ـ ١٩٢٠).

وشهدت هذه الفترة قيام عدد من الجمعيات العربية السرية التي اتخذت من العمل السري والمسلح أسلوباً للعمل ضد الدولة العثمانية، وأهمها الجمعية القحطانية (وكانت نشأت أصلاً عام ١٩٠٩ وإن اتسع نطاق نشاطها بعد ذلك) وجمعية العهد وجمعية العربية الفتاة... ويبدو أنه قد حدث نوع من التنسيق بين فيصل ابن الشريف حسين وقادة هذه الجمعيات في غمار الإعداد لـ «الثورة العربية الكبرى».

وأهم ما يميز الفترة المذكورة انتقال محور العمل على الجبهة العربية المشرقية إلى التحرك من أجل الاستقلال الكامل عن الدولة العثمانية. وظهر ذلك بصورة أولية ومختلطة باللامركزية التي ظلت على رغم ذلك على المطلب الرئيسي لـ «المؤتمر العربي الأول» سنة ١٩١٣، ثم أخذ يتبلور حثيثاً بقيام الحرب العالمية الأولى وبلغ أوجه في «الثورة العربية الكبرى».

ب ـ الفكرة القومية في الكتابات العربية في أوائل القرن العشرين

وجدت كتابات عربية عديدة، حامت حول الفكرة القومية عموماً، والفكرة القومية العربية خصوصاً، بطرق متعددة، في نهايات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، نذكر منها مقالات **العروة الوثقى**، وأعمال عبد الرحمن الكواكبي، وكذلك المقالات المنشورة في الصحف المصرية التي أسسها «الشوام» مثل **الأهرام** و**المقتطف**.

كما برزت «نظرات» قومية وعروبية ذات بعد إيماني ـ حماسي عميق، في سوريا ولبنان، في غمار الفوران التحريري ضد السلطة العثمانية قبيل وأثناء الحرب العالمية الأولى، والذي سقط فيه العديد من الشهداء، ولا سيما على يد جمال باشا السفاح، ومنهم عبد الغني العريسي صاحب صحيفة **المفيد**.

وتبدو في تلك الفترة ظاهرة اختلاط المفاهيم بصورة بالغة الوضوح، يعبر عنها استخدام مصطلحات غير محددة المعنى تماماً، ومتداخلة الدلالات، ومنها «العرب» و«أمة العرب» و«جامعة العرب» و«عصبة العرب». واستخدمت بدلاً من القومية العربية (التي لم تكن قد تم تداولها بصورة متواترة بعد) مصطلحات

أخرى مثل «الجنسية» و«العنصرية»، وإن كان مصطلح «الأمة العربية» قد أخذ ينتشر اعتباراً من «المؤتمر العربي الأول» وفي عهد الجمعيات العربية السرية وإبان الثورة العربية الكبرى على رغم عدم تخلصه من التداخل مع «الأمة الإسلامية».

ويتضح ذلك الاختلاط في المفاهيم في الكتابات ذات النزعة العروبية، إذا تأملنا عدداً من كتابات عدد من الشباب العربي النشط في الفترة من عام ١٩٠٥ إلى عام ١٩١٦ وبخاصة: جميل عازوري، عبد الغني العريسي، صلاح الدين القاسمي، عمر حمد، وعبد الحميد الزهراوي (رئيس المؤتمر العربي الأول)، وغيرهم[٤]. وكان عازوري هو الوحيد من بينهم الذي أصدر مؤلفاً متكاملاً في الموضوع عام ١٩٠٥، باللغة الفرنسية، وعنوانه المختصر: *Le Reveil de la Nation Arabe dans L'Asie Turque* ويترجم بـ **يقظة الوطن العربي أو يقظة الأمة العربية في تركيا الآسيوية**[٥] ولم يقدر له أن يعرف بين العرب أنفسهم.

وفي هذه الكتابات تناثرت نظرات عجلى حول مقومات الأمة القومية العربية، من أوضحها مثلاً ما قاله عمر حمد متسائلاً: ما هي الجنسية؟ (يقصد القومية. . .)، ثم يجيب: «الجنسية هي ارتباط جماعة من الناس بلغة وتاريخ ووطن وتقاليد وعادات ومصلحة عامة»[٦].

ج ـ سيرة الفكرة القومية في العشرينيات والثلاثينيات وموقع ساطع الحصري منها

تعد فترة الاندفاعة العربية المشتركة ضد الدولة العثمانية في العقدين الأولين من القرن العشرين، علامة فارقة في مسيرة الفكر القومي العربي، فقد ترافق مع تبلور «الفكرة العربية السياسية المحددة»، انتشار عدد من المصطلحات الفكرية، على رغم اختلاطها وتداخلها. . . كما ذكرنا آنفاً.

وقد قدر لساطع الحصري أن يكون شاهداً على فترة الاندفاعة المذكورة بتموجاتها المختلفة.

فقد بدأ ساطع الحصري بالعمل في السلك الإداري للدولة العثمانية، حيث

---

(٤) انظر: عبد العزيز الدوري، **التكوين التاريخي للأمة العربية: دراسة في الهوية والوعي**، ط ٣ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٦)، ص ٢١٢ ـ ٢٣١.

(٥) انظر: أسعد رزوق، «نجيب عازوري الوحدوي المجهول،» **المستقبل العربي**، السنة ١، العدد ٤ (تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٨)، ص ٨٦ ـ ٩٥.

(٦) الدوري، المصدر نفسه، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

عمل لمدة ثماني سنوات في منطقة البلقان. ومع انهيار الدولة العثمانية وهزيمة تركيا في الحرب، التحق بفيصل الأول في سوريا، في تموز/يوليو ١٩١٩، ليشهد غمرة المواجهة السورية مع القوات الفرنسية، والتي توجت بمعركة ميسلون يوم ٢٤ تموز/يوليو ١٩٢٠، لتدخل القوات الفرنسية مدينة دمشق، ويرحل فيصل من سوريا. وقد عمل الحصري مديراً عاماً للتربية، ثم وزيراً للتربية في الحكومتين اللتين شكلتا في سوريا قبل ميسلون. وبعد استيلاء القوات الفرنسية على سوريا، رحل الحصري بصحبة فيصل الأول، ثم طوف في أرجاء متعددة، حتى دعي للحاق بفيصل في بغداد في تموز/يوليو ١٩٢١، وليبدأ عهد سياسي جديد للعراق في ظل السيطرة البريطانية[٧].

وفي سوريا والعراق جرت مياه كثيرة في الأنهار. فقد وقعت سوريا تحت الانتداب الفرنسي، ولم تخمد جذوة المقاومة للفرنسيين، حتى وقعت «الثورة الكبرى» في جبل الدروز من عام ١٩٢٥ إلى ١٩٢٧. وبإخماد هذه الثورة دخلت القوى الوطنية والقومية في سوريا مرحلة العمل السياسي والسلمي والبرلماني من خلال التجمع السياسي المسمى «الكتلة الوطنية» طوال الفترة من عام ١٩٢٧ حتى الاستقلال عام ١٩٤٧.

وأما العراق، فقد صار قبلة للراجعين من سوريا الفيصلية، دعاة العروبة، ولكن في إطار تربوي ـ دعائي. واتخذ التوجه القومي صورة الحركة الوطنية الاستقلالية في مواجهة بريطانيا طوال العشرينيات والثلاثينيات، حتى ثورة رشيد عالي الكيلاني (عام ١٩٤١). وبعدها أخرج الحصري من العراق، ويمم وجهه شطر حلب في سوريا ثم إلى بيروت، إذ أقام ثلاث سنوات، ثم دعي إلى سوريا عام ١٩٤٤ للعمل مديراً عاماً للتربية. واستقال الحصري عام ١٩٤٦ وغادر دمشق إلى بيروت، ومنها إلى القاهرة عام ١٩٤٧ حين عمل مستشاراً لدى اللجنة الثقافية في جامعة الدول العربية، ثم قام بتأسيس وإدارة معهد الدراسات العربية الحالية (معهد البحوث والدراسات العربية الآن) عام ١٩٥٣.

والمهم في هذا الصدد أن زوال «الفترة الفيصلية» في سوريا، وإخضاع سوريا والعراق للانتداب الفرنسي والبريطاني، كجزء من ترتيب الأوضاع في المشرق العربي بمقتضى «اتفاقية سايكس ـ بيكو» و«اتفاق سان ريمو»؛ إن هذا كله

---

(٧) وليام ل. كليفلاند، **ساطع الحصري من الفكرة العثمانية إلى العروبة**، تعريب فكتور سحاب (بيروت: دار الوحدة، ١٩٨٣)، ص ٩٥ ـ ١٠٥.

قد أعقبه تحول رئيسي في بنية التفكير والعمل السياسي القومي في منطقة المشرق، عبر العشرينيات والثلاثينيات، بحيث توارت إلى حد كبير المصطلحات والمفاهيم المتعلقة بالعروبة السياسية وما يرتبط بها من استقلالية على صعيد التكوين القومي، وما تستدعيه من تأصيل لمفهوم الأمة والأمة العربية والكيان الاجتماعي ـ الثقافي المعبر عنها (أي القومية العربية ـ على تفاوت في المصطلحات الدالة عليها يشوبه تداخل وغموض كما أسلفت).

ومما يؤكد وجهة نظرنا هذه بخصوص سيرة الفكرة القومية في العشرينيات والثلاثينيات ما يلي:

(١) تحول اهتمامات النخبة العربية المثقفة، ذات التوجه القومي والوطني، إلى التركيز على التضامن العام بين الدول العربية، وهو ما يتضح من «الفتاوي» التي نشرتها مجلة **الهلال** عام ١٩٣١، وقصدت بها استفتاء عدد من أعلام الصفوة العربية حول قضايا العرب.

(٢) ان الجردة التي أجراها د. نقولا زياده (وهو نفسه من رواد الفكرة القومية العربية) في مقالة له بعنوان «العروبة في الدراسات العربية الحديثة» لأهم الكتابات الممثلة لفكرة العروبة، قد انتقلت من «المؤتمر العربي الأول» ١٩١٣ إلى كتاب وحيد في الثلاثينيات هو **الوعي القومي** لقسطنطين زريق، والصادر في بيروت عام ١٩٣٨ (ودع عنك مؤتمر الطلاب العرب في بيروت عام ١٩٣٨ أيضاً).

وإنما تبدأ الكتابات القومية ذات البعد التأصيلي مع أوائل الأربعينيات، إذ يضع نقولا زياده كتابه **القومية والعروبة** الصادر في القدس سنة ١٩٤٣، باعتباره الكتاب التالي مباشرة لكتاب قسطنطين زريق المشار إليه.

ولكن الحق يقال ان نقولا زياده قد أهمل إسهاماً بارزاً لساطع الحصري في فترة إجداب الفكرة القومية بالذات، على صعيد التنظير و«الأدلجة» للقومية العربية، أي نقلها من حيز التفكير في المجال العروبي العام، بمحتواه الثقافي والسياسي، إلى التفكير «المذهبي» في إطار فكري متماسك إلى أقصى حدود التماسك، وعميق إلى حد لم تعهده الكتابات العربية من قبل. ونحن نشير بذلك إلى عملين مهمين للحصري، وضعهما في بغداد عامي ١٩٢٣ و١٩٢٨، وهما: **الوطنية والقومية** و**عوامل القومية**.

ثانياً: نظرية ساطع الحصري

«الجوهر المبكر» لنظرية الحصري في القومية العربية: «الوطنية والقومية» ـ و«عوامل القومية»

أ ـ الوطنية والقومية

حوالى عام ١٩٢٣، في ذلك الوقت الذي أعقب «المؤتمر العربي الأول» بعشر سنوات، وفي غمار الأحداث التي تلت النهاية الفاجعة للدولة العثمانية وللخلافة الإسلامية برمتها، وفي أتون الموقف السياسي الجديد في المشرق العربي: ما بين ميسلون (عام ١٩٢٠) والثورة العربية الكبرى (عام ١٩٢٥)، أخذ يزعق صوت قادم من البرية، صوت ساطع الحصري في بغداد، الحاضنة الجديدة للفكرة القومية على استحياء، وهي الفكرة التي لم تعد موجهة ضد الأتراك، ولكن ضد الفرنسيين والبريطانيين، أولئك «الأجانب» بالكلية، مما لم يعد يستثير الوعي «القومي» فقط، ولكن الغيرة «الوطنية» العربية أيضاً.

في ذلك الوقت بالذات، بقي صوت ينادي بعد سكوت الأصوات؛ إنه ساطع الحصري، القادم من «العثمانية» إلى «العروبة» بقوة وحماس، كان لا بد له أن يؤكدها دواماً، وبخاصة بعدما عاش من أحداث عبر السنوات الخمس الأخيرة، أي منذ عودته عام ١٩١٩.

ومن بين دروسه (أو محاضراته) في دار المعلمين العالية في بغداد، الدار التي أنشئت عام ١٩٢٣، يبرز درس له أو محاضرة[٨]، ربما كانت ـ فيما يبدو ـ أول ما أبدعه ساطع الحصري، بصورة متكاملة، على الإطلاق، في المجال النظري التأصيلي للقومية العربية.

وكان عنوان المحاضرة: «الوطنية والقومية».

وخلاصة ما ذكره في هذا الشأن: «الوطنية والقومية من أهم النزعات الاجتماعية التي تربط الفرد البشري بالجماعات. ومن المعلوم أن الوطنية هي حب

---

(٨) لم يذكر ساطع الحصري، أو ناشر كتبه، تاريخ إلقاء هذه المحاضرة، وإن كان قد ذكر (في الهامش) تاريخ إنشاء دار المعلمين العالية في بغداد عام ١٩٢٣، مما يجيز لنا أن نفترض وقوعها في وقت مقارب لذلك التاريخ، أي حوالى عام ١٩٢٣. انظر. ساطع الحصري، **أبحاث مختارة في القومية العربية**، سلسلة التراث القومي. الأعمال القومية لساطع الحصري؛ ١٧ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥)، ص ٢٣ ـ ٣٠ (نشر لأول مرة عام ١٩٦٤).

الوطن والشعور بارتباط باطني نحوه، والقومية هي حب الأمة، والشعور بارتباط باطني نحوها. والوطن من حيث الأساس هو قطعة من الأرض. والأمة ـ في حقيقة الأمر ـ هي جماعة من البشر. فنستطيع أن نقول، بناءً على ذلك، إن الوطنية: هي ارتباط الفرد بقطعة من الأرض تعرف باسم الوطن، والقومية: هي ارتباط الفرد بجماعة من البشر تعرف باسم الأمة»[٩].

ويتضح من هذا المقتطف:

ـ ان الوطنية هي علاقة للفرد بالأرض، علاقة نفسية محضة، تسكن في حيز الشعور، وتتحصل في «الحب» و«الارتباط الباطني».

ـ القومية هي علاقة للفرد بجماعة محددة من البشر، تسكن في حيز «الشعور» أيضاً، وتتحصل في «الحب» و«الارتباط الباطني».

ومن ذلك نستنتج:

ـ ان الوطنية عند الحصري، وكذلك القومية، ظاهرة «فردانية» إذا صح هذا التعبير: «علاقة للفرد بالأرض في الحالة الأولى وبالبشر في الحالة الثانية».

فالوطنية إذن لا تميز المجتمع في علاقته التاريخية بالأرض، عبر العملية المعقدة للمعاش، وإنما تميز «الشخص» في صلته «الشعورية» بقطعة مخصوصة من الأرض.

والقومية ليست وجوداً اجتماعياً موضوعياً، يتكون للمجتمع عبر التاريخ، وإنما هي «ظاهرة» بالمعنى المتداول في فلسفة «الفينومنولوجيا»، حيث الوجود هو الحالات «الشعورية» للفرد، وليس الواقع الموضوعي المستقل عن واقعة الإدراك.

وبذلك يضع ساطع الحصري قدميه لأول مرة على شاطئ أقرب إلى المثالية الفلسفية في رافدها الألماني.

ـ إن حديث ساطع الحصري عن أن «القومية حب»، هو تعبير سوف يتكرر بعد ذلك بعشرين عاماً أو أكثر، لدى ميشيل عفلق القائد المؤسس لحزب البعث العربي.

ـ إن القومية والوطنية دائرتان منفصلتان على رغم أنهما تتماسان، والقومية لا علاقة لها بالأرض في الأساس. وهذا معنى مهم، له قيمة كبرى في سياق النظرية الحصرية.

---

(٩) المصدر نفسه، ص ٢٣.

ومن المحاضرة نفسها نقتبس عبارة أخرى مهمة في سياق نشأة النظرية الحصرية، إذ يقول:

«إن العوامل التي تربط الأفراد بعضهم ببعض وتحبب بعضهم إلى بعض ـ فتؤلف منهم أمة واحدة ـ كثيرة ومتنوعة جداً: الاعتقاد بوحدة الأصل والمنشأ، والاشتراك في اللغة والتاريخ، والتشابه في العواطف والعوائد، والتماثل في ذكريات الماضي ونزعات الحال وآمال المستقبل؛ كلها من جملة هذه الروابط المعنوية التي تولد التقارب والتعاطف، وتكون الأمم والأوطان»(١٠).

وما يلبث الحصري أن يذكر في ختام محاضرته:

«. . . ولكن إذا لاحظنا أنواع الروابط التي تكوّن الجماعات السياسية على وجه أخص، نجد أن أقواها وأفعلها، هي نزعة القومية المتولدة من وحدة اللغة والتاريخ، وهي التي تتغلب على كل ما سواها، وتستتبعها استتباعاً»(١١).

ومن هذين المقتبسين نستنتج ما يلي:

(١) إن الأمم عند ساطع الحصري تتكون بفعل «الروابط المعنوية» (التي تحبب الأفراد بعضهم ببعض)، وإذن فليس للروابط المادية الحسية (والقائمة على الاقتصاد والجغرافيا) مكان في النظرية.

(٢) يتردد ساطع الحصري في عوامل تكوين الأمم، ثم يحسم تردده في الختام، فهو متردد بين عوامل (كثيرة ومتنوعة جداً): الاعتقاد بوحدة الأصل والمنشأ، الاشتراك في اللغة والتاريخ، التشابه في العواطف والعادات، التماثل في ذكريات الماضي ونزعات الحال وآمال المستقبل.

غير أنه يعود في الختام ليتحدث عن أن القومية (وهي عنده «نزعة» وليست وجوداً اجتماعياً موضوعياً) متولدة من وحدة اللغة والتاريخ.

ويبدو أن ساطع الحصري مذ حسم تردده ذاك، بقي على اعتقاده لا يزيغ، طوال أربعين عاماً تقريباً، أي منذ إلقاء دروسه تلك في بغداد حتى وفاته ـ في بغداد أيضاً ـ عام ١٩٦٨.

(٣) في ذلك الوقت المبكر أوضح الحصري موقفه من بعض القضايا الشائكة، وبخاصة وحدة الأصل. فليست وحدة الأصل من مكونات الأمة، ولكنه «الاعتقاد» بوحدة الأصل.

(٤) إن تردد الحصري بين «الكثرة» و«الوحدة» في معرض عوامل القومية

(١٠) المصدر نفسه، ص ٢٩.

(١١) المصدر نفسه، ص ٣٠.

يعكس في جزء منه تردداً بين المؤثرات الفرنسية (وبخاصة من جانب إرنست رينان) والمؤثرات الألمانية (وبخاصة من فخته). وقد وضح تأثير رينان عليه في تأكيده على «التماثل في ذكريات الماضي ونزعات الحال وآمال المستقبل»، فليست تلك الجملة الأخيرة ببعيدة عما ذكره رينان بحسم: «الأمة نفس ومبدأ روحي. وهناك شيئان وشيئان فقط هما اللذان يكونان هذه النفس وهذا المبدأ الروحي، **أولهما** في الماضي، **وثانيهما** في الحاضر. فأما الذي في الماضي فهو التملك المشترك لتركة غنية من الذكريات، وأما الذي في الحاضر فهو الرضا الفعلي والرغبة في العيش معاً...»[١٢].

إن «التماثل في ذكريات الماضي» عند الحصري، تبدو وكأنها صدى لتركة رينان الغنية من الذكريات... في الماضي.

أما «نزعات الحال وآمال المستقبل» عند الحصري، فهي ربما كانت صدى للتعبير الريناني: «أما الذي في الحاضر فهو الرضا الفعلي والرغبة في العيش معاً».

إن الحصري إذن لم يكن قد أفلت من تأثير رينان حين ألقى دروسه حوالى عام ١٩٢٣، وذلك على عكس ما قال الياس مرقص بالضبط والذي ذكر أنه «منذ سنة ١٩٢٣، في نهاية البحث الأول، تبدو آراء الحصري في القومية مرتكزة على «اللغة والتاريخ»، لا على المشيئة...»[١٣].

يبدو ما قاله الياس مرقص صحيحاً إذا أخذنا بالعبارة الأخيرة من محاضرة الحصري فقط، ولكن هذه العبارة تبدو ختاماً غير متسق تماماً مع مقومات سبقت؛ ختاماً حسم تردداً كما ذكرنا، وإنما انتظر الحصري ـ قليلاً أو كثيراً بعد ذلك ـ حتى يقطع تماماً مع نظرية رينان، فينقدها نقداً مراً، بعد ذلك بخمس سنوات تقريباً (في محاضرة عن «عوامل القومية» عام ١٩٢٨)، ثم يخصص فصلاً كاملاً عنها في كتابه **ما هي القومية؟** والصادر لأول مرة عام ١٩٥٩، وذلك تحت عنوان: «القومية ومشيئة التعايش المعشري»[١٤].

عموماً إن ختام محاضرة عام ١٩٢٣ يمثل مدخلاً سلساً إلى المحاضرة «الفاصلة» لعام ١٩٢٨.

---

(١٢) عيسى، **القومية العربية (الإطار النظري ـ المسار التاريخي ـ الأزمة والتجديد)**، ص ١٠.

(١٣) الياس مرقص، **نقد الفكر القومي** (بيروت: دار الطليعة، ١٩٦٦)، ج ١: **ساطع الحصري**، ص ٥٥٥.

(١٤) ساطع الحصري، **ما هي القومية؟ أبحاث ودراسات على ضوء الأحداث والنظريات**، سلسلة التراث القومي. الأعمال القومية لساطع الحصري؛ ١٣، ط ٢ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥)، ص ٩٧ ـ ١٢٨ (نشر لأول مرة عام ١٩٥٩).

ب ـ عوامل القومية[١٥]

يتساءل ساطع الحصري في مطلع هذا «البحث ـ المحاضرة» قائلاً:

«ما هي العوامل التي تجعل بعض الناس يشعرون بأنهم أبناء أمة واحدة، متميزون عن أبناء الأمم الأخرى؟ وبتعبير أقصر: ما هي العناصر التي تكوّن الأمم، والعوامل التي تميز بعضها من بعض؟».

ومن هذا يتضح أن الحصري في صيغة سؤاليه المترادفين، يقيم نوعاً من التطابق ـ النسبي على الأقل ـ بين تكوين الأمم، وشعور الناس أو بعضهم بأنهم من هذه الأمم. . . وبتعبير آخر، انه يقيم التطابق بين وجود الأمة والشعور بها أو أن الأمة إنما توجد «في الشعور».

إن الأمة لا توجد حقاً في التاريخ ولكن في «الذاكرة التاريخية»، والتاريخ القومي هو «مخزون الذكريات المشتركة»، أما العلامة الظاهرة على وجود أمة من الأمم، فهي تلك الأداة التي بها يعبر الناس عن «شعورهم» و«ذكرياتهم»، أي اللغة.

وبعد أن يفند الحصري دعوى «وحدة الأصل» كأساس لتكوين الأمم، وينتهي إلى أن «المهم في القرابة والنسب ليس رابطة الدم في حد ذاتها، بل هو الاعتقاد بها والنشوء عليها»، يتقدم إلى نتيجة ربما لا تسوغها مقدمتها السابقة تماماً، قائلاً: «إن القرابة في الأمم تكون نفسانية ومعنوية أكثر مما تكون جسمانية ومادية».

وبعد هذا التمهيد «المعنوي» ينهض على الفور حاسماً موقفه وحازماً رأيه بالتقرير التالي: «إن أهم العوامل التي تؤدي إلى تكوين القرابة المعنوية التي يشعر بها الأفراد في الأمم المختلفة هي اللغة والتاريخ. . .».

وكما أن ساطع الحصري قد تردد في محاضرته الأولى بين عوامل «كثيرة» وعامل وحيد (الاشتراك في اللغة والتاريخ)، فقد تردد مرة أخرى في المفاضلة بين شقي العامل الوحيد: أي اللغة والتاريخ، ولكنه فيما يبدو آخذ في حسم تردده لصالح اللغة، فاللغة عنده «هي أهم الروابط المعنوية التي تربط الفرد البشري بغيره من الناس».

ويستكمل حسمه التقريري ـ على الأغلب ـ قائلاً «. . . ونستطيع أن نقول

(١٥) الحصري، أبحاث مختارة في القومية العربية، ص ٣١ ـ ٤٨.

لذلك: إن الأمم يتميز بعضها عن بعض - في الدرجة الأولى - بلغتها. وإن حياة الأمم تقوم - قبل كل شيء - على لغاتها...».

وأيضاً: «يتبين من ذلك كله: ان اللغة هي روح الأمة وحياتها، إنها بمثابة محور القومية وعمودها الفقري، وهي من أهم مقوماتها وشخصياتها».

ولا نستطيع أن ننفي حيرتنا إزاء هذه التحديدات المتضاربة في العبارة الأخيرة... ففي هذه العبارة وحدها نجد أن اللغة هي روح الأمة، ثم نجد أنها حياة الأمة. ونحن لا نعلم بالضبط المقصود بكل من الروح والحياة، ولكن أكبر الظن أنها «حياة روحية»، فالحصري لا يعترف في عالم الأمم سوى بعالم الشعور، أو الروابط المعنوية. أما ما هي تلك الحياة الروحية في ميزان العلم الاجتماعي المعاصر، فهذا ما لا ندريه بالدقة، إلا إن كان المقصود بها دائرة الثقافة بالمعنى الواسع. وبغض النظر عن هذا الغموض، فإن الحصري يستطرد: إن اللغة هي محور القومية، وهو ما ينسجم فيما يبدو مع التعبير الآخر الغامض: عمودها الفقري، غير أن هذين التعبيرين يتناقضان بالتأكيد مع ما ذكره على الفور: إن اللغة هي من أهم مقوماتها ومشخصاتها. فهنا انقلبت اللغة لتصير «من أهم» وليست «الأهم»، ودع عنك «المقوم الوحيد»... أما الفارق بين «مقوماتها» و«مشخصاتها»، فليس واضحاً، وإن تكن المقومات أقرب إلى معنى «المحددات» (Determinants)، بينما «المشخصات» أقرب إلى المظاهر أو التجسيدات.

غير أن تأكيد الموقع المركزي للغة في نظرية الحصري لا ينفي دور التاريخ، ولكن التاريخ مفهوماً كـ «ملحق» للغة، كذيل مختزل في الذاكرة، باعتباره «تأريخاً»، وأن هذا التأريخ يتمثل في كل من التدريس (تدريس مادة التاريخ في معاهد العلم) وفي التدوين، وهذا ما ذكره الحصري في محاضرة له في القاهرة عام ١٩٤٧ بعنوان «تعليم التاريخ والعلاقات الدولية»[١٦].

وتجسيداً لذلك يقول الحصري في «عوامل القومية»: «أما التاريخ فهو بمثابة شعور الأمة وذاكرتها، فإن كل أمة من الأمم، إنما تشعر بذاتها وتكوّن شخصيتها بواسطة تاريخها الخاص».

هنا يوسع الحصري مجال فعل التاريخ، التاريخ في عالم المثال والمعنى، فيصير هو نفسه «شعور الأمة» وهو «الذاكرة»....

فهل نبالغ إذا قلنا ان التاريخ عند الحصري أقرب إلى أن يكون - وهو

---

(١٦) انظر: المصدر نفسه، ص ٣٣٠.

التأريخ ـ مظهراً من مظاهر فعل اللغة؟ اللغة هنا المفهومة، ليس في إطار ارتباطها العضوي باللسان والمجتمع، ولكن باعتبارها أداة التفكير للإنسان كحيوان ناطق بلغة معينة. فاللغة تنتمي عنده إلى عالـم الفكر المحض وليس إلى عالـم الحياة المحسوسة.

ويتأكد هذا التماهي بين التاريخ واللغة عند الحصري، أو تماهي التاريخ في اللغة، من نص الحصري ـ في المحاضرة نفسها، أي «عوامل القومية» ـ «الأمة التي تنسى تاريخها تكون قد فقدت شعورها، وتستطيع هذه الأمة أن تستعيد وعيها وشعورها بالعودة إلى تاريخها القومي، ولكنها إذا ما فقدت لغتها تكون عندئذٍ قد فقدت الحياة ودخلت في عداد الأموات، فلا يبقى سبيل إلى عودتها إلى الحياة، فضلاً عن استعادتها الوعي والشعور».

ويفند الحصري أثر عامل الدين، وعامل المشيئة «ويعلي من شأن الاتصال الجغرافي في إشارة قصيرة لن يكررها مرة أخرى وإنما سيتحدث بعكسها» لينتهي من حيث بدأ قائلاً في ختام المحاضرة: «. . . إن هذه الأسئلة تعيدنا إلى النقطة التي بدأنا منها درسنا، وبحثنا في عناصر القومية وتوصلنا في آخر الأمر إلى النتيجة التي كنا حصلنا عليها قبلاً: إن أهم العوامل التي تولد في النفوس رغبة الاتحاد فتؤدي إلى تكوين القومية وتأليف الأمة إنما هي وحدة اللغة والتاريخ».

ولنتذكر من هذه العبارة الختامية ما يلي:

(١) إن عوامل القومية تبدو وقد تحوصلت في اللغة والتاريخ، كعامل وحيد أو مشترك (وحدة اللغة والتاريخ)، وهذا يثبت ما ذكرناه من أن التاريخ ينحل في اللغة.

(٢) إن «وحدة اللغة والتاريخ» أو «وحدة اللغة والتأريخ. . .!» تؤدي إلى تكوين القوميات والأمم عبر توسط «الرغبة» كظاهرة سيكولوجية، وإن شئت فقل: الحب، فهي «أهم العوامل التي تولد في النفوس رغبة الاتحاد».

(٣) إن الدرس والبحث وسيلة لإثبات نتيجة يبدو أن الحصري قد «حصل عليها قبلاً». وهذه أقرب إلى منهاجية علم الرياضيات والهندسة، حيث يبدأ بحث القضية من «نظرية مفترضة» تتكون من جملة مصادرات ومسلمات ومبادئ تجريدية مستقاة أصلاً من المشاهدة والحدس أو الاستبصار. وانطلاقاً من النظرية المفترضة تتم مسيرة فحص المعطيات والبرهنة المدققة على «المطلوب إثباته».

إن الحصري، صاحب النظرة المثالية في فلسفة الوجود الاجتماعي، ذو

خلفية رياضية «وقد ألقى دروساً في مادة الإحصاء على طلبة دار المعلمين العالية في بغداد، فتبدو نظريته في القومية أقرب إلى النظريات الهندسية منها إلى نظريات العلوم الاجتماعية المعاصرة والقائمة إلى حد كبير على مزيج من الايديولوجيا الاجتماعية والبحث التطبيقي، وبمنهاجية مركبة من الاستنباط الاجتماعي المجرد واستقراء الواقع المحدد.

ثالثاً: طرق البرهنة على صحة النظرية

١ ـ الطريقة الأولى: الإثبات الإيجابي

تتمثل الطريقة الأولى في مسلسل البرهنة على صحة النظرية عند الحصري، في محاولة إثبات سلامة الغرض الرئيسي، بالإيجاب. والغرض الرئيسي هو قيام تكوين الأمم والقوميات على «وحدة اللغة والتاريخ»، وان شئت فقل: وحدة اللغة، باختصار.

ذلك موقف ثابت، أقام عليه ساطع الحصري، مذ صاغه بشكل متكامل لأول مرة عام ١٩٢٨، وفي كل المناسبات التي تناول فيها بعد ذلك الإطار النظري للقومية العربية، وإن لم يتوسع فيه على أي حال، فإنه أكد موقفه ذاك دون تبديل.

وحتى في السياقات التي لم تكن موجهة للنظرية وإنما لغايات أخرى، مثل استعراض التاريخ السياسي العالمي في ضوء مبدأ القوميات أو في سياق بث الحمية القومية بين الشباب أو الرد على آراء المعارضين، فإنه كان حريصاً على إثبات موقفه السابق.

وظل هذا ديدنه طوال الفترة الممتدة من عام ١٩٢٨ حتى عام ١٩٥٩، وهو العام الذي نشر فيه كتابه **ما هي القومية؟ أبحاث ودراسات على ضوء الأحداث والنظريات**، وفيه أكمل عرض نظري قدمه ساطع الحصري حول القومية.

ويتضح هذا من الثبت التاريخي التالي لأعماله ذات الصلة فقط بموضوعنا في الفترة المذكورة بالترتيب[١٧]:

أ ـ «أهم مسائل التربية من وجهة الوطنية والقومية»، مقالة نشرت في مجلة **التربية والتعليم** (بغداد) عام ١٩٣٢.

---

(١٧) المصدر نفسه.

ب ـ «دور مصر في النهضة القومية العربية»، مقالة نشرت في جريدة **البلاد** (بغداد) في ١٩/٤/١٩٣٦.

ج ـ «بين الحاضر والمستقبل»، خطاب ألقي في بغداد في ٢٠/١٢/١٩٣٧ ونشر في جرائد بغداد وفي **الرسالة** القاهرية.

د ـ «بين الوطنية والأممية»، محاضرة ألقيت في بغداد، ونشرت في **الرسالة**، القاهرة، عام ١٩٣٨.

هـ ـ «بين الوحدة الإسلامية والوحدة العربية»، مقالة نشرت في **الرسالة**، القاهرة، في ١٦/١٠/١٩٣٩.

و ـ «الإيمان القومي»، محاضرة ألقيت في بغداد (لم يذكر تاريخ، ونفترض أن ذلك قد حدث قبل خروج الحصري من بغداد عام ١٩٤١).

ز ـ «تعليم التاريخ والعلاقات الدولية»، محاضرة ألقيت في المؤتمر الثقافي العربي الأول، (لم يذكر المكان) في ٨/٩/١٩٤٧.

ح ـ «نشوء الفكرة القومية ـ منذ أوائل القرن التاسع عشر»، محاضرة ألقيت في القاهرة، في ١٧/١/١٩٤٨.

ط ـ «القومية العربية»، محاضرة ألقيت في القاهرة، في ٢/١٢/١٩٥٠.

ي ـ محاضرات في نشوء الفكرة القومية، وهي مجموعة محاضرات ألقيت في القاهرة سنة ١٩٤٨، ونشرت في كتاب عام ١٩٥١.

وهكذا، طوال ثلاثين عاماً (١٩٢٨ ـ ١٩٥٩)، ومن بين انشغالاته الفكرية حول القومية، داوم ساطع الحصري على إثبات موقفه «التقريري»، مستنداً إلى أدلة منطقية، وشواهد تاريخية عربية وعالمية، وآن له أخيراً أن يبسط معالم نظرية، في كتاب **ما هي القومية؟** كما قلنا، ثم عاود التأكيد عليها في كتابه **حول القومية العربية** المنشور لأول مرة عام ١٩٦١، وكرر محتواها مع قدر قليل من الإضافة في كتابه الموسع: **أبحاث مختارة في القومية العربية** الصادر أول مرة عام ١٩٦٤.

وكما سبق أن أشرنا، فإن صلب النظرية الحصرية هو موضوع «اللغة».

وقد حزم ساطع الحصري أمره بصورة صريحة جداً، بانحيازه للنظرية الألمانية في القومية ـ المرتكزة إلى اللغة ـ قائلاً (عام ١٩٥١)، في معرض المقارنة مع النظرية الفرنسية القائمة على الإرادة أو «المشيئة»: «كان الألمان يقولون منذ أوائل القرن التاسع عشر، إن أساس القومية ومعيارها الصحيح هو اللغة... وعلى كل

حال، أنا لا أتردد في القول بأن النظرية الألمانية في هذه القضية، هي النظرية الصحيحة التي أيدتها الوقائع التاريخية ودعمتها الأبحاث العلمية»[١٨].

وبالفعل فقد مضى الحصري ليدلل على نظريته تلك، مكرساً للغة أكبر حيز نسبي في كتابه **ما هي القومية؟**[١٩]، لا يدانيها في ذلك سوى بحث عامل «الدين».

وقد قرر الحصري هنا ـ مرة أخرى وليست أخيرة بطبيعة الحال ـ «أن جميع الأحداث التاريخية أيدت نظرية القائلين بأن «اللغة أساس القومية»... وأن اللغة العامل الأساسي للقومية..»[٢٠]. وبالفعل فقد مضى الحصري في خطته للبرهنة على صحة نظريته، بطريقة جوابية، أي من خلال الرد على آراء المعترضين على الدور الأساسي للغة، مستخرجاً ومحللاً أبرز الشواهد التاريخية، القديمة نسبياً والحديثة، والتي تبين خطأهم، من وجهة نظره، وتصب من ثم في خانة تأييده كما يرى.

وبعد تمهيد قصير نسبياً، ظل مجرد تمهيد على أي حال، إذ لم يطور أفكاره في هذا الشأن لتصبح محوراً لـ «مرافعته» حول اللغة والقومية، تناول فيه الدور الفلسفي المستمد من مقولة «الإنسان حيوان ناطق»، وعرض لآراء الألمان، وبخاصة هيردر وفخته وماكس نوردو، انبرى ليعرض دلالات شواهده التاريخية، وبخاصة من تجربتي الوحدة الألمانية والوحدة الإيطالية، والدول المقسمة بعد الحرب العالمية الثانية، والأمثلة (القديمة) القوية: بلجيكا، والنمسا، وسويسرا، والولايات المتحدة الأمريكية، وأمريكا اللاتينية.

وقد جهد ساطع الحصري في التدليل ـ من واقع هذه الشواهد ـ على:

ـ ان «التشابك اللغوي» في كل من بلجيكا وسويسرا، يجعل كلًّا منهما دولة لا أمة.

ـ ان النمسا أيضاً، دولة، ولكنها جزء من الأمة الألمانية.

ـ ان الولايات المتحدة حالة خاصة أو «استثنائية»، وكذلك أمريكا اللاتينية.

---

(١٨) ساطع الحصري، «القومية العربية،» محاضرة ألقيت في قاعة جمعية الوحدة العربية بالقاهرة، في ٢/١٢/١٩٥٠، ونشرت في: المصدر نفسه، ص ٦٣ ـ ٨٢.

(١٩) ساطع الحصري، **ما هي القومية؟ أبحاث ودراسات على ضوء الأحداث والنظريات**، ص ٤٣ ـ ٩٦.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ٥٦.

وقد قام الياس مرقص بالرد المسهب على نظرية الحصري، وخصص لتفنيد موقف الحصري من هذه الشواهد، نحو مائة صفحة من مؤلفه الضخم **نقد الفكر القومي**[٢١]، وحاول البرهنة على الحجة المعاكسة بالدور الأساسي للاقتصاد والأرض، ولكن حسبنا أن نشير إلى أن الاعتماد على اللغة كعامل وحيد أو أساسي، يحجب حقيقة التكوين القومي، التي قد تتجاوز حاجز اللغة، لتقيم «التماسك القومي»، على قاعدة اقتصادية ـ اجتماعية ـ ثقافية، يمكن أن تؤسس، في ظل شروط محددة لتكوين الأمة والقومية[٢٢].

غير أن من المهم أن نضيف هنا ملاحظة مهمة فحواها ما يلي:

إننا نميل إلى أن ما قدمه ساطع الحصري في موضوع القومية واللغة، هو أقرب إلى أن يكون «نظرية قومية في اللغة» أكثر منه «نظرية لغوية في القومية»، فهو يصلح سنداً للبحث اللغوي، أكثر من فائدته للبحث في القومية ذاتها.

وبعبارة أخرى، فإنه ربما أمكن القول ان الحصري لم يدرس القومية من الزاوية اللغوية، بقدر ما درس اللغة و«الأدب» من زاوية القومية[٢٣].

وربما لو كان الحصري قد تناول اللغة من زاوية «الاجتماعيات اللغوية» وعلم الاجتماع المعرفي والثقافي والأدبي، مع الاستفادة من التراث الثري للسانيات في القرن العشرين، منذ «دي سوسور»، لكان قد قدم إضافة حقيقية للموضوع. ولكن فيما يبدو، إن تطور العلم الاجتماعي قد انتظر حتى عقد الستينيات، لتنهض الدراسات اللغوية والأدبية الحديثة، على يد المدرسة البنيوية في فرنسا بالذات.

٢ ـ الطريقة الثانية: البرهنة عن طريق النفي

بعد أن أسس ساطع الحصري نظريته في أواسط وأواخر العشرينيات (وهو أسسها بصفة رئيسية من خلال المجادلة بين النظرية الفرنسية والنظرية الألمانية، أي بين حجة الإرادة وحجة اللغة)، شرع يعمق وسائل الدفاع عنها، بشتى طرق البرهنة. فهو لم يكتف بالبرهنة من خلال «الإثبات الإيجابي» الذي مارسه دائماً

(٢١) مرقص، **نقد الفكر القومي**، ج ١، ص ١١٩ ـ ٢١٩.

(٢٢) عيسى، **القومية العربية (الإطار النظري ـ المسار التاريخي ـ الأزمة والتجديد)**، ص ٣١ ـ ٥٤.

(٢٣) انظر: ساطع الحصري، **في اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية**، سلسلة التراث القومي. الأعمال القومية لساطع الحصري؛ ١١ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥) (نشر لأول مرة عام ١٩٥٨).

ويبلغ ذروته في الفترة ما بين عامي ١٩٥٩ و١٩٦٤ كما رأينا وإنما سعى إلى البرهنة من خلال المجادلة مع الأضداد. وبذلك أخذ يضع نظريته على المحك ليختبرها هل هي صحيحة؟ ومضى في مقارعة حجج الخصوم، خصوم القومية العربية و«النظرية القومية في اللغة».

ولكن مقارعة الخصوم لم تجر في الفراغ. فلم يكن ساطع الحصري في حقيقته مفكراً متفلسفاً في «البرج العاجي» كما يقولون، أي لم يكن مجرد منظر أو صاحب نظرية، وإنما هو في الحقيقة صاحب «مشروع سياسي ـ عقائدي»، صاحب «ايديولوجيا سياسية» باختصار. ومعلوم الفرق الجوهري بين النظرية في حد ذاتها، والايديولوجيا. فالنظرية منظومة فكرية متماسكة موجهة نحو تفسير الواقع، أما الايديولوجيا فهي منظومة فكرية متماسكة أيضاً، ولكنها فعالة اجتماعياً وسياسياً وموجهة نحو تغيير الواقع.

ومن هذه الوجهة، فإن ساطع الحصري مفكر «أيديولوجي» بامتياز، أي صاحب رسالة اجتماعية للفكر على اختلاف الرسالات الاجتماعية، ولا يمنع هذا من اعتبار المنظومة الفكرية للحصري من زاوية معينة بمثابة «نظرية».

وقد حاول الحصري البرهنة على صحة نظريته، عن طريق محاولة إثبات عدم صحة النظريات الأخرى في عوامل القومية.

وباستبعاد نظرية «المشيئة» التي أشرنا إليها مراراً، ونظرية «وحدة الأصل» أو «الرس» (Race) التي ألمحنا إليها، فإن أهم النظريات التي ناوشها تتعلق بما يلي:

ـ الاقتصاد.

ـ الدين والقومية.

ـ القومية والبيئة الجغرافية أو الأرض.

والمهم في هذا المقام أن ساطع الحصري قد تغلبت عليه، في العديد من الأحيان، روح المشتغل بالسياسة والمشتبك في معارك الايديولوجيا، بحيث راحت تطغى على روح العالم المحيط والباحث المدقق. لذلك سيطرت النزعة الانتقائية في الدراسة، بحيث تخير الحصري تلك الجوانب المؤيدة لنظريته، وأغفل جوانب أخرى لها قيمتها الكبرى في فهم الظاهرة، أو هو أشار إلى هذه الجوانب، وربما عرض لها بالتفصيل النسبي في مقام معين، ولكن دون أن يطورها، ثم يضعها في الموقع المناسب، لصياغة الموقف النظري الملائم.

أ ـ الاقتصاد

ولعل أول إشارة متكاملة حول هذا الموضوع قد وردت في مقالة نشرها في العدد الرابع من مجلة **التربية والتعليم** التي كان يصدرها في بغداد (لم يذكر التاريخ ولكن يفترض أن ذلك قد تم في أوائل الثلاثينيات)، وذلك تعليقاً على مقالة نشرها سلامة موسى في: **السياسة الأسبوعية**، بتاريخ ١٩٢٨/٢/٢٣ بعنوان: «التجديد الاقتصادي أساس التجديد الاجتماعي»[٢٤].

وفي مقالة الحصري يدافع عن أولوية العوامل الفكرية على العوامل الاقتصادية، وأن الاقتصاد يعتبر أحد العوامل فقط، وليس العامل الأساسي، المفسر لثورة ١٩١٩ في مصر.

وبعد ذلك وفي محاضرة بعنوان «بين الوطنية والأممية» التي ألقاها في بغداد، ونشرت في **الرسالة** القاهرية عام ١٩٣٨، أخذت تتبدى الخلفية السياسية الدافعة للحصري نحو معالجة العامل الاقتصادي كأحد عوامل القومية. فقد ظهرت مناجزته للتيار الشيوعي (الأممي)، الذي راح يعطي الأولوية للرابطة الدولية ـ البروليتارية (أو العمالية) على الرابطة القومية والوطنية. ويذكر الحصري في هذا المقام: «ان الوطنية هاهنا وجدت نفسها منذ مدة أمام نزعة معادية أخرى أشد خطراً من تلك ـ يقصد «تلك» النزعة العالمية «الكوزموبوليتية» ـ هذه النزعة هي الأممية الشيوعية، والتي تدعو إلى نبذ الفكرة الوطنية ومحاربة الرأسمالية أينما كانت. . . الخ»[٢٥].

وعلى رغم إيمان ساطع الحصري بأهمية العدل الاجتماعي أو «إزالة الجور» على حد تعبيره، إلا أن ذلك يتوارى أمام مدافعته عن الوطنية في وجه الأممية الشيوعية، فلم يتمكن من تطوير نظرية قومية ذات قلب اجتماعي حقيقي، فيقول «أنا لا أود أن أقول بذلك إنه يجب علينا أن نترك الأمور على حالها، فلا نفكر في إزالة الجور عن أفراد الأمة، بل أقول بعكس ذلك، بأنه يجب علينا أن نبذل كل الجهود لإصلاح الأحوال وإزالة الجور بأقصى ما يمكن من السرعة، على ألا نخرج في أعمالنا وتدابيرنا عن مقتضيات الوطنية، وأن نعتقد في كل حين: أن الوطن قبل كل شيء، وفوق كل شيء»[٢٦].

---

(٢٤) المصدر نفسه، ص ٢٨٦ ـ ٢٩٢.

(٢٥) المصدر نفسه، ص ١١٨.

(٢٦) المصدر نفسه، ص ١٢٩.

فلعل هذا الاشتباك السياسي مع «الأممية الشيوعية» هو الذي حكم العرض النظري الضافي لساطع الحصري حول عامل الاقتصاد، عبر أكثر من ٣٠ صفحة من «أبحاث مختارة»[٢٧].

وقد جاء هذا العرض أول مرة عام ١٩٥٩ في كتاب **ما هي القومية؟**[٢٨] وخلاصته ما يلي:

- ان المصالح الاقتصادية تفرق ولا تجمع بين الناس.

- «ان الأحاسيس الوطنية والقومية لا ترتبط بالمنافع والمصالح المادية والاقتصادية. إنها من النوازع والعواطف التي تسمو على الحسابات النفعية. إنها تشبه حب الأطفال لأمهاتهم، وحب الأمهات لأطفالهن. إنها لا تخضع لدواعي المنفعة والمصلحة»[٢٩].

- ان المصالح الاقتصادية من أقل الأمور التصاقاً بالقوميات، وأشدها خضوعاً لسلطان الحكومات.

ب ـ الدين والقومية

أما عن الدين، فإن دواعي الصراع السياسي ـ العقائدي قد لعبت دورها الحاسم أيضاً، ولا ننسى أن العشرينيات والثلاثينيات قد شهدت معركة ثقافية عربية كبرى حول الدين، بصفة مباشرة وغير مباشرة، بدليل ما دار حول كتاب طه حسين **في الشعر الجاهلي** وكتاب علي عبد الرازق **الإسلام وأصول الحكم**، بالإضافة إلى تفاعلات النشاط المتزايد لجماعة «الإخوان المسلمين» والتي ظهرت لأول مرة عام ١٩٢٨. وقد أثار كل ذلك جدلاً محتدماً حول العلاقة بين الدين والسياسة، وبين الدين والدولة، وحول الخلافة الإسلامية، وحول العلاقة بين الإسلام والعروبة... الخ.

وكان لا بد لساطع الحصري من أن يدخل المعمعان. وقد نشر مقالته «بين الوحدة الإسلامية والوحدة العربية» في مجلة **الرسالة** عام ١٩٣٩، وحاول فيها التوفيق بين الأمرين قائلاً: «إن فكرة الوحدة الإسلامية أوسع وأشمل من مفهوم

---

(٢٧) المصدر نفسه، ص ٢٦١ ـ ٢٩٢.

(٢٨) الحصري، ما هي القومية؟ أبحاث ودراسات على ضوء الأحداث والنظريات، ص ١٢٩ ـ ١٥٨.

(٢٩) المصدر نفسه، ص ١٣٥.

الوحدة العربية، غير أنه ليس من الممكن أن نقول بالوحدة الإسلامية دون أن نقول بالوحدة العربية»[٣٠].

ثم ان ساطع الحصري، بعد نشر هذه المقالة بثماني سنوات، قد تعرض لحدث جلل، وصفه أحمد أمين في **الثقافة** بتاريخ ١/٢/١٩٤٧ بأنه «مأساة»، ويتلخص كما ذكر الحصري في: «خروج الطلاب في دمشق، بتحريض من الاخوان المسلمين، في مظاهرات عدائية ضد الحصري، هاتفين: «لا إله إلا الله والحصري عدو الله. . .!» مرغمين الحصري على تقديم استقالته من مستشارية وزارة المعارف ومغادرته دمشق»[٣١].

فهكذا إذن كان الحصري منخرطاً مباشرة في الحركة السياسية ـ العقائدية العربية. ولذلك جاءت مجادلته حول الدين كعامل من عوامل القومية، مطبوعة بموقفه، بل بموقعه من خارطة الصراع العقائدي. وقد تكامل عرضه النظري للموضوع أيضاً عام ١٩٥٩ في كتابه **ما هي القومية؟**، من خلال الرد على «الأغيار»: محمد فريد، الكواكبي، جمال الدين الأفغاني، علي عبد الرازق. . .

وقد انتهى إلى «أن الديانة الإسلامية لعبت دوراً هاماً في تقدم القومية العربية وتوسعها، ولكن ذلك لا يعني أن القومية العربية ظلت مرتبطة بالديانة الإسلامية لأنه قد تكونت أمم إسلامية غير عربية من ناحية، وجماعات عربية غير مسلمة من ناحية أخرى»[٣٢].

إن تحليل العلاقة بين الدين والقومية لم يكتمل، في إطار نظرة اجتماعية ـ حضارية، ولم يطور الحصري آراءه التي أبداها على قاعدة معرفية واسعة لديه بالتاريخ العربي والإسلامي، حفلت بها كتاباته، وبخاصة في «أبحاثه المختارة»، فلقد تغلبت اعتبارات الايديولوجيا على البحث الاجتماعي التاريخي.

ج ـ القومية والبيئة الجغرافية أو الأرض

يتبدى في هذا المجال أثر العامل السياسي ـ الايديولوجي بصورة واضحة أيما وضوح.

لقد كتب الحصري بحثاً ممتازاً بعنوان «الأرض والإنسان»[٣٣] تناول فيه

---

(٣٠) الحصري، **أبحاث مختارة في القومية العربية**، ص ١١١.

(٣١) ساطع الحصري، «لا داعي لليأس،» في: المصدر نفسه، ص ٣٩٨.

(٣٢) الحصري، **ما هي القومية؟ أبحاث ودراسات على ضوء الأحداث والنظريات**، ص ٢٠٩.

(٣٣) ساطع الحصري، «الأرض والإنسان،» في: ساطع الحصري، **حول القومية العربية**، سلسلة التراث القومي. الأعمال القومية لساطع الحصري؛ ١٤ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥)، ص ٢٣٧ ـ ٢٥٤ (نشر لأول مرة عام ١٩٦١).

مستجدات علم الجغرافيا، وبخاصة من أجل تفنيد نظرية «الحتمية الجغرافية»، وعرض للجيوبوليتيكا وروادها، وانتهى إلى نتائج بالغة الأهمية، ومنها ان البيئة الطبيعية تحدد الإمكانيات، ولكنها لا تحتم الأحداث، وقد انتهى معظم العلماء من ذلك إلى نوع من «الإمكانية» (Possibilisme)، وأن الطبيعة أصبحت متأثرة بنشاط الإنسان أكثر منها مؤثرة فيه، وأننا هنا أمام «تفاعل» يقوم بين الإنسان والطبيعة، وينتهي إلى تسخير قوى الطبيعة لخدمة حاجات الإنسان وإرادته. ويختم قائلاً: «. . . لذلك عندما نريد أن نبين «علاقة الإنسان بالبيئة الطبيعية»، يجدر بنا أن نتكلم عن «التفاعل بين الإنسان وبين البيئة الطبيعية» عوضاً عن الكلام عن «تأثير البيئة الطبيعية على الإنسان». . .»[٣٤].

وكانت للحصري لمحات نافذة جداً حول حقيقة أثر الجغرافيا في المجتمع البشري من خلال المحاورة مع جمال حمدان[٣٥].

ولكن ساطع الحصري قد انتهى ـ من جهة أخرى ـ إلى أن البيئة الطبيعية أو الأرض ليست من عوامل القومية. لماذا؟ لأنه اشتبك سياسياً مع جماعة «الحزب القومي السوري» بزعامة أنطون سعادة، والداعية إلى إقامة سوريا الكبرى ـ أو الطبيعية ـ على أساس من تجانس البيئة الجغرافية أو الأرض (أو «القطر»): «ولذلك كله، نستطيع أن نؤكد أن القول بأن الأمة تجد أساسها قبل كل شيء في وحدة أرضية معينة، لا ينطبق على حقائق الأمور بوجه من الوجوه. . .»[٣٦] و«. . . لو لم تكن اللغة لما تميزت الجماعات البشرية من قطعان الماشية»[٣٧].

وقد استغرقت معركة الحصري مع «الحزب القومي السوري» قرابة ٥٠ صفحة من كتاب **العروبة بين دعاتها ومعارضيها**[٣٨].

كلمة ختامية في النظرية الحصرية

بعد إثبات «وحدة اللغة والتاريخ» ونفي صحة عوامل الاقتصاد والدين والجغرافيا، ينتهي أبو خلدون في الصفحة الأخيرة من كتابه **ما هي القومية؟** إلى

---

(٣٤) المصدر نفسه، ص ٢٥٤.

(٣٥) ساطع الحصري، **العروبة بين دعاتها ومعارضيها**، سلسلة التراث القومي. الأعمال القومية لساطع الحصري؛ ٤ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٤)، ص ٧٢ ـ ٧٣ (نشر لأول مرة عام ١٩٥١).

(٣٦) المصدر نفسه، ص ١٥٧ ـ ٢٠٢.

(٣٧) المصدر نفسه، ص ٧٢ ـ ٧٣.

(٣٨) المصدر نفسه، ص ٥٧ ـ ١٠٨.

تلخيص نظريته على النحو التالي:

«إن أس الأساس في تكوين الأمة وبناء القومية هو: وحدة اللغة ووحدة التاريخ.

لأن الوحدة في هذين الميدانين هي التي تؤدي إلى وحدة المشاعر والمنازع، ووحدة الآلام والآمال، ووحدة الثقافة... وبكل ذلك، تجعل الناس يشعرون بأنهم أبناء أمة واحدة، متميزة عن الأمم الأخرى.

ولكن لا الدين ولا الدولة ولا الحياة الاقتصادية تدخل بين مقومات الأمة الأساسية.

كما أن «الرقعة الجغرافية» أيضاً لا يمكن أن تعتبر من المقومات الأساسية، لأن التاريخ يعطينا أمثلة كثيرة وبليغة على:

أولاً: ان الرقعة الجغرافية التي تقطنها الأمة تتوسع وتتقلص بتوالي السنين.

ثانياً: ان الأمة الواحدة قد تنتقل من رقعة جغرافية إلى رقعة جغرافية أخرى.

ثالثاً: ان الرقعة الجغرافية الواحدة قد تضم جماعات من أمم مختلفة.

وإذا أردنا أن نعين عمل كل من اللغة والتاريخ في تكوين الأمة قلنا: اللغة، تكون روح الأمة وحياتها. والتاريخ، يكون ذاكرة الأمة وشعورها»[٣٩].

وبعد الدفاع عن النظرية، إثباتاً ونفياً، هل انتهى حديث البرهنة على صحتها؟ كلا. وإن هناك لطريقة ثالثة نعرض لها فيما يلي.

٣ ـ الطريقة الثالثة: مواجهة الأغيار

بالتوازي مع الطريقتين الأولى والثانية، أخذ ساطع الحصري يستكمل براهينه، كصاحب مشروع سياسي ـ عقائدي، من خلال مواجهة أنصار الاتجاهات السياسية ـ العقائدية الأخرى، المختلفة عن الاتجاه القومي الوحدوي العربي أو المتعارضة معه.

وهذه الاتجاهات هي:

ـ الاتجاه الشرق أوسطي (...!).

---

(٣٩) الحصري، **ما هي القومية؟ أبحاث ودراسات على ضوء الأحداث والنظريات**، ص ٢١٠.

ـ الاتجاه البحر ـ متوسطي (. . . !).

ـ الرابطة الافريقية.

ـ النزعة (الانعزالية) في كل من مصر ولبنان.

وقد يعجب البعض من تناول ساطع الحصري لهذه الاتجاهات التي تبدو لنا الآن وكأنها وليدة اليوم فقط أو الأمس القريب، ولكن الحقيقة أنها قد تجسدت بقوة، على الصعيد السياسي ـ العقائدي، في البلدان العربية، وبخاصة في أعقاب الحرب العالمية الثانية في إطار التفاعلات المعقدة بين استراتيجيات القوى الدولية الكبرى (القديمة والجديدة) وتطلعات أبناء المجتمع العربي:

أ ـ فقد واجه ساطع الحصري الدعوة إلى **فكرة «الشرق الأوسط» في مواجهة مفهوم العروبة**. وقد كتب في عام ١٩٥٦ مقالين بعنوان «الشرق والشرقيون» و«الشرق الأدنى والشرق الأوسط»[٤٠].

ويتكلم ساطع الحصري كأنه يحدثنا اليوم فقط، وهو يؤكد:

«. . . إن فكرة الشرق الأوسط، عندما تستولي على الأذهان، تلفت الأنظار عن الالتفات إلى العالم العربي، وتعرقل بذلك تبلور مفهوم «العروبة» تبلوراً سليماً، وتحول دون تكوين فكرة العالم العربي تكويناً سوياً»[٤١].

ويحسم الموقف السياسي ـ الايديولوجي القومي من «الشرق الأوسط» تأملاً: «إننا لا نعترف بوجود الشرق الأوسط، إنما نقول بوجود العالم العربي، وندرس هذا العالم. وأما ما يسمونه «استراتيجية الشرق الأوسط»، فما هو ـ في نظرنا ـ إلا استراتيجية الدول الغربية في البلاد التي يطلقون عليها اسم الشرق الأوسط»[٤٢].

ب ـ أما عن **النزعة المتوسطية**، فقد واجهها ساطع الحصري، وألقى محاضرة في النادي الثقافي العربي في بيروت (لم يذكر التاريخ) عنوانها: «الثقافة العربية وما يسمى ثقافة البحر المتوسط»[٤٣].

---

(٤٠) ساطع الحصري، **دفاع عن العروبة**، سلسلة التراث القومي. الأعمال القومية لساطع الحصري؛ ١٠ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥)، ص ٧٧ ـ ٩١ (نشر لأول مرة عام ١٩٥٦).

(٤١) المصدر نفسه، ص ٨٧.

(٤٢) المصدر نفسه، ص ٩١.

(٤٣) الحصري، **أبحاث مختارة في القومية العربية**، ص ١٤٥ ـ ١٥٦.

وفي هذه المحاضرة المهمة يحدد الحصري مفهوم الحضارة ويفرق بينه وبين مفهوم الثقافة: «إن مفهوم الحضارة يتصل بمفهوم الثقافة اتصالاً وثيقاً، غير أنه يكون بطبيعته، أوسع نطاقاً وأكثر منه شمولاً، لأن الثقافة تنحصر بالأمور الذهنية والمعنوية وحدها، في حين أن الحضارة تشمل الأمور المادية والوسائل المادية أيضاً»، ولذلك «فالثقافة تكون في حد ذاتها قومية، والحضارة تكون بطبيعتها أممية. . .».

«ونستطيع أن نرجع إلى المسألة الأصلية فنسأل أولاً: هل توجد ثقافة يجوز تسميتها باسم «ثقافة البحر الأبيض المتوسط؟» والجواب عن هذا السؤال بكل تأكيد: لا. . .!».

وينتهي الحصري إلى تأكيد مفهومه النظري للقومية في ضوء مجابهة الدعوة المتوسطية: «إن اللغة بمثابة التراب الذي يحتضن البذور والجذور ويغذي الأزهار والأشجار. ولما كانت لغة هذه البلاد عربية، فإن ثقافتها أيضاً تكون عربية، وستشترك هذه البلاد في أمور الثقافة مع سائر البلاد العربية لا مع أقطار البحر المتوسط».

ج ـ **الرابطة الأفريقية**(٤٤): ويؤصل أبو خلدون موقفه من هذه الرابطة قائلاً: «إن الانتساب إلى قارة من القارات لم يكوّن «رابطة ـ سياسية»، في دور من أدوار التاريخ. . .»، «وإن علاقة مصر بالقارة الآسيوية، وببعض الشعوب القاطنة في القارة المذكورة أقوى وأعظم بمئات الدرجات من علاقتها بالقارة الافريقية والشعوب الافريقية، فلا يجوز لمصر أن تجعل فكرة الرابطة الافريقية محوراً لسياستها بوجه من الوجوه».

وبدهي ان إعطاء الأولوية للعروبة الثقافية والسياسية ـ القائمة على اللغة ـ قد جعل الحصري يتجاهل الرابطة الافريقية تجاهلاً شبه تام، متناسياً أن الأمة العربية، يتكون معظم أهلها من أبناء أفريقيا، وأن جل مساحة الوطن العربي يقع في أفريقيا، وأن لافريقيا وجهاً عربياً إسلامياً بارزاً، ومن ثم فهي محور طبيعي للسياسة العربية.

د ـ **النزعة الانعزالية في مصر ولبنان**: ويتمثل ذلك في ردود الحصري على جريدة **العمل** (لسان حال حزب الكتائب اللبنانية)(٤٥)، وفي ردوده على كثير من المفكرين والكتّاب والساسة المصريين طوال أربعين عاماً تقريباً (١٩٢٨ ـ ١٩٦٨)

---

(٤٤) ساطع الحصري، **العروبة أولاً!**، سلسلة التراث القومي. الأعمال القومية لساطع الحصري؛ ٩ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥)، ص ٦٨ ـ ٧١ (نشر لأول مرة عام ١٩٥٥).

(٤٥) الحصري، **العروبة بين دعاتها ومعارضيها**، ص ٢٩ ـ ٣٠.

للتأكيد على عروبة مصر، التي هي مستمدة، من وحدة اللغة (ومن ثم الثقافة في رأي الحصري) بين مصر وسائر شقيقاتها العربيات[٤٦].

وبذلك تكتمل حلقات البرهنة الحصرية على نظرية «وحدة اللغة والتاريخ» في القومية والقومية العربية، فما هو موقف هذه البرهنة في مسار التفكير السياسي العربي؟

ختام موجز: نظرية الحصري. . . في سياق التفكير السياسي العربي

أبو خلدون ساطع الحصري مفكر عقائدي فذ، وعلم من الأعلام الكبار للمشروع الايديولوجي للقومية العربية.

ولكنه إذ حصر تركيزه النظري لمفهوم الأمة والقومية حول اللغة، وتجاهل كلاً من الاقتصاد والجغرافيا والدين (بما في ذلك الإطار الحضاري الإسلامي) يثير التساؤل: لماذا؟

والإجابة المقترحة التي نقدمها أن الحصري يمثل مدرسة محددة في التفكير السياسي العربي، هي المدرسة التي نهلت من منابع الحضارة الأوروبية الرأسمالية، بإيجابياتها وسلبياتها.

فقد قامت هذه الحضارة (ولنستبعد مؤقتاً دعامات التسلط الطبقي والاستعمار والنزعة العنصرية) على جملة مقومات رئيسية هي:

أ ـ مبدأ القوميات والدولة القومية (Nation-State).

ب ـ العلمانية (بمعنى الفصل بين الدين والدولة).

ج ـ العقلانية (استبعاد صور التفكير الخرافي والاعتماد على المنهاجية العلمية في البحث، سواء المنهاجية الاستنباطية الرياضية أو الاستقرائية ـ الطبيعية).

د ـ الفردانية (Individualism) كمدخل ومحتوى لليبرالية، والقائمة على أولوية الفرد على الجماعة (مقابل المذاهب الاشتراكية التي تعطي الأولوية لمدخل «الجماعة»).

ولقد تشرب أبو خلدون قيم الحضارة الأوروبية الرأسمالية، ولكنه في الوقت نفسه ابن وفيّ لأمته العربية، عاش الفترة العثمانية عاملاً بفكرتها، وعركته

(٤٦) انظر مثلاً: الحصري، العروبة أولاً، ص ٥٨ ـ ٩٧.

الأحداث، فعاد إلى وطنه، مكتشفاً «عروبته»، ومركزاً على كشفها أمام الآخرين.

وقد «عاد» الحصري إلى الوطن في معمعان المعركة العربية المشرقية في مواجهة الاستعمار الفرنسي والبريطاني.

وكان انخراطه في حركة المقاومة الثورية، في سوريا ثم العراق، محدداً لموقعه من الحركة القومية كلها. وتأكد هذا الموقع تدريجياً، بحيث صار معبراً عن تكامل وأصالة فكرية على مستوى رفيع[٤٧].

وكان انتماء الحصري لحركة التحرر العربي القومي في مواجهة الاستعمار الأوروبي، شاهداً على موقعه السياسي المتجذر، كمثقف ملتزم.

بيد أنه مثقف ملتزم، في حدود قيمه الثقافية المشتقة من الإطار الحضاري الأوروبي، وبخاصة العلمانية والفردانية، وانطلاقاً من موقعه الاجتماعي وإن شئت فقل «الطبقي» كابن من أبناء الصفوة الثقافية العربية للطبقة المتوسطة (الانتلجنسيا ـ أو الشريحة الفكرية من «البرجوازية الصغيرة» ـ كما كان يقال!)، وانطلاقاً أيضاً من خبراته ومدركاته المتولدة من الفترة العثمانية، والفترة الفيصلية، حيث النفور من الرابطة العثمانية المغلفة في لحظة ما بالإسلامية، وحيث المقاومة لعلاقة السيطرة الأوروبية ـ الاستعمارية.

ان موقعه الاجتماعي، وقيمه الفكرية، ومدركاته الشعورية، هي التي حددت موقعه وموقفه النظري بصورة محددة. فإذا به عامل على القومية، من منطلق مثالي ـ لغوي، وإذا به مستنكف عن الاقتصاد والجغرافيا والدين كعوامل للقومية، وإذا به في الوقت نفسه مناضل عنيد ضد النزعات المتعارضة مع العروبة، من مصادر دولية أو من مصادر إقليمية ومحلية.

وقد جرت مياه كثيرة في الأنهار، وتطور التفكير السياسي العربي، ولكن الحصري يظل علماً شامخاً في مسيرة هذا التطور، باعتباره أباً مؤسساً للقومية العربية كمذهب سياسي، ويظل مصدر إلهام لا ينفد للقوميين أبداً، في الآفاق المتفتحة على المستقبل العربي المنشود.

---

(٤٧) ساطع الحصري، «البلاد العربية أمام الاستعمار الأوروبي،» في: الحصري، **حول القومية العربية**، ص ٢١٥ ـ ٢٣٦.

رابعاً: نحو إطار نظري مقترح للأمة والقومية والقومية العربية

١ ـ مفهوم الأمة

الأمة هي جماعة من الناس تكونت تاريخياً على أرض محددة، ذات نمط حضاري متميز، ممتد وعميق (في المجالين المادي والمعنوي).

وهذا التعريف يتكون من شقين أساسيين:

أ ـ الشق الأول

هو الخاص بـ «جماعة من الناس تكونت تاريخياً على أرض محددة». وهذا الشق بالمعنى اللغوي غير قابل للتجزئة، ونختلف مع من يقولون بتجزئة الجملة فيعرفونها بأنها هي «جماعة من الناس» ويعرفونها كمن يعرف الماء بالماء فيقولون: «جماعة بشرية معينة». . فإن هذا لا يضيف شيئاً.

ولكن قد يمكن تقبل الرأي القائل بأن الجماعة البشرية يقصد بها: جماعة السكان من حجم أدنى معين[٤٨].

ولكن من المرفوض تماماً أن يتم فصل عبارة «جماعة من الناس» لكي يتم تمرير الفكرة القائلة بأن الأصل المشترك هو من مكونات الأمة، حيث تكون هذه الجماعة البشرية ذات أصول اثنية أو عرقية مشتركة.

وهذا غير صحيح، فليست هناك أمة من أصل عرقي واحد، على رغم ادعاء كثير من القوميين بعكس ذلك.

ونحن نختلف مع تجزئة الجملة، ونرى أنها ذات معنى موحد ينصرف إلى دلالة مركبة هي «الاستمرار والاستقرار» أو «الاستمرار ـ الاستقرار».

فالجماعة البشرية المقصودة في تعريف الأمة هي تلك الجماعة التي تكونت على مدى زمني معين يسمح بإطلاق صيغة الاستمرارية (Continuity) عليها، ثم انها الجماعة التي حققت هذه الاستمرارية نفسها عن طريق الاستقرار على أرض مشتركة (Stability).

---

(٤٨) هوراس دافيز، **القومية: نحو نظرية علمية معاصرة**، ترجمة سمير كرم (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨٠)، ص ١٨.

ان الاستقرار يميز الأمة من التجمعات القبلية، والتجمعات العارضة والعرضية الأخرى، بمثل ما أن الاستمرار التاريخي الطويل نسبياً، يميز الأمة من الجماعات قبل القومية، حتى إذا كانت جماعات قروية، وفلاحية، مستقرة على الأرض الزراعية، أو جماعات مدنية أو حضرية مستقرة في حواضرها ومدنها التجارية ـ الحرفية، كما كان الحال في مدن الإغريق.

إن الاستمرارية التاريخية مهمة جداً، لأنها تعني الثبات والديمومة، فإذا انقطعت الاستمرارية ـ أو تقطعت ـ بشكل جوهري، وليس بشكل عرضي أو مؤقت تماماً، فإن هذا يؤدي إلى قطع مسيرة تكوين الجماعة البشرية كأمة.

فمثلاً إن استقرار الجماعات القروية الفلاحية على الأرض الزراعية في مصر قد حقق إنجازات مادية وثقافية كبيرة، ولكن قطعت استمراريته تماماً، وبخاصة بفعل التدخل الخارجي من البدو سواء من الشرق (الحثيين والهكسوس) أو الغرب (الليبيين أو سكان شمال افريقيا الأقدمين)، ثم أخيراً من قبل الفرس، ثم الإسكندر الأكبر فخلفاؤه البطالمة.

والخلاصة أن العنصر الأول في تكوين الأمة هو «جماعة بشرية مستمرة ومستقرة»، أو بتعبير آخر «جماعة من الناس تكونت تاريخياً على أرض محددة».

ب ـ الشق الثاني

انها ذات نمط حضاري متميز، ممتد وعميق (في المجالين المادي والمعنوي)، ونقصد بذلك:

(١) انها ـ الأمة ـ ذات نمط حضاري، فالأمة كأفراد وجماعات ينبغي أن تكون حياتها مصبوغة بصبغة معينة، أي تكون لها خصائص مشتركة حضارية.

إن أفراد الأمة، كأشخاص طبيعيين، والجماعات الاجتماعية الفرعية داخل المجتمع القومي (من قبائل وقرى واتحادات قروية، وطبقات اجتماعية، وشرائح ثقافية وسياسية... الخ) ينبغي أن تكون مشمولة بهذا النمط الحضاري.

(٢) إن النمط الحضاري ينبغي أن يكون متميزاً (Distinguished)، بمعنى أن يكون هناك طابع قومي خاص، هو طابع حضارة الأمة، مدنيتها المادية وثقافتها، بما يؤهلها لتميز شخصيتها القومية والحضارية.

(٣) الطابع الحضاري (المستمد من تميز النمط الحضاري) يجب أن يكون طابعاً مشتركاً بالفعل، أي آخذاً هيئة خصائص مشتركة بمعنى: ممتدة (Extended)

أفقياً على رقعة المجتمع كله، بأقطاره الأربعة (شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً)، ثم انها خصائص عميقة رأسياً، بمعنى أنها «متغلغلة» في الحياة الاجتماعية ـ النفسية، أي في السيكولوجيا الاجتماعية، منعكساً على هيئة سجايا نفسية مشتركة منبعثة مما يسمى العادات والتقاليد والقيم المشتركة أو الأعراف القومية أو الثقافة الشعبية والعامة القومية.

وهذا ما يقصده البعض بالتضايف أو التكامل القومي[٤٩].

(٤) إن النمط الحضاري يشمل مجالين:

(أ) **المجال المادي**، أي الحياة الاقتصادية عموماً من إنتاج وتبادل، فينبغي أن يكون هناك حد أدنى من التكامل أو الاعتماد المتبادل (Inter-dependence) الاقتصادي، سواء في صورة أولية مناسبة لعصور سبقت (كالاعتماد المتبادل التجاري في ظل الحضارة العربية الإسلامية) أو في صورة ناضجة عصرية (كالاعتماد المتبادل الإنتاجي والتبادلي في الحضارة الرأسمالية المعاصرة).

إن تفكك الحياة المادية ـ دون الحد الأدنى المناسب والمتعين ـ وفق الظروف التاريخية السائدة، أي المطبوعة بالطابع النسبي، لا يسمح بالتشكيل المشترك للأمة. وكما يقول هوراس ديفيز مثلاً: «لقد كان المجتمع الإقطاعي في أوروبا أساساً ضعيفاً لبناء أمة لأنه كان مجرداً من المركزية تماماً»، وشرط التكامل المادي هو حد أدنى من التكامل السياسي والإداري، أي لا بد من أن يكون هناك نوع من التفاعل السياسي والإداري الذي يتم من خلال تنظيمات أو تنظيم معين مناسب للظرف التاريخي.

ففي العصور القديمة والوسطى لم توجد بالطبع الدولة القومية بالمفهوم الغربي الحديث، وكانت الدولة إما دولة إمبراطورية، أو دولة مدنية صغيرة، وهما النمطان الشائعان للدولة القديمة والوسيطة.

(ب) **المجال غير المادي (المعنوي) (Non-Material)**: إن مجرد لغة مشتركة لا يكوّن أمة، فما أكثر ما وجدت جماعات ذات لغات مشتركة ولكنها لم تكوّن أمة، بل ما أكثر ما وجدت جماعات ذات لغات مشتركة وعاشت أحداثاً تاريخية مشتركة لفترات تطول أو تقصر، ولكنها لم تشكل أمة، وذلك لأن اللغة لم تندرج في سياق حضارة، أي لم تنجب ثقافة مشتركة، ذات حد أدنى من الانتشار والعمق وفق ظروف العصر.

---

(٤٩) المصدر نفسه، ص ١٨.

وإذن فإن مجرد وجود لغة مشتركة، لا يعد مكوناً من مكونات الأمة. ومن الأدلة الأخرى على ذلك أن هناك أمماً مختلفة، وتكوّن مجتمعات قومية متباينة، ولكنها ذات لغة مشتركة، لأنه من اللغة، بالتعامل مع الظروف الاجتماعية الخاصة لكل مجتمع، انبثقت ثقافات قومية مختلفة أو متباينة[٥٠].

وهناك مجتمعات ذات لغات مختلفة، ولكن على رغم ذلك حققت ثقافة مشتركة[٥١]. فقد تعلم كل فرد من جماعة معينة لغات الجماعات الأخرى، وتفاهم معها، وأصبح قادراً على المشاركة في صياغة ثقافية قومية موحدة.

إن اللغة لا تعمل وحدها، إذن، ولكن تعمل في الإطار الاجتماعي المركب.

وما يقال عن اللغة يقال عن التاريخ ـ فما التاريخ؟

هل التاريخ هو مجرد الزمان (Time)؟ إذا كان الأمر كذلك، فلننص عليه باعتباره ـ لفظاً ـ الزمان، أي مجرد تتابع الوقت.

ولكن هذا متضمن، مبثوث ضمنياً، في الجملة الأولى من تعريف الأمة: «جماعة مستمرة زمنياً ـ ومستقرة أيضاً».

إن القول بأن التاريخ ـ هكذا على اطلاقه ـ هو من مكونات الأمة، كالقول بأن الأمة تتكون عبر الزمان، ولكن هذا مجرد عنصر فرعي من عنصر فرعي في الأمة وهو عنصر «الاستقرار ـ الاستمرار». ولا معنى للتاريخ بهذا المدلول في حد ذاته، فهو لا بد من أن يرتبط بالعنصر الآخر في تعريف الأمة «النمط الحضاري المتميز والممتد والعميق». وفي هذه الحالة يحسن أن نتخلى عن مصطلح التاريخ ونسمي الأشياء بمسمياتها الحقيقية فنقول «الحضارة»، أو ما يمكن مع «التساهل» ـ إذا صح هذا التعبير ـ أن نقول «التاريخ الحضاري». وفي الحالتين: إذا قصد بالتاريخ مجرد عامل الزمن، أو إذا قصد به التشكيل الحضاري، فإن التاريخ بالمعنى المجرد الذي تحدث عنه ساطع الحصري وأسلافه من المفكرين الألمان، لا يُعد له «محل لازم» في التعريف العلمي للأمة.

إن مجرد التتابع الزمني لا يكوّن أمة، وكم من مجتمعات وجماعات استمرت قائمة و«حية ترزق» لفترات متطاولة من الزمان، ولكنها لم تتحول إلى أمم، لأنها

---

(٥٠) انظر مثلاً إلى الولايات المتحدة الأمريكية، بريطانيا، ومعظم كندا.

(٥١) انظر مثلاً إلى هولندا أو بلجيكا وسويسرا.

لم تضع حضارة مشتركة قومية وعميقة، أي لم تنشئ خصائص حضارية ممتدة متغلغلة اجتماعياً، بمعنى أنها لم تولد ـ باختصار ـ حضارة قومية. فبقيت مجرد جماعات إثنية (Ethnical Groups) إلى هذا الحد أو ذاك أو أقوام (Peoples)، فعنصر التاريخ مجرداً في حد ذاته لا يغني عنها شيئاً.

وسبق أن رأينا الرأي نفسه بخصوص اللغة: فاللغة لا تغني عن هذه المجتمعات شيئاً إذا بقيت مجرد لغات (وإن لغات مشتركة بل ومستمرة زمنياً) ما دامت لم تنجب ثقافة قومية، أي ثقافة تشكل الشق المعنوي من الحضارة الممتدة العميقة، لتكوّن بدورها ثقافة ممتدة ومتغلغلة، أي ثقافة تنشئ خصائص ثقافية ـ اجتماعية مشتركة، ومن ثم سجايا نفسية اجتماعية مشتركة.

إذن اللغة والتاريخ ليسا أبرز مكونات الأمة، كما قال ساطع الحصري، و«ليست من ثم أبرز مكونات القومية كظاهرة اجتماعية».

ولكن الأمر يختلف على صعيد القومية كشعور وفكرة وحركة، أي القومية كأيديولوجيا، فالقومية بهذه المثابة، وبخاصة حين تكمل بناء الأمة، أو حتى تخلقها خلقاً جديداً، تتوسل ببعث لغة محلية تحولها إلى لغة قومية تصير لساناً لجميع أعضاء المجتمع القومي، وأحياناً ـ إذا كانت اللغة قائمة وفاعلة نسبياً ـ تكتفي الحركة القومية بنشرها وتعميمها.

إن عملية تعميم اللغة المشتركة هي من أهم مقومات القومية الايديولوجية.

وقل مثل ذلك عن التاريخ، وهو ما يمكن أن نطلق عليه «التاريخ الذاتي» أو «التأريخ»، فهو من أهم مقومات القومية (كايديولوجيا) أيضاً. فالقومية تعنى أول ما تعنى ـ إلى جانب بعث وتعميم اللغة ـ بإعادة كتابة تاريخها، وهي من ثم تضع ذاكرة تاريخية جديدة، و«بأثر رجعي» في كثير من الحالات، أي تضع ماضياً إن لم يكن لها ماض قومي.

وإذن فاللغة والتاريخ من أهم مقومات القومية الايديولوجية، غير أنهما ليسا من بين مقومات الأمة والقومية الاجتماعية، أو قل: ليسا هما بحد ذاتهما من مقوماتها، وإنما يؤخذان في إطار مفهوم «النمط الحضاري».

ولكن ساطع الحصري لم يقدّر له أن يفرق هذه التفرقة الدقيقة بين عوامل الأمة، وعوامل القومية.

ج ـ أمة اللغة والتاريخ

ومع ذلك فإن أبا خلدون كان «معه الحق». فهناك من الشواهد الخاصة

بالأمة العربية ما يدل على الأهمية المركزية لكل من اللغة والتاريخ في تكوين الأمة العربية بالذات، ودون غيرها من أمم الأرض التي خلقها الله!

(١) **فاللغة العربية**: هي أقدم اللغات الحية في العالم (ربما باستثناء اللغة الصينية والتي شهدت تغيراً كبيراً نسبياً وأكبر مما شهدته اللغة العربية).

فقد اندثرت، أو قاربت على الاندثار، لغات شعوب كثيرة من بني الأرض كاللغة السنسكريتية، واللغة اللاتينية. وشيء قريب من ذلك حدث للغة الإغريقية القديمة.

أما العربية فلها شأن آخر تماماً. ويعود ذلك إلى أنها لغة القرآن، بهذا اكتسبت طابعاً مقدساً حفظها من الزوال، وعصمها من التبدل، وإن أدى في الوقت نفسه إلى ظاهرة سلبية هي الجمود وعدم القدرة على مجاراة التغيرات المادية والاجتماعية والثقافية عربياً وعالمياً، ومن هنا تجيء الدعوة الملحة إلى تجديد اللغة العربية، تجديد بناها الصوتية والصرفية والنحوية جميعاً، لتلائم حاجات العصر.

(٢) **أما التاريخ**، وما أدراك ما التاريخ في الحالة العربية؟ فإن أمة العرب هي أمة التاريخ بقدر ما هي أمة اللغة.

فالأمة العربية تكونت في «الماضي»! ثم حدثت لها الظاهرة التي نسميها بـ «الانقطاع الحضاري الطويل»، فأصبح تكوينها إذن ظاهرة راجعة إلى التاريخ البعيد، وليست ظاهرة عصرية كالأمم الأوروبية شرقاً وغرباً، والتي لعبت فيها العوامل الأخرى دوراً بارزاً، وبخاصة الاقتصاد المشترك، والكيان السياسي المشترك، والتضامن الثقافي والحضاري المشترك.

وإذن بمعنى ما، يمكن القول إن كلاً من اللغة والتاريخ لهما، في الحالة العربية تحديداً، معنى خاص يتجاوز ما هو متعلق بالأمم الأخرى.

فللغة العربية ـ كلغة دينية ـ دور، وأي دور في تشكيل الثقافة العربية المشتركة، فإذا بها ثقافة الإسلام (ونقول الإسلام لندل على محتواه الاجتماعي الحضاري، ولا نقول مجرد الدين الإسلامي أو الديانة).

وللتاريخ العربي، بأحداثه المشتركة وشواهده العريقة والعميقة، أثر لا يمحى في الذاكرة العربية، فهو لا ينسى، وهو لم ينس، لأنه جزء من تاريخ الإسلام. . الدين والحضارة. فالدفاع عن الوطن والأمة كان دفاعاً ـ في الوعي العربي ـ عن العقيدة.

لذلك لم ينس العرب «تاريخهم»، كما نسيت شعوب ومجتمعات كثيرة تاريخها، وظل هذا التاريخ ـ أو هذا «الماضي» إن شئت ـ مكوناً مهماً من مكونات الثقافة العربية الإسلامية ذاتها، كشق من الحضارة العربية الإسلامية، أي من مكونات الأمة العربية، التي تشكلت عبر بناء نمطها الحضاري المتميز والممتد والعميق، وهو نمط الحضارة العربية الإسلامية، أو نمط الحضارة الإسلامية العربية، إن شئت.

فلذلك إذن يمكن أن نطلق على الأمة العربية ـ تجاوزاً ـ «أمة اللغة والتاريخ»، ولكن هذا لا يعد بمثابة طلاق مع المفهوم النظري العام للأمة كما حاولنا صياغته فيما سبق، وإنما هو تجديد نوعي له.

وتجدر الإشارة إلى أن الدور المركزي للغة والتاريخ في تكوين الأمة العربية بوجه خاص ـ ضمن السياق العام لتكوين الأمم وفق الإطار المفهومي النظري السابق ـ إن هذا الدور بالذات، هو ما يحملنا على ضرورة النظر في عملية «تعزيز بناء الأمة»، ذلك أن هذه الأمة ـ نظراً لتمحورها حول التاريخ و«اللغة التاريخية»، أي حول الماضي ولغة الماضي إن شئت ـ تعتبر في الظرف المعاصر، ظرف نشوء وتبلور الايديولوجيا والحركة القومية، ليست على «مستوى» المفهوم الحضاري.

فهي إذن أمة «ضعيفة البنيان». ولتعزيز بنيان الأمة يجب الانطلاق لاستئناف تطورها الحضاري بعد طول انقطاع، أي:

(أ) بناء اقتصادها المشترك.

(ب) بناء كيانها السياسي المشترك.

(ج) بناء ثقافتها الجديدة المشتركة.

أي باختصار: بناء حضارتها المشتركة، التي تنطلق من الماضي (التاريخ ولغته) إلى المستقبل (العلم والثورة)، أي تنطلق من التراث إلى المعاصرة بالمصطلحات «الشعبية» الشائعة هذه الأيام.

فالمطلوب إذن تحويل الأمة العربية من «أمة تاريخية»، أي «قديمة» إذا صح التعبير، إلى أمة معاصرة.

٢ ـ انتشار مصطلح القومية العربية

إن القومية العربية، كمصطلح متعارف عليه لدى القوميين، لم يتم تداوله على نطاق واسع إلا في أواسط الأربعينيات، إذ لم يتم استخدام مصطلح «قومية»

أو «قومية عربية» بصورة متواترة في بداية القرن (في فترة الاندفاعة القومية الهائلة حتى عام ١٩٢٠)، واحتاج الأمر إلى فترة زمنية انتهت في أواسط الأربعينيات حينما بدأ استخدام المصطلح بشكل متواتر.

ولقد كان الأغلب في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين هو استخدام ألفاظ مثل «العرب» و«أمة العرب»، وأحياناً «جامعة العرب»، أو «عصبة العرب». ويلاحظ أن الكتّاب استخدموا عدة ألفاظ للدلالة على المعنى الأول للقومية كظاهرة اجتماعية، من دون أن يذكروها غالباً بالاسم. ومن هذه الألفاظ: «الجامعة» ـ «الجنسية» ـ «العنصرية»... الخ. وقد استخدمها البعض كمذهب سياسي، وهو ما سنعرض له تفصيلياً فيما بعد.

كذلك يلاحظ أن الكتّاب العرب استخدموا الكلمات الدالة على اسم المعنى الذي يعبّر عنه في اللغة الانكليزية بلفظة «Nationality» بالاشتقاق من «Nation»، أي الأمة. ويقصد بتلك اللفظة الإشارة المبسطة إلى ظاهرة اجتماعية محددة معبرة عن كيان الأمة، ولكنهم كانوا حيارى إزاء هذه الظاهرة، ومصدر هذه الحيرة هو واقعهم بالذات السياسي والفكري، حيث لم يكن هناك شعور قومي متميز، شعور بقومية خاصة، أي أن القومية لم تكن لصيقة بمفهوم الأمة، أمة العرب، أو العرب بالذات.

لذلك، فقد استخدموا «الأمة»، «أمة العرب»، ولم يوجدوا لفظاً مشتقاً من الأمة ليدل عليها كظاهرة لصيقة بها، والتي سماها الانكليز «Nationality»، والفرنسيون «Nationalité»، فأولئك اشتقوا الكلمة من الاسم «Nation»، أي الأمة نفسها.

أما العرب فكان شعورهم الاجتماعي مشوشاً. فالرابطة الاجتماعية الغالبة التي كانت تسيطر على أذهانهم هي: «الرابطة العثمانية»، و«الرابطة الإسلامية». وغالباً أدمجت مع ما يمكن أن تدمج في صيغة ثالثة مركزية هي: «الرابطة العثمانية ـ الإسلامية».

أما سند هذه الرابطة فهو أمران:

أ ـ ان الدولة العثمانية هي المعبّر عن الشريعة، الشريعة الإسلامية، وأبرز مكونات الشريعة هي الخلافة. وساد هذا السند بين المسلمين من العرب.

ولذلك نجد أن بعضهم يطلق لفظ «الأمة» على التكوين العثماني نفسه كإمبراطورية، فإذا بها أمة.

ب ـ أما عند بعض المسيحيين وبعض المسلمين كذلك، فإن سند الرابطة العثمانية ـ الإسلامية هو مواجهة مؤامرات الغربيين الطامعين في الدولة، وبخاصة مع مقدم اليهود والصهاينة، في فلسطين.

وبينما نجد أن الغرب نظر إلى القومية من زاوية مفهوم الدولة ـ الأمة، أي الدولة القومية (Nation-State)، حيث يتوحد الكيان الاجتماعي (الأمة) في الكيان السياسي (الدولة) بحيث تكون علاقة الانتماء إلى الأمة هي علاقة الانتماء إلى الدولة، أي تتوحد الجنسية والقومية، فإننا نجد أن العرب في حمى الأخذ عن الفكر الغربي عبّروا عن الظاهرة الاجتماعية القومية لدى بعض الكتّاب بلفظ «الجنسية»، وهو ما يدل على اختلاط الأمة والدولة (والجنسية التي ترتد إلى كلمة جنس أو عنصر تعني عندهم انتماء جماعة ذات أصل معين إلى كيان سياسي معين ولو كمشروع)، فلم يتبلور لديهم إدراك بالمقومات المتميزة الأخرى لهذه الجماعة عدا الجنس.

ولما بدأ الكتّاب العرب يحسون بالحاجة إلى التعبير المكتمل عن تبلور الظاهرة الاجتماعية، هذا التبلور الذي يصير الحديث عنه بمثابة مبدأ نظري أو عقائدي (وذلك في الأربعينيات)، اختاروا كلمة غير مشتقة من «الأمة»، وهي كلمة «القومية».

وربما يكون من أسباب هذا الاختيار عدم استساغة الذوق اللغوي العربي لصيغة النسبة المشتقة من «أمة» وهي إما «أمية» أو «أموية»، وبخاصة أن لهاتين الكلمتين معنى آخر مستقر في العرف اللغوي العربي، ولكن هناك سبباً موضوعياً عدا هذا السبب اللغوي الخاص.

والسبب الموضوعي هو أن الظاهرة الاجتماعية، والمبدأ النظري المعبّر عنها، لم يرتبطا زمنياً ومضمونياً بالأمة، فالأمة قديمة نسبياً، وهي أمة العرب. واختاروا التحديد والفصل بحيث أصبحت الجنسية دالة على المعنى السياسي، والعنصر أو الأصل دالّين على الجنس أو العرق، أو «الرس» (Race) بتعبير ساطع الحصري والياس مرقص، بينما وجدت كلمة «قومية» (المشتقة من «القوم» وليس من الأمة).

وهكذا بينما وجدنا في الغرب تلازماً بين الأمة وما يعبر عنها حركياً وفكرياً، أي: Nation، Nationality، Nationalism، فإن العرب وجد لديهم مفهوم «الأمة» المنفصل عن التعبير الحركي المتمثل سياسياً في الجنسية، والمتمثل اجتماعياً، وكمبدأ نظري، في القومية.

إن القومية ككيان اجتماعي ترتبط بالشعور أو الوعي بوجود بالأمة، هي عبارة عن التجسيد الحركي للأمة في الواقع الاجتماعي، وهو ما حدث في الحالة العربية منفصلاً عن «تكوين الأمة» ولاحقاً له. أما في الغرب، فقد وجدت الأمة مرتبطة زمانياً ومضمونياً مع الشعور بها، وهو ما تمثل في ظهور مصطلح «القومية» مع «الأمة»، ومرتبطة كذلك مع تجسيدها السياسي في دولة، وإن كان ذلك قد تبلور كعقيدة سياسية في وقت لاحق نسبياً (القرن التاسع عشر).

ولذلك لما تبلور الإدراك والوعي بالأمة، ظهرت لفظة «القومية»، وتم إدراك وجودها في حالة العرب منفصلة عن الدولة، فتميزت من الجنسية، ومن ثم وفي تلك اللحظة بالذات أخذ الفكر القومي يحقق فطامه عن الفكر الإسلامي التقليدي للجماعة، جماعة المسلمين، أو أمة المسلمين، التي أخذت لباساً عثمانياً في وقت معين.

القطع مع المفهوم «الذاتي» و«المتوارث» للأمة

لقد وجدنا مفهوم القومية في الأربعينيات يسحب ليس من المفهوم القرآني والإسلامي للأمة، ولكن من مفهوم خاص بالتاريخ العربي بالذات.

وأدى ذلك إلى أن تصبح القومية الجديدة و«الشعور بالأمة» هي التعبير عن الأمة نفسها، فأصبحت الأمة في الإدراك الجديد هي «الأمة العربية»، وليست بحال من الأحوال «الأمة الإسلامية»، أو كما كان الحال سابقاً «الأمة العثمانية».

ويؤكد ذلك أن ظهور مصطلح «الأمة العربية» ـ أو انتشاره بالأحرى ـ اعتباراً من عام ١٩١٣، وفي عهد الجمعيات السرية العربية، وبخاصة منذ عام ١٩١٦ مع الثورة العربية الكبرى(٥٢)، أصبح رديفاً لانفصام المفهوم العربي عن المفهوم الإسلامي(٥٣).

---

(٥٢) محمد عزة دروزة، **نشأة الحركة العربية الحديثة** (بيروت: منشورات المكتبة العصرية، ١٩٧١).

(٥٣) وتجدر الإشارة إلى أن بعض الكتاب حالياً وبعد صعود الحركة الإسلامية، أخذوا يعودون إلى المفهوم القرآني والإسلامي للأمة ويحاولون إعادة تفسير وصبغ المفهوم القومي العربي بصبغة قرآنية إسلامية مرة أخرى، ومن هؤلاء: ناصيف نصار، **مفهوم الأمة بين الدين والتاريخ: دراسة في مدلول الأمة في التراث العربي الإسلامي**، ط ٢ (بيروت: دار الطليعة، ١٩٨٣)؛ عصمت سيف الدولة، **عن العروبة والإسلام**، سلسلة الثقافة القومية؛ ٢ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٦)؛ ط ٢ (القاهرة: دار المستقبل العربي، ١٩٨٦)، ص ٢٥ ـ ٣٨؛ محمد أحمد خلف الله، «التكوين التاريخي لمفاهيم الأمة والقومية والوطنية والدولة،» ورقة قدّمت إلى: **القومية العربية والإسلام: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية** (بيروت: المركز، ١٩٨٢)، ص ١٧ ـ ٣٠، ورضوان السيد، =

٣ ـ القومية كظاهرة اجتماعية وكمذهب سياسي

لقد سبق وأشرنا إلى أن بعض الكتّاب قد استخدم القومية كظاهرة اجتماعية، وبعضهم قد أشار إليها كمذهب سياسي، ومن الملاحظ أنه في الدلالة الأولى، وهي كون القومية كظاهرة اجتماعية، فإنها هي التي تقابل باللغة الانكليزية «Nationality»، بينما المذهب السياسي أو الايديولوجي يشار إليه بـ «Nationalism». ويبدو أن «Nationality» أسبق في ظهورها من «Nationalism»، التي ظهرت فيما يبدو في القرن التاسع عشر، وعمت في أوائل القرن العشرين، حينما أصبحت القومية مبدأ مذهبياً بالفعل، شأنها شأن مذاهب أخرى، كالاستعمار حيث أصبح يشار بلفظي «Colonialism» و«Imperialism»، وكذلك الرأسمالية (Capitalism)، والليبرالية (Liberalism)، والاشتراكية (Socialism)، والفاشية (Fashism)، وفي الفلسفة: الواقعية (Realism) والمثالية (Idealism)، حيث يلاحظ أن «المصادر» المنتهية بالحروف الثلاثة «ism» تدل على المبادئ الناظمة والنظريات والمذاهب والفلسفات[٥٤].

ونوضح في هذه المقام ما سبق إجماله:

أ ـ القومية كظاهرة اجتماعية: أي باعتبارها الكيان الجماعي للأمة.

ب ـ القومية كمذهب سياسي: أي ايديولوجيا.

أ ـ القومية كظاهرة اجتماعية: يمكن القول بأن المقصود بها قد ظهر ضمناً في الكتابات العربية الصحفية وغيرها في أوائل القرن العشرين... وتردد ذلك عند الحديث عن القومية، وعن الوطنية، وعن «العنصرية» وعن «الجنسية» وعن «العربية»، وعمن هو «العربي»، وعن الأمة وأمة العرب والأمة العربية، وجماعة العرب أو الوطن العربي، والجماعة العربية وعصبة العرب... الخ.

= **الأمة والجماعة والسلطة: دراسات في الفكر السياسي العربي والإسلامي** (بيروت: دار اقرأ، ١٩٨٤)، ص ١٧ ـ ٨٨.

(٥٤) ويلاحظ على المصادر الأخرى المنتهية بحروف «tion» مثل «Civilization» أو «Industrialization»؛ أو «dom» مثل «Freedom» و«Serfdom»؛ و«ture» مثل «Departure»؛ و«ence» مثل «Emergence»؛ و«ity» مثل «Solidarity»؛ و«ry» مثل «Symmetry» و«Oratory»؛ و«ment» مثل «Establishment»؛ و«ty» مثل «Liberty» و«Safety». ونجد أن المصادر المنتهية بـ ism هي الدالة على المذاهب والنظريات والمبادئ والفلسفات كما ذكرنا، ولذلك يرتد معظمها إلى القرن التاسع عشر ثم العشرين.

وكان هناك إجماع على دور اللغة والتاريخ والشعور والعادات في ذلك. وهذا هو الجديد والذي شكل المهاد الفكري للفكرة السياسية العربية، أي المحتوى السياسي للفكرة العربية.

فقد كان هناك إدراك عام بوجود خصائص معينة لجماعة معينة هي جماعة متميزة بكونها تضم عرباً أو عربية... على رغم اختلال مفهوم الانتماء العربي بالانتماء الإسلامي، والانتماء العثماني. وكان هذا الخلط موجوداً حتى عند أكثر المتحمسين للعربية، مثل عبد الغني العريسي.

إن هذا ما ندعوه بالعروبة السياسية، على رغم عدم استخدام المصطلح نفسه في تلك الفترة، وقد تلت ما نسميه «العروبة الثقافية»[٥٥]. كذلك يمكن القول ان الكتابات العربية لم تكن تؤكد على ظاهرة القومية العربية، ولكن على ظاهرة العروبة بالدرجة الأولى وبتعبير أدق.

إن العروبة تشير إلى خصائص الجماعة العربية، أي كون الجماعة عربية، والفرد عربياً بشكل عام، أي من دون تحديد منضبط صارم كذلك الذي توحي به كلمة «القومية». إذن نستطيع أن نقول انهم كانوا أقرب إلى الحديث عن «العروبة» منهم إلى «القومية» العربية، على رغم إشارة بعضهم نادراً إلى «القومية» وإلى «القومية العربية»، وبخاصة عبد الغني العريسي.

ب ـ **القومية كمذهب سياسي**، أي باعتبارها أيديولوجيا سياسية: لا نعتقد أن الكتّاب والممارسين العرب في أوائل القرن قد توصلوا ـ ولو ضمنياً ـ إلى اعتبار فكرة القومية بمثابة محور لبناء «نظري ـ ممارساتي» نطلق عليه الآن «ايديولوجيا» أو مذهباً سياسياً.

لقد كانت كتاباتهم لا ترقى إلى مرتبة المشاركة في تأسيس ايديولوجيات، أي منظومة فكرية متجانسة تتسم بالدقة والتجانس والعمق: «دع عنك أنها ذات طابع اعتقادي وفعالة اجتماعية وذات مضمون اجتماعي محدد، فهذا كله مفروغ منه. لقد كانت لديهم فكرة عامة فقط عما يريدونه في المجال الفكري، لذلك يمكن اعتبار كتاباتهم بمثابة البذرة أو البذور التي استنبتت منها فيما بعد نبتة ايديولوجية

(٥٥) إننا نستخدم مصطلح العروبة هنا بمعنى قريب من القومية كظاهرة اجتماعية، ونقول قريب منه وليس مرادفاً له. فالعروبة أقل درجة من القومية العربية في الدلالة على الحقيقة الموضوعية الاجتماعية للقومية، فهي مصطلح عام، أي يتميز بعدم التحديد الفكري والسياسي، أي يشير إلى رابطة انتماء فضفاضة.

في غمار الحرب العالمية الثانية».

ونخلص من ذلك إلى أن انتشار «القومية العربية» كمصطلح كان في أواسط الأربعينيات، وذلك تعبيراً عن حقيقة معينة هي: ارتقاء الشعور القومي إلى مستوى مرتفع نوعياً، إدراكاً بأن هناك أمة عربية (وليست أمة من العرب). فأمة العرب هي أمة من أصل معين (Race)، أما الأمة العربية فهي الأمة (موصوف) بصفة «العربية»، حيث العربية هنا نعت مركب قائم على مكونات اجتماعية متداخلة منها: اللغة والتاريخ، والحضارة، والمصلحة.

إن الشعور بتميز الأمة بكيان اجتماعي خالص، هو الذي يعبّر عنه بلفظ خاص، لفظ أخذ في الحالة العربية «بناءً صوتياً معيناً»، ومن «صوامت وصوائت معينة»، غير مشتقة من الأمة، لأنه لاحق للأمة زمنياً، ومختلف في سياقه السياسي والحركي عن سياق نشوء الأمة (عكس الحالة الأوروبية)، فهذا هو التطبيق لـ «اجتماعيات علم اللغة»[٥٦].

بالإضافة إلى هذا المعنى للقومية العربية كظاهرة اجتماعية جديدة معبّرة عن اندماج الشعور في الواقع، أي باعتبارها ظاهرة بالمعنى الفينومنولوجي، كان تعميم وانتشار مصطلح «القومية العربية» تعبيراً عن حقيقة أخرى حركية ـ فكرية أو فكرية ـ حركية، وقل ـ إن شئت ـ ايديولوجية؛ وهو بروز مذهب سياسي جديد يأخذ مكانه على صعيد المذاهب السياسية العربية الفعالة، وهو مذهب أو ايديولوجية (أو مشروع ايديولوجية) القومية العربية.

---

(٥٦) علي عبد الواحد وافي، علم اللغة، ط ٩ (القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر، [د. ت.]).

تعقيب (١)

محمد الخولي

تمهيد

يبدأ البحث برسم الخلفية التاريخية التي تشكلت في إطارها الأفكار النظرية لساطع الحصري، وقد اختار التركيز على مرحلة اليقظة الفكرية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وعمد إلى تقسيمها إلى فترة أولى اختلطت فيها الدعوة إلى العربية مع دعوات وحركات التجديد الإسلامي: الوهابية في الجزيرة العربية، والمهدية في السودان، والسنوسية في ليبيا والصحراء الكبرى، ثم فترة ثانية تستغرق الربع الأخير من القرن الماضي وتنتهي بتسليم جماعة «الاتحاد والترقي» مقاليد السلطة في تركيا عام ١٩٠٨، وفي الفترة التي عاصرت الحقبة الحميدية في تاريخ الدولة العثمانية والوطن العربي الواقع تحت سيطرتها. وقد اكتسبت فيها الدعوة العروبية دينامية خاصة يمكن أن تتمثل في ما نسميه بدعوة التعريب السياسية في مواجهة دعوة التتريك. وأخيراً تأتي الفترة الثالثة التي بدأت بمطلب اللامركزية ونضجت مع الأحداث إلى حيث انتهت بمطلب الاستقلال العربي الكامل عن الدولة العثمانية.

ويشير الأستاذ الباحث إلى أن هذا المطلب الرئيسي قد وجد تجسيده سياسياً في انعقاد المؤتمر العربي الأول عام ١٩١٣، ثم جاء تجسيده حركياً وميدانياً في نشوب ما اصطلح على تسميته باسم «الثورة العربية الكبرى» عام ١٩١٥.

هذه الحقبة الأخيرة شهدت نشأة «أبو خلدون الأستاذ ساطع الحصري» وفي سياقها تشكيل وعيه السياسي، وبزغت أفكاره وطروحاته العقائدية.

بدايات الفكرة القومية

ولعل قيود المساحة المتاحة هي التي حالت بين الباحث وبين أن يلقي مزيداً

من الأضواء على أبعاد تلك المرحلة من نشأة ساطع الحصري وتكوين المنظومة الفكرية التي كان يصدر عنها. ونحسب أن مثل هذا التفصيل كان كفيلاً بأن يوضح عدة نقاط، أهمها ما يلي:

ـ إن فكرة العروبة والكيان العربي القومي لم تكن بالشأن المستجد تماماً على مرحلة نشأة ساطع الحصري، ولا كانت مجرد حلم رومانسي بعيد المنال يراود أحلام الشعراء: لقد كانت منطقة المشرق العربي بالذات قبيل انتصاف القرن التاسع عشر مفعمة بالأفكار والمشاريع النابعة من الوعي الذي وصل بالنسبة لمحمد علي في مصر إلى فكرة، أو مشروع إنشاء دولة عربية، ثم وصل عند إبراهيم بن محمد علي إلى الوعي بوجود جماعة بشرية تحمل اسم العرب. لقد صرح إبراهيم باشا بأنه يعد نفسه واحداً منهم رغم أصوله الألبانية، بحكم المصائر أو حتى المصالح التي كانت تجمع بين إبراهيم الذي كانت نشأته وتربيته وإنجازاته العسكرية على أرض مصر.. وفي هذا السياق أصدر إبراهيم باشا تصريحه الشهير يحمل هذا المعنى من مواقع مواجهته الظافرة في سوريا لجيوش الدولة العثمانية حيث وصلت جيوشه إلى نصيبين فهددت حاضرة الدولة العثمانية في الآستانة.

ـ ولم يكن صدفة أن خيار اللغة العربية، بوصفها أقوى عوامل الوجود القومي للأمة العربية، وهو الخيار المحوري لساطع الحصري، جاء نتيجة طبيعية ـ هل نقول عفوية؟ ـ لطبيعة الظروف التي أحاطت بمشروع إبراهيم باشا بالذات، فلا كان إبراهيم باشا في عام ١٨٣٢ قادراً على ادعاء وحدة النسب أو آصرة العرق (Race) حيث جاءت أصوله من البلقان، ولا كانت وحدة السوق وشركة المصالح المادية والطبقية قد برزت أو تأكدت على نحو ما حدث في ما بعد في الطرح الماركسي ـ الستاليني بالذات.

وعندما سئل إبراهيم باشا عن المدى الذي سوف تتوقف عنده جيوشه، إذ هي تتوغل في ممتلكات الدولة العثمانية، كان رده، على نحو ما يرويه المؤرخان الفرنسيان كادلفان وباريو: سوف تتقدم جيوشي ما دامت تستطيع التفاهم باللغة العربية مع الأقطار التي تصل إليها. وفي هذا الصدد أيضاً، يقول الكاتب الأمريكي بيير كراببيس في كتابه بعنوان **ابراهيم باشا**: إن مصر ـ محمد علي ـ كانت تهدف إلى إرساء أسس دولة عربية ـ إسلامية. وفي السنة التالية لتصريح إبراهيم باشا، يكتب وزير خارجية بريطانيا، لورد بالمرستون إلى وزيره المفوض في نابولي رسالة يؤكد فيها أن الغرض الحقيقي لمحمد علي هو «إنشاء مملكة عربية تضم كل البلاد التي تتكلم العربية».

ـ ربما جاءت إشكالية الربط بين العروبة والإسلام من واقع الدور المزدوج

الذي تؤديه اللغة العربية بوصفها أداة التواصل للجامعة البشرية الناطقة بها، ثم بوصفها في الوقت نفسه لغة القرآن الذي توليه الأغلبية العظمى من أفراد هذه الجماعة إيماناً وتقديساً، ثم بوصفها كذلك الوسيلة ـ المفتاح لولوج التراث المعرفي ـ الإبداعي الذي تراكم بهذه اللغة ابتداءً من عصور الإسلام الأولى إلى حد أن خلق ثقافة عربية ـ إسلامية متميزة انطلقت في ركيزتها الأولى من القرآن ـ كتاب العربية الأكبر والأكمل ـ وتطورت بفضل التفاعل مع ثقافات الهند وفارس واليونان والرومان إلى حيث أنشأت العلوم والتخصصات التي كان الهدف منها أساساً تيسير سبل بغرض الاطلاع على أسرار هذا الكتاب تفسيراً وفهماً وبلاغة وأدباً ومنطقاً وفقهاً وألسنية وفلسفات.

التوجيه دعوة فكرية وحركة سياسية

وعندما جاءت ثمانينيات القرن الماضي اكتمل نضوج هذا الوعي العروبي وانتقل من مجرد الحديث عن الانتماء أو عن مخططات تحلم بإنشاء دولة عربية، إلى حيز النضال الحركي ضد الاستبداد التركي أو ما كانوا يسمونه باسم الوصاية العثمانية.

يتحدث المؤرخ الفرنسي فرانسوا جورجو في البحث الذي كتبه ضمن مصنف **تاريخ الدولة العثمانية** الصادر في فرنسا عام ١٩٨٩ عن المنشورات والبيانات التي بدأ توزيعها في «سبعينيات القرن الماضي» في مناطق الشام والعراق، تدعو السكان العرب إلى التخلص من الوصاية العثمانية، ومنها بدأت تتبلور أفكار الدعوة إلى خلافة عربية ومن ثم إلى دولة عربية.. كما يشير إلى أن المستشرق الإنكليزي ـ ويليام سكاونت بلنت ـ صديق العرابيين الشهير، كان يميل إلى هذا الرأي، وقد أفصح عنه في كتاب أصدره عام ١٨٨١ بعنوان **مستقبل الإسلام**.

وهكذا فعندما أصدر عبد الرحمن الكواكبي كتابيه **طبائع الاستبداد وأم القرى** في مطلع القرن الحالي كانت التربة مهيأة إلى حد كبير إلى تأكيد ما ذهب إليه الكواكبي من الربط بين التحرر من الاستبداد وإحياء دولة الخلافة التي تكون شوكتها ـ حسب المصطلح الخلدوني ـ شوكة عربية ويكون مضمونها الروحي إسلامياً. وفي ظل هذه التطورات جاء التأكيد وقتها على أن الخلافة العربية هي فكرة ودعوة مطروحة لمواجهة دعوة السلطان عبد الحميد في الثلث الأخير من القرن إلى ما أسماه الجامعة الإسلامية من حيث إن الخلافة مؤسسة عربية بالضرورة سبق أن اغتصبها الأتراك لإقامة شرعية مصطنعة تبرر هيمنتهم، منذ عهد سليم الأول، على أقدار الوطن العربي.

ضمن هذا الإطار الذي نشأ في ظله ساطع الحصري عبر العقدين الأخيرين من القرن الماضي تكونت ما نسميها بـ «الأفكار التأسيسية» في عقيدة القومية العربية. وهي تأسيسية لأنها عنيت مبدئياً بضبط المصطلحات وتدقيق التعاريف وتحرير المفاهيم، الأمر الذي استوجب جهوداً من أجل التفرقة والتمييز بين مصطلحات ومفاهيم: الأمة، والجنسية، والتابعية والقومية... إلخ.. وتلك أمور استغرقت ردحاً طويلاً من حياة وأعمال ساطع الحصري نفسه الذي ظل منشغلاً في كتاباته بعرض وتحرير مفاهيم «الوطنية والقومية» و«عوامل نشوء الفكرة القومية»، ثم مفاهيم «الأممية والوطنية»، و«العلاقة بين اللغة والقومية»، وتلك عينة مستقاة لوهلة أولى من عناوين كتابه الجامع **أبحاث مختارة في القومية العربية** الصادر في عام ١٩٦٣.

على أن الهواجس الفكرية التأسيسية ـ كما أسميناها ـ سبق إلى الانشغال بها باحثون ومفكرون تواكبت اجتهاداتهم مع تطور الفكر العربي في العصر الحديث منذ النصف الثاني من القرن الماضي. منهم مثلاً رفاعة الطهطاوي الذي تأثر ولا شك بأفكار الموسوعيين الفرنسيين أمثال ديدرو ودالمبير، فحاول أن يقدم تعريفاً وجاء مفرطاً في التبسيط لمفهوم الجماعة ومصطلح الوطن. وأعقبته محاولة أنضج وأعمق اضطلع بها في سبعينيات القرن الماضي عالم أزهري هو الشيخ حسين المرصفي في كتابه الشهير بعنوان **الكلم الثمان** وقدم فيه تعريفات لمفاهيم الأمة والوطن والشعب.

وأياً كان نصيب هذه المحاولات من الدقة أو العلمية، فهي تشير بدلالة بليغة إلى أن ساطع الحصري بدأ نشاطه الفكري من أرضية كانت قد شهدت بصورة أو بأخرى حراكاً فكرياً وسياسياً بين صفوف مثقفي الثلث الأخير من القرن التاسع عشر. في ما تضيف هذه الدلالة وهذا هو الأهم، أن هؤلاء المثقفين لم يكن جل همهم منصباً على الممارسة الفكرية بحد ذاتها، بل إنهم انطلقوا من الوعي بخصوصية الجماعة البشرية التي ينتمون إليها والإطار الذي يعيشون في ظله، في حقبة سادتها دعائياً فكرة الجامعة العثمانية أو جامعة الخلافة أو الجامعة الإسلامية، ومن ثم فقد عمدوا إلى تحديد هوية الأرض والجماعة التي ينطقون بلغتها تحديداً يميزهم من مجرد كونهم تابعية عثمانية أو رعايا الخليفة، المتبوع الأعظم، كما كانوا يصفون السلطان التركي في ذلك الزمان.

استفتاء مجلة «الهلال»

في نهاية الفصل الأول من البحث يصل بنا الباحث إلى ثلاثينيات القرن

العشرين وما شهدته، كما يقول، من «تحول رئيسي في بنية التفكير والعمل السياسي القومي في منطقة المشرق» حيث توارت - في رأيه، وإلى حد كبير - المصطلحات والمفاهيم المتعلقة بالعروبة السياسية وما تستدعيه من تأصيل لمفهوم الأمة العربية والكيان الثقافي المعبر عنها.

ويستند الباحث في ما ذهب إليه إلى الاستفتاء الذي أجرته مجلة **الهلال** القاهرية عام ١٩٣١ وجاء معبّراً، كما يقول، عن «تحول اهتمامات النخبة العربية المثقفة ذات التوجه القومي الوطني وإلى التركيز على التضامن العام بين الدول العربية».

وقد لا نقر الباحث على مجرد التعويل على استطلاع صحفي أجرته مجلة، مع الاعتراف برصانتها، لكي نسند إليه فكرة محورية تتمثل في ظهور التحول من دعوة الفكر أو العمل القومي إلى مجرد دعوة التضامن العام بين الدول.

ولأنه لم يتيسر لنا الاطلاع على فحوى الاستفتاء المذكور أو الشخصيات التي شاركت فيه، فقد نفهم من جهة أن كثيراً منهم كانوا مشتغلين بالعمل السياسي أو بالنشاط العام، ومن ثم استخدموا المصطلحات السياسية معبّرين عن شواغل السياسة وفي مقدمتها تعزيز التضامن بين دول قطرية عربية كانت ناشئة، في مواجهة الأنواء الدولية التي كانت تعصف أو تهدد كياناتهم الوليدة في ذلك الحين، فضلاً عن أنه لم يكن هناك في المشرق وقتها سوى مصر التي نالت استقلالها السياسي عام ١٩٢٣، والعراق الذي نال استقلاله عند مغيب العشرينيات، بالإضافة إلى إمامة اليمن ودولة سلطان نجد «السعودية». وبعد ذلك لا شيء سوى كيانات عربية موضوعة تحت الانتداب الفرنسي في الشام، أو رازحة تحت نير الاحتلال البريطاني في اليمن الجنوبي أو عند السواحل الشرقية في الجزيرة العربية.

ولعل التفسير الأكبر يكمن في أن دعوة التضامن بين الدول العربية المحدودة العدد والغضّة التكوين آنذاك كان مردها في تلك الفترة، الرغبة في درء مخاطر أزمة الكساد العالمي عند بداية الثلاثينيات وتسكين خواطر الإمبراطوريات الإمبريالية المهيمنة على مصائر العالم في زمن نشوء وصعود الدعوة البلشفية من جهة، والحركة النازية من جهة أخرى. فضلاً عن ذلك، فنحن نعرف أن ثمة تفاعلاً فكرياً ومعرفياً وإبداعياً كان يشق طريقه وقتها في تيار الوعي القومي العربي، نعرفه مثلاً من خلال نشاطات رابطة العروبة في مصر على يد أحمد زكي باشا أو كتابات ودعوات شخصيات من أمثال محمد علي علّوبة وصالح حرب وعبد الرحمن عزام ومكرم عبيد، ناهيك عن دلالة قد لا يلمحها الباحث السياسي وهي انعقاد أول

وأهم مؤتمر للموسيقى العربية في القاهرة عام ١٩٣٢، وكلها كانت جهوداً تصب في مجرى تعميق الفكر والانتماء القومي، وإن لم تصل إلى مستوى الأدلجة أو التنظير، وهي المهمة التاريخية التي كانت بانتظار جهود أفراد من طراز قسطنطين زريق ونقولا زياده وساطع الحصري.

من جانب آخر فإن تمسّك الحصري بعنصر اللغة وإعطاءها الأسبقية الأولى في تكوين الوجود والوعي القومي جعلاه يقطع، كما أوضح البحث، بأن النظرية الألمانية في القومية هي الصحيحة التي أيدتها الوقائع التاريخية ودعمتها الأبحاث العلمية. وربما قادته هذه الأولوية إلى قدر كثير أو قليل من المبالغة أو التضخيم في تناول العامل اللغوي إلى درجة يقول معها الباحث إن ما قدمه الحصري في هذا المجال هو «أقرب إلى أن يكون نظرية قومية في اللغة أكثر منه نظرية لغوية في القومية»، بمعنى أنه يصلح سنداً للبحث اللغوي أكثر من فائدته للبحث في القومية ذاتها.

جدل اللغة والوجود القومي

وفي رأينا، فسواء على الحصري أن يبدأ بعنصر آصرة اللغة التي تجسد الوجود القومي أو يبدأ بحقيقة الوجود القومي الذي يستند إلى وشيجة اللغة، فالرجل في كل حال إنما يصدر عن منطق سليم أكدته البحوث اللغوية المحدثة حين ربطت جدلياً، كما فعل نعوم تشومسكي مثلاً، بين اللغة والمسؤولية الاجتماعية، فأضفت على اللغة صفات جوهرية أو صميمية تربط الفرد بالجماعة أو الفرد بمحيطه الخارجي في إطار عملية تعلّم متناهية من حيث سرعة الإيقاع واتساع الشمول. ونخشى أن يكون في التبرير الذي قدمه الباحث عن قصور الجانب العلمي أو البحثي عند الحصري نوع من أدب الاعتذار، إذ نتصور أن الحصري كان يعد نفسه شخصية سياسية وأيديولوجية وحركية بالدرجة الأولى، ولو كان قد أغرق في الجوانب البحثية أو استغرقته الجهود الأكاديمية لحبس نفسه في إطارها ولما استطاع أن ينشر دعوته التي نذر نفسه لها. لقد كان الرجل يخوض معارك فكرية وسياسية وعقائدية في آن، ويخوضها ضد قوى متعددة وسط جو مشحون بتحديات التتريك ونعرات الإقليمية وغلبة الشعور بالعجز والإحباط حتى بين النخب العربية. وكان عليه أن يشرع أسلحته الناجزة لملاقاة هذا كله، مما أضفى على آثاره الفكرية طابعاً نضالياً وديناميأ ونزالياً. ونحسب أنه اختار لنفسه منذ البداية دور الداعية وليس دور البحّاثة. ولكنه كان الداعية ـ المفكر، والداعية ـ المحلل وليس الداعية المكتفي برفع الشعار أو ترديد التعاليم بين المؤيدين والمريدين.

ومن ثم استطاع الحصري أن يخلف لنا مجموعة من الدراسات والآراء والبحوث التي جمعت بين آنية مجابهة التحدي في حينه وبين إمكانية الاستمرار وأحياناً الحداثة والمعاصرة بل وسبق الاستشراف.

المدخل الألماني في تكوين الحصري

فإذا انتقلنا للحديث عن الجوهر المبكر لنظرية الحصري في القومية العربية على نحو ما يعبر عنه هذا البحث الرصين لطالبنا الباحث بمزيد من الإسهاب في عرض عوامل التكوين الفكري لساطع الحصري، ولكان ذلك كفيلاً بدوره بإطلاعنا على حزمة النظريات والفلسفات التي تأثر بها الحصري، وبخاصة في ما يتعلق بالمدخل الألماني في تكوينه الفكري.

لقد تعاصرت نشأته مع تنامي نفوذ المانيا القيصرية، أو كما يعبر الباحثون مع «ألمنة» الدولة العثمانية، التي كان الحصري من رعاياها بالمولد والتابعية، ثم كان من موظفيها في فجر الشباب. وجاءت ذروة هذه الألمنة كما يشير البروفسور فرانسوا جورجو الذي ألمحنا إليه، في زيارة غليوم الثاني، امبراطور المانيا إلى استانبول في تشرين الأول/اكتوبر عام ١٨٩٨، وهو العاهل الأوروبي الوحيد الذي التقاه السلطان التركي عبد الحميد. صحيح أن المُدخل الألماني في الكيان الامبراطوري العثماني كان قد نشأ وتجذّر منذ ثلاثينيات القرن الماضي حين تولى ضباط المان بروسيون تدريب جيوش السلطنة، وكان منهم مثلاً القائد الشهير فون مولتكه، إلا أن هذا المدخل ظل يتنامى في مجالات الاقتصاد والبنوك والسكة الحديد والتسليح وكثير من أساليب الحياة العصرية. وفي ظل هذا المناخ كان طبيعياً أن يتأثر الشباب العثماني منذ ربع القرن الماضي، سواء بالعسكرية الألمانية أو بالأفكار والفلسفات الألمانية. وكما تأثر العسكريون العثمانيون ومنهم عرب (عزيز المصري مثلاً) بقادة من أمثال مولتكه أو بسمارك، تأثر المدنيون المثقفون (الحصري مثلاً) بفلسفات هيغل وهيردر وفخته وغيرهم، ومن ثم جمعت أفكارهم بين عناصر شتى، كان في مقدمتها الفلسفة المثالية المأخوذة عن هيغل، وكان منها أيضاً تأكيد الفكر القومي الألماني على تكريس اللغة بوصفها العامل الأساسي في تكوين واستمرار الجماعة القومية. وفي هذا يقول هيردر (ت ١٨٠٣): «إن قلب الشعب إنما ينبض في لغة الشعب، وروح الشعب تكمن في لغة أسلافه وهي الوعاء الذي استودعه الشعب كل ما أنجزه من نفائس الفكر وذخائر الأعراف والفلسفات والعقائد».

ونكاد نلمح وسط هذه العبارات المترجمة عن كتاب هيردر بعنوان: آراء في

تشكيل فلسفة التاريخ نوعاً من التأثر إلى حد التواتر وربما التماهي في فكر ساطع الحصري، وبخاصة لدى الحديث عن اللغة وروح الشعب ومخزون تراثه ومستودع إبداعاته.

ونحسب أن المفكر الأقرب إلى فكر ساطع الحصري هو الفيلسوف فخته (ت عام ١٨١٤) الذي طرح أفكاره وبلورها في غمار نكسة قومية ألّمت ببلاده بروسيا ـ المانيا بعد هزيمتها أمام نابليون في معركة «يينا» عام ١٨٠٥. وربما لهذا السبب جاء اقتراب الحصري من فكر فخته، ولا سيما من حيث الأزمة التي ألمت بأمة كل منهما، ومن ثم الدور الذي اضطلع به كل من الرجلين في تنبيه أمته وإيقاظ وعيها. وفي هذا الصدد يحيل الحصري (في كتابه **ما هي القومية؟**) على خُطب فخته الموجهة إلى الأمة الألمانية ويقول فيها الفيلسوف الألماني: «إن الذين يتكلمون بلغة واحدة يشكلون كياناً واحداً متكاملاً ربطته الطبيعة بوشائج متينة وإن تكن غير مرئية».

ثم جاءت أفكار ماكس نوردو (ت عام ١٩٢٣) على نحو ما أشار البحث وهي التي عززت في رأينا ما ذهب إليه ساطع الحصري من ربط اللغة بالتاريخ من ناحية، ثم بالمستقبل من ناحية أخرى.

من أفكار نوردو استقى الحصري تلك الروح الحركية التي استطاع أن يضفيها على المقولات التي طرحها على الجماعة العربية. واستمد أيضاً روح التفاؤل التاريخي التي اتسمت بها الأفكار الحُصْرية على مدى أربعين عاماً من العمل الفكري. وبهذا ظل الحصري يقف على أرضية ثابتة تربط بين اللغة التي اختارها محوراً للقومية العربية وبين تاريخ الأمة الناطقة بهذه اللغة، وهو في الوقت ذاته تاريخ الحضارة والثقافة الإسلامية، مما أتاح له أن يتطلع بقدر من التفاؤل إلى المستقبل. لقد بشر نوردو بفكرة الربط بين اللغة كأداة للتواصل بين الفرد والجماعة، واللغة كوسيلة للإبداع الثقافي والتحصيل المعرفي، ثم اللغة كوسط سياسي ـ اجتماعي يتحقق في ظله الديمقراطية والعدل أو «رفع الجور» بحسب تعبير ساطع الحصري.

وبهذا التفاؤل يكتب ساطع الحصري مقالة نشرها له أحمد أمين في مجلة **الثقافة** القاهرية (عدد شباط/فبراير ١٩٤٧) وعنوانها بالغ الدلالة وهو: «لا داعي لليأس» وقال فيها: «إنني أؤمن إيماناً راسخاً بأن الأمة العربية ستصل إلى المكانة التي تصبو إليها بفضل طبيعتها (يقصد بمحض تكوينها ونزوعها) وبجهود أبنائها المخلصين دون أن تحتاج إلى معجزة من المعجزات (كان بهذا يرد على مقولة سبق

وطرحها أحمد أمين)، ثم يضيف الحصري قائلاً: إن هذه العقيدة قد تكونت لديّ منذ مدة طويلة بإلهام التاريخ ووحيه».

ولقد وفق الباحث حين لمح نوعاً من التردد في طروحات ساطع الحصري بين القول بعوامل شتى في التكوين القومي (منها عامل المشيئة الذي قالت به المدرسة الفرنسية وعلى رأسها ارنست رينان) وبين اللغة بوصفها العامل الوحيد في تكوين الجماعة القومية (واللغة في رأينا عامل وحيد في الظاهر فقط، ولكنه في التحليل الأخير عامل مركب يتألف من الجانب الإنساني والجانب الاتصالي والجانب المفاهيمي والجانب العقلي ـ الإبداعي).

ويتساءل الباحث: هل أفلت الحصري من تأثير رينان حين ألقى محاضرته عام ١٩٢٣ وارتكز فيها، على نحو ما يذهب إليه الياس مرقص، على اللغة والتاريخ وليس على جانب المشيئة؟

أم أن الحصري ظل أسير تأثير رينان لسنوات ليست بالقليلة، كما يذهب إلى ذلك البحث الذي بين أيدينا؟

والحق نقول: إننا لا نكاد نعرف إجابة قاطعة على مثل هذا السؤال. ويخيل إلينا أن التوازي بين عنصر التاريخ عند الألمان وعنصر التراث المشترك عند رينان أورث أفكار الحصري التماهي نفسه ـ حتى لا نقول التردد أو المراوحة ـ بين التاريخ والتراث، وكلاهما إبداع مشترك للأمة يتراكم بالكم عبر الزمن ثم يتحول بالكيف ليُحدث النمو والتقدم ويشيد الحضارة.

نهج الأساتذة الرواد

وربما يرجع أمر هذه المراوحة إلى أن الحصري كان في بداياته في حال استكشاف للأرض وعند مرحلة تلمّس للمسالك المأمونة التي يصل عن طريقها إلى حيث يبلور فكره الصميمي الخاص. ثم إن الحصري لم يكن يملك ترف الانقطاع عن الناس والإخلاد إلى برج البحث الأكاديمي بمعناه المعروف: إننا نراه صوتاً صارخاً في البرية ضد التتريك أو التهميش أو الإحباط أو الانعزالية. وكان في هذا كله ينطلق إلى عملية تأصيل وتنبيه وحفز وإيقاظ وتحريك للسواكن، تماماً مثل ريادة رجال من طراز مصطفى كامل (في قضية وعي الذات الوطنية) أو طه حسين (في قضية استخدام الشك الديكارتي في مناهج العلوم العربية المحدثة) أو علي عبد الرازق (في المعالجة العقلانية لقضية الإسلام وأصول الحكم) أو زكي الأرسوزي في قضية «الانبعاث القومي والتجديد السياسي».

مثل هذه النوعية من الرواد يمكن أن نتقبل منهم قدراً من مبالغة الطرح أو تعميم الأحكام أو حتى التردد أو الالتباس في الخيارات لأنهم في التحليل الأخير يطرقون أبواباً لم تفتح من قبل، ويخوضون تخوماً لم تستكشف من قبل ويستشرفون آفاقاً لم يسبقهم أحد إلى استكشافها.

بهذا المقياس قد نتفهم جنوحهم أحياناً إلى رومانسية التفاؤل أو الإحالة على منظومات القيم المثالية بعيداً عن الجوانب المادية التي يتشكل منها بالضرورة الواقع الحي، بما في ذلك البنى الطبقية أو المصالح الاقتصادية التي رآها الحصري تفرق بين الناس ولا تجمع بين صفوفهم.

الحصري والماركسية

الحصري كمفكر متأثر أعمق التأثير بالفكر الفلسفي المثالي. وهو كداعية يدرك محاذير الطرح المادي استناداً للفكر الماركسي بالنسبة لدعوة قومية عروبية تتفاعل جدلياً مع الإسلام كحافز وإطار وعامل تحفيز ـ كاتاليست ـ في بوتقة التفاعل الحضاري بين الشعوب التي استعربت ثم شادت حضارتها في ظل دار الإسلام.

والدعوة القومية في هذا المجال دعوة شعبية موجهة إلى سواد الناس ولا تقتصر على الصفوة من طلائع مثقفيهم، وهي تتحدث عن وجود أمة وليس عن مصالح طبقة وهو ما جعلها تتجافى مع الطرح الماركسي، هذا فضلاً عن أن الحصري كان قد أنجز معظم منظومته الفكرية مع انتصاف القرن الحالي، أي مع الفترة التي ظلت تحاكم التجربة البلشفية على أساس الممارسة الستالينية التي رفضت القومية كما يفهمها الحصري لحساب الأممية، وقالت بدموية الصراع الطبقي، وكرست احتكار الحزب للسلطة وبيروقراطية الدولة، وركزت على وحدة السوق المادية على نحو ما تناوله ستالين نفسه في معالجته للمسألة القومية. فإذا أضفنا إلى ذلك الدعوات الإلحادية التي ارتبطت بها دوغما الماركسية قبل انتصاف القرن لما وجدنا في هذا كله ما يمكن أن يجتذب مفكراً قومياً وداعية عروبياً من طراز ساطع الحصري إلى التفاعل مع هذه المدرسة في الفكر والتنظير.

خلاصة مكثفة

أخيراً تقدم الدراسة على صفحتين خلاصة مكثفة ممتازة لنظرية ساطع الحصري في سياق الفكر السياسي، ونحن نوافق الباحث الكريم على أن الحصري ينتمي إلى مدرسة نهلت الحضارة الأوروبية الرأسمالية بإيجابياتها وسلبياتها بما في

ذلك مقوماتها الرئيسية التي أجملها الباحث في: مبدأ الدولة القومية + العلمانية + العقلانية + الفردانية.

ولكن نظن أن هذا الإجمال أو التكثيف قد يظلم فكر الحصري إزاء كل من تلك المقومات الأساسية: الحصري مثلاً لم يقبل مبدأ الدولة القومية في المطلق، بمعنى المطابقة بين وجود الأمة وكيانها السياسي متمثلاً في دولتها (فرنسا أو إيطاليا مثلاً) وإنما آثر أن يترك المجال مفتوحاً لكل اجتهادات تتعلق بشكل الكيان السياسي والصيغ الدستورية التي تحقق في ظلها الوجود القومي للأمة العربية.

الحصري والعلمانية

كذلك فلا يمكن أن يوصف نهج الحصري بالعلمنة أو العلمانية في المطلق أيضاً، ولقد نشير هنا إلى مشكلتنا على المستوى العربي والإسلامي مع مصطلح «العلمنة» أساساً من حيث إنه ينصرف في الغرب إلى استبعاد العقيدة الدينية أو الدين من الحياة السياسية في المجتمع. وقد يصل الأمر (في تركيا المعاصرة مثلاً) إلى ما نسميه بارانويا الفصل بين الدين وبين الشؤون الزمنية أو المدنية للمجتمع. وقد يصل (كما في أمريكا مثلاً) إلى تحويل المؤسسة الدينية لتصبح واحدة من مؤسسات الضبط النفساني أو مؤسسات تفريغ الاحتقان الاجتماعي.

وبديهي أن هذا المفهوم للعلمنة لم يخطر يوماً على بال ساطع الحصري ولا هو يتفق مع ما كان يعرفه الرجل من صحيح الإسلام بوصفه دين الغالبية للجماعة القومية العربية. لقد كان الحصري يطل على الدين من منظور حركي ربط بين دعوات تكريس الشأن الديني ومحاولات تثبيت أو إنقاذ الهيمنة العثمانية من الانهيار. وكان يطل عليه من منظور سياسي يرى في الدعوة القومية، لا في الدعوة الدينية، مظلة شاملة وحماية تجمع بين الأغلبية المسلمة وسائر أبناء الطوائف والمذاهب والأديان من غير المسلمين في إطار المجموعة العربية الواحدة. والحصري في هذا يرى القومية إجمالاً بوصفها شأناً من شؤون الإدارة والسياسة بما يعني بكلمات الأستاذ الكبير «ترك الأمور السياسية خارج نطاق الأبحاث الدينية»، وهو يستند في ذلك إلى الحديث الشريف «أنتم أعلم بشؤون دنياكم» مطبقاً عليه القاعدة الفقهية المعروفة بعبارة «خصوص السبب وعموم القصد». ولما كان الحصري دارساً للرياضيات فهو يوضح أن مسائل الهندسة والطب أو الجراحة أو الزراعة أو إدارة العمليات الحربية لا يمكن أن توصف بأنها دينية أو لادينية، ثم يضيف متسائلاً: فلماذا لا تقاس المسائل السياسية أو القومية بقضايا الطب والهندسة والزراعة والحرب؟

ضرورات الحسم والاختيار

ويبدو أن الحصري كان حاسماً في مسألة إدخال أو إقحام الشأن الديني في قضايا يرى أنها تخص الناس الأعلم بشؤون دنياهم. لقد اتسم عصره بذلك النوع المتعسف الذي عرفته الثقافة العربية حديثاً من ازدواجية الطرح وأحادية الاختيار من قبيل: عروبة أم قطرية ـ عرب أم فراعنة ـ قومية أم إسلام ـ خلافة أم ضياع ـ حجاب أم سفور ـ مجددون أم محافظون ـ ثقافة اللاتين (الفرنسية) أم ثقافة السكسون (الإنكليزية)؟.. إلخ.

ونحسب أن الظروف التي أحاطت بالحصري وبدعوته القومية قد ألجأته إلى هذا الحسم سواء من حيث إرادة الخروج الباتر من ميراث الحقبة العثمانية ـ الحميدية بالذات التي طالما تلاعبت بالشعار الديني، أو من حيث التأثر بالفكر الألماني الذي لم يتطرق في بناء نظريته القومية إلى عنصر الدين، أو من حيث جهود الحصري نفسه في جلاء معدن قضية القومية العربية واستخلاص جوهرها بغير التباس من بين دوامات مضطرمة ودعوات شتى رفعت في أيامه شعارات إحياء الخلافة أو الأخوة الإسلامية أو الدولة القطرية أو غيرها.

ولو امتد الأجل بالرجل ليشهد الحوارات التي احتدمت في السبعينيات والثمانينيات، وبخاصة في أعقاب الثورة الإيرانية، لكان قد انتهى منهجه الرياضي الصارم إلى مقولة: علاقة التفاعل الجدلية بين العروبة والإسلام، ولا سيما وقد ظل جوهر العقيدة القومية عند ساطع الحصري متمثلاً في اللغة العربية بوصفها أداة التواصل المجتمعي ووسيلة التحصيل العلمي والإبداع المعرفي ودعامة البنية الثقافية وركيزة المعمار الحضاري. وهي بهذا كله لا تنفصم موضوعياً عن الإسلام ـ العقيدة والشريعة والفكر والحضارة.

تعقيب (٢)

حسين معلوم(*)

. . «إن منهجاً ما، وإن كان جديداً، يمكن أن يكون بلا طائل، إن لم ينتج شيئاً جديداً».

لوي ألتوسير

مدخل

«الفكرة ابنة واقعها الاجتماعي». . هذه، في اعتقادنا، مقولة منهجية، تنبني عليها قاعدة أساسية ضمن القواعد المنهجية للدراسات التحليلية والتأريخية (النقدية والمقارنة) للفكر، وهي: تطوره من عصر إلى عصر في الوطن الواحد، اختلافه من وطن إلى وطن في العصر الواحد عبر تفاعل الإنسان مع واقعه الاجتماعي في مرحلة زمنية معينة. . ومن ثم، لا يمكن أن يدرس الفكر (السياسي بخاصة)، ولا أن يفهم ـ بشكل جدي ـ بمعزل عن الواقع «الاجتماعي ـ التاريخي» الذي نشأ فيه.

ولأن فكر ساطع الحصري لا يجد موقعه المناسب، إلا في ضوء الدور التاريخي الرائد الذي لعبه في تطور الفكر القومي العربي، باعتباره محطة كبرى ولحظة أساسية في مسيرة الحديث والمعاصر من هذا الفكر. . لذا، فإن محاولة عزل الرؤية (الفكرة) القومية عنده، عند ساطع الحصري، عن واقعه ـ هو ـ وعن سياقه التاريخي، لن تمثل سوى توجه مسبق لـ ـ مجرد ـ إصدار أحكام عامة ومطلقة، و ـ في أحسن الأحوال ـ غير دقيقة. بعبارة أخرى، إن العديد من المحاولات التي استهدفت تحليل أسس الفكر القومي لدى ساطع الحصري، كـ «مفكر»، وخصائصه ومقوماته، قد صرفت النظر عن أهمية الربط بين «الفكر»، وبين ظروف العصر الذي عاشه «المفكر» وأوضاعه، وخصائص الواقع الذي أحاط به وحدوده، بل

(*) كاتب وباحث عربي ـ مصر.

و«أهملت» مقارنته بالأنماط العديدة والمدارس المختلفة للفكر الذي عاصره، وبالتحديد تلك التي أخذ عنها، ودوافعه في هذه الحالة.

ومن ثم، لم تفلح المحاولات، نفسها، في تقديم إجابات ناجعة حول التساؤل: «لماذا؟!».. هذه المفردة التي تبدأ بها تساؤلات ثلاثة، تتمحور حول مرتكزات الرؤية القومية لدى «شيخ منظري القومية العربية» (بحسب ما أطلقت عليه، هذا اللقب، **موسوعة العالم المعاصر**، ١٩٧٥): لماذا «الأمة/ اللغة»؟، ولماذا «الأمة/ الدولة»؟، ولماذا «الأمة/ العلمانية»؟

وإذا حاولنا مقاربة البحث الذي بين أيدينا.. فسوف نجد أنه رغم جودته، ورغم إحكامه وتميزه، ورغم «تمكن» الباحث من تبيان «صلب» الرؤية القومية لدى الحصري، بل والتدليل على الكيفية التي حاول بها «فيلسوف القومية العربية» إثبات صحة رؤيته في القومية (العربية).. رغم ذلك، إلا أن الباحث، في الوقت نفسه، يلامس الإشكالية نفسها..

بعد أن يؤكد الباحث: «ان الأمم عند ساطع الحصري تتكون بفعل «الروابط المعنوية» (التي تحبب الأفراد بعضهم ببعض)، وإذن فليس للروابط المادية الحسية (والقائمة على الاقتصاد والجغرافيا) مكان في النظرية».. يستطرد قائلاً: «إن القومية (وهي عنده ـ أي: عند الحصري ـ «نزعة» وليست وجوداً اجتماعياً موضوعياً) متولدة من وحدة اللغة والتاريخ».. ثم، بعد عدة صفحات، وبعد أن يشير إلى انتقادات الحصري بشأن العوامل المكونة للقومية ـ غير اللغة والتاريخ ـ كالدين والمشيئة ووحدة الأصل، وغيرها، يقول الباحث مؤكداً: «إن الدرس والبحث كانا وسيلة لإثبات نتيجة يبدو أن الحصري قد «حصل عليها قبلاً»..».

هنا، لا بد من طرح التساؤل التالي: إذا كانت الأمم، في الرؤية الحصرية، تتكون بفعل الروابط المعنوية (فقط)، وإذا كانت القومية، حسب ذات الرؤية، «متولدة من وحدة اللغة والتاريخ» (وحسب).. فلماذا، إذن، كان هناك توجه من ساطع الحصري لإثبات نتيجة «يبدو أنه قد حصل عليها قبلاً»؟!

هذا التساؤل، نفسه، هو ما يطرحه الباحث، عندما يؤكد: «ولكنه ـ أي: الحصري ـ إذ حصر تركيزه النظري لمفهوم الأمة والقومية حول اللغة، وتجاهل كلاً من الاقتصاد والجغرافيا والدين (بما في ذلك الإطار الحضاري العربي الإسلامي) يثير التساؤل: لماذا؟!».

والإجابة؟!.. إنها تلك التي يقدمها الباحث، ومفادها: «إن الحصري يمثل مدرسة محددة في التفكير السياسي العربي، هي المدرسة التي نهلت من منابع الحضارة الأوروبية الرأسمالية، بإيجابياتها وسلبياتها».

وإذا كان يبدو، هكذا، أن الباحث يلامس الإشكالية المشار إليها، وهي ملاحظة توجه إلى البحث بشأن مرتكز «الأمة/اللغة» عند الحصري.. فإن ثمة ملاحظتين أخريين، بالنسبة إلى البحث، نود الإشارة إليهما:

الأولى، وتتعلق بمسألة «الأمة/العلمانية».. إذ ـ رغم تأكيد الباحث، من خلال إشارته المطولة إلى العلاقة الخاصة بين العروبة والإسلام، لكنه، رغم ذلك، اكتفى بمجرد إطلالة سريعة على نقد الحصري للدين كعامل من عوامل القومية، دون ما توضيح لتلك المؤثرات الدافعة إلى «العلمانية»، كمرتكز ضمن مرتكزات الرؤية القومية عند الحصري.

الثانية، وتختص بمسألة «الأمة/الدولة».. إذ ـ يبدو أن ثمة «تجاوزاً» من جانب الباحث لمسألة الإقليمية، أو: الدولة القطرية.. وهو ما يتبدى واضحاً في عدم وجود أية إشارة عبر البحث إلى معادلة الحصري حول «الأمة/الدولة». وهي ملاحظة تنبع أهميتها، إذا ما تأملنا كيف «قلب» الفكر الوحدوي المعاصر (وهنا لا بد من وضع أكثر من خط تحت لفظة: الوحدوي)، في العقد الأخير من هذا القرن العشرين، معادلة الحصري ليحولها إلى: «الدولة/الأمة» (والأمثلة هنا كثيرة).

في هذا السياق، سياق هذه الملاحظات.. يبدو أن الباحث يدفعنا دفعاً، من خلال البحث المتميز الذي قدمه، إلى التفاعل (الإيجابي) معه، ومع البحث، في اتجاه مقاربة المفردة الاستفهامية: «لماذا؟!»، المفردة، نفسها، التي تبدأ بها ـ كما سبق أن أشرنا ـ تساؤلات ثلاثة، تتمحور حول مرتكزات الرؤية القومية لدى ساطع الحصري.

لماذا.. «الأمة/اللغة»؟!

لعل **أول** ما يواجهنا، في هذا الشأن، هو تأكيد الحصري على تأثير عاملي اللغة والتاريخ في تكوين القوميات.. ففي كتابه: **محاضرات في نشوء الفكرة القومية**، ١٩٥١، يكتب مؤكداً: «اللغة والتاريخ هما العاملان الأصليان اللذان يؤثران أشد التأثير في تكوين القوميات. ونستطيع أن نقول، إن اللغة بمثابة روح الأمة وحياتها، والتاريخ بمثابة وعي الأمة وشعورها».. بل إن هذا التأكيد، كان قد جاء متواكباً مع انتقاد الحصري للعوامل الأخرى التي شيدت عليها بعض النظريات أسسها في تعريف القومية: الأصل أو العنصر، الدين، المشيئة أو الإرادة، وحدة الاقتصاد، وجود الدولة.. إلخ.

فلماذا، إذن، التأكيد على «اللغة/التاريخ»، من جانب الحصري، دون ما العوامل الأخرى؟!

هنا، تتبدى بعض من أوجه القصور التي تعتري أغلب التفسيرات التي قدمت بخصوص هذا التساؤل. . فـ «الزعم» أن ذلك يعود ـ فقط ـ إلى كون الحصري قد استعار أفكاره من أوروبا، لا يتيح لنا معرفة السبب في إقدامه على الاستعارة من تيار واحد من الفكر الأوروبي، ألا وهو تيار القومية، دون غيره من التيارات الأخرى التي كانت في متناوله في حينه. . بل، لا يتيح معرفة السبب في توجهه ـ عبر تيار القومية نفسه ـ إلى النظرية القومية الألمانية، وتقديمها على كل نظرية سواها.

ربما يمكن تحقيق فهم أفضل للكيفية التي بنى بها الحصري معادلته: «اللغة/التاريخ = الأمة»، أو بشكل أكثر تحديداً: «اللغة = الأمة»، إذا ما حاولنا تأمل اثنين من المؤثرات التي ساهمت في توجهه ذاك.

الأول، يتعلق بالإدراك المتولد لدى الحصري بأن ثمة تشابهاً في التجزئة بين الأمة الألمانية قبل العام ١٨٧٠، وبين الأمة العربية في ظل الاستعمار. . إذ، عندما قدمت النظرية الألمانية العوامل الثقافية على غيرها من العوامل، وبخاصة العوامل السياسية، فلأن ذلك ـ فعلياً ـ كان الوضع في ألمانيا. فقد كانت الدويلات الألمانية هي فعلاً وواقعاً «دويلات»، وكانت ـ باستثناء بروسيا ـ في منتهى الضعف من جميع الوجوه السياسية والعسكرية، وكانت في أغلب الأحوال إمارات ودوقيات ارستقراطية سلالية إقطاعية. . بعبارة أخرى، عندما قال الألمان، على لسان فخته: «إن الأمة هي جميع الذين يتكلمون لغة واحدة»، كانوا ـ آنذاك ـ في احتياج إلى وجودهم كأمة لمواجهة هذه الوضعية، ولم يجدوا أمامهم رابطة بين كل تلك الدويلات إلا «اللغة الألمانية». و ـ بالتالي ـ تركزت نظرتهم على هذا الضوء، وتم ربط الأمة باللغة وحدها.

في هذا الإطار، وفي سياق اهتمام الحصري ـ في المقام الأول ـ بتقسيم المشرق العربي واحتلاله من قبل فرنسا وإنكلترا، ومعاينته لوجود «دول» عربية كثيرة، تولد لديه إدراك أن هذه الوضعية العربية تشبه، في الظاهر، الوضعية الألمانية قبل العام ١٨٧٠. وهذا «الظاهر» هو الذي أخذت به النظرة الحصرية، فكان واحداً من الدوافع (الأسباب) في التوجه إلى النظرية الألمانية في القومية. . أضف إلى ذلك، أن هذه الأخيرة (النظرية الألمانية)، عبر كونها تماهي بين الأمة واللغة، أتاحت لساطع الحصري أن يتصدى لجميع الدعوات «الإقليمية» التي كانت

رائجة في أيامه، وبخاصة: الفينيقية والسورية والفرعونية.

أما **المؤثر الثاني**، فيختص بمجموعة الأحوال الاجتماعية والسياسية ذات الصلة بنشأة الحصري ذاته.. ودون ما الغوص في تفصيلات، يمكن الرجوع بشأنها إلى مصادر عديدة ومتنوعة (ومن بينها أبحاث قدمت إلى هذه الندوة)، فإن الواجب الإشارة إليه، هنا، أن نشأة الحصري وتربيته كان لهما أثر كبير في تكوين أفكاره وتوجهاته «القومية». فقد أتقن العربية والتركية والفرنسية منذ صغره، وعاش بدايات شبابه في بلاد البلقان، التي كانت تغلي بالأفكار القومية، وفيها عايش ورأى، حسب ما يذكر مجيد خدوري في كتابه: **الاتجاهات السياسية في العالم العربي**، (١٩٧٢)، كيف كانت شعوب البلقان: «تتقاتل في ما بينها حول قضايا قومية بضراوة أشد من قتالها مع الأتراك، فاستخلص (الحصري) من ذلك أن فوارق اللغة والثقافة أعمق بين الأمم من فوارق الدين».. فلا عجب، إذاً، أن يتحول الحصري، بعد هذه التجربة، عن الفكرة العثمانية، كرابطة لشعوب الإمبراطورية، إلى الإيمان بفكرة العروبة، وبخاصة بعد سياسة التتريك التي انتهجتها جماعة «الاتحاد والترقي» بعد استلامها السلطة في الإمبراطورية (العثمانية) عام ١٩٠٨.

أضف إلى ذلك، أن الحصري ـ كان ـ ينتمي إلى إحدى العوائل المعروفة في حلب، وقد تمتع تحت الحكم العثماني بمزايا المكانة الاجتماعية، وحصل على أفضل أنواع التعليم المتاح لمن لهم الأصول الاجتماعية نفسها.. وعلى رغم أنه كان على صلة وثيقة بالوسط الاجتماعي والثقافي للمصلحين العثمانيين، ويحمل مطامح سياسية مشابهة لمطامحهم، إلا أنه، في الوقت نفسه، حسب ما يشير وليد قزيها في بحث له حول: «قراءة أخرى في مفهوم ساطع الحصري عن القومية العربية» (**الفكر العربي**: آذار/مارس ١٩٨٩)، كان: «مدركاً كل الإدراك، بصفته عربياً، لأفكار الوجهاء (الأعيان) العرب ومطامحهم، (لذا) حين آن الأوان لأبناء جلدته أن ينسلخوا عن الإمبراطورية، انتقل بسهولة ويسر ليأخذ مكانه بين مواطنيه».. ولعل هذا ما يبرر أن مفهوم الحصري عن القومية، قد طرح جانباً أي بحث يخص مسائل ناشئة من التفاوت الاجتماعي والاقتصادي، وبخاصة أن «الوجهاء»، في الإطار العام للحالة السياسية والاجتماعية السائدة في ذلك الحين، لم تشغلهم مسألة الدعوة إلى حقوق الفرد، أو الدفاع عن قضية الفقراء، وذلك بعكس «الاستقلال السياسي» الذي كان همهم الشاغل.

وهكذا، وعبر تأمل هذين المؤثرين، يبدو بوضوح أن «التوجه الحصري» إلى

تيار القومية في أوروبا، وبالتحديد إلى النظرية القومية الألمانية، أو بالأحرى النظرية الألمانية في القومية.. (هذا التوجه) لم يكن اختياراً اعتباطياً للأفكار، ولم يكن اختياراً لمثقف تستهويه بقوة النتاجات الثقافية للمجتمع الغربي، بقدر ما كان «خياراً» ساهمت فيه مؤثرات تتعلق بحالة التجزئة (تقسيم المشرق العربي واحتلاله من قبل فرنسا وإنكلترا)، وتختص بمجموعة الأحوال الاجتماعية والسياسية السائدة حينذاك.

ولعلنا لا نغالي إذا قلنا: إن هذا الخيار، نفسه، كان القاعدة التي تأسس عليها ما نراه من «اندفاع» الرؤية القومية لدى ساطع الحصري إلى التشديد على التماهي بين الأمة واللغة، إلى حد أنها أقامت بينهما علاقة تساو، وحولت المماهاة إلى معادلة رياضية صرف، يقبل طرفاها القلب والاستبدال بلا تمييز، بحيث يصح أن يقال ـ من منظور هذه الرؤية ـ الأمة = اللغة»، و«اللغة = الأمة»، على حد سواء.

لماذا.. «الأمة/ العلمانية»؟!

النتيجة التي وصلنا إليها تواً، أي: التشديد على التماهي بين الأمة واللغة، كمرتكز ضمن أهم مرتكزات الرؤية القومية لدى ساطع الحصري.. هذه النتيجة، هي ـ هي ـ ما يتكامل مع نتيجة أخرى وصل إليها الحصري تتعلق بمسألة علاقة الأمة بالدين، ونعني بها: تأكيده على نفي أن يكون للدين دور رئيسي في تكوين الأمم.

إذ رغم أن الحصري، في كتابه **أبحاث مختارة في القومية العربية**، ١٩٦٤، أشار إلى أن الدين: «يولد نوعاً من الوحدة في شعور الأفراد الذي ينتمون إليه ويثير في نفوسهم بعض العواطف والنزعات الخاصة التي تؤثر في أعمالهم تأثيراً شديداً، فالدين يعتبر من هذه الوجهة من أهم الروابط الاجتماعية التي تربط الأفراد بعضهم ببعض، وتؤثر بذلك في سير السياسة والتاريخ».. (رغم ذلك)، فإنه، في الكتاب نفسه، يعود ليؤكد أن تأثير الرابطة الدينية لا يتغلب أبداً على تأثير اللغة والتاريخ، بل ويلح على أن: «هذا التأثير يشتد ويتراخى، يتقوى أو يتلاشى حسب تطور علاقة الدين باللغة، ويبقى أمراً ثانوياً في تكوين القوميات بالنسبة لتأثير اللغة والتاريخ».

فلماذا، إذن، التأكيد (.. والإلحاح) الحصري على نفي دور الدين، وجعله أمراً ثانوياً ـ قياساً إلى اللغة والتاريخ ـ في تكوين القوميات؟!

خلافاً لما يعتقده البعض (السيد ياسين في **تحليل مضمون الفكر القومي** (١٩٨٢))، لم يصل الحصري إلى هذه النتيجة استناداً إلى تأثره بـ «الثقافة الغربية»، بقدر ما كان الواقع «السياسي ـ التاريخي» الذي واجهه، مبرراً لذلك. . فقد زالت الدولة العثمانية، دولة الخلافة، أمام أعين الحصري، وتأكد له أن الاعتماد على الدعاوى الإسلامية التي مثلتها السلطنة لتحرير العرب، لم يكن، ولن يكون مجدياً، وبخاصة أنها هزمت في الحرب الأولى (الحرب الأوروبية ١٩١٤ ـ ١٩١٩)، واستطاع الثوار العرب منذ العام ١٩١٦ أن يتصدوا لسياساتها، وأن يعملوا على إضعافها.

بل لا نغالي إذا قلنا إن الاهتمام والاعتماد على الدين (الإسلامي)، كـ «إطار سياسي» تتم داخله عملية الإعلان عن العروبة، كانا قد اهتزا لدى الحصري. . وبخاصة إذا ما لاحظنا، على الصعيد التاريخي، أن «العدو» الافتراضي للحركة القومية العربية الناشئة ـ مع أولى بواكير القرن العشرين ـ ومفكريها، وعلى امتداد ربع القرن الأول، كان هو الدولة العثمانية، وإلى «الرجل المريض» وجهت بالفعل رأس حربة هجومها.

وهكذا، أعني في ظل ظروف ذلك الواقع «السياسي ـ التاريخي»، نفى الحصري إمكانية أن يلعب الدين (الإسلامي) دوراً رئيسياً في قيام القومية (العربية). . ففي كتابه: **العروبة أولاً** (١٩٥٥) أكد على نفي هذا الدور، قائلاً: «. . فسياسة الدول لم تقم على أساس العلائق الدينية أبداً. . . العلائق السياسية لا تتبع العلاقة الدينية».

ولم يكتفِ الحصري بذلك، بل إنه أفرد كتاباً بعنوان: **العروبة بين دعاتها ومعارضيها** (١٩٥١) وخصص فيه جزءاً لتفنيد الأسس التي اعتمد عليها «رجال الدين» لمعارضة القومية (العربية) وتفضيل بعضهم للوحدة الإسلامية على الوحدة العربية. . ولعل أهم ما ينبغي ملاحظته، في هذا الشأن، أن الحصري كان قد «حصر» أثر الإسلام في نطاق اعتبارات الأخوة الإسلامية، وليس اعتبارات الرابطة السياسية الإسلامية. . ورغم أن موقف الحصري، هذا، في سياقه العام، يبعد عامل الدين (الإسلامي) عن الفكرة القومية، إلا أنه يعكس رغبة في «استقلال» عوامل الأخوة الإسلامية والعواطف والاعتبارات المعنوية التي يتيحها الإسلام في إقرار الفكرة القومية.

في ما يعنيه، يعني هذا أن اهتمام الحصري كان منصبّاً على «العلمانية» (إبعاد التأثير السياسي للرابطة الدينية)، ليس فقط كمحاولة للتأكيد أن «ولاء الفرد للأمة»

قبل أي شيء آخر. . ولكن، أيضاً، لإدراكه أن استناد دعوته للوحدة العربية على «الإسلام»، في ظروف مواجهة «الدولة العثمانية»، كان يمثل إشكالية، وبخاصة أنه ضمن البراهين التي اعتمد عليها «رجال الدين» - حينئذٍ - في رفض الدعوة القومية: «إن طاعة أوامر الخليفة واجب على المسلمين».

لماذا. . «الأمة/ الدولة»؟!

هنا، نلتقي بأكثر مقولات الحصري شهرة وانتشاراً، ونعني بها مقولته في ما يخص مسألة «الثقافة». . ففي كتابه **آراء وأحاديث في الوطنية والقومية** (١٩٤٤)، يكتب مؤكداً: «لأنني أعتقد بأن توحيد الثقافة من أهم العوامل التي تهيئ سائر أنواع التوحيد، فأقول بلا تردد: اضمنوا لي وحدة الثقافة، وأنا أضمن لكم كل ما بقي من ضروب الوحدة» (في الأصل: جاءت هذه المقولة في نهاية الخطاب المفتوح الذي وجهه الحصري إلى طه حسين على صفحات مجلة **الرسالة** المصرية في العام ١٩٣٨). . وهنا، فإن الحصري إذ يؤكد أن وحدة الثقافة ضامن لكل ضروب الوحدة، يصوّر الثقافة (بما تنطوي عليه - طبعاً - من عاملي اللغة والتاريخ) كعامل أول.

والحال، أن الحصري، هكذا، أسقط العامل السياسي وفعاليته، و- بالتالي - أسقط عامل «الدولة» على نحو بات قاطعاً، إطلاقياً، من رؤيته القومية، وهو ما أوصله - من ثم - إلى الفصل بين «الأمة» و«الدولة». . ففي كتابه، المشار إليه، يقول مؤكداً: «يجب علينا أن نعلم أن الدولة شيء، والأمة شيء آخر». ويتابع هذا التأكيد، في كتابه: **ما هي القومية؟** (١٩٥٩) قائلاً: «إن مفهوم الأمة يجب أن يفصل عن مفهوم الدولة فصلاً تاماً. . . فالأمة شيء، والدولة شيء آخر».

فلماذا، إذن، أصر الحصري، عبر رؤيته القومية، على أن يرى «الأمة»، وليس «الدولة»، أو حتى «الدولة - الأمة»؟!

مرة أخرى، نجد أنفسنا في مواجهة وضعية التأثر، نفسها، تأثر أطروحات الحصري بمضمون النظرية الألمانية في القومية. . فهذه النظرية كانت قد قدمت العوامل الثقافية على العوامل السياسية، لأن الاتجاه العام لعصر القوميات - آنذاك - كان يتمحور حول «أن الأمة هي التي تخلق الدولة»، إذ إن الدويلات الإقطاعية والسلالية ما كان يمكن إلا أن تزداد هشاشة، وإلى حد السقوط، في مواجهة الاندفاع «الثوري - البرجوازي» للأمة، المرفوعة إلى مرتبة العقيدة الكلية القدرة والفعالية.

بعبارة أخرى، فإن النظرية الألمانية في القومية، من حيث كونها تعتبر الأمة جوهراً والدولة عرَضاً، كانت تتيح لساطع الحصري أن يعتبر تجزئة الأمة العربية (أو: التجزئة في الوطن العربي)، مجرد حدث طارئ، خارجي العلة (من صنع الاستعمار)، ومنعدم التأثير في الهوية القومية.. وبالفعل، وكما يلمح جورج طرابيشي في كتابه **الدولة القطرية والنظرية القومية** (١٩٨٢) فإن الحصري: «لم يفصل مفهوم الأمة عن مفهوم الدولة، ولم يقدم العامل اللغوي والثقافي على العامل السياسي، إلا ازدراء بالدولة القطرية، وتوكيداً على حتمية زوالها كيما تخلفها، بحتمية مماثلة، الدولة القومية».

وفي ما يبدو، هكذا، فإن رؤية الحصري في القومية (العربية)، على وجه العموم، وموقفه تجاه الدولة «الإقليمية» (القطرية) بوجه خاص، تبدو وكأنها نوع من الاستجابة لسوط الضرورات (.. ضرورات الأربعينيات والخمسينيات).. هذا، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار حقل الرؤية «التاريخي» لساطع الحصري.

ويكفي دليلاً على قولنا الأخير، هذا، أنه عندما اكتشف شيخ المنظرين القوميين، في زمن متأخر ـ ومتأخر جداً ـ إشكالية الدولة (القطرية)، كتب معبراً عن هذه الإشكالية.. ففي كتابه **الإقليمية: جذورها وبذورها** (١٩٦٣) كتب يقول: «إن لكل دولة من الدول العربية القائمة سلسلة من الأمور الخاصة بها، يراها كل فرد من أفرادها منذ نعومة أظفاره، يألفها، ويرتبط بها نفسياً، ويشعر من جرائها بأنه مختلف عن غيره من منتسبي الدول العربية الأخرى».. ثم يستطرد، مؤكداً على تداعيات هذه الإشكالية على الفكرة القومية، قائلاً: «وأما فكرة القومية العربية ـ عند تعدد الدول ـ فتكون محرومة من أمثال هذه المعالم المادية الملموسة، وتبقى في حالة نزعة معنوية لا تجد أية مساعدة من طبيعة الحياة الإدارية والسياسية القائمة، بل قد تجد منها معارضة شديدة».

وماذا بعد؟

.. وبعد، فما كنا نتغيّا، من مداخلتنا هذه، أن نقدم بضع ملاحظات على هوامش البحث الذي بين أيدينا، وما كنا نتغيا أن نقدم رؤية نقدية إزاء أطروحات ساطع الحصري ورؤيته في القومية، أو تبيان «الخلل» في المرتكزات التي قامت على أساسها، بقدر ما كنا نريد إبراز أن البحث في فكر ساطع الحصري خارج حدود «حالته» السياسية والاجتماعية، وبعيداً عن إدراك حقل الرؤية التاريخي «لديه»، سوف يشوه معناه (معنى الفكر).. ليس هذا فقط، بل وسوف يحجب، أيضاً، مساهمة الحصري في التاريخ الفكري (.. والثقافي) الحديث للمشرق العربي.

بيد أن هذا لا يعني أن موقفنا «النقدي» من النظرية الحصرية، يمكن أن يكون موقفاً «توافقياً».. صحيح أن الحصري، على ميله إلى التعميم والتجريد، كان «عقلانياً» كبيراً، وفضله الذي لا مماراة فيه أنه أكسب «النظرية القومية» قوة المنطق.. وصحيح، أيضاً، أن رؤية الحصري في القومية (العربية) كانت ثمرة لجهود مفكر «عربي» استجاب، بتأثير واقعه «المجتمعي» ـ في الأساس ـ لسوط ضرورات الأربعينيات والخمسينيات.. إلا أنه يبقى من الصحيح، كذلك، رغم هذا وذاك، أن الحصري قد قام بـ «إسقاط» الواقع الأوروبي (الألماني بخاصة) على الواقع العربي، نتيجة لما تولد لديه بأن ثمة مشابهة «ظاهرية» بينهما.. وهو (الإسقاط) الذي لا يمكن اعتماده، لما يتسم به من أخطاء «منهجية» عديدة، ليس أقلها ما يتعلق بـ «ازدراء الدولة القطرية»، في اللحظات التي يودع فيها القرن العشرين عالمنا.

.. ولا يتبقى لنا، أخيراً، سوى أن نتساءل: هل، حقيقة، أن: «الدرس والبحث كانا وسيلة لإثبات نتيجة يبدو أن الحصري قد حصل عليها قبلاً؟».. أم أنهما كانا وسيلة اعتملت من خلالها، وعبرها، جدلية «الفكر ـ الواقع»؟!

المناقشـات

١ ـ يحيى الجمل (رئيس الجلسة)

بداية، في اعتقادي أن هذا الجيل، إن لم يكن طلائع للفكر القومي وللرسالة القومية، فسوف يكون جيلاً من الهنود الحمر، فالبديل الوحيد المطروح هو الهنود الحمر، ولا غرابة في هذا، فالمخطط الموجود ـ والذي لا ندركه ـ هو أن نكون جميعاً هنوداً حمراً.

وفي هذا السياق، أود الإشارة إلى ندوة سابقة نظمها وأعدها مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت منذ فترة قريبة، قدم فيها الدكتور أنطوان زحلان والدكتور نادر فرجاني بحثين عن الأوضاع العلمية في إسرائيل، والأوضاع العلمية في الوطن العربي. والحقيقة أن البحثين مخيفان ورهيبان، إذ أوضحا أن إسرائيل تأتي في المرتبة الأولى على مستوى العالم إنفاقاً على التعليم، إذ تنفق حوالى ٨,٤ بالمئة من إجمالي دخلها القومي، كما أنها تأتي في المرتبة الثانية من حيث الإنفاق على البحث العلمي، بينما على الجانب الآخر تأتي أوضاعنا الحياتية العربية العادية خالية تماماً من أي أسلوب أو نهج علمي.

بقيت ملاحظة أخرى أود الإشارة إليها، وهي أن ثمة فارقاً بين العقائدي المُبشر وبين المفكر، فساطع الحصري كان عقائدياً مبشراً، وهذا الصنف من العقائديين المبشرين ينطلق دائماً من مقولة أو فكرة يعبر عنها، ثم يأتي بعد ذلك دور المفكر لتأصيل وبحث مقولات وأفكار هؤلاء العقائديين المبشرين. واعتقادي أن ساطع الحصري كان يقود معركة ضارية، بيد أنه كان في خضم هذه المعركة عقائدياً عملاقاً ورائعاً، فضلاً عن أنه كان مؤمناً دائماً بما يقوله.

٢ ـ عبد القادر ياسين

لي عدة ملاحظات سريعة أوجزها على النحو التالي:

١ ـ ورد في البحث أن الإنسان حيوان ناطق وكل الحيوانات ناطقة، والإنسان حيوان له تاريخ، لذا له الأولوية على اللغة في مجال القومية.

٢ ـ لم يتبين من عرض الباحث ممن استلهم ساطع الحصري فكره القومي.

٣ ـ لماذا لم ينحز الحصري إلى مفكري البعث مثل الأرسوزي أو إلى مفكري القوميين العرب مثل قسطنطين زريق؟

٤ ـ أين موقع الحصري بين هاتين المدرستين السابقتين (الأرسوزي وزريق)؟

٥ ـ أين موقفه في المعركة التي استعرت في لبنان بين زريق ورئيف خوري حول الفكر القومي في مطلع الأربعينيات؟

٦ ـ هناك كلمة لم أفهمها في ما عرضه الدكتور محمد عبد الشفيع حينما قال إنه كان يعتقد بأنه «مُنظّر» ولكنه اكتشف أنه «ايديولوجي» وأنا أعتقد أن المصطلحين مترادفان.

٣ ـ أحمد ثابت

لي سؤالان: **الأول**، أنه تبعاً لمناهج البحث في القومية، والتي لا تؤثر في تناولنا للسياق الاجتماعي ـ الثقافي ـ الاقتصادي في هذه الفترة، هناك سؤال أساسي يرتبط بعوامل النهوض والقومية والبعث القومي وهو رؤية ساطع الحصري لحركة التاريخ وصيرورته، وما زلنا في المنطقة العربية حتى الآن نعاني هذه المسألة، بمعنى أن هناك رؤيتين، **إحداهما** تتبناها بعض التيارات الإسلامية ومفادها أن التاريخ لدى المسلمين والعرب في انحدار مستمر وضعف متواصل وابتعاد عن النموذج المؤسس في الدولة الإسلامية العربية الأولى، **والرؤية الثانية** وهي الرؤية القومية، وقد عانت من منظورين: المنظور الماضوي الخاص بحزب البعث، والمنظور الذي يرى أن التاريخ إلى تقدم وإلى صعود عبّر عنه جمال عبد الناصر في **الميثاق**. وحيث إن ساطع الحصري هو مؤسس الفكر القومي والحركة القومية العربية كان لا بد من أن يكون له رأي في هذا الأمر، وهذه قضية خطيرة بالفعل لأنه يُحمد لساطع الحصري أنه لم ينغلق في نموذج تاريخي ماضوي معين، وإنما ينطلق في آفاق رحبة.

وأختلف أيضاً مع الباحث في ما أثاره بالنسبة للعلمانية، عندما ذكر أن ساطع الحصري بتكوينه القومي من مصادر أوروبية والمدرسة الألمانية بالذات، فهي لم تكن بمعنى فصل الدين عن الدولة، ولكن لأن المرحلة كانت مرحلة نضال

سياسي ضد الاستعمارين العثماني والأوروبي، ففي هذه الفترة لم تهتم كافة التيارات الفكرية والسياسية كثيراً بمسألة التأصيل الفكري. والجانب الآخر أنها، وبخاصة في ما عدا بلاد المشرق العربي كانت فيها أديان وطوائف، ومن ثم إذا أثيرت مسألة أن الدين مكون رئيسي من مكونات القومية، فسوف يؤدي ذلك إلى التأثير في حركة التحرر الوطني العربية وفي المد القومي العربي، وأنا أتذكر في هذه الفترة أن كتاباً شبه ليبراليين وكتاباً ماركسيين مثل سلامة موسى وأحمد لطفي السيد كانوا يعتبرون أن الدين أحد المكونات، وبعضهم كان يعتبر أن الدين ليس مكوناً. ومن هنا في إطار المعركة السياسية في هذه الفترة كانت معركة نضال وتحرر وطني، وكانت حقيقة معركة اختيار، وربما أراد ساطع الحصري أن يتميز بعض الشيء عن المدارس الثلاث التي كانت موجودة في هذه الفترة ولم يكن في ذهنه أن يؤسس لحركة جديدة أو مدرسة جديدة.

والنقطة الأخيرة أختلف فيها مع الدكتور عبد الشفيع في ما ذكره في بحثه عن «مواجهة الأغيار»، فالأغيار مصطلح تستخدمه الصهيونية، ومن هنا قد يكون من الأفضل استخدام مصطلح «الآخرين».

٤ ـ محمد خالد الأزعر

البحث يوحي بأفكار كثيرة،أولها أننا أنفقنا من الوقت الكثير حول عوامل التكوين القومي ونشوء الأمة.. وأيها أسبق كعامل من عوامل القومية؛ الأرض أم اللغة أم الاقتصاد أم غيرها؟ وفي اعتقادي أنه يمكننا الاختصار بشدة في هذه النقطة.

٥ ـ أكرم خمايسي

الأستاذ ساطع الحصري عاش في المرحلة الممتدة من ١٩٥٢ حتى ١٩٦٧ في مصر، وكان موجوداً في قلب المعركة التي دارت بين حركة الثورة العربية والقوى الأخرى، وموجوداً أيضاً في المعركة التي دارت بين فصائل الحركة القومية، وخلالها انتقلت هذه الحركة القومية برمتها من المرحلة الرومانسية في الثلاثينيات والأربعينيات إلى ما يسمى بالمرحلة الواقعية، ورغم ذلك لم ألمح في تطوره الفكري هذا التطور الموازي، فقد ظل الأستاذ ساطع الحصري إلى آخر أيامه بالنمط والصيغ نفسها التي انطلق منها، هذا في حين نجد أن الرئيس عبد الناصر قد انتقل بالحركة القومية إلى مرحلة واقعية اهتم فيها بالجانب الاشتراكي في الموضوع، وكذلك فعل حزب البعث وقياداته التي تحولت فكرياً، بينما لم يهتم ساطع الحصري بذلك،

ومن ثم فقد غابت عنه الجوانب الاجتماعية والاقتصادية في فكرته عن القومية.

وثمة نقطة أخرى ربما نلتمس فيها للأستاذ ساطع الحصري أنه كان في مرحلة تاريخية معينة كانت تفرض فيها الظروف استبعاد عنصر الدين وعناصر أخرى كثيرة لأسباب كانت تتعلق بالحركة القومية، ومن ثم فعلينا قراءة أعمال الرجل وكتاباته في سياق مرحلته التاريخية.

٦ ـ سيد المرصفي

لي تعليق بسيط حول ما ذكره د. محمد عبد الشفيع من أن ساطع الحصري لم يركز على البعد العربي ـ الإسلامي في افريقيا، وركز فقط على الانتماء العربي فقط وهو لم يجد لذلك تفسيراً، وأنا أجد تفسير ذلك في ما ذكره الباحث عن أن ساطع الحصري رجل ايديولوجي، ومن هنا قد نلتمس له عدم تركيزه على الجانب الافريقي، لأن الفكرة القومية العربية في بداية تأسيسها كانت تحتاج إلى تركيز وجهد أكبر في تأصيلها، وعلى هذا الأساس رأى من منظور ايديولوجي عدم الإشارة للفكرة الافريقية حتى تتأسس وتتبلور الفكرة العروبية، وبعد أن حدث تطور في الفكر القومي العربي وجدنا عبد الناصر يتحدث عن الدائرة العربية والدائرة الافريقية والدائرة الإسلامية.

٧ ـ أحمد يوسف أحمد

أود فقط التأكيد على الآراء التي قيلت من أن هناك بعض الفجوات في الكتابات الفكرية لساطع الحصري، ولا أدري هل لأننا نعتمد أكثر مما ينبغي على الأعمال القومية له، في حين أن هناك كتابات لم يصل إليها بعضنا، لأنه كما تفضل أ. محمد خالد الأزعر، فقد كنا نتصور أن تكون لساطع الحصري مساهمات عريقة في القضية الفلسطينية، ولكن الحقيقة أنه لمسها دائماً لمساً خفيفاً، وهي مواقف سليمة مائة في المائة بيد أنها شديدة الاختصار.

وأيضاً لفت نظري أن معارك مثل تأميم قناة السويس وغيرها لم يكتب عنها الحصري حرفاً، وربما كان الموضوع الذي أعطاه حقه في الستينيات هو الوحدة المصرية ـ السورية، فهل هذا لأنه نذر نفسه لقضية محددة هي القومية وتداعياتها في المسألة الوحدوية، وهو بالتالي يعتبر نفسه مفكراً قومياً متخصصاً وليس مستعداً لأن يدلي بدلوه في كل صغيرة وكبيرة كما يفعل الكثير منا الآن! هل لأنه كتب أشياء لم

تصل إليها أيدينا؟ هل لأنه اكتفى بالقول والمشاركة في المناقشات؟ أنا أعتقد أن هذه النقطة تحتاج جهداً من المؤرخين والباحثين.

٨ ـ محمد الخولي

ملاحظة سريعة جداً، وهي خاصة بما وجه من ملاحظات للدكتور محمد عبد الشفيع عندما أشار إلى أن الدولة العثمانية كانت دولة أوروبية، ورأى البعض أنها لم تكن كذلك، وأؤكد في هذا الصدد أن الدولة العثمانية كانت دولة أوروبية آسيوية، لأنه كانت لها ممتلكات شاسعة في أوروبا، ولكنها منذ آخر ستينيات القرن الماضي وربما تحديداً عام ١٨٦٨ كفت تقريباً عن أن تكون دولة أوروبية وأصبحت تحديداً دولة آسيوية، بل كادت أن تكون دولة عربية إسلامية، وكان المسلمون في ذلك الوقت قبل ستينيات القرن الماضي لا يشكلون أكثر من ٦٠ بالمئة من سكان الدولة العثمانية، ولكنهم بعد هذه الفترة، وبعد أن فقدت الدولة ممتلكاتها في البلقان ووسط أوروبا أصبحوا معظم رعاياها. ومن هنا صحيح ما أشار إليه د. محمد عبد الشفيع من أنه كان لها طابع أوروبي إلى جانب الطابع الآسيوي.

٩ ـ حسين معلوم

فقط ثمة تساؤل حول ما ذكره الدكتور محمد عبد الشفيع عن مسألة إسقاط الدولة الإقليمية أو القطرية من دراسة فكر ساطع الحصري حول القومية، وهذه مسألة يبدو فيها أن ساطع الحصري قد اصطدم بواقع الدولة القطرية ومدى تطورها، بل ومدى ما تحاول أن تعيده من صياغة لتاريخها الخاص في إطار التاريخ العربي العام.

١٠ ـ محمد عبد الشفيع عيسى (يرد)

في ما ذكره الأستاذ محمد الخولي قد أختلف معه في نقطة أو نقطتين؛ الأولى، وهي الخاصة بالعلمانية، فالحقيقة أن المناسبة التي ذكرت فيها مصطلح «العلمانية» هي أن الحصري يمثل مدرسة محددة في التفكير السياسي العربي هي التي نهلت من منابع الحضارة الأوروبية الرأسمالية، فقد قامت هذه الحضارة على جملة مقومات رئيسية كان من بينها العلمانية، فكأن حديثي عن العلمانية كان في معرض الحديث عن مقومات الحضارة الأوروبية الرأسمالية، وليس في معرض الحديث عن معتقدات الحصري في حد ذاته. وقد يكون صحيحاً أنه نهل منها

ولكن يبقى السؤال: كيف نهل؟ وما هو التطبيق الفكري الخاص بفصل الدين عن الدولة عند الحصري؟ وأنا لم أقطع بأن ساطع الحصري كان علمانياً على النمط الغربي، وبخاصة أن كلمة العلمانية، كما أشار أ. محمد الخولي بحق، «حمّالة أوجه»، وهي في السياق العربي والإسلامي تختلف تماماً عن السياق الأوروبي.

وفي ما ذكره الأستاذ حسين معلوم في حديثه عن الدولة، أستطيع القول بأن الحصري كان مفكراً قومياً صافياً، وبالنسبة له كانت الدولة الإقليمية تمثل ارتداداً عن الفكرة القومية وعن تكوين الأمة الحقيقي، وبالتالي فما نراه في العقدين الأخيرين من بعث فكرة الدولة وإعطائها وزناً معيناً في السياق التاريخي العربي تحت أغطية جديدة مثل الدولة القطرية أو الدولة الوطنية، هذا كله لم يكن الحصري ليقبل به، وعنده كانت كل هذه الدول القائمة نقيضاً مباشراً للوحدة العربية، وبالتالي فإن التنظيرات الجديدة التي جاء بها المفكرون ليس لها محل في السياق النظري لساطع الحصري.

وفي ما أثاره الأستاذ عبد القادر ياسين من تساؤلات، أشير إلى أن فكرة أن الإنسان حيوان ناطق هي فكرة ساطع الحصري أساساً، وقد حاول أن يوجد لها مبررات. وفي ما أثاره من أن الحصري لم ينحز للبعث أو للقوميين العرب، فالحقيقة أن ساطع الحصري حاول طوال عمره أن يكون على مسافة من الحركات السياسية المنظمة رغم أنه كان جزءاً من الحركات السياسية والعقائدية، ولكنه - حسب علمي - لم ينتم إلى تنظيم أو حزب سياسي بشكل عضوي مباشر، وربما أشير هنا إلى أن ساطع الحصري في كتابه الصادر بعد الانفصال بعنوان **الإقليمية: جذورها وبذورها** اتخذ موقفاً واضحاً من الانفصاليين ومن حزب البعث، ولكنه على أي حال لم يكن منتمياً وبشكل عضوي لأحد هذه التنظيمات. ثم إنه لم يتخذ موقفاً مفصلاً من قضية الديمقراطية، فكان يركز، في ما يبدو، على قضية القومية، وربما يعود هذا - في رأيي - إلى الفجوات التي أشار إليها د. أحمد يوسف والتي قد تحيرنا جميعاً، فأنا لم أجد تفسيراً إلا أنه وهب نفسه لفكرة القومية العربية، واعتبر أن كل ما عدا ذلك يعتبر مدعاة للانحراف عن المثالي، ومن هنا كان جل اهتمامه منصباً على قضية القومية والمواقف المعبرة عنها.

وبالنسبة لسؤال أثير حول كيف أن الحصري كان ايديولوجياً وليس مُنظّراً، أتفق تماماً على ما قيل من أن الفارق بينهما دقيق كالشعرة، ولكن المنظّر قد يركز على الإطار الفكري الذي لا ينغمس مباشرة في المعارك السياسية، بينما الايديولوجي قد يكون منغمساً في هذه المعارك. وربما يقترب هذا مما قاله كارل

ماركس في الايديولوجيا الألمانية من أنه إذا كان الفلاسفة قد اكتفوا بتفسير العالم فعلينا نحن أن نبدأ بتغييره.

وفي ما ذكره الدكتور أحمد ثابت عن موقف ساطع الحصري من التاريخ، أعتقد أن المشكلة هنا أن ساطع الحصري له مفهوم معين للتاريخ، فهو لم ينظر إليه بوصفه سياقاً موضوعياً وإنما بوصفه ذاكرة قومية مبنية على جملة المشاعر القومية التي تعبر عن نفسها في أحاسيس وفي كتابات وغيرها، وبالتالي فهذا السؤال قد لا يكون في محله بالنسبة للحصري، ولكن إذا شئت أن تسأل عن موقف الحصري من التاريخ كذاكرة قومية، فأرى أن موقفه هو بعث الجوانب المشرقة في التاريخ القومي التي تشكل دوراً مشتركاً بين كافة أجزاء الأمة العربية، وقد أكد على هذا د. عبد الله عبد الدائم عندما أشار إلى مفهوم ساطع الحصري للتاريخ كدعامة من دعامات التربية القومية والوطنية، بمعنى أنه ينبغي أن نركز على ما هو مثبت للوعي القومي ونختار الصفحات المشرقة. فالتاريخ في نظره يعتبر تأريخاً من وجهة نظر قومية ووطنية تربوية.

وبالنسبة لما أثاره البعض من أن الحصري لم يركز على الحضارة العربية ـ الإسلامية لأنه كانت هناك حضارات متنوعة؛ الفرس، الترك، العرب، فكلها حضارات إسلامية مختلفة، فأتصور أنه في إطار الحضارة الإسلامية الشاملة كانت هناك حضارات إسلامية قومية: الحضارة العربية الإسلامية، الحضارة الإسلامية الفارسية، الحضارة الإسلامية ـ الهندية، المغولية.. الخ، وربما كان من الممكن أن نشتق فكرة تركز على إطار الحضارة العربي ـ الإسلامي ضمن الإطار الإسلامي العام.

وفي ما يتعلق بموقفه من اليهودية والصهيونية، فقد كانت له مواقف واضحة ومؤكدة ضد الصهيونية، وأيضاً أشار البعض إلى أن قبل الحصري كان هناك تركيز على المنطقة العربية الآسيوية، حتى ان جميل عازوري في كتابه عن يقظة الأمة العربية كان عنوان كتابه **يقظة الأمة العربية في تركيا الآسيوية**، وأشير هنا إلى أنه حين عُقد المؤتمر العربي الأول في باريس عام ١٩١٣ كان هناك تركيز على تركيا الآسيوية حتى ان أحد الطلبة المصريين طلب الكلمة فلم يأخذها بحجة أنه ليس من آسيا. ومن هنا فالنقلة الكبيرة التي قدمها الحصري أنه جعل الفكرة القومية فكرة شاملة، وربما يكون هذا أحد الأسباب التي جعلته يركز تركيزاً شديداً على اللغة.

الفصل الثالث

ساطع الحصري والوحدة العربية

أحمد يوسف أحمد

مقدمة

هذه الدراسة جزء من عمل بحثي أوسع يهدف إلى تقديم صورة شاملة قدر المستطاع لمساهمات ساطع الحصري ـ ذلك المفكر العربي القومي ذي الدور الريادي ـ في الفكر القومي العربي، ولذلك فسوف تركز الدراسة مباشرة على موضوعها، فلا معنى مثلاً لتكرار الحديث عن الظروف والملابسات التي أحاطت به وأثرت فيه في ظل وجود دراسة لـ د. خيرية قاسمية عن حياة ساطع الحصري، أو لتخصيص جزء من الدراسة عن مصادر فكره طالما يفترض أن د. وميض نظمي مكلف بدراسة مستقلة عن الموضوع، أو للإسهاب في تحليل نظريته في القومية التي تفسر موقفه من الوحدة العربية، حيث إن د. محمد عبد الشفيع عيسى قد أعطى هذا التحليل حقه في الدراسة التي أعدها في سياق هذا العمل البحثي الواسع، أو للاستغراق في عمليات التقويم التي وفى بها د. عبد العزيز الدوري في بحثه المعنون «ساطع الحصري في الفكر القومي». ومع ذلك فإن عزل هذه الدراسة عن غيرها من الدراسات تماماً يبدو عملاً مستحيلاً، ناهيك عن أنه غير مرغوب فيه، فلا بد من إشارة هنا أو هناك إلى نظريته في القومية، أو من الإدلاء ببعض الملاحظات النقدية ذات الصلة المباشرة بموضوع الدراسة، وهكذا.

وفي السياق السابق، رأيت أن النهج المناسب في إعداد هذه الدراسة قد يتمثل في الاستعانة بتحليل المضمون في صورته الكيفية، فأخضعت لهذا التحليل ما يعرف بالأعمال القومية لساطع الحصري، وتتكون من سبعة عشر كتاباً نشرت

لأول مرة ما بين الأربعينيات والستينيات، وإن كانت تضم أعمالاً له كتبها منذ نهاية العشرينيات، وقد أعاد مركز دراسات الوحدة العربية نشر هذه الكتب فيما بين سنتي ١٩٨٤ و١٩٨٥، فأسدى بذلك للمهتمين بالفكر القومي خدمة جليلة.

ولقد كان اختياري لتحليل المضمون الكيفي مفضلاً على تحليل المضمون الكمي مبنياً على اعتقاد أرجو أن يكون صحيحاً بأن الأول أكثر قدرة على تبيان الروح والجوهر الحقيقيين لموقف ساطع الحصري من الوحدة العربية بعيداً عن لغة الأرقام التي قد تبدو أكثر دقة، لكنها قد تكون أقل اتساقاً مع الطبيعة «العضوية» لفكر ساطع الحصري إذا جاز التعبير.

ولقد نأيت عن أن يكون لهذه الدراسة بعد مقارن، في محاولة لتحقيق قدر أكبر من التعمق في تحليل موضوعها ذاته، فالمقارنة لكي تأخذ حقها كانت لتتطلب جهداً فائقاً وحيزاً أوسع لا يتناسبان والوقت والمساحة المخصصين لإنجازها، وبخاصة أنه ليس ثمة مرجعية عامة لما يسمى بالفكر القومي العربي، الأمر الذي كان سيؤدي بدوره لكي تكتمل عملية المقارنة إلى ضرورة النظر إلى فكر الرجل ومواقفه في مقارنة بعدد غيره من المفكرين القوميين البارزين، وهي مهمة أتركها لدراسات قادمة أقوم بها أو يضطلع بها غيري. ومع ذلك فإن الخبرة النسبية التي يزعمها الباحث لنفسه بقضايا الفكر والحركة على الصعيد القومي، قد أتاحت له أحياناً نوعاً من النظر إلى فكر ساطع الحصري ومواقفه من قضية الوحدة العربية من منظور مقارن بالإطار العام للأفكار والمواقف الشائع أنها تمثل بصفة عامة مرجعية قومية.

وتنقسم هذه الدراسة إلى أقسام أربعة على النحو التالي:

أولاً: مفهوم الوحدة العربية لدى ساطع الحصري وعلاقته بغيره من المفاهيم.

ثانياً: تحليل ساطع الحصري لواقع التجزئة العربية.

ثالثاً: بناء الوحدة العربية لدى ساطع الحصري.

رابعاً: ساطع الحصري والتجارب الوحدوية العربية المعاصرة.

أولاً: مفهوم الوحدة العربية
لدى ساطع الحصري وعلاقته بغيره من المفاهيم

ارتبط مفهوم الوحدة لدى ساطع الحصري بالقومية ارتباطاً تاماً على نحو ما سنرى، غير أن فهم المكانة العليا لهذا المفهوم عنده لا يمكن أن يكتمل ما لم نبحث وضعه في منظومة دوائر الانتماء الأخرى كما رآها، ولما كان من الواضح أن مفهومه للوحدة يمكن أن يوصف بـ «المثالية» كما سيجيء، فمن الأهمية بمكان

أن نبحث أيضاً في علاقة الوحدة بالمصلحة في فكر ساطع الحصري، وعلى ذلك فسوف يتضمن هذا الجزء ثلاث نقاط فرعية:

١ ـ مفهوم الوحدة وتطبيقه على الحالة العربية

ارتبط مفهوم الوحدة لدى ساطع الحصري بالقومية ارتباطاً تاماً، فالأمة قد تؤلف دولة واحدة مستقلة، غير أنها قد تؤلف أيضاً دولاً عديدة، وهنا تتجاوز القومية حدود هذه الدول، وتسعى إلى ربطها جميعاً، وتنزع إلى إنشاء دولة عامة تجمع وتوحد تلك الدول المتعددة بشكل من الأشكال، كذلك قد تكون الأمة محرومة من دولة خاصة بها، وتابعة لدولة أجنبية عنها، وهنا تعارض القومية ذلك الوضع أشد المعارضة، وتولد في نفوس المنتمين إليها نزوعاً إلى الاستقلال عن الدولة المذكورة، وتكوين دولة خاصة بهم، وأخيراً قد تكون الأمة محرومة من الاستقلال، وفي الوقت نفسه مجزأة بين عدة دول أجنبية عنها، وهنا تدفع القومية في تلك الأمة المجزأة إلى العمل على الاستقلال عن جميع الدول الحاكمة لها من جهة، والاتحاد فيما بينها من جهة أخرى لتكوين دولة قومية جديدة، تجمع أقسام الأمة المتجزئة تحت لواء واحد[١].

ومن استعراض الحالات الأربع السابقة التي أوردها ساطع الحصري يتبين أن المبدأ الحاكم في التنظيم السياسي هو القومية، فالوضع الأمثل لديه لهذا التنظيم عندما يتجلى في مؤسسة الدولة أن تكون حدود هذه الدولة متطابقة مع حدود القومية، وهكذا تكون القومية قوة انفصالية إذا كانت الأمة خاضعة لغيرها، وقوة توحيد إذا كانت الأمة مجزأة، ويمكن أن تعمل كقوة فصل وتوحيد في الوقت نفسه عندما تكون الأمة مجزأة بين أكثر من دولة وخاضعة في الوقت ذاته لحكم خارجي عنها في إطار تلك الدول. ولذلك انتهى ساطع الحصري إلى أن الفكرة القومية قد صارت منذ أوائل القرن الماضي من أهم الأفكار «التي غيرت وجه التاريخ ومجراه: لقد تفككت أوصال الامبراطوريات التي كانت تتألف من قوميات عديدة، وبعكس ذلك اتحدت الدول والدويلات التي كانت تنتسب إلى قومية واحدة، فاكتسبت خارطة أوروبا السياسية من جراء ذلك شكلاً

---

(١) ساطع الحصري، «الوطنية والقومية: بحث تمهيدي عام (من دروس دار المعلمين العالية ببغداد)،» في: ساطع الحصري، **آراء وأحاديث في الوطنية والقومية**، سلسلة التراث القومي. الأعمال القومية لساطع الحصري؛ ١ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٤)، ص ١٠ ـ ١١ (نشر الكتاب لأول مرة عام ١٩٤٤).

جديداً يختلف عن شكلها القديم اختلافاً كلياً»[٢].

ويترتب على ذلك بداهة أنه لما كان ساطع الحصري من المؤمنين بالحقيقة القومية العربية، فقد كان طبيعياً أن يعتبر الوحدة العربية الحالة المثلى للتنظيم السياسي للأمة العربية، فإن «فكرة القومية العربية تعني الإيمان بوحدة الأمة العربية»[٣].

٢ ـ علاقة الوحدة العربية بدوائر الانتماء الأخرى

إذا كانت الوحدة العربية تمثل لدى الحصري التنظيم الأمثل للحياة السياسية في الوطن العربي، فما علاقتها بدوائر الانتماء الأخرى الأضيق منها والأوسع كالدائرة الوطنية والدائرة الإسلامية... الخ؟ في هذا السياق ناقش الحصري علاقة الوحدة العربية بكل من الوطنية والإسلامية والشرق أوسطية والمتوسطية والأفروآسيوية والعالمية، وقد يلاحظ القارئ أن الدوائر ذاتها ما زالت تثير حتى الآن جدلاً سياسياً واسعاً حول معظمها.

وقد طُرح العديد من هذه الدوائر بشكل واع أو غير واع كأطر موازية أو بديلة للوحدة العربية تدور فيها حركة البلدان العربيّة في الساحَة الدولية، واهتم الحصري بأن يبين عدم تعارض بعضها مع الوحدة العربية، واستحالة أن تنشأ في إطار البعض الآخر روابط سياسية وحدوية، محتفظاً بمكان القمة دائماً للوحدة العربية، واتخذ من ناحية ثالثة موقف المعارضة الصريحة من بعضها.

وفيما يتعلق بالدائرة الوطنية نشر الحصري مقالة في مجلة **الرسالة** عام ١٩٣٨ رد فيها على رأي د. طه حسين ورد فيه «إن المصري مصري قبل كل شيء، فهو لن يتنازل عن مصريته مهما تقلبت الظروف»، ونفى الحصري دون تردد أن الوحدة العربية تتطلب من المصريين التنازل عن المصرية، بل إنها تطلب إليهم «أن يضيفوا إلى شعورهم المصري الخاص شعوراً عربياً عاماً»، وتساءل عما إذا كان

---

(٢) انظر: ساطع الحصري: «وحدة اللغة ووحدة القومية،» في: ساطع الحصري، **دفاع عن العروبة**، سلسلة التراث القومي. الأعمال القومية لساطع الحصري؛ ١٠ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥)، ص ٩٥ (نشر الكتاب لأول مرة عام ١٩٥٦)، و«قضايا مختلفة: كلمة الوحدة،» في: ساطع الحصري، **العروبة بين دعاتها ومعارضيها**، سلسلة التراث القومي. الأعمال القومية لساطع الحصري؛ ٤ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٤)، ص ٥١ (نشر الكتاب لأول مرة عام ١٩٥١).

(٣) ساطع الحصري، «أمنية الوحدة،» في: ساطع الحصري، **حول القومية العربية**، سلسلة التراث القومي. الأعمال القومية لساطع الحصري؛ ١٤ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥)، ص ٢٦٥ (نشر الكتاب لأول مرة عام ١٩٦١).

د. طه حسين يملك برهاناً على أن ذلك من نوع «طلب المحال»، أو أن العروبة والمصرية ضدان لا يجتمعان.

وأما قول د. طه حسين بتأصل الفرعونية في نفوس المصريين، فقد رد عليه الحصري باستيضاح المعنى المقصود، وأكد على أنه لا يمكن أن يكون المقصود منه هو الأخذ بحضارة الفراعنة بديلاً من الحضارة العلمية الحالية، أو الديانة الفرعونية أو اللغة والثقافة الفرعونية أو السياسة الفرعونية، وعلق على قول د. طه حسين بأن مطالبة مصر بالتخلي عن مصريتها تعني مطالبتها بهدم أبي الهول والأهرام، والتغاضي عن آثارها بأنه ـ أي د. طه حسين ـ يخلق للفكرة العربية خصوماً وهميين، فالتعارض والتصادم لا يحدثان إلا بين الأشياء التي تسير على مستوى واحد، والفكرة العربية التي تعمل للمستقبل في القرن العشرين لا يمكن أن تتعارض مع آثار لماض سحيق، فمصر قد تباعدت عن ديانة الفراعنة ولغتهم دون أن تخرب آثارها، فلماذا يستوجب تحقيق الوحدة العربية ذلك؟[4] وأضاف الحصري بعد ما يقرب من عشرين سنة على هذا الحوار أنه لا شك في حق المصريين بالافتخار بالأمجاد التي حققتها الحضارة الفرعونية، غير أنه لا يجوز لهم التنكر للعروبة بحجة الارتباط بالحضارة الفرعونية، فهذه الحضارة ـ مثل الحضارات السومرية والآشورية والفينيقية ـ ماتت واندثرت، أما العروبة فهي «حاضر حي»، بل هي فاتحة لمستقبل باهر[5].

أما الوحدة الإسلامية، فقد ناقشها تفصيلاً في معرض تناوله للآراء والمناقشات الخاصة بالمفاضلة بين الوحدة العربية والوحدة الإسلامية، وقد استعرض في مقالة له نشرت في مجلة **الرسالة** عام ١٩٣٩ حجج أنصار الوحدة الإسلامية (القوة التي ستنجم عنها أكبر ـ الشعور الديني أقوى من القومي ـ هناك بالفعل أطر تجمع أناساً اختلفت لغاتهم كالاشتراكية والشيوعية ـ الوحدة العربية دسيسة يقصد منها الحيلولة دون تحقيق الوحدة الإسلامية) ورد عليها بالحجج التالية:

---

(٤) ساطع الحصري، «بين مصر والعروبة: كتاب مفتوح إلى الدكتور طه حسين،» في: الحصري، **آراء وأحاديث في الوطنية والقومية**، ص ٧٦ ـ ٧٧.

(٥) ساطع الحصري، «مواضيع البحث،» في: ساطع الحصري، **العروبة أولاً**، سلسلة التراث القومي. الأعمال القومية لساطع الحصري؛ ٩ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥)، ص ٨٢ (نشر الكتاب لأول مرة عام ١٩٥٥).

أ ـ يجب أن يكون واضحاً أن المقصود بالوحدة في الحالتين هو الوحدة السياسية (بين الأقطار العربية في حالة الوحدة العربية والأقطار الإسلامية في حالة الوحدة الإسلامية)، ولما كان العالم الإسلامي يشمل الأقطار العربية، فلا شك في أن تحقيق الوحدة العربية أسهل من الإسلامية، وبخاصة أن كل أمة من الأمم الإسلامية تجابه مشاكل اجتماعية واقتصادية وسياسية خاصة بها نظراً لاختلاف أوضاعها الجغرافية وخبراتها التاريخية، ومن هنا ليس ممكناً القول بالوحدة الإسلامية دون القول بالوحدة العربية، بينما لو كان العكس هو الصحيح ـ أي أن العالم العربي أوسع نطاقاً من الإسلامي ـ لجاز القول بالوحدة الإسلامية دون العربية، وانتهى الحصري إلى أن كل من يعارض الوحدة العربية يكون قد عارض الوحدة الإسلامية، وكل من عارضها ـ أي الوحدة العربية ـ بحجة تفضيل الوحدة الإسلامية، فإنه يكون قد خالف المنطق(٦).

وقد يكون من المفيد هنا أن نذكر أن معارضي الوحدة العربية من هذا المنطلق ـ أو بعضهم على الأقل ـ إنما كانوا ينطلقون من رفض اعتبار الوحدة العربية غاية نهائية للعمل الوحدوي، دون أن يعترضوا بالضرورة على تحقيقها كمرحلة في الطريق إلى الوحدة الإسلامية التي اعتبرها الحصري مستحيلة(٧).

ب ـ إن القول بصعوبة الوحدة الإسلامية السياسية لا يعني إنكار مبدأ الأخوة الإسلامية، أو معارضة مساعي النهوض والتفاهم بين المسلمين، على أن ذلك ليس كافياً بطبيعة الحال لتحقيق الوحدة السياسية.

ج ـ إن خبرة التاريخ تثبت أن الأديان العالمية لم تتمكن من توحيد الشعوب التي تتكلم بلغات مختلفة إلا في القرون الوسطى، وفي ساحات محدودة فقط، ولمدة قصيرة من الزمن فحسب، واستشهد في هذا السياق بالخلافة العباسية التي لم يمض وقت طويل على تأسيسها إلا وقد أصبحت سلطتها على بعض الأقطار معنوية، فلم تقو على الحيلولة دون انفراط عقد الأقطار المذكورة، وتحولها إلى وحدات سياسية عديدة مستقلة.

وقد فات الحصري في هذا السياق أن عملية التفكك هذه قد طالت البلدان العربية أيضاً، ولم تكن قاصرة على تلك البلدان المسلمة التي لا تتحدث العربية،

---

(٦) المصدر نفسه، ص ٨٧، وساطع الحصري، «بين الوحدة العربية والوحدة الإسلامية،» في: الحصري، آراء وأحاديث في الوطنية والقومية، ص ٥٩ ـ ٦١.

(٧) ساطع الحصري، «حول الوحدة العربية: كتاب مفتوح إلى الدكتور طه حسين،» في: الحصري، آراء وأحاديث في الوطنية والقومية، ص ٨٧.

كما فاته أن أكثر القوى التي استطاعت توحيد معظم العرب بعد ذلك لقرون من الزمان لم تكن عربية، وهي الدولة العثمانية.

د ـ إن الاستشهاد بالروابط الاشتراكية والشيوعية. . . الخ ليس منطقياً لأن الاشتراكيين والشيوعيين وغيرهم لم يؤلفوا وحدة سياسية.

هـ ـ إن القول بأن الوحدة العربية خلقت لمحاربة الوحدة الإسلامية، وذلك لفصل بعض الأقطار الإسلامية تسهيلاً لإدامة السيطرة عليها هو أكثر الآراء مجافاة للمنطق، نظراً لما سبقت الإشارة إليه من أن الوحدة الإسلامية مستحيلة بدون الوحدة العربية. أما الاستشهاد بأن الانكليز قد سايروا الحركة العربية لهذا الغرض، فهو لا يدل إلا على أنهم أكثر عملية في السياسة، وأسرع فهماً لنفسيات الأمم وحقائق الاجتماع: «إنهم عرفوا القوة الكامنة في الفكرة العربية قبل غيرهم، فرأوا أن يسابروها بعض المسايرة، ويصانعوها بعض المصانعة ـ بدلاً من محاربتها مباشرة ـ ليدفعوا ضررها عنهم، ويجعلوها أكثر ملاءمة لمصالحهم». وإذا كان تأييد الانكليز للفكرة العربية حجة عليها، فقد ذكَّر الحصري بأنهم «هم أنفسهم الذين خلصوا الدولة العثمانية من استيلاء الروس عدة مرات، وأوقفوا الجيش المصري في قلب الأناضول»[٨].

أما الرابطة الشرق أوسطية، فقد فندها الحصري تماماً، ابتداءً من نحت المصطلح نفسه ناسباً إياه إلى العادة الأوروبية ـ الأمريكية في النظر «إلى بلادنا والبلاد المجاورة لنا من منظورهم الخاص من خلال مصالحهم الاقتصادية والسياسية والعسكرية، ولذلك حددوا على خارطة الأرض حول ملتقى قارتي آسيا وأفريقيا منطقة سموها باسم «الشرق الأوسط»، وصاروا يولونها اهتماماً خاصاً، فيجعلونها موضوع دراسات وأبحاث وإذاعات خاصة»[٩].

ودلّل على الطبيعة المصلحية لنحت هذا المصطلح بتفرقة السياسة البريطانية اعتباراً من عام ١٩٤٢ بين الشرق الأوسط والشرق الأدنى لاعتبارات حربية، ثم اعتبار مصطلح الشرق الأدنى بعد ذلك بتسع سنوات ومن قبل الدوائر البريطانية المسؤولة تعبيراً «فات أوانه» على الصعيد الرسمي، وبرر الحصري ذلك بالدوافع السياسية الاستراتيجية للسياسة البريطانية، ففي عام ١٩٤٢ كانت تحارب في البلاد

---

(٨) الحصري، «بين الوحدة العربية والوحدة الإسلامية،» ص ٦١ ـ ٦٥. انظر أيضاً: ساطع الحصري، «رد على تصريحات الشيخ المراغي،» في: الحصري، **آراء وأحاديث في الوطنية والقومية،** ص ١٠٥ ـ ١٠٦.

(٩) ساطع الحصري، «العالم العربي والشرق الأوسط،» في: الحصري، **دفاع عن العروبة،** ص ٧٧.

الشرقية المذكورة في جبهتين مختلفتين، ولذلك رأت أن تقسم القيادة إلى قيادتين مستقلتين، وتبريراً لذلك عززت فكرة الشرقين الأدنى والأوسط، ولكن خلال عام ١٩٥١ صارت تضع خططها الحربية على أساس جبهة واحدة، فلم تعد ترى لزوماً لتقسيم البلاد المذكورة إلى منطقتين(١٠).

وقد لفت الحصري النظر إلى النقل العربي لهذه المصطلحات على أساس الظن بأنها نظرات علمية تستند إلى حقائق جغرافية، لافتاً النظر إلى أن مفهوم الشرق الأوسط يشطر العالم العربي إلى شطرين: الشطر الغربي الذي يهمله المفهوم كلياً، والشطر الشرقي الذي يحشر مع طائفة من البلاد غير العربية، فتطمس بذلك شخصيته العربية الخاصة، ولذلك انتهى إلى أن فكرة الشرق الأوسط تعرقل تبلور مفهوم العروبة تبلوراً سليماً، وتحول دون تكوين فكرة العالم العربي تكويناً سوياً(١١).

وفي هذا الإطار اعترض الحصري في اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية على اقتراح منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) في عام ١٩٤٨ إنشاء مركز ثقافي خاص بالشرقين الأدنى والأوسط، لأن الثقافات لا تتبع التقسيمات الجغرافية الطبيعية أو السياسية، فإنشاء مراكز ثقافية على أسس جغرافية يخالف طبيعة الثقافة مخالفة كلية، فإذا أرادت اليونسكو أن تنشئ مراكز فرعية، فعليها أن تفعل ذلك على أساس الخصائص الثقافية لا على أساس التقسيمات الجغرافية والسياسية.

كما عارض الحصري المشروع من الوجهة القومية لاعتقاده بأن الثقافة العربية قد تبلبلت إلى أقصى الحدود من جراء سيطرة الثقافات الأجنبية المختلفة على مختلف أقطارها، فهي في حاجة الآن إلى لم الشعث، والتحرر من سيطرة الثقافات الأجنبية لكي تكسب شخصية واضحة، فتصبح عربية عصرية: «لا يجوز لنا أبداً أن نوجه جهودنا نحو مركز ثقافي لا يشمل إلا جزءاً من البلدان العربية، ويحشر ثقافة هذا الجزء نفسه مع ثقافات تركيا وإيران، فيعرقل بذلك نموها نمواً سوياً. . . يجب علينا أن ننضم إلى الهيئات الدولية التي تعنى بشؤون العلم والتربية والثقافة لكي نرتوي بزلال العلم والمعرفة والثقافة من منابعها الأصلية، ويجب علينا أن نسعى إلى تأليف منظمات علمية وثقافية تشمل جميع البلاد العربية، ولكنه لا يجوز لنا أن نساهم في تكوين مركز ثقافي يشمل البلاد المعروفة باسم الشرق الأوسط، ونتجاهل بذلك شخصية عالمنا العربي»(١٢).

---

(١٠) المصدر نفسه، ص ٨٩ ـ ٩١.

(١١) المصدر نفسه، ص ٧٧ ـ ٧٨.

(١٢) المصدر نفسه، ص ٨٥ ـ ٨٦.

وإذا كان مصطلح الشرق الأوسط (أو الأدنى) مصطلحاً مختلقاً مصطنعاً، كما أوضح الحصري، فقد واجه مصطلحاً آخر يقوم على حقيقة جغرافية طبيعية، هي رابطة البحر الأبيض المتوسط، ويقرر الحصري في هذا الصدد: «أن الانتساب إلى شواطئ بحر من البحار الكبيرة لم يكوّن رابطة سياسية قوية في أي يوم من الأيام، والبحر الأبيض المتوسط نفسه صار مسرحاً لحروب كثيرة وطويلة قامت بين الشعوب التي تقطن شواطئه... وإذا تذكرنا التنازع السياسي والحربي الذي قام وتوالى بين هذه الدول والشعوب في الماضي القريب منذ أوائل القرن الحاضر... تأكدنا من أنه لا يوجد شيء يمكن أن يسمى «رابطة البحر المتوسط» لا من جهة السياسة، ولا من جهة الثقافة».

وأكد الحصري ـ استمراراً للمنطق ذاته ـ أن علاقة مصر المتوسطية بالجزيرة العربية مثلاً أو العراق أقوى وأعظم بكثير من علاقتها بالدول المتوسطية الأوروبية، أما علاقتها ـ أي مصر ـ بالدول المتوسطية العربية، فلا تستند إلى رابطة البحر المتوسط، بل تقوم على روابط التاريخ واللغة والثقافة، ونسب الحصري الفكرة إلى عدد غير قليل من كتّاب فرنسا وساستها بغية إدامة حكمهم على المغرب العربي، وبسط سيطرتهم على الشام، وتبعيد سكان البلاد المذكورة عن فكرة العروبة[١٣].

ولا شك في أنه كان من البديهي أن يرفض الحصري مفهوم الثقافة المتوسطية باعتبار إيمانه بأن الثقافة دالة في اللغة، أما مفهوم الحضارة المتوسطية فقد قبله، لأن الحضارات تكون شاملة لمجموعة من الأمم، ولكن الحضارة المتوسطية ـ كغيرها من الحضارات القديمة التي سبقت الإشارة إليها ـ أصبحت حقيقة تنتمي إلى الماضي يكون الالتفات إليها بمثابة الرجوع إلى الوراء[١٤].

وقد طبق الحصري المبدأ التحليلي نفسه على الروابط القارية الافريقية والأفروآسيوية، «فالانتساب إلى قارة من القارات لم يكوّن «رابطة سياسية» في دور من أدوار التاريخ. لم تتحد شعوب قارة من القارات لا في القرون القديمة، ولا في القرون الوسيطة، ولا في القرون الحديثة، حتى ان القارة الأوروبية نفسها، وهي أرقى القارات بوجه عام لم تتحد في يوم من الأيام، بل إنها صارت مسرحاً لسلسلة طويلة من الحروب الطاحنة التي نشبت بين شعوبها المختلفة. وبعكس ذلك

(١٣) الحصري، «مواضيع البحث،» ص ٧١ ـ ٧٣.

(١٤) ساطع الحصري، «الثقافة العربية وما يسمى ثقافة البحر المتوسط،» في: ساطع الحصري، آراء وأحاديث في العلم والأخلاق والثقافة، سلسلة التراث القومي. الأعمال القومية لساطع الحصري؛ ٦ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥)، ص ٣٩ ـ ٥١ (نشر الكتاب لأول مرة عام ١٩٥١).

استطاعت دول عديدة في مختلف أدوار التاريخ أن تبسط حكمها على أراضٍ لا تقف عند حدود القارة الواحدة... ويظهر من ذلك كله أن السياسة لا تتقيد بحدود القارات... كذلك فإن الثقافة أيضاً لا تتقيد بحدود القارات، والقارة الواحدة تنقسم إلى مناطق ثقافية عديدة، كما أن المنطقة الثقافية الواحدة قد تضم بلاداً تقع في أكثر من قارة واحدة»[١٥].

ولذلك انتهى الحصري إلى القول بصراحة: «إني من المؤمنين بالوحدة العربية إيماناً لا يتزعزع، ولكني لست من المؤمنين بالوحدة الأفريقية أو الوحدة الأفريقية ـ الآسيوية أبداً، بل بعكس ذلك إني أعتقد اعتقاداً جازماً بأن الوحدة الأفريقية والوحدة العربية الآسيوية والوحدة الأفريقية ـ الآسيوية كلها ضرب من ضروب المستحيلات التي لا يجوز لنا أن نضيع أوقاتنا وجهودنا بالسير وراءها والعمل من أجلها». وسلم الحصري بأنه من الممكن، بل من الواجب أن تتعاون مصر وسائر البلاد العربية في الميدان الدولي مع الدول الأفريقية والآسيوية، وكل شعب يعاني الاستعمار، وكل دولة حديثة الاستقلال، وأن يصل هذا التعاون إلى درجة التعاهد والتحالف، ولكنه لم يسلم قط بإمكان قيام وحدة مع تلك الدول[١٦]، وقد عبر الحصري عن هذا المعنى في موضع آخر بقوله إنه لا يستبعد وحدة الصراع (يقصد وحدة الدول والشعوب التي تصارع الاستعمار مع العرب)، ولكنه يفصلها ـ أي وحدة الصراع ـ عن الوحدة القومية فصلاً تاماً[١٧]. وأخيراً تناول الحصري بالتعليق الآراء التي تقول بأن البشرية قد اجتازت مرحلة التنظيم القومي، ووصلت إلى مرحلة التكتل الأممي، واعتناق بعض الكتّاب في البلدان العربية لهذا الرأي وصولاً إلى الحكم بأنه لا يليق بنا ونحن في القرن العشرين أن نواصل السير وراء الفكرة القومية، وقد لاحظ الحصري أن الأمم الأوروبية إذا كانت قد وصلت ـ حقيقة ـ إلى مرحلة التكتل الأممي فهي إنما وصلتها كل واحدة منها في حالة «دولة قومية مستقلة وموحدة»، ولم تتخل عن شخصيتها المتميزة لغيرها في أوضاعها الجديدة، ولذلك انتهى إلى أنه «يجب علينا نحن أيضاً أن نحقق وحدتنا القومية، لكي نستطيع أن نحافظ على شخصيتنا في التكتلات الأممية التي يتكلمون عنها»[١٨].

(١٥) الحصري، «مواضيع البحث،» ص ٦٨ ـ ٧١.

(١٦) ساطع الحصري، «حول الوحدة العربية،» في: الحصري، **العروبة أولاً**، ص ١١٧ ـ ١١٨.

(١٧) ساطع الحصري، «الوحدة القومية ووحدة الصراع،» في: الحصري، **حول القومية العربية**، ص ٢٥٨.

(١٨) المصدر نفسه، ص ٢٥٦.

وهكذا أقام الحصري منظومة من دوائر الانتماء يميزها انفراد الرابطة العربية وحدها بخاصية الوحدة السياسية، وعدم تعارضها مع الروابط الوطنية (لأنها تبنى عليها ولا تلغيها)، أو الموروث الحضاري القديم (لأنها لا تسير معه على المستوى ذاته)، أو الرابطة الإسلامية (لأنه لا يمكن تحقيق الأخيرة دون تحقيق الوحدة العربية، ولأنها ـ أي الرابطة الإسلامية ـ تعبّر عن حالة من الأخوة والتضامن، وليس الرابطة السياسية)، أو الروابط القارية (بمعنى التكتل ضد الاستعمار)، أو الرابطة العالمية (لأن الدخول فيها يستوجب تحقيق الوحدة القومية)، بينما أكد الحصري تعارض الرابطة العربية مع الشرق أوسطية والمتوسطية لأنهما تشطران البلدان العربية إلى قسمين تستبعدان أحدهما، وتطمسان حقيقة العروبة بإدخال دول غير عربية في الحالتين إلى جوار الدول العربية التي تشملها هاتان الرابطتان.

٣ ـ الوحدة العربية ومفهوم المصلحة

الشائع والصحيح في الوقت نفسه أن ساطع الحصري قد تبنى نظرية مثالية في القومية، غير أن هذا لا يعني أنه تنكر لمفهوم المصلحة في علاقته بالوحدة الناجمة عن هذه القومية، وقد ينطوي الأمر على هذا النحو على شيء من التناقض، غير أن مضمون ما أتى به الحصري في هذا السياق يستحق المتابعة والتحليل الموضوعيين.

ويلاحظ أن ساطع الحصري قد ناقش علاقة الوحدة العربية بالمصلحة نقاشاً متعمقاً في وقت مبكر، ففي تعليق له نشر في مجلة **الرسالة** عام ١٩٣٨ على آراء للدكتور طه حسين ذكر فيها لمجموعة من الشباب العرب «أن المنفعة تسير الشعوب»، تساءل الحصري عما إذا كان قصد د. طه حسين أن اتحاد الأقطار العربية مخالف لمنفعة الشعوب أو خالٍ منها، وأكد أنه يعتقد عكس ذلك تماماً، ففكرة الوحدة العربية لا تستند إلى العاطفة وحدها، وإنما إلى المنفعة أيضاً، وينطبق هذا القول على مصر التي رأى الحصري أن منفعتها من الوحدة العربية مهمة وحيوية، وإذا كان الذين يقدرون أهمية هذه المنافع لا يزالون قليلين، فلا شك في أنهم سيكثرون يوماً من الأيام، وأكد أن «هذه المنفعة هي التي ستسير المصريين نحو الوحدة العربية عاجلاً أم آجلاً»[١٩].

وفي كتاب له نشر عام ١٩٥١ ضرب أمثلة على فوائد مصر من الوحدة

(١٩) الحصري، «بين مصر والعروبة: كتاب مفتوح إلى الدكتور طه حسين،» ص ٨١.

العربية، وهي فوائد قابلة للتوسع والازدياد قابلية هائلة، فالاتحاد قوة، ونحن نعيش في عصر القوة، وعصر الاتحادات والتكتلات التي تولد القوة، كذلك لو لم تكن مصر عربية اللغة «لما انتشرت المطبوعات المصرية انتشارها المعلوم، ولما راجت أفلامها السينمائية هذا الرواج العظيم».

ومع ذلك حرص الحصري على أن يؤكد أولوية الاعتبار المثالي، فالوطنية والقومية «عاطفة تصدر من أعماق النفس، لا فكرة تتولد من ملاحظات العقل. إن حب الإنسان لموطنه ولأمته يشبه إلى حد كبير حب الطفل لأمه... والتفكير قد يوجد بعض المبررات لهذا الحب، وقد ينوره بعض التنوير، ولكنه لا يولده بوجه من الوجوه. وكذلك الأمر في الوطنية والقومية. إنها نتيجة شعور وعاطفة قبل أن تكون وليدة تفكير وملاحظة. وأنا أقول بلا تردد: إن الوطنية أو القومية التي تدخل من أبواب الملاحظات النفعية لا تكون وطنية حقيقية، ولا تكون قومية صادقة»[٢٠].

وإذا كان الحصري يبدو شديد المثالية في هذا الخصوص، فقد أوضح في آراء نشرت له عام ١٩٥٥ نظرته الخاصة إلى العلاقة بين الوحدة والمصلحة من منطلق واقعي، فالمصالح المشتركة بحد ذاتها تنبع من الحقيقة القومية، وليس ممكناً أن تقوم مصالح مشتركة ودائمة بين بلدين عربيين لولا العروبة القائمة على الاشتراك في اللغة وفي حقبة طويلة من التاريخ، وأكد أن التفكير على هذا النحو سوف يصل بنا «إلى تقدير الدور الخطير الذي تلعبه وحدة اللغة في توحيد الشعوب، وتنسيق المصالح وتوجيهها»[٢١].

غير أن أهم ما أتى به الحصري في هذا السياق هو تصنيفه للمصالح وفق معايير مختلفة، وتأكيده على تضارب هذه المصالح فيما بينها، وعلى أن دولة الوحدة سوف تكون قادرة على تنظيم هذه المصالح ووضع سلم أولويات لها وإيجاد التوازن الضروري فيما بينها. وفي هذا الصدد يقول الحصري في رد له على مقالة لإحسان عبد القدوس نشرت في روز اليوسف في عام ١٩٥٣: «إنكم تتحدثون كثيراً عن

---

(٢٠) ساطع الحصري، «مناقشة بعض الآراء،» في: ساطع الحصري، آراء وأحاديث في القومية العربية، سلسلة التراث القومي. الأعمال القومية لساطع الحصري؛ ٧ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥)، ص ٦١ (نشر الكتاب عام ١٩٥١ وأعيد نشره عام ١٩٥٦ بعد أن أضيف له بحث «عروبة مصر» وبحث «لماذا تأخرنا في ميدان الوعي القومي؟»).

(٢١) الحصري، «حول الوحدة العربية،» ص ١١٩.

المصلحة، وتشيرون إلى اتحاد المصلحة واختلافها، وتذهبون إلى أن المصلحة هي التي تقرر الاتحاد أو الانفصال. ولكن هل تعتقدون أن المصلحة من الأمور الظاهرة للعيان؟ وهل تظنون أنها من الأمور الثابتة في كل الأحيان؟ يجب ألا ننسى أن هنالك مصالح مادية ومصالح معنوية؛ مصالح عاجلة ومصالح آجلة؛ مصالح عارضة ومصالح دائمة؛ المصالح الخاصة بجماعة من الجماعات والمصالح العامة التي تهم جميع الطبقات؛ المصالح الخاصة بمدينة من المدن والمصالح الشاملة لجميع أنحاء البلاد. وهذه المصالح المتنوعة كثيراً ما تتعارض وتتضارب، وهذا التضارب يتطلب بذل الجهود للتأليف بينها، وتضحية بعضها في سبيل الحصول على غيرها، وإيجاد شيء من التوازن بين مقتضيات كل واحدة منها. والدولة عندما تتولى شؤون الأمة تنظم هذه المصالح المتضاربة وتنسقها، وتوجهها الوجهة التي تقتضيها أهم المصالح وأدومها، وتوجد بذلك التوازن الضروري بينها. ونستطيع أن نقول إنه لا توجد أمة لا تتضارب فيها مصالح مختلف الجماعات في بعض الأحوال، ولا توجد دولة لا تكون مسرحاً لتضارب المصالح وتوازنها في مختلف الميادين. وإذا رجعنا إلى تواريخ الدول المختلفة وجدنا فيها أمثلة كثيرة على التطورات التي حدثت في فهم المصالح الحقيقية، وعلى التنظيمات التي تمت للتأليف بين المصالح التي كانت تبدو متضاربة أشد التضارب. ولذلك لا يجوز لنا أن نعتبر المصالح الظاهرة والقريبة العامل الأساسي في الاتحاد والانفصال»[٢٢].

والواقع أن أهم ما يتضمنه التحليل السابق هو ما يلمح إليه الحصري من أن تضارب المصالح موجود داخل الدول القائمة ذاتها (أي البعيدة عن الحالة الوحدوية)، وأنه كما أن هذه الدول قادرة على تنظيم هذا التضارب، فلماذا لا تمتلك دولة الوحدة القدرة ذاتها؟ كذلك فإن ما أشار إليه الحصري من عدم جواز اعتبار المصالح الظاهرة والقريبة العامل الأساسي في الاتحاد والانفصال، يبدو من الأهمية بمكان لما يلمح إليه من أن ثمة مصالح بعيدة المدى تستطيع دولة الوحدة أن تولدها. وقد طبق الحصري هذا التحليل على مقولة اختلاف المصالح الاقتصادية بين البلدان العربية التي تتذرع بها معارضو الوحدة العربية، مؤكداً على تباين المصالح داخل البلد العربي الواحد، ومستشهداً على صحة كلامه بأمثلة مقارنة من الواقعين الأمريكي والألماني[٢٣].

والواقع أن تحليل الحصري للآثار الإيجابية للوحدة العربية في الأمن القومي

(٢٢) المصدر نفسه، ص ١٢٠ ـ ١٢١.

(٢٣) الحصري، «مناقشة بعض الآراء»، ص ٥٦ ـ ٥٧.

العربي يبدو تطبيقاً واضحاً لمقولاته السابقة، ففي رده على مقالات لجريدة **العمل** (لسان حال الكتائب اللبنانية) نشرت في عام ١٩٥١ علق على قول الجريدة بأن «الدول الكبيرة. . . تستثير حذر الجيران وريبتهم وعداءهم» ودعوتها من ثم للدول العربية بأن تبقى دولاً صغيرة، استغرب الحصري «كيف فاتها أن ضعف الدول الصغيرة يستثير شهية الدول الكبيرة، ويغذي أطماعها، ويغريها على بسط نفوذها وسيطرتها عليها»[٢٤].

ومما يزيد في أهمية هذه الحجة لدى الحصري أننا «نعيش في عصر القوة وعصر الاتحادات والتكتلات التي تولد القوة»[٢٥]، ومن هنا يمكن فهم القول الشهير للحصري حول خسارة العرب لمعركة فلسطين ضد إسرائيل مع أنهم كانوا سبع دول بأنهم «خسروا معركة فلسطين لأنهم كانوا سبع دول»[٢٦]، وكذلك يمكن فهم لماذا لم يأبه الحصري بالرد على بعض مقولات أعداء الوحدة بأنها مؤاتية للمصالح الاستعمارية، وعلق على تلك المقولات بقوله إنه لم يشر إليها ليرد عليها لأنها في غنى عن الرد، وإنما «نقلتها ليرى القرّاء كيف يستميتون في الدفاع عن الأوضاع القائمة، وكيف يتخبطون في التماس الوسائل التي قد تساعد على إبعاد «خطر الاتحاد» عن جميع البلاد العربية»[٢٧].

ثانياً: تحليل ساطع الحصري لواقع التجزئة العربية

واجه ساطع الحصري، الذي مثلت الحالة الوحدوية العربية مثاليته السياسية العليا، تاريخاً عربياً عرف ظاهرة «الصراعات العربية ـ العربية» (أو الشقاق العربي وفقاً للتعبير الذي استخدمه)، وواقعاً عربياً غارقاً في التجزئة، واهتم في هذا السياق بأمرين شديدي الأهمية لمشروعه السياسي: **أولهما** أن يثبت أن «الشقاق» ليس خاصية متأصلة في العرب بالذات، وأنها لديهم ربما تكون أخف من غيرهم

---

(٢٤) الحصري، «قضايا مختلفة: كلمة الوحدة،» ص ٥٤ ـ ٥٥.

(٢٥) الحصري، «مناقشة بعض الآراء،» ص ٦١.

(٢٦) ساطع الحصري، «كلمة حول كارثة فلسطين،» في: الحصري، **آراء وأحاديث في القومية العربية**، ص ٢٥. ومن هنا أيضاً يمكن فهم استنكار الحصري لرفض مصطفى أمين في عام ١٩٥١ لمشروع ناظم القدسي (رئيس وزراء سوريا في ذلك الوقت) لتحقيق الوحدة العربية على أساس أنه ـ أي المشروع ـ ليس عملياً لأنه جاء بعد هزيمة فلسطين، ورأى أن تحقيق الوحدة على العكس أصبح من أوجب الواجبات لأننا خسرنا حرب فلسطين. انظر: ساطع الحصري: «نحو الولايات المتحدة العربية فالدولة العربية الكبرى،» في: الحصري، **العروبة أولاً**، ص ١٠٦.

(٢٧) ساطع الحصري، «فوائد ومضار،» في: الحصري، **العروبة بين دعاتها ومعارضيها**، ص ٢٨.

بصفة عامة، والثاني أن يرد التجزئة العربية إلى عوامل خارجية بالأساس دون إغفال للعوامل الداخلية، وبالإضافة إلى ذلك عني في الإطار نفسه بتحليل اتجاهات الرأي العام العربي تجاه حالة التجزئة العربية. ويتضمن هذا الجزء تحليلاً للنقاط الثلاث السابقة على النحو التالي:

١ ـ تحليل الصراعات العربية ـ العربية عبر التاريخ

في مقالة بعنوان «هل الشقاق طبع في العرب؟» كتب ساطع الحصري جواباً عن سؤال لأحمد حسن الزيات نشر في مجلة **الرسالة** عام ١٩٤٩، أكد أن حوادث الشقاق والتنافس والتخاصم التي توالت في تاريخ العرب ليست شيئاً من خصائص الأمة العربية وحدها، فتواريخ الأمم الأخرى لم تخل من تلك الاختلافات، وهنا نقل بؤرة اهتمامه إلى المقارنة بين كمية هذه الاختلافات وشدتها لدى العرب من ناحية، وغيرهم من ناحية أخرى، مستشهداً بالتاريخ الأوروبي، ومآل امبراطورية الاسكندر الأكبر وتاريخ الأمة اليونانية والامبراطورية الرومانية وفرنسا في العصور الوسطى ومطلع العصر الحديث، وألمانيا حتى أوائل القرن الماضي، منتهياً إلى أننا «كلما توسعنا وتعمقنا في دراسة تاريخ الدول الأوروبية ازددنا يقيناً بأن معالم الاختلاف والانقسام فيها لم تكن قط أقل من التي تجلت في تاريخ العرب بوجه عام».

ومع ذلك لاحظ الحصري أن الرومان قد تميزوا بين أُمم التاريخ القديم بالاتحاد والانتظام، بحيث عاشت امبراطوريتهم مدة أطول من مثيلاتها بوجه عام، غير أنه لاحظ أن هذا الامتياز نتج من توفر عوامل مساعدة لم تتيسر لغيرها هي التدرج الذي تكونت به السلطة الرومانية، مما ساعد على رسوخ في الأوضاع الجديدة واستقرارها، وأن الامبراطورية الرومانية قد شملت سواحل البحر المتوسط ولم تبتعد عنها كثيراً، وكانت روما تمثل نقطة مركزية في هذا البحر، مما ساعد على اتصالها بمختلف أجزاء الامبراطورية بسرعة وسهولة بالنسبة إلى وسائط النقل المعلومة في تلك العصور[٢٨]، وذلك على عكس العرب الذين انتشروا بعد الهجرة النبوية بسرعة خارقة في بقاع واسعة جداً من القارات الثلاث المعلومة قديماً، ففتحوا خلال قرن واحد بلاداً أوسع بكثير مما فتحه الرومان خلال ثمانية قرون.

---

(٢٨) ساطع الحصري، «هل الشقاق طبع في العرب،» في: ساطع الحصري، **آراء وأحاديث في التاريخ والاجتماع**، سلسلة التراث القومي. الأعمال القومية لساطع الحصري؛ ٨ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥)، ص ١٣٣ ـ ١٣٩ (نشر الكتاب لأول مرة عام ١٩٥١).

وقد تساءل الحصري في نهاية تحليله هذا «قولوا لي: كيف كان يمكن أن تبقى تلك السلطنة المترامية الأطراف مصونة من مغبة الانقسام مدة طويلة من الزمن بالرغم من اختلاف الشعوب الكثيرة التي دخلت تحت حكمها، وبالرغم من طول المسافات الهائلة التي كانت تفصل ثغورها عن عاصمتها، وضآلة الوسائط التي كانت تضمن اتصال هذه العاصمة بتلك الثغور؟ قولوا لي: أية سلطنة من السلطنات التي يذكرها التاريخ القديم والوسيط استطاعت أن تسيطر على مثل هذه البقاع المترامية الأطراف، مدة أطول من التي سيطر عليها العرب، دون أن تتعرض إلى اختلافات وانقسامات؟»[٢٩].

ويلاحظ على التحليل السابق أن الحصري في الواقع لم يكن يقدم تفسيراً للخلافات العربية، ولكن للتفكك الذي اعترى «الدولة الإسلامية»، واللافت للنظر أنه لم يكتف باستخدام نظريته التفسيرية المعتمدة على «المبدأ القومي» في تفسير هذا التفكك، وإنما ركز على اعتبارات جيوبوليتيكية ولوجستيكية، كذلك لم يستخدم العامل الخارجي في تفسير تلك الخلافات وذلك التفكك، على الرغم من تركيزه عليه في تفسير واقع التجزئة العربية الذي عاصره.

ومن ناحية أخرى نفى الحصري أن يكون ابن خلدون يقصد بالعرب الذين تحدث عنهم في مقدمته ووصفهم بأنهم «أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة»، واستشهد بالسلوكيات التي نسبها ابن خلدون للعرب على أنه ـ أي ابن خلدون ـ قد قصد بهم حصراً العربان أو البدو بوجه خاص وليس أفراد الأمة العربية بوجه عام[٣٠].

٢ ـ تفسير واقع التجزئة العربية

لفت ساطع الحصري النظر إلى «أن العالم العربي لم ينقسم في أي عهد من عهود تاريخه الطويل بقدر ما انقسم منذ ثلث قرن»[٣١]، (نشر هذا التحليل في عام ١٩٥١، أي أنه كان يقصد واقع التجزئة الذي تلا الحرب العالمية الأولى)، وأرفق بتحليله هذا خارطة زمنية أبدع في تصميمها تثبت وجهة نظره هذه، وتؤكد أن الحدود السياسية للدول العربية الحالية تداخلت في فترات تاريخيه عديدة[٣٢]،

---

(٢٩) المصدر نفسه، ص ١٣٥.

(٣٠) المصدر نفسه، ص ١٤٠ ـ ١٤١.

(٣١) «البلاد العربية منذ ظهور الإسلام،» في: الحصري، العروبة بين دعاتها ومعارضيها، ص ١٣٣ ـ ١٣٤.

(٣٢) انظر: ساطع الحصري: «القومية العربية،» في: الحصري، آراء وأحاديث في القومية العربية، ص ٤٣، و«حول الإيمان والمعرفة،» في: الحصري، حول القومية العربية، ص ١٨.

محاولاً بذلك إثبات كثافة التفاعلات العربية عبر الزمن من جانب، وهشاشة الحدود السياسية القطرية من جانب آخر[٣٣].

وعندما انتقل الحصري إلى تفسير واقع التجزئة العربية، لم يكن ثمة شك في أنه قد رده على نحو أساسي إلى العوامل الخارجية، فقد تتبع عملية تكوين الدول العربية القطرية في أعقاب تفكك الامبراطورية العثمانية منتهياً إلى «أن الحقائق والوقائع.. لا تترك مجالاً للشك في أن انقسام الولايات العربية إلى دول عديدة إنما حدث من جراء مساومات الدول الأجنبية ومطامعها، لا من جراء نزعات أهالي البلاد ومصالحهم، كما أن تخوم الدول المذكورة تقررت بناء على رغبات تلك الدول الأجنبية واتفاقاتها، لا بناء على ضرورات الأوضاع الطبيعية أو بناء على مقتضيات المصالح المحلية»[٣٤]. وهكذا فإن «الفروق والاختلافات التي تشاهد الآن بين الدول العربية ـ من حيث النظم الإدارية والتشريعية والاقتصادية والاتجاهات السياسية ـ إنما هي بأجمعها من مواريث عهود الاحتلال»[٣٥]، وليست من الفروق الجوهرية بحد ذاتها، وقد يوجد مثلها داخل كل قطر عربي على حدة، وبالتالي فإنه لا مجال للشك «في أن هذه الفروق ستتضاءل كلما تخلصت الدول العربية من النظم التي ورثتها عن عهود الاحتلال والانتداب، وكلما عدلت النظم والأوضاع القائمة في بلادها وفق ما تقتضيه مصالحها الحقيقية بنظرات شاخصة نحو المستقبل البعيد، والمثل الأعلى الذي تنطوي عليه فكرة العروبة الخالدة»[٣٦].

ومن الواضح أن الحصري يعتبر الدول العربية القائمة كيانات مصطنعة، ولذلك اعترض على وجهة النظر القائلة بأن تلك الدول تعبّر عن تطور طبيعي للسناجق والإمارات والولايات السابقة إلى دول مستقلة تعبيراً عن تمايزها، واعتبر أن وجهة النظر تلك تخلط بين «الكيان المطلق» و«الكيان السياسي» وبين «الوحدات الإدارية» و«الوحدات السياسية»، ورد عليها متسائلاً «إذا كانت الولايات والسناجق كيانات واقعية، وإذا كان من الطبيعي أن تندرج.. إلى دول مستقلة.. يجدر بنا أن [نسأل] لـمَ لـمْ تتدرج جميعها إلى الاستقلال؟ ولماذا اندمج بعضها مع بعض في كيان سياسي واحد؟.. ولماذا تكونت محل ست ولايات ونحو عشرين سنجقاً أربع

---

(٣٣) الحصري، «الوحدة القومية ووحدة الصراع،» ص ٢٥٥.

(٣٤) انظر: الحصري، «القومية العربية،» ص ٣٨ ـ ٤٠.

(٣٥) ساطع الحصري، «البلاد العربية،» في: الحصري، **العروبة أولاً**، ص ١٤ ـ ١٥.

(٣٦) «تمهيد،» في: ساطع الحصري، **حول الوحدة الثقافية العربية**، سلسلة التراث القومي. الأعمال القومية لساطع الحصري؛ ١٢ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥)، ص ٨ (نشر الكتاب لأول مرة عام ١٩٥٩).

دول فقط. .؟». واعتبر ذلك دليلاً قاطعاً على بطلان نظرية الكيانات الواقعية التي تحاول تعليل تعدد الدول العربية بتدرج السناجق والولايات نحو تكوين دول مستقلة(٣٧).

وفي السياق نفسه، رد على وجهة النظر القائلة بتفسير نشوء تلك الكيانات بتعدد اللهجات التي تختلف اختلافاً بيناً من دولة إلى أخرى بعدم وجود لهجات عربية متجانسة داخل الحدود السياسية لكل قطر عربي، «فلو كان عدد الدول وحدودها من الأمور التي تتعين وتتقرر بعدد اللهجات وحدودها لوجب أن تنقسم كل واحدة من الدول العربية القائمة الآن أيضاً إلى دويلات عديدة»(٣٨).

ولا يترك هذا التحليل مجالاً للشك في أن الدول الأجنبية الاستعمارية سوف تعمل على إدامة هذه الفروق وتكريسها، «فإن الدول المحتلة والمنتدبة لا ترتاح إلى تكتل الشعوب العربية، فهي ترى من مصلحتها أن يستمر التباعد والتخالف بين هذه الشعوب، بل يتفاقم ويتأيد». وضرب مثالاً على هذا بالسلوك الفرنسي بصفة خاصة طوال مدة الانتداب على سوريا ولبنان، ونجاح هذا السلوك بالتأثير في بعض الناس، ومع ذلك فقد قدر أن العوامل السابقة لم تعد تسيطر على الموقف كلية لوجود عوامل معاكسة تعمل باتجاه الترابط، ويأتي التطور في وسائل المواصلات في مقدمة هذه العوامل، وهو ما أتاح مزيداً من التواصل العربي (ضرب مثالاً في هذا السياق بحركة الاصطياف في لبنان ودور الصحافة والإذاعة والشعر والآداب والتمثيل في تكوين شعور مشترك عام، وبخاصة في ضوء الدعوة التي يقوم بها القوميون والتي استجاب لها عدد من الحكومات التي أدخلت في مناهجها الأبحاث التي تخدم الغاية القومية)(٣٩).

ومع ذلك، فقد رصد الحصري بدقة كيف أن الدولة القطرية ذاتها بما تمارسه

---

(٣٧) ساطع الحصري، «أسطورة الكيانات الواقعية،» في: الحصري، العروبة بين دعاتها ومعارضيها.

(٣٨) ساطع الحصري، «نظرية تعدد الدول حسب تعدد اللهجات،» في: المصدر نفسه، ص ٤٥ ـ ٤٧.

(٣٩) ساطع الحصري: «نشوء الفكرة القومية في البلاد العربية منذ نشوب الحرب العالمية الأولى حتى تكوّن جامعة الدول العربية،» في: ساطع الحصري، محاضرات في نشوء الفكرة القومية، سلسلة التراث القومي. الأعمال القومية لساطع الحصري؛ ٥ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥)، ص ١٦٤ ـ ١٦٥ (نشر هذا الكتاب لأول مرة عام ١٩٥١ وهو يمثل مجموعة محاضرات أُلقيت في قاعة الجمعية الجغرافية بالقاهرة بدعوة من كلية الآداب سنة ١٩٤٨)، و«العلاقات الثقافية بين البلاد العربية،» في: الحصري، آراء وأحاديث في العلم والأخلاق والثقافة، ص ٨٦ ـ ٨٧.

من سن للقوانين وتنظيم للاقتصاد وتوجيه للثقافة تؤدي إلى شيء كثير أو قليل من التباعد بين الشعوب التابعة لها، على الرغم من وحدة الأمة التي تنتسب إليها، وبخاصة مع تكون طائفة من الزعماء والحكام والساسة ترتبط بالأوضاع القائمة وتدعو للحفاظ عليها[(٤٠)]، بل لقد امتد الحصري بهذا التحليل إلى البيروقراطية الحكومية بالمعنى الواسع، فأوضح كيف أن «طائفة الموظفين تكون بوجه عام أشد ارتباطاً بالدولة القائمة، ولذلك تكون مرتعاً خصباً لنوازع الاقليمية، لأن الموظف يتطلع إلى الرقي الوظيفي في إطار النظام القائم، ولذلك يتهيب من تغير الأوضاع القائمة وينزع إلى مبدأ المحافظة على كيان الدولة، وقد ضرب مثالاً محدداً على هذا بما وقع في العراق في أعقاب الحرب العالمية الأولى عندما غادره المعلمون الأتراك، وكان عدد حملة الشهادات العالية من العراقيين محدوداً جداً، فتولت طائفة من معلمي المدارس الابتدائية التدريس في المدارس الثانوية، وعندما تقرر اشتراط حيازة شهادة عالية للقيام بهذا التدريس استقدم المدرسون لهذا الغرض من سائر البلاد العربية، فجاء ذلك بمثابة ضربة لآمال هؤلاء، وصاروا يعتبرون المدرسين من خارج العراق «دخلاء» على البلاد».

وقد تساءل الحصري في كتاب وجهه إلى أحد كبار موظفي التعليم الذي استقال احتجاجاً على أمر الدخلاء: «إني لعاجز عن فهم معنى الوطنية التي تعتبر السوريين والمصريين دخلاء»، بل لقد وصل الأمر إلى حد القول بأن «فكرة الوحدة العربية دسيسة اختلقها السوريون ليتنعموا بخيرات العراق»، وراج في الفترة من عام ١٩٣٠ إلى عام ١٩٣٥ شعار «الوحدة دون توظف»[(٤١)] (أي دون جلب الموظفين من خارج القطر المعني)، وقد سبق الحصري بذلك منظري عملية الاندماج الدولي بعشرات السنين عندما لفت النظر إلى التأثير السلبي في مصالح نخبة ما كأحد معوقات الوحدة ومعاول هدمها حين تتم.

٣ ـ الرأي العام العربي وحالة التجزئة

ارتباطاً بتحليل ساطع الحصري لواقع التجزئة العربية، اهتم بأن يدرس انعكاسات هذا الواقع على اتجاهات الرأي العام العربي نحو مسألة الوحدة، وقد

---

(٤٠) الحصري، «نشوء الفكرة القومية في البلاد العربية منذ نشوب الحرب العالمية الأولى حتى تكوّن جامعة الدول العربية،» ص ١٦٣.

(٤١) ساطع الحصري، «ميول الموظفين،» في: ساطع الحصري، **الاقليمية: جذورها وبذورها**، سلسلة التراث القومي. الأعمال القومية لساطع الحصري؛ ١٥ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥)، ص ٢١ ـ ٢٣ (نشر هذا الكتاب لأول مرة عام ١٩٦٣).

قسم الحصري مواطني الدول العربية من المنظور القومي إلى ثلاث زمر أساسية:

الزمرة **الأولى** تقول بوحدة الأمة العربية على الرغم من تعدد دولها، وترى من الضروري العمل لتوحيد الأمة بشكل من الأشكال، وفيما بعد أوجد الحصري تقسيماً فرعياً داخل هذه الزمرة بين من يرون وجوب اتحاد بعض الدول العربية «قبل غيرها» أو دون غيرها ـ في إشارة مبكرة إلى ظاهرة التجمعات الفرعية في الوطن العربي ـ وضرب أمثلة لذلك بالداعين إلى وحدة سوريا مع الأردن أو مع لبنان أو العراق.. الخ، مفرقاً بين من يعتبرون هذا الاتحاد الجزئي غاية لذاته ومن يعتبرونه تمهيداً لاتحاد أشمل، بل لاتحاد عام، ومن يعارضون هذه الاتحادات الجزئية من حيث الأساس لأنها تعرقل وتعيق الاتحاد التام المنشود.

والزمرة **الثانية** تتمسك بالاقليمية الناتجة من تعدد الدول العربية، وتعتبر أهالي كل دولة منها أمة قائمة بذاتها منتهية إلى وجوب بقاء هذه الدول منفصلة في الحال والاستقبال.

والزمرة **الثالثة** تسلم بوجود أمة عربية، ومع ذلك ترى المصلحة في بقاء كل دولة عربية مستقلة عن غيرها، ولذلك تعارض الاتحاد العربي، وإن وافقت على نوع من التكتل باتفاقيات خاصة أو عامة[٤٢].

نشر هذا التحليل لساطع الحصري لأول مرة في عام ١٩٥١، وفي كتابه **دفاع عن العروبة** الذي نشر للمرة الأولى في عام ١٩٥٦ كرر الحديث عن هذه المسألة، وإن حصر الاستقطاب الفكري في الأمة العربية بين فريق الاقليميين وفريق القوميين، واستعرض البلبلة الناشئة في الأفكار نتيجة الصراع بين الفريقين؛ فالاقليميون يتهمون القوميين بالتقصير في واجباتهم تجاه الدول القائمة والسير وراء الأوهام، بينما يتهم القوميون الاقليميين بعدم إدراك واجباتهم نحو الأمة وعدم إدراك سمو معاني الأمة والوطن. ورصد بين هؤلاء وأولئك فريق النفعيين الذين يسعون تارة لتقوية الإقليمية للاحتفاظ بالمنافع التي اكتسبوها أو الحصول على منافع جديدة، وتارة لارتداء مسوح القومية للوصول إلى أهداف شخصية على النحو الذي يسيء للفكرة القومية، وتارة ثالثة للتحلل من الإقليمية والقومية معاً.

ومع أن الحصري قد أشار بأسى إلى أن الأحوال لم تتغير في الأمة العربية (عام ١٩٥٦) منذ كتب تحليله الأول في عام ١٩٥١، إلا أنه رصد عدداً من التطورات الايجابية وعلى رأسها تلك التي أحدثتها الثورة المصرية بتقدير رجالها

(٤٢) ساطع الحصري، «التيارات الفكرية حول القومية العربية،» في: الحصري، **آراء وأحاديث في القومية العربية**، ص ٢١ ـ ٢٢.

لعروبة مصر، وإدراكهم للقدرة الكامنة في فكرة الوحدة العربية لمستقبل مصر بوجه خاص ومستقبل سائر البلدان العربية بوجه عام، وإعلانهم لذلك كله إيمانهم بالعروبة. ومن ثم أخذت فكرة القومية العربية تنتشر في مصر بعد قيام الثورة بسرعة كبيرة محققة للحصري أمنية طال انتظاره لها على النحو الذي يدركه كل من تابع سجالاته الفكرية العديدة مع رجال الفكر في مصر حول قضية العروبة بعامة، وعروبة مصر بخاصة.

كذلك أشار الحصري إلى اشتداد الوعي القومي في جميع أنحاء المغرب العربي، ولكنه رصد في الوقت ذاته تعرض الفكرة القومية العربية في بعض الميادين لشيء من الفتور والاسترخاء الذي وصل إلى حد التراجع والارتداد في بعض الأحوال، ملمحاً إلى ارتباط العراق بحلف بغداد (دون أن يشير إلى ذلك صراحة) ومشيراً في الوقت نفسه إلى استمرار غياب الإيمان لدى طائفة من الكتّاب والساسة بالوحدة العربية، ومنهم من يكتفي بموقف سلبي بينما يزدري آخرون كل من يؤمن بالوحدة العربية ويتهمهم بالخيالية وضعف التفكير وصولاً إلى الذين يعتبرون العروبة من الأمور الضارة التي يجب محاربتها[٤٣].

ثالثاً: بناء الوحدة العربية لدى ساطع الحصري

كانت الوحدة بالنسبة لساطع الحصري هي مشروع المستقبل. صحيح أنه يقوم على الخيال، لكنه لا يتردد في القول: «إن ثمة خيالاً هو أشد حيوية من الواقع، لأن الواقع الحالي كثيراً ما يمثل الماضي البالي، في حين أن الخيال الحالي قد يحمل في أحشائه الاستقبال الحقيقي. وأنا أعتقد أن فكرة العروبة والاتحاد العربي إنما هي من أحسن الأمثلة على هذا النوع من الخيال»[٤٤]. نشر هذا الرأي للحصري لأول مرة عام ١٩٥١، ولذلك كان من حقه أن يكرر في عام ١٩٥٩ ما نشر في عام ١٩٥١، وأن يضيف إليه أن فكرة الوحدة العربية قد اجتازت طور «الخيال المحض» ودخلت في طور «التنفيذ والتحقيق»، «فإننا الآن لسنا في بداية الطريق المؤدي إليها، بل دخلنا فيه فعلاً، وقطعنا فيه شوطاً كبيراً، بعد اقتحام الكثير من العوائق والعقبات، وإن كان ما بقي أمامنا الآن لا يزال طويلاً شاقاً».
وبعد أن يستعرض التطورات الإيجابية في حركة التحرر والتوحد العربيين في العقود الأربعة الأخيرة من التاريخ العربي المعاصر، وكذلك التطور الإيجابي في

(٤٣) الحصري، دفاع عن العروبة، «مقدمة،» ص ٨ - ١١.

(٤٤) ساطع الحصري، «بين الخيالية والواقعية،» في: الحصري، العروبة بين دعاتها ومعارضيها، ص ١٠ - ١١.

الوعي القومي، ينتهي إلى أن «ما تم تحقيقه من مستلزمات الوحدة العربية منذ ذلك التاريخ، ولا سيما خلال السنوات الخمس الأخيرة، لا يترك مجالاً لاعتبار القضية خيالية بعد الآن»[٤٥].

ومن الواضح من متابعة كتابات ساطع الحصري في صدد تحقيق الوحدة العربية أنه يعلي هذا الهدف في سلم أولوياته على باقي الأهداف دون تردد، وهو موضوع لم يشر إليه صراحة، ربما لأنه كان يعتبره بديهياً، وإن كان سيتضح بشكل صريح عندما نتناول موقفه من بعض القضايا في هذا الجزء من الدراسة، وبصفة خاصة مسألة الاتحادات الجزئية.

ويتناول هذا الجزء في السياق السابق التصور الذي قدمه الحصري لعبور واقع التجزئة العربي إلى المثالية الوحدوية، ويضم أربع نقاط فرعية هي:

١ ـ منهج العمل الوحدوي

يثير البحث في منهج العمل الوحدوي لدى الحصري أكثر من مسألة فرعية تتعلق بطبيعة الوحدة كعمل طوعي سلمي يقوم على الدعوة ولا يقوم على العنف، وكذلك كعمل تدرجي يمكن أن يتم على مراحل، والنهج الوظيفي في تحقيق الوحدة، ونظرية الاقليم القاعدة أو الدولة القائد في تحقيق الوحدة.

وفيما يتعلق بالسعي لتحقيق الوحدة كعمل طوعي سلمي يقوم على الدعوة لا العنف، نفى الحصري على نحو قاطع ما ذهبت إليه صحيفة **العمل** (لسان حال الكتائب اللبنانية) في قولها بأن «الدولة تنساق للتغاضي عن مصالح الشعب والأفراد يوم يكون همها الأول تثبيت وحدتها على جيش قوي مثلاً وعلى تحالفات أجنبية». وألمح إلى أن صحيفة **العمل** تخلط بين الدول القومية والامبراطوريات، فالأخيرة تحكم قوميات عديدة، ولذلك تحتاج إلى الجيش القوي لتثبيت حكمها على تلك القوميات. أما الدولة القومية، فلا تحكم إلا أمة واحدة، ولذلك لا تحتاج إلى مثل ذلك الجيش، «فإن الوحدة فيها تكون طبيعية وطواعية»[٤٦].

ولذلك أبدى الحصري دهشة واستنكاراً بالغين عندما أدلى ميشيل عفلق بحديث إلى الكاتب الفرنسي بنوامشان نشره في كتاب **ربيع عربي** جاء فيه «لقد نظمنا الشبيبة في حلقات وفروع وقوماندوسات» (أي فرق الفدائيين والمغاوير)،

---

(٤٥) الحصري، «أمنية الوحدة،» ص ٢٦٥ ـ ٢٦٩.

(٤٦) الحصري، «قضايا مختلفة: كلمة الوحدة،» ص ٥٣.

فهذه الفرق وفقاً للحصري يمكن أن تغتال أشخاصاً أو تصل بحزب إلى سدة الحكم، لكنها لا تستطيع أن تقضي على نوازع الأنانية والإقليمية أو بث الإيمان بوحدة الأمة العربية[٤٧]، وهي أول المهام التي كان يراها الحصري في الطريق لتحقيق الوحدة العربية، كما يتضح في إجابته عن سؤال: ما هي الوسائل العملية لتحقيق الوحدة العربية؟ بقوله: «إني أعتقد أن أول ما يجب عمله لتحقيق الوحدة العربية ـ في الأحوال الحاضرة ـ هو إيقاظ الشعور بالقومية العربية وبث الإيمان بوحدة هذه الأمة»[٤٨]، ويتطلب هذا بدوره «بذل الجهود الكثيرة لاستئصال جذور الآراء والمعتقدات المخالفة التي تسلطت على أذهان الكثيرين، مع مواصلة الجهود لوقاية هذا الإيمان من تأثير التيارات التي تعمل لزعزعته وإضعافه بوسائل شتى»[٤٩]. ولا تترك حياة الحصري ومجادلاته الفكرية شكاً في أنه يقصد بالاستئصال ذلك القائم على منازلة الحجة بالحجة، وليس أي شيء آخر يتصف بالعنف. ومع ذلك، فإن موقفه الإيجابي من تكوين الدولة السعودية على نحو ما سيجيء يدفع إلى الاعتقاد بأنه لم يعارض بشكل ضمني استخدام القوة لتحقيق الوحدة.

أما التدرج في تحقيق الوحدة، فقد أشار إليه الحصري في حديثه عن وحدة مناهج التعليم بقوله إنه لا شك في أن ذلك سيتحقق بصورة تدريجية[٥٠]، ويعني ذلك أنه لم يرفض مبدأ التدرج في تحقيق الوحدة، وهو ما يتسق مع موقفه من بعض المشروعات والخطوات الوحدوية الجزئية على سبيل المثال على نحو ما سيجيء.

أما النهج الوظيفي في تحقيق الوحدة، فيشير إلى ذلك النهج الذي ارتأى بعض علماء العلاقات الدولية أنه ييسر عملية تحقيق الوحدة بإجراء عملية التوحيد في مجالات محددة تتجنب في البداية الحساسيات السياسية، ويمكن عن طريق زيادة عددها تباعاً الوصول إلى الوحدة الشاملة. ويفهم من آراء الحصري في مواضع عديدة أنه كان مؤيداً لهذا النهج، وفي الواقع يمكن القول بأنه كان سباقاً في هذا السياق، فقد اعتبر أن تكوين الجامعة العربية جاء محصلة لعدد من المؤتمرات العربية المهنية المتخصصة في المجالات الطبية (منذ عام ١٩٣٧) والقانونية (منذ عام ١٩٤٤)

---

(٤٧) ساطع الحصري، «نظرتي إلى حزب البعث،» في: الحصري، الاقليمية: جذورها وبذورها، ص ١٩٨ ـ ١٩٩.

(٤٨) الحصري، العروبة أولاً!، «مقدمة،» ص ٧.

(٤٩) الحصري، «حول الإيمان والمعرفة،» ص ١٩ ـ ٢٠.

(٥٠) الحصري، «العلاقات الثقافية بين البلاد العربية،» ص ٩٤.

والهندسية (منذ عام ١٩٤٥) والسياسية (منذ عام ١٩٣٧)، ويعلق الحصري على هذه المؤتمرات بقوله: «ولا حاجة إلى القول ان جميع هذه الاجتماعات والتشكيلات الشعبية والحكومية المتفرقة والمؤقتة كان من الطبيعي أن تمهد السبل إلى منظمة دائمة تتولى تنسيق شؤون الدول العربية»[٥١].

كذلك أعلن الحصري عن اعتقاده بضرورة توحيد اقتصادات البلدان العربية لكي يكمل بعضها بعضاً، وتكون قوة اقتصادية ودولية كبيرة[٥٢]، غير أنه أعطى أهمية خاصة للوحدة الثقافية (وهو أمر مفهوم في إطار نظريته في القومية) إلى الحد الذي قال معه: «إني أعتقد أن توحيد الثقافة من أهم العوامل التي تهيئ سائر أنواع التوحيد، وأقول بلا تردد: اضمنوا لي وحدة الثقافة وأنا أضمن لكم كل ما بقي من ضروب الوحدة»[٥٣].

ومما سبق يتضح أن الحصري لم يعترض على الوظيفية، بل لقد اعتقد أن تطبيق النهج الوظيفي على المجال الثقافي جدير بأن يضمن تحقيق الوحدة العربية ككل، غير أنه يجب أن يكون واضحاً أنه إذا كان لم يعترض على الوظيفية، فإن هذا لم يكن يعني لديه أنه يمكن أن يكتفي بقبول وحدة في ميادين محددة، وإنما كان يعني فقط مجرد اعتقاده بأن الوحدة في ميدان أو غيره (كوحدة الثقافة مثلاً) سوف تؤدي إلى تفعيل عملية التوصل إلى الوحدة الشاملة، ويقول الحصري تأكيداً لهذا المعنى: «أكرر القول بأن الوحدة العربية التي نتوق إليها، والتي ندعو إلى المثابرة على العمل لتحقيقها، لا تعني «توحيد الأعمال والمساعي في ميادين محدودة لغايات معينة»، بل تعني: «توحيد الأعمال والمساعي في جميع الميادين»، وبتعبير أقصر وأشمل: انها تعني «توحيد الحياة القومية» بكل ما في هذه الكلمة من معان سامية»[٥٤]. ولذلك يمكن أن ينتقد ساطع الحصري في هذه الجزئية على أساس أنه لم يتوقف كما فعل غيره من علماء العلاقات الدولية فيما بعد عند حدود الوظيفية، وكيف أنها لم تستطع بحد ذاتها أن تنجز شيئاً يذكر على طريق تحقيق الوحدة دون توفر إرادة سياسية للدول الداخلة في عملية الوحدة.

أما نظرية الإقليم القاعدة أو دور الدولة القائد في تحقيق الوحدة، فلم

---

(٥١) المصدر نفسه، ص ٨٧ ـ ٨٨، والحصري، «نشوء الفكرة القومية في البلاد العربية منذ نشوب الحرب العالمية الأولى حتى تكوّن جامعة الدول العربية،» ص ١٦٩.

(٥٢) ساطع الحصري، «آراؤهم،» في: الحصري، العروبة أولاً، ص ٩٤.

(٥٣) الحصري، حول الوحدة الثقافية العربية، «تمهيد،» ص ٧.

(٥٤) الحصري، «الوحدة القومية ووحدة الصراع،» ص ٢٥٨.

يتعرض لها الحصري صراحة، ومع ذلك فقد اهتم بمصر ودورها في تحقيق الوحدة العربية على النحو الذي يمكن أن يقترب به من هذا المفهوم، وأشار صراحة إلى أنه يتمنى بكل جوانحه أن تعمل مصر للوحدة العربية ما عملته بروسيا في سبيل تحقيق الوحدة الالمانية أو «البياده مونته» في سبيل تحقيق الوحدة الإيطالية[٥٥]. وبعد نقاش للزعم بأن الوحدة العربية تطلب من مصر التنازل عن مصريتها، يقول الحصري: «إن دعاة الوحدة العربية لم يقولوا ولن يقولوا لمصر «إنسي نفسك»، بل انهم يقولون وسيقولون لها «استزيدي من ثروة نفسك» بالعمل على توحيد أبناء لغتك. إنهم لم يقولوا ولن يقولوا لها «اتبعينا»، بل يقولون وسيقولون لها «سيري إلى الأمام ونحن نتبعك على الدوام»[٥٦]. ويتسق هذا الموقف من جانب الحصري مع اهتمامه بتفنيد كل الدعاوى التي تبعد عن الإيمان بعروبة مصر أو تشوش عليه[٥٧]، كما سبقت الإشارة إلى تطبيق رؤيته للعلاقة بين الوحدة والمصلحة (أو المنفعة) على مصر بصفة خاصة.

وقد نشرت للحصري عام ١٩٣٦ مقالة تظهر مبرراته لإعطاء مصر هذا الدور الذي ارتآه لها وطالبها به، ويبدأ الحصري مقالته هذه بقوله: «لقد زودت الطبيعة مصر بكل الصفات والمزايا التي تحتم عليها أن تقوم بواجب الزعامة والقيادة في إنهاض القومية العربية»، ويتحدث بعد ذلك عن موقعها الجغرافي المتوسط، وعن أنها تكوّن أكبر كتلة من الكتل التي انقسم إليها العالم العربي، ولديها حظ أوفر من غيرها من الحضارة العالمية الحديثة، فضلاً عن أنها أصبحت أهم مركز من مراكز الثقافة في البلاد العربية، وأنها أغنى هذه البلاد بأجمعها وأقدمها في تشكيلات الدولة العصرية، وأقواها في الأدب وأرقاها في الفصاحة[٥٨].

وقد أشار الحصري في محاضرة له أُلقيت في عام ١٩٤٨ إلى أن إحساس القوى الكبرى بهذا الدور المصري وتخوفها منه سبق إحساس مصر به، وذكّر في هذا السياق بإحجام الدولة العثمانية عن مشاركة انكلترا في احتلال مصر على الرغم من مطالبة الأخيرة لها بمشاركتها في هذا الاحتلال. ولم يجد الحصري سبباً

---

(٥٥) الحصري، «آراؤهم،» ص ٨٩.

(٥٦) الحصري، «بين مصر والعروبة: كتاب مفتوح إلى الدكتور طه حسين،» ص ٧٧.

(٥٧) انظر: المصدر نفسه، ص ٧٦ ـ ٨١.

(٥٨) ساطع الحصري، «دور مصر في النهضة القومية العربية،» في: الحصري، **آراء وأحاديث في الوطنية والقومية**، ص ٨٩.

لهذا الإحجام سوى ما ورد في المذكرات التي نشرها الصدران الأعظمان سعيد باشا وكامل باشا ـ وكانا قد تناوبا الحكم خلال أزمة احتلال مصر ـ من إشارات تكشف عن أن الوزارة العثمانية القائمة عندئذٍ قررت تلبية طلب الدول في إرسال جيش عثماني إلى مصر لتهدئة الأحوال، ووضعت الخطط اللازمة لذلك، ووافق السلطان عبد الحميد على ذلك، غير أنه عدل في صباح اليوم التالي قائلاً: «أخشى أن يؤدي ذلك إلى عواقب خطيرة، فإن الجنود الذين يذهبون إلى مصر قد يعجبون بها، وينجذبون إليها، ويتأثرون بها، وعندما يرجعون إلى بلادهم لا يرتاحون إلينا». وظل السلطان عبد الحميد وفقاً لتلك المذكرات متمسكاً بهذا الرأي.

وأضاف الحصري أمثلة أخرى بالإشارة إلى صورة من خطاب قنصل فرنسا في سوريا إلى سفيرها في الآستانة في عام ١٩١٣ يدل على مبلغ تخوف فرنسا من تأثير مصر في سوريا، إذ جاء في الكتاب رداً على شائعة تعيين الأمير عمر طوسون باشا المصري والياً على سوريا أن هذا التعيين «على فرض تحققه سيكون ضربة مدهشة على نفوذنا في سوريا»، وأنه سوف يكون «مضراً بحقنا بقدر ما يكون مضراً تعيين رجل ألماني بل أشد تأثيراً»، كما أشار إلى أن الخطاب نفسه تضمن أن إحدى التهم الموجهة إلى شكري العسلي، الذي حكم عليه بالإعدام ونفذ الحكم شنقاً في دمشق، هي أنه ألقى خطاباً في ميدان إبراهيم باشا في القاهرة قال فيه: «إن مصر والشام أختان بينهما رابطة الدين واللسان والعنصرية، وهذا التمثال [أي تمثال إبراهيم باشا] يشير بيده إلى البلاد الشامية»[٥٩].

غير أنه إذا كان الحصري قد آمن بدور مصر القيادي في تحقيق النهضة القومية والوحدة العربية، فقد تصدى في الوقت نفسه للمبالغات الممجوجة أو الرؤى المنحرفة لهذا الدور، فعندما ذكر عبد الرحمن عزام في ندوة لمجلة **المصور** المصرية في عام ١٩٥٣ أن مصر «تستطيع أن تدّعي أن لها قرابة بكل الناس»، وأن الله قد «وضعها في وسط الدنيا لتستطيع أن تمد يدها للناس جميعاً»، وأن مصر مركز إشعاع عالمي مستمر «فنحن هنا في القاهرة إذا غضبنا غضب الناس لنا، وإذا رضينا رضي الناس من جميع الألوان والأفكار»، تساءل الحصري «لا أدري كيف يكون لمصر قرابة بكل الناس» و«ما معنى وسط العالم؟ أما كان اليونانيون يعتبرون بلادهم وسط العالم؟»، واعتبر أن حديثه عن مصر كمركز إشعاع عالمي مستمر من قبيل «المبالغات المضحكة»، «لأن الأمة أو الجماعة التي تستطيع أن تقول مثل هذا

(٥٩) الحصري، «نشوء الفكرة القومية في البلاد العربية منذ نشوب الحرب العالمية الأولى حتى تكوّن جامعة الدول العربية،» ص ١٦٥ ـ ١٦٧.

القول لا توجد على وجه البسيطة الآن، كما أنها لم توجد في الماضي، ولن توجد في المستقبل أيضاً».

كما أن الحصري رد بشدة على نظرية المجال الحيوي التي وردت ضمن آراء عبد الرحمن عزام، واعتبر بموجبها سوريا ساحة حيوية لمصر من المنظور الاستراتيجي، والبلاد العربية جمعاء ساحة حيوية لمصر من المنظور الاقتصادي، وذكر الحصري في هذا السياق أن تعبير الساحة الحيوية إنما هو من التعبيرات التي تستعملها الدول الطامحة لتبرير أعمالها الاستعمارية والاستفزازية، وبذلك فإن ما يقوله عبد الرحمن عزام لا يختلف عما يقوله الفرنسيون مثلاً لتبرير استيلائهم على الجزائر وتونس، واستمرارهم في استعمار تلك البلاد، وقارن الحصري بين آراء عبد الرحمن عزام وآراء زعماء الحركة القومية في بروسيا الذين كانوا يقولون دائماً «لا فرق بين بروسيا وبين سائر البلاد الألمانية» و«بروسيا في خدمة الفكرة الألمانية» و«رسالة بروسيا السامية هي تحقيق الوحدة الألمانية». وزاد الحصري على ذلك أن اعتبر أن هذه الآراء المنسوبة لأول أمين لجامعة الدول العربية، قضى في منصبه هذا سبع سنوات، تفسر إخفاق الأمانة العامة لجامعة الدول العربية في أداء الرسالة القومية التي عهد بها إليها[٦٠]، وهو موضوع سنعود إليه فيما بعد.

٢ ـ نطاق العمل الوحدوي

ينصرف مفهوم نطاق العمل الوحدوي في هذا التحليل مباشرة إلى قضية الوحدة الشاملة والوحدات الجزئية، بمعنى: هل تكون الوحدة العربية المطلوبة بالضرورة شاملة لكل الدول العربية القائمة أم أن ثمة أشكالاً للوحدة يمكن أن تبدأ جزئية بوحدتين أو أكثر استناداً إلى توفر مقومات الوحدة بشكل أعمق في هذه الوحدات؟ وتتصل هذه الأسئلة كما هو واضح بقضايا مطروحة في الواقع العربي الراهن، وبصفة خاصة قضية التجمعات الإقليمية أو الفرعية العربية وموقف الفكر العربي القومي إزاءها. وبينما اتسم موقف هذا الفكر إزاء تلك الأسئلة بشيء من الحيرة التي أدت بدورها إلى نوع من أنواع الانقسام، كان لساطع الحصري موقفه المحدد المبني على إيمانه الايديولوجي بقضية الوحدة العربية ووضوح الرؤية لديه بهذا الخصوص.

الأمر الذي لا شك فيه بداية أن مجمل نظرية ساطع الحصري في القومية

---

(٦٠) الحصري، «آراؤهم،» ص ٨٣ ـ ٩٠.

يفضي إلى أن يكون مطالباً بالوحدة الشاملة مؤيداً لها، وفي هذا السياق رد على القائلين بأن ما هو شائع في الأذهان من أن القوة بالوحدة أو الاتحاد يجب ألا يؤخذ على علاته لأنه «لا يحدد مدى الوحدة ولا عدد المتوحدين»، فأولى به أن ينطبق على أصغر عدد وأضيق مجال استناداً إلى أن العمل «يسهل.. ويعمق ويعطي النتائج المجدية، كلما انحصر مجاله وضاق». وقد رد الحصري على هذا المنطق بمنطق مضاد يستند إلى الحجة ذاتها: «إنهم يقولون ذلك، ولكنهم لا يسيرون مع مقتضيات قولهم هذا إلى النهاية، ولا يقولون لماذا يتوقفون في هذا المضمار عند حدود الدول القائمة، ولا يقترحون تجزئة هذه الدول أيضاً إلى أجزاء أصغر فأصغر، ما داموا يزعمون أن النتائج تكون أجدى كلما انحصر وضاق»[(٦١)].

وفي إطار موقف الحصري البديهي المؤيد لخيار الوحدة الشاملة بنى مواقفه من مشروعات الوحدة الجزئية استناداً إلى موقعها من هذا الخيار، فلم يعترض على ما يمكن أن يكون منها مفضياً إلى الوحدة الشاملة، وتصدى لتلك التي بدا بوضوح أنها تتنافس مع الوحدة العربية الشاملة بإقامة وحدات جزئية تستند إلى مفاهيم مناقضة لمفهوم القومية العربية، فتجعل من تلك الوحدات الجزئية غاية في ذاتها. بعبارة أخرى، فإنه لم يعترض على الوحدات الجزئية في ذاتها، وإنما بنى اعتراضه أو موافقته على موقعها من عملية تحقيق الوحدة العربية الشاملة.

ومما يدل على أنه لم يعترض على الوحدات الجزئية في ذاتها موقفه من الدعوة إلى الوحدة الأردنية ـ العراقية، والتي راجت بصفة خاصة في أعقاب اغتيال الملك عبد الله. وقد استعرض حجج المعارضين لهذه الدعوة سواء تلك القائلة بأن الوحدة الأردنية ـ العراقية تخل بالتوازن القائم بين الدول العربية بتقويتها للهاشميين على حساب السعوديين، أو بأن الاتحاد يجب أن يكون شاملاً لجميع الدول العربية، أو بأنه خير للشعوب العربية أن تسعى إلى التحرر من قيود المعاهدات والاحتلالات قبل أن تفكر في الاتحادات، أو أن الحفاظ على الوضع القائم هو أفضل الحلول، ثم بيّن اختلافه مع هذه الحجج، وتأييده من ثم لفكرة اتحاد يشمل الأردن والعراق فقط، بمجموعة من التساؤلات حول مصير سوريا لو كانت مثل هذه الآراء قد ظهرت على مسرح السياسة السورية قبل عقود ثلاثة من السنين. ومن التفصيلات التي طرحها في أسئلته يتضح أنه يقول بجلاء إن هذه الحجج لو استخدمت في العشرينيات والثلاثينيات لكان معناها إبقاء سوريا دويلات متعددة، وهو ما يعني أنه يقف بوضوح إلى جوار الاتحادات الجزئية كخطوة في العملية الوحدوية

---

(٦١) الحصري، «فوائد ومضار،» ص ٢٥ ـ ٢٦.

الشاملة، وهو ما يتضح من قوله: «كان من حسن حظ الشعب السوري والأمة العربية أن أمثال هذه الآراء والنظريات من نظرية «لا اتحاد قبل التحرر» إلى دستور «إبقاء ما كان على ما كان» لم تستول على الأذهان في تلك الأزمان»[٦٢].

ومن الأهمية بمكان في هذا السياق الإشارة إلى ما يبدو واضحاً من أن الحصري يعطي أولوية لهدف الوحدة حتى على هدف التحرر، ناهيك عن الديمقراطية أو العدالة الاجتماعية التي لم يناقش علاقتهما أصلاً بالوحدة، وهو ما يشير إلى أولوية الوحدة لديه في منظومة أهدافه أو سلم أولوياته، وهي قضية سيقدر لها أن تثير حتى وقتنا هذا جدلاً فكرياً وسياسياً واسعاً ومتشابكاً.

كما استند الحصري في موقفه الرافض للحجج السابقة إلى موقف معترض على إعمال مبدأ التوازن أصلاً في تحليل السياسة العربية، إذ أبدى أسفه غير المحدود لمعارضة فكرة الوحدة أو الاتحاد بزعم أنها تخل بالتوازن بين الدول العربية، وتؤدي بذلك إلى تصدع الجامعة العربية، واعتبر هذا التفكير مخالفاً لروح القومية العربية مخالفة أساسية، لأن مفهوم التوازن في الطبيعة يتضمن في حد ذاته وجود تخالف وتعاكس بين قوتين أو أكثر، وفي السياسة يتضمن وجود تنافس وتخاصم بين دولتين أو كتلتين من الدول.

ومن اللافت للنظر أن الحصري لم ينف صراحة وجود هذا التخالف أو التعاكس في الواقع العربي، وإنما استنكره، «فهل يجوز أن تقوم بين الدول العربية أمثال هذه الخصومات والمنافسات التي تستلزم إعمال الذهن لإيجاد التوازن بينها؟». ثم قرر أن هذه الخصومات التي يشير إليها دعاة التوازن في الوطن العربي ليست في حقيقة الأمر قائمة بين الشعوب العربية، حتى ولا بين الدول العربية، وإنما هي قائمة بين رؤساء بعض الدول، ولذلك دعا إلى بذل أقصى الجهود لإزالة تلك المنافسات عوضاً من اتخاذها ذريعة لتوقيف حركات الاتحاد، واعترض على القائلين بأن من شأن تكوين وحدات ثنائية أو ثلاثية أن يطيح بالجامعة العربية ويقسم الوطن العربي إلى معسكرين يتناصبان العداء السافر الصريح بعد أن كان مقنعاً، واعتبر على العكس أن إخراج التناقضات الخفية المقنعة إلى العلن هو السبيل لحلها[٦٣]. وسوف يتأكد موقف الحصري من الوحدة أو الاتحادات الجزئية عندما نتناول لاحقاً موقفه من تجربة الجمهورية العربية المتحدة.

---

(٦٢) ساطع الحصري، «بين حلب وبين عمان،» في: الحصري، العروبة أولاً، ص ٢٧ ـ ٣٠.

(٦٣) ساطع الحصري، «العروبة في ميثاق جامعة الدول العربية،» في: الحصري، العروبة بين دعاتها ومعارضيها، ص ١١٤ ـ ١١٦.

ولأن هذا الموقف الواضح المساند للوحدات والاتحادات الجزئية انبثق من نظرته إليها كخطوة في عملية تحقيق الوحدة العربية الشاملة، فإن الحصري على العكس قد تصدى لمشروعات الوحدة الجزئية التي تستند إلى مفاهيم معادية أو معارضة لمفهوم القومية العربية، لما سيكون لها بداهة حال تحقيقها من تأثيرات سلبية أكيدة في الوحدة العربية. وفي هذا السياق نعرض لموقفه من المشروع الوحدوي للحزب القومي السوري، ومن المشروعات الداعية إلى تجزئة عملية الوحدة العربية إلى نطاقات فرعية بدا أن منطق الدعوة لها يستند إلى خصوصيات معينة، وأن المقصود بها أن تكون دائمة لا أن تكون خطوة إلى الوحدة العربية الشاملة.

كان الحصري قد حمل في كتابه **العروبة بين دعاتها ومعارضيها** على مفهوم القومية السورية الذي استند إليه الحزب القومي السوري (الحزب السوري القومي الاجتماعي فيما بعد) لما يعتبره من أن القومية السورية التي يدعو إليها مستقلة عن القومية العربية كل الاستقلال[٦٤]، وبالتالي وقف طويلاً أمام هذا «الضلال الفكري» كما سماه، والذي تتم الدعوة بموجبها إلى تحرير أجزاء الوطن الضائعة، وهي فلسطين وقبرص وسيناء وكيليكية والاسكندرون. ويعلق الحصري على هذه الآراء بقوله: «طبيعي أن إنقاذ فلسطين إنما يعني تحريرها من حكم الصهيونيين، وإنقاذ قبرص يعني تخليصها من حكم الانكليز، وإنقاذ الاسكندرون وكيليكية يعني تحريرهما من الأتراك، وأما إنقاذ سيناء فلا يمكن أن يعني إلا تخليصها من حكم المصريين! إذن فإن مصر التي تحكم سيناء أجنبية... مثل الإنكليز والأتراك والصهيونيين!». وتذكر الحصري في هذا السياق ما كان قد كتبه تحت عنوان «غزة بعد الاسكندرونة» بعد أن قرأ ما سطره أحد مريدي انطون سعادة بمناسبة خبر إنشاء إدارة مصرية في غزة، واعتباره ذلك بمثابة كارثة قومية نزلت على رأس سوريا مثل كارثة انتقال الاسكندرون إلى حكم الأتراك[٦٥].

ومع ذلك، فقد راود الحصري الأمل حيناً من الوقت بأن أنطون سعادة مع ازدياد اطلاعه على أحوال البلدان العربية سوف يقترب أكثر وأكثر من مفهوم القومية العربية ولو من منظور عملي، ودلل على إمكانية هذا الاحتمال بتوسيع

(٦٤) ساطع الحصري، «نقد آراء انطون سعادة مؤسس الحزب السوري القومي،» في: المصدر نفسه، ص ٥٩ ـ ١٠٨.

(٦٥) ساطع الحصري، «القومية الاعتباطية التي يدعو إليها مريدو انطون سعادة،» في: الحصري، دفاع عن العروبة، ص ١٥ ـ ١٦.

سعادة لمفهوم سوريا الطبيعية بإدخال العراق فيه بعد أن لاحظ الروابط الوثيقة بين سوريا والعراق، ثم إدراكه ـ أي سعادة ـ ضرورة تأسيس جبهة عربية، تقوم سوريا بالدور الأهم في تكوينها وتوجيهها وتقويتها. وتكونت لدى الحصري فكرة في عام ١٩٤٨ بعد اجتماعه بسعادة أن التطور الذي حدث في آرائه على النحو السابق بيانه كان من شأنه أن يوصله ـ عندما يستمر ـ إلى تطور آخر، ويحمله على تحويل فكرة الجبهة العربية بصورة تدريجية إلى نوع من الفدرالية العربية، غير أن هذا لم يحدث على أي حال لاعتبارات لم يتوقف الحصري عندها تفصيلاً[٦٦].

وفي السياق نفسه مع خلاف في التفاصيل، اعترض الحصري على تمييز د. محمد أنيس بين ثلاث وحدات داخل الوحدة العربية العامة، وهي وحدة الشرق العربي، ووحدة حوض النيل، ووحدة المغرب، في دراسته عن القومية العربية، فلم ير سبباً معقولاً لهذا التقسيم، وبصفة خاصة لم يجد أي مبرر علمي لترك حوض وادي النيل خارج الشرق العربي، وإن كان قد لاحظ أن د. أنيس قد خفف من قطعية التقسيم المذكور إلى حد ما عندما وصفه بأنه ليس تقسيماً قديماً وأصيلاً، ولا يعدو قرناً ونصف قرن من الزمان في التاريخ الطويل للوطن العربي، واعتبر أن هذه الملاحظة كان يجب أن تحمل د. أنيس على التخلي عن فكرة التقسيم هذه، خصوصاً وقد رآها الحصري منطبقة على أحوال الوطن العربي ما قبل الحرب العالمية الأولى عندما كانت آسيا العربية تابعة للدولة العثمانية، وكان وادي النيل خاضعاً لحكم بريطانيا، والمغرب لحكم فرنسا. أما في أعقاب الحرب العالمية الثانية، فقد تغيرت الأحوال تماماً بانقسام آسيا العربية إلى عدة وحدات، قسم منها دخل تحت الانتداب البريطاني، وقسم آخر دخل تحت الانتداب الفرنسي، بل لقد حدثت انقسامات داخل كل من القسمين، كما أن وادي النيل قد شهد تطورات مهمة بخروج مصر عن عزلتها العربية[٦٧].

وبصفة عامة حذر الحصري من خطورة فكرة التقسيم هذه لخطورتها على المكانة الدولية للوطن العربي، لأن «المكانة التي يتمتع بها العالم العربي في السياسة الدولية تستند ـ في الدرجة الأولى ـ إلى وقوعه في ملتقى القارتين، وإلى سيطرته على هذا الملتقى بمخالب قوية واضحة وواسعة تمتد من طرفيه إلى مسافات

---

(٦٦) الحصري، «نقد آراء انطون سعادة مؤسس الحزب السوري القومي،» ص ٦٠.

(٦٧) ساطع الحصري، «نظرات انتقادية حول كتاب القومية العربية للدكتور محمد أنيس،» في: الحصري، **حول القومية العربية**، ص ١٠٦ ـ ١٠٧.

شاسعة. وان انشطار العالم العربي على النمط الذي أشرت إليه آنفاً يفقده هذه المكانة الخطيرة، ويذهب بكل ما له من أهمية سياسية واستراتيجية». وأشار الحصري إلى مسؤولية السياسة الدولية، وبصفة خاصة البريطانية، عن الترويج لهذه الأفكار، ووضع المشروع الصهيوني بدءاً من وعد بلفور، وانتهاءً بإنشاء دولة إسرائيل، في سياق وضعها موضع التطبيق[٦٨].

٣ ـ شكل دولة الوحدة

تظهر عملية المراجعة والنقد الذاتي والخارجي التي تعرض لها الفكر القومي العربي في العقود الأخيرة أن ثمة اعتقاداً بأن هذا الفكر يؤمن بالدولة المركزية البسيطة كشكل أمثل لدولة الوحدة، أو ما عرف اصطلاحاً بالصيغة الاندماجية للوحدة. واعتبر على نطاق واسع أن الدعوة للأخذ بالشكل الاتحادي (الفدرالي) في تحقيق الوحدة العربية يمثل تطوراً كبيراً في الفكر الوحدوي العربي، والواقع أن مراجعة أفكار ساطع الحصري تظهر أن الرجل آمن منذ اللحظة الأولى بالشكل الفدرالي لدولة الوحدة العربية.

ويبدأ هذا الإيمان باعترافه بحقيقة التنوع بين البلدان العربية، ورفضه في الوقت نفسه أن يكون هذا التنوع مدعاة لمعارضة فكرة الوحدة. وشبّه الحصري أقوال السائرين في هذا الاتجاه بمن يقول: «إن العظام تختلف عن الأعصاب كثيراً، واللحم لا يشبه الدم أبداً، والدماغ يختلف عن الأمعاء اختلافاً كلياً، فهل يمكن تكوين وحدة من هذه الأشياء التي يختلف بعضها عن بعض كل هذا الاختلاف. وإذا طلبنا توحيد هذه الأشياء المتخالفة ألا نكون قد طلبنا إزالة الفوارق القائمة بينها، وحاولنا إرجاع الدماغ إلى دركة الأمعاء، والدم إلى دركة الشحم؟».

وواصل الحصري منطقه بمثال آخر قائلاً: «لو قال قائل إن الطبل يختلف عن البوق، والمزمار لا يشبه الكمان، والكمان يختلف عن البيان اختلافاً كبيراً، فكيف يمكن تكوين وحدة من هذه الآلات المختلفة؟ لا شك في أن كل الناس يهزأون به ويشفقون عليه»[٦٩].

---

(٦٨) المصدر نفسه، ص ١٠٨ ـ ١٠٩. انظر أيضاً: الحصري، دفاع عن العروبة، «مقدمة،» ص ١٠ ـ ١١.

(٦٩) الحصري، «العلاقات الثقافية بين البلاد العربية،» ص ٩٤ ـ ٩٥.

ومن إيمانه بحقيقة التنوع والوحدة معاً، يمكن فهم رفضه لاعتبار الوحدة والمركزية شيئين متلازمين(٧٠)، ونفيه لأن تكون الدعوة للوحدة العربية هي دعوة لبناء «دولة شديدة التمركز»، وانتقاده لنظام المركزية الذي تسير عليه الدول العربية القائمة، ودعوته إلى اللامركزية في مناسبات عديدة، ليس فقط بمعنى توسيع سلطات رؤساء الدوائر الإدارية، وإنما بمعنى توسيع سلطات المجالس التمثيلية المختلفة إلى حد يخولها حق فرض ضرائب خاصة.

وأعلن الحصري بوضوح (في مطلع الخمسينيات) أنه عندما أثيرت قبل بضع سنوات قضية اتحاد سوريا والعراق، لم يتردد في القول بوجوب إقامة الاتحاد المذكور على أساس النظام الفدرالي، بحيث يترك لكل من الحكومتين الحرية الكاملة لتنظيم وتصريف شؤونها الخاصة وفق قوانينها الخاصة بحسب النظم المعتادة في الدول الفدرالية(٧١). ويلاحظ أنه في مناقشته بعدما يزيد على عقد من الزمان للمشروع الوحدوي الذي تضمنه بيان القيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي في أعقاب انفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة قد حرص على أن يبين ـ ولو على نحو غير مباشر ـ أن الأخذ بالنظام الفدرالي لا يسوغ لكل إقليم داخل في الوحدة حرية التشريع على «ضوء أحوال الإقليم الواقعية» على النحو الذي يزيد ما بين الأقاليم من فوارق، فسوف يترتب على هذه الحرية ـ وفقاً للحصري ـ أن يأخذ إقليم مثلاً بنظام الحرية الاقتصادية، والآخر بنظام الاقتصاد الموجه، وأن يسمح إقليم بتكوين الأحزاب ويمنعها الآخر، وهكذا. واعتبر أن مثل هذا النهج لا يمكن أن يؤدي إلى دولة قابلة للحياة، وإنما إلى دولة للوحدة الاسمية(٧٢). كذلك اعتبر الحصري أن التأكيد على أن اتحاد الأقطار العربية سيكون ـ ويجب أن يكون ـ على أساس النظام الفدرالي لا يمنع من أن يحدث «اندماج تام» بين بعض الأقطار، وإن كان ذلك بحسب اعتقاده لن يكون عاماً(٧٣).

---

(٧٠) ساطع الحصري، «حول الوحدة الثقافية العربية،» في: الحصري، **حول الوحدة الثقافية العربية**، ص ٢٥.

(٧١) ساطع الحصري، «ردود على جريدة العمل «لسان حال الكتائب اللبنانية»،» في: الحصري، **العروبة بين دعاتها ومعارضيها**، ص ٣٢.

(٧٢) ساطع الحصري، «ملاحظات حول البيان الصادر باسم القيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي والمنشور في الجرائد البيروتية في ٤/٦/١٩٦٢،» في: الحصري، **الاقليمية: جذورها وبذورها**، ص ٨٢ ـ ٨٣.

(٧٣) ساطع الحصري، «حول الوحدة والاتحاد،» في: المصدر نفسه، ص ٥٩.

٤ ـ نظام الحكم في دولة الوحدة

يلاحظ أن ساطع الحصري لم يتبن موقفاً محدداً إزاء مسألة نظام الحكم الذي يتعين أن تأخذ به دولة الوحدة، ومن الواضح أن مجيء هدف الوحدة على سلم أولوياته جعله لا يركز على هذه المسألة. بعبارة أخرى، فإنه من الممكن أن يُستنتج بسهولة على نحو ما سيجيء أنه لم يمانع في أن يكون نظام الحكم في دولة الوحدة ملكياً، ومع ذلك فقد أعطى بعض الإشارات العامة التي ترجح وجود نظرة تقدمية ديمقراطية عامة من جانبه إلى طبيعة نظام الحكم في دولة الوحدة المنشودة دون أن يصل هذا إلى حد الزعم بأنه شدد أو أكد على الديمقراطية كأساس لنظام الحكم في دولة الوحدة أو كشرط للتوصل إليها.

وقد سبقت الإشارة إلى رفض الحصري المركزية كأساس للعلاقة بين المركز والأطراف في دولة الوحدة، وإن كان هذا الأمر ربما يعود إلى شكل الدولة أكثر مما يعود إلى نظام الحكم فيها. كذلك رفض الحصري أن تؤدي الوحدة حتماً، كما زعم خصومها، «إلى بسط إقطاعية شديدة تكمن فيها المحاذير التي تستدعي الشيوعية وتوابع الشيوعية»[(٧٤)]. ودلل على ذلك بأن «صغر الدولة لا يضمن خلاصها من الإقطاعية، كما أن كبرها لا يحول دون تأسيس الحكم الشعبي فيها». كما أشار في موضع لاحق إلى أن «الفكرة القومية يجب أن تكون مقترنة بالنزعة التقدمية، ويجب أن تتجرد عن كل أنواع النزعات الرجعية». وعندما أتى على شرح المقصود بالنزعة التقدمية، ركز على مفهوم «التجديد» الشامل[(٧٥)]، وفي مكان ثالث أعرب عن اعتقاده بأنه «سيأتي يوم يقوم فيه برلمان عربي عام فوق البرلمانات التي نشاهدها الآن»[(٧٦)].

ومع ذلك، فإن الإشارات السابقة للحكم الشعبي أو البرلمان العربي وغيرها يجب ألا تؤخذ ـ كما سبقت الإشارة ـ على أنها تعني أن الحصري كان من أنصار النظام الديمقراطي لدولة الوحدة، فقد كانت الوحدة لديه هي الهدف الأعلى الذي يسمو على الاشتراطات الأخرى كتلك المتعلقة بنظم الحكم، كما أن نزعته التقدمية العامة وتأكيده على ضرورة التجديد لم تكن تعني شيئاً محدداً بالنسبة لنظم الحكم العربية القائمة، وحتى عندما أشار في عام ١٩٥٥ إلى أن الثورة المصرية بقضائها على الحكم الملكي قد أزالت أحد عوائق الاتحاد، لم يزد في تفسيره لهذا القول

(٧٤) الحصري، «فوائد ومضار،» ص ٢٧ ـ ٢٨.

(٧٥) الحصري، «قضايا مختلفة: كلمة الوحدة،» ص ٥٢ ـ ٥٤.

(٧٦) الحصري، «حول الوحدة والاتحاد،» ص ٦٠.

على أن ذلك الحكم كان أقدم العروش القائمة في الشرق العربي، ولم يحدد ما إذا كان يقصد أن الحكم الملكي بعامة من عوائق الاتحاد، أم أن الحكم الملكي المصري بخاصة كان كذلك[٧٧]. والواقع أن القراءة الشاملة لفكر الحصري ترجح التفسير الثاني، حيث إن الحصري لم يعترض من حيث المبدأ على قيام وحدة بين نظام جمهوري وآخر ملكي (حالة سوريا والعراق)، أو بين نظامين ملكيين (حالة الأردن والعراق)، كما اتخذ موقفاً إيجابياً على نحو ما سيجيء من عملية التوحيد التي تمت في الدولة السعودية في إطار النظام الملكي.

رابعاً: ساطع الحصري والتجارب الوحدوية العربية المعاصرة

شهد ساطع الحصري في حياته عدداً من محاولات تجسيد هدف الوحدة العربية على أرض الواقع، ويبقى ضرورياً لعملية التحقق العلمي من أفكاره بصدد مسألة الوحدة العربية أن ننظر في الكيفية التي طبق بها هذه الأفكار على موقفه من تلك المحاولات الوحدوية العربية، والتي يمكن تصنيفها إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ الحصري وتجارب التوحيد في سوريا والسعودية وليبيا

على الرغم من أن جل اهتمام الحصري قد انصرف إلى تحليل واقع التجزئة العربي إلى دول والاهتمام بالكيفية التي يمكن بها عبور هذا الواقع إلى المثالية الوحدوية، فقد كان من الضروري أن يتوقف عند تلك العملية التاريخية الوحدوية التي تم من خلالها تكوين الدول العربية ذاتها. وقد تناول الحصري في أكثر من موضع تكوين الدولة السورية في المدة الواقعة بين سنتي ١٩١٨ و١٩٤٣ على نحو إيجابي بطبيعة الحال. وقد سبقت الإشارة إلى استخدامه لهذه الحالة في تفنيد آراء الرافضين للوحدات الجزئية[٧٨]، غير أنه توقف بعد ذلك بصفة خاصة عند حالتين: الحالة السعودية، والحالة الليبية.

فقد نبه الحصري إلى أن حركات «التوحد والتوحيد» التي حدثت في الأقطار العربية لم تنحصر بما ذكره عن سوريا، بل حدث ما يماثل ذلك في الجزيرة العربية أيضاً، ورأى أنه من المفيد تذكر تلك الأحداث في ذلك الوقت (نشرت آراؤه بهذا الخصوص أول مرة في عام ١٩٥٥). وقد بدأ تناوله للتجربة السعودية في التوحيد بوصف لحالة الانقسام السياسي التي ميزت أراضي العربية السعودية

---

(٧٧) الحصري، دفاع عن العروبة، «مقدمة،» ص ١٠.

(٧٨) انظر: الحصري، «بين حلب وبين عمان،» ص ٢٩ ـ ٣٠.

الحالية قبل حركات التوحيد العسكرية التي قام بها عبد العزيز بن سعود خلال عشر سنوات من عام ١٩٢١ إلى عام ١٩٣٠، واعتبر أن مرور حوالى ربع قرن على هذه الأحداث يمكّن الباحث من النظر إليها بنوع من الحياد الفكري.

وقد بدأ الحصري بحثه للحالة السعودية بتساؤل بسيط: «هل كان توحيد البلاد الأربعة المذكورة [إمارة آل الرشيد، وسلطنة آل السعود، والمملكة العربية الهاشمية، وإمارة الادريسي] وادماجها في دولة واحدة موافقاً لمصلحة الأمة العربية أم مخالفاً لها؟... وبالتالي هل يجب أن نقول: «نعم ما حدث»، أم نقول «يا ليت لم تتوحد تلك البلاد»؟، واعتبر أنه لا مجال للتردد في الجواب. كلا لا يسوغ لنا أن نقول: «يا ليت لم تتحد تلك البلاد»، إذ من بديهيات الأمور أنه لو كان هناك أربع دول عوضاً عن هذه الدولة الواحدة لزادت عوامل التنازع والاختلاف في السياسة العربية، كما زاد عدد الوفود في مجلس جامعة الدول العربية، ولأصبحت الأمور فيها أشد تعقداً وأكثر تبلبلاً مما هي عليه الآن بدرجات».

وخلص الحصري بعد أن استعرض الوقائع التي أحاطت بتكوين الدولة السعودية، والتعقيدات التي نجمت بصفة خاصة عن ضمها إلى المملكة الهاشمية في الأراضي الحجازية، إلى رأي محدد مؤداه أنه «لا شك أن الحركات التوحيدية التي قام بها الملك عبد العزيز بن السعود انتهت إلى أوضاع موافقة لمصلحة الأمة العربية».

وقد أكد الحصري على أن حكمه هذا لا يتعارض مع إجلاله وتعظيمه لدور الملك حسين بن علي في بعث الأمة العربية، لأنه كان أول من دعم الفكرة العربية بقوة عسكرية، وأقدم على إعلان الثورة العربية في ظروف خطيرة، بل لقد انتهى إلى القول مشيراً إلى أن قوله هذا سيبدو في منتهى الغرابة بأن «ما حدث على يد عبد العزيز بن السعود كان بمثابة تتمة لأعمال حسين بن علي، لأن ذلك كان بمثابة خطوة من الخطوات الضرورية في سبيل تحقيق الوحدة العربية»[٧٩].

أما الحالة الليبية، فكان الحصري قد تناولها في عام ١٩٥٠ ضمن تفسيره لأسباب التجزئة العربية على النحو السابق بيانه، موضحاً تعرض ليبيا لخطر التجزئة نتيجة الصراع بين جيوش المحور وجيوش الحلفاء، ومشيراً إلى قرار مجلس الأمن بعدم تجزئتها على أن تؤسس فيها دولة مستقلة سنة ١٩٥٢، وإلى استمرار مخطط الدول الاستعمارية في محاولة تكريس انقسام ليبيا إلى أجزاء ثلاثة[٨٠]، ومنبهاً إلى

(٧٩) ساطع الحصري، «من حائل إلى العسير ومن جدة إلى الظهران،» في: الحصري، العروبة أولاً، ص ٣١ ـ ٣٩.

(٨٠) الحصري، «القومية العربية،» ص ٣٣ ـ ٣٤.

تغلب ليبيا بعد ذلك على جميع العقبات بمساعدة جامعة الدول العربية من ناحية، وكتلة «محبي الحق» في هيئة الأمم المتحدة من ناحية أخرى، واستقلالها على شكل دولة اتحادية جعل كل واحدة من المناطق الثلاث ـ التي كان حددها الاستعمار وفق مطامعه ـ ولاية تتمتع بسلطات خاصة.

ولذلك رحب الحصري كل الترحيب بتحول ليبيا في عام ١٩٦٣ بعد عشر سنوات من التجربة إلى دولة موحدة، وانتقد موقف جريدة **البعث** التي وصفت هذا التحول بعنوان «ليبيا تعود القهقهرى للمركزية»[٨١]، وهو موقف يتسق مع ما سبق وأشرنا إليه من أن الخيار الفدرالي الذي حبذه الحصري لشكل دولة الوحدة العربية لا يمنع من أن يحدث اندماج تام بين بعض الأقطار.

٢ ـ جامعة الدول العربية

يظهر البحث في موقف ساطع الحصري من جامعة الدول العربية، كيف تطور هذا الموقف من التأييد القوي الواضح عندما أثارت في بدايتها الأمل في تجسيد فاعل للرابطة العربية إلى الانتقاد اللاذع الصريح عندما بدا عجزها عن تحقيق ذلك الأمل.

وقد اعتبر الحصري في عام ١٩٤٧ أن جامعة الدول العربية هي وليدة احتياج حقيقي في مختلف الأقطار العربية، ذلك أن تلك الأقطار التي تكونت ـ وفقاً له ـ في إطار السياسات الاستعمارية كانت قد أخذت تتباعد بعضها عن بعض في اتجاه مخالف للروابط المعنوية التي تربطها، والتي أحدثت بدورها من الحركات الشعبية والتيارات القومية ما يعاكس اتجاه التباعد السابق. وقد بدأت هذه الحركات مستقلة عن الحكومات، ثم أخذت بعد ذلك تنال منها التحبيذ، فالتأييد، فالتشجيع، فالمساندة بحسب تقدم الحكومات المذكورة في سبيل الاستقلال السياسي والإداري وتشبعها بالروح القومية والوطنية، وصار نطاق التأييد الرسمي والمساعدة الحكومية يتوسع تدريجياً حتى شمل جميع الدول العربية.

وقد أشار الحصري في هذا السياق إلى الدور الذي لعبته محنة فلسطين وأحداث الحرب العالمية الثانية في تعزيز الاتجاه السابق، وانتهى إلى أن جامعة الدول العربية «ما هي إلا الجهاز الرسمي الذي وجد لتحقيق هذا التنظيم القومي العام، فهي بهذا الاعتبار بمثابة منظمة طبيعية تكونت بتأثير عوامل قومية غزيرة

---

(٨١) ساطع الحصري، «وحدة ليبيا في نظر جريدة البعث،» في: الحصري، **الاقليمية: جذورها وبذورها**، ص ٦٧ ـ ٧٠.

المنافع عميقة الجذور». وبتعبير آخر، إنها «عضوية حية نامية تمخضت منها مشيمة العالم العربي تمخضاً طويلاً، وقد ولدت هذه العضوية ولادة طبيعية زودتها بجميع شروط النمو والحياة». وميز الحصري جامعة الدول العربية بهذا الوصف مما سماه بالمنظمات الاصطناعية، كالحلف البلقاني الذي سعت تركيا لتكوينه منها ومن دول البلقان دونما اشتراك في اللغة والتاريخ والنزعات القومية والمنافع الأساسية، مما جعل من الطبيعي أن ينفرط عقد هذه الدول المتحالفة حالما تتغير الظروف السياسية الطارئة التي جمعتها.

وحرص الحصري على أن ينبه إلى أن الجامعة لا تزال في بدء تكوينها، فلا يزال أمامها مجالات واسعة من النمو والتطور والتقدم، كما أنها قد تتعرض في المستقبل إلى بعض الأزمات المتأتية «من كيد الأعداء والموتورين»، غير أنه اعتقد أن روح العروبة من القوة والمناعة بما يكفل لها التغلب على هذه الأزمات[٨٢].

وبعد حوالى ثلاث سنوات من التحليل السابق، توقف الحصري عند نقاط الضعف في بنية الجامعة، فلاحظ أن الرابطة التي أوجدها الميثاق بين الدول المشتركة فيه رابطة ضعيفة، بل واهية، لأن الميثاق لم يمنح مجلس الجامعة أية سلطة تنفيذية، كما أنه لم يجعل مقرراتها ملزمة للجميع، وأرجع هذا الضعف إلى اضطرار معظم الدول العربية التي كانت تريد رابطة أقوى إلى قبول هذا الضعف في الميثاق مراعاة لنزعة التحفظ والحذر التي بدت من بعض الدول العربية، وأملاً في تعديل الميثاق فيما بعد عندما تطمئن هذه الدول وتترك التحفظ والحذر، إلا أنه لاحظ أن شيئاً من هذا التعديل إلى الأفضل لم يحدث بعد مرور ست سنوات على توقيع الميثاق على الرغم من نصه الصريح على ذلك[٨٣].

وقد انتهى الحصري إلى أن جامعة الدول العربية بتطورها على النحو السابق (بعد حوالى ست سنوات من نشأتها) قد خيبت آمال الكثيرين من القوميين بعد الحماسة الشديدة التي قوبلت بها في جميع البلدان العربية، مما ساعد على انتشار فكرة القومية العربية وازدهارها. وحلل التيارات الفكرية ـ السياسية التي ترتبت على هذا التطور في مسار الجامعة مشيراً إلى التيار المنادي بالإصلاح الجذري بما يجعلها آلة صالحة لخدمة القومية العربية خدمة حقيقية، والتيار الذي لا يأمل منها

(٨٢) ساطع الحصري، «جامعة الدول العربية،» في: ساطع الحصري، صفحات من الماضي القريب، سلسلة التراث القومي. الأعمال القومية لساطع الحصري؛ ٣ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٤)، ص ٦٧ ـ ٧٠ (نشر هذا الكتاب لأول مرة عام ١٩٤٨).

(٨٣) الحصري، «العروبة في ميثاق جامعة الدول العربية،» ص ١١١ ـ ١١٣.

خيراً، فينادي بحلها، والتيار الذي يشارك في عدم توقع شيء من الجامعة، وإن كان لا يحبذ إلغاءها ويرى الانتظار إلى سنوح فرص أكثر ملاءمة لإصلاحها جذرياً، والتيار الذي يضع اللوم على جميع الدول المشتركة في الجامعة أو يحصر المسؤولية في البعض منها، والتيار الذي يعتبر الأمانة العامة هي المسؤولة عن الأوضاع التي آلت إليها الجامعة، وأخيراً التيار الذي يرى أنها برهنت على بطلان الفكرة القومية العربية، ويدعو لذلك إلى العدول عن الفكرة نفسها، وهو التيار الوحيد الذي عني الحصري بتفنيده باعتباره أخطر التيارات السابقة وأبعدها عن الصواب «لأن جامعة الدول العربية. . لم تكن «جامعة عربية» ولا «جامعة للشعوب العربية» بل هي جامعة «للدول العربية»، فلا يجوز أن تعتبر ممثلة للأُمة العربية، كما أن الإخفاق الذي منيت به هذه الجامعة لا يجوز أن يعتبر دليلاً على بطلان فكرة القومية العربية بوجه من الوجوه». وشبّه الحصري هذا الإخفاق بإخفاق «الدييت» الألماني الذي تكوّن بعد معاهدة فيينا في جمع كلمة الدول الألمانية، وكيف أن هذا الإخفاق لم يحل دون اتحاد الألمان اتحاداً فعلياً بعد مدة من الزمان.

ومع تفنيد الحصري لمقولة ان إخفاق جامعة الدول العربية يبرهن على بطلان فكرة القومية العربية، فإنه اعترف بالضعف الذي اعترى هذه الفكرة نتيجة تركيز مجلس الجامعة على القضايا السياسية، وبعد الأمانة العامة عن تقدير واجباتها القومية، في الوقت الذي اعتمد الكثيرون من القوميين عليها في نشر الفكرة القومية، فانقطعوا عن العمل في سبيلها، مما أوجد نوعاً من الفتور في الحركات القومية أعقبه شيء من الارتداد في بعض البلاد[٨٤].

وفي عام ١٩٥٥ بدأ الحصري يركّز على تفسير الإخفاق الذي آلت إليه جامعة الدول العربية، ومن أوضح مساهماته في هذا الصدد رفض «نظرية المرآة»، بمعنى القول بأن الجامعة قد فشلت لأنها مرآة لأوضاع الدول العربية، وقد انتقد الحصري على نحو لاذع في هذا السياق الرأي الذي ذهب إليه عبد الرحمن عزام أول أمين عام لجامعة الدول العربية في أواخر عهده في الأمانة العامة من «أن الأمانة العامة ما هي إلا مرآة الدول العربية، والأحوال التي تشاهد فيها ما هي إلا

---

(٨٤) الحصري، «التيارات الفكرية حول القومية العربية،» ص ٢٢ ـ ٢٣. انظر أيضاً: ساطع الحصري، «مصر والعروبة،» في: الحصري، **آراء وأحاديث في القومية العربية**، ص ٧١ ـ ٧٢. وقد ركز الحصري في هذا المصدر على نقد الخلط الشائع بين «جامعة الدول العربية» ومفهوم «الجامعة العربية». انظر أيضاً: الحصري، «نحو الولايات المتحدة العربية فالدولة العربية الكبرى،» ص ١٠٦ ـ ١١٠.

ما ينعكس عليها من أحوال الدول العربية»، وتساءل ساخراً: «ما دام الأستاذ عبد الرحمن عزام يريد أن يشبّه الأمانة العامة بالمرآة، بقي عليه أن يقول لنا: من أي نوع من أنواع المرايا هي؟»، ثم أردف موضحاً: «هناك مرايا مستوية تعكس الأشعة كما وردت عليها، ومرايا مقعرة تقرب الأشعة الواردة عليها وتجمعها، ومرايا محدبة تبعد الأشعة الواردة عليها وتبعثرها، ومرايا غير منتظمة السطوح، تقرب بعض الأشعة، وتبعد بعضها، وتترك بعضها على حالها، وتشوه بذلك صور الأشياء الخارجية بشتى ضروب التشويه»، وواصل هجومه بتساؤل آخر: «هل يجوز للأمانة العامة أن تعتبر نفسها مرآة، وتعمل على الدوام عمل المرآة؟».

ومع اعتراف الحصري بأن ثمة قضايا عديدة تقع مسؤوليتها بكل تأكيد على دولة عربية أو مجموعة من الدول العربية أو جميع الدول العربية، إلا أنه أكد أنه يستطيع أن يسوق عشرات من الأمور المهمة التي لم تتدخل فيها دولة من الدول العربية بوجه من الوجوه، والتي تقع مسؤوليتها على الأمانة العامة نفسها، بل إن ثمة أعمالاً أقدم عليها الأمين العام مخالفاً اقتراحات ومقررات ممثلي الدول العربية مخالفة صريحة.

وحمل الحصري بعد ذلك بشدة على عبد الرحمن عزام لأنه من وجهة نظره تولى الأمانة العامة ولديه كل شروط النجاح ووسائل العمل المادية والمعنوية: منظمة جديدة لا يقيده في بنائها شيء من قيود الماضي، وتقدير الجميع لشخصه وثقتهم به، وموارد مالية كبيرة وسلطة مالية واسعة. فكانت النتيجة أنه أسس إدارة من أسوأ الإدارات في مختلف البلدان العربية، ووضع تقاليد مالية من أسخف ما يمكن أن يخطر على البال، وركز جهوده على المسائل السياسية وحدها مع أن الميثاق اهتم بالأمور الاقتصادية والقانونية والثقافية، ومع أن قليلاً من التفكير الجدي في القضايا القومية كان يكفي للتأكد من أن التقدم الذي يحصل في تنسيق وتوحيد شؤون الدول العربية في هذه الميادين كان لا بد من أن يسهل التنسيق والتوحيد في ميدان السياسة. وحتى في الأمور السياسية اتهم الحصري عزام بأنه توهم بأن القضايا السياسية تعالج بالخطب والأحاديث المرتجلة وحدها، فلا تحتاج إلى شيء من الدرس، وتستغني عن كل أنواع الوثائق والمعلومات[٨٥]. وفيما بعد أضاف الحصري إلى انتقاداته لعبد الرحمن عزام تشكيكه في سلامة آرائه القومية أصلاً بسبب نزوعه الواضح إلى اعتبار الوطن العربي مجالاً حيوياً لمصر،

(٨٥) ساطع الحصري، «مرآة عبد الرحمن عزام،» في: الحصري، العروبة أولاً!، ص ٥٢ ـ ٥٥.

واعتبر ذلك من أهم أسباب إخفاق الأمانة العامة[٨٦].

ولا ينبغي أن تدفع حدة هذا الهجوم إلى الاعتقاد بأن الحصري قد حصر أسباب إخفاق جامعة الدول العربية في أداء الأمانة العامة وحده، فالواقع أنه اعترف بداية كما سبقت الإشارة بأن ثمة قضايا عديدة تقع مسؤوليتها بكل تأكيد على دولة عربية أو مجموعة من الدول العربية أو جميعها، ولذلك اهتم بتوضيح هذه المسألة عندما أشار د. محمد أنيس في دراسته عن القومية العربية إلى أنه ـ أي ساطع الحصري ـ يعتبر الأمانة العامة وعبد الرحمن عزام بالذات مسؤولاً عن فشل جامعة الدول العربية، ووصف ـ أي محمد أنيس ـ هذا الرأي بالقصور[٨٧].

وقد طبق الحصري تفسيره السابق لإخفاق جامعة الدول العربية ودور الأمانة العامة فيه على عمل الجامعة في مجال الوحدة الثقافية العربية، فخصص كتاباً بأكمله من كتبه[٨٨] رصد فيه أداء الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، معتمداً في ذلك على وثائق صادرة عن هذه الإدارة. وعرض بشكل تفصيلي ودقيق لتقصير الإدارة في تنفيذ العديد من المقررات والمشاريع المحددة، بل ولعدم استخدامها للمصطلحات القومية الواجبة، كما في استخدامها لتعبير الأمم العربية بدلاً من الأمة العربية، أو الشرق العربي بدلاً من العالم العربي أو الأمة العربية[٨٩].

وفي تفسير هذا التقصير والخلط، انتهى الحصري إلى القول بفقدان روح المثابرة وشيمة العمل التقني في الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، ورد هذا إلى النقص الأساسي الذي لازم تنظيماتها وأبقاها محرومة من جهاز فني يضمن إنجاز الأعمال وفق خطط مدروسة، والازدواجية بينها وبين المكتب الدائم للجنة الثقافية الذي أشارت إليه المذكرة الإيضاحية المرفقة بمشروع المعاهدة الثقافية، والذي أحيلت عليه أعمال تنفيذية مع أنه يضم مندوبي الدول (بينما لا يضم مدير الإدارة الثقافية)، مما يخالف ـ وفقاً للحصري ـ أوليات الإدارة السليمة، ويعرقل أعمال التنفيذ، وبخاصة أن المندوبين الدائمين كان يفترض فيهم أن يكونوا من

---

(٨٦) الحصري، «آراؤهم،» ص ٨٩ ـ ٩٠.

(٨٧) الحصري، «نظرات انتقادية حول كتاب القومية العربية للدكتور محمد أنيس،» ص ١١٧ ـ ١١٨.

(٨٨) ساطع الحصري، **ثقافتنا في جامعة الدول العربية**، سلسلة التراث القومي. الأعمال القومية لساطع الحصري؛ ١٦ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥) (نشر الكتاب لأول مرة عام ١٩٦٤).

(٨٩) المصدر نفسه، ص ٩٣ ـ ٩٤.

ذوي الرأي والخبرة في الشؤون الثقافية، بينما انتهى الأمر إلى أن يكونوا من موظفي سفارات الدول العربية في القاهرة، وفي أحسن الأحوال الملحقين الثقافيين بهذه السفارات والمثقلين بمهام الإشراف على شؤون الطلبة الذين يدرسون في القاهرة. وفي كل الأحوال، لم يكن هناك حد فاصل بين مهام وصلاحيات كل من المكتب الدائم والإدارة الثقافية، ولذلك صار نطاق أعمال المكتب الدائم يتوسع أو يتقلص بحسب آراء واجتهادات رئيس اللجنة الثقافية ومدير الإدارة الثقافية، ويختلف كثيراً باختلاف الظروف. وبالإضافة إلى ذلك أكد الحصري على مسؤولية الأمانة العامة مباشرة عن ذلك التقصير في عمل الإدارة الثقافية في بعض الأحوال[٩٠]، كما أنه لم ينف ـ كما فعل من قبل ـ مسؤولية الحكومات العربية في هذا الصدد، ولكنه حصر مسؤوليتها في عدم توجيه اللوم إلى الأمانة العامة والإدارة الثقافية العربية، وليس في عدم توفير أسباب العمل[٩١].

وبغض النظر عن حدة النقد الذي وجهه الحصري إلى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، ثم لإدارتها الثقافية فيما بعد، فإنه مما تجدر ملاحظته أنه بنى نقده على وقائع محددة وحقائق تتعلق بمدى توفر مقومات العمل المؤسسي فيهما، وبالذات في مجال تقويم عمل الإدارة الثقافية. وقد فتح بهذا باباً مهماً للنقاش حول الدور الذي ينبغي ويمكن أن تقوم به الأمانة العامة في تفعيل جامعة الدول العربية بغض النظر عن الأحوال السائدة في الدول العربية أو في علاقاتها البينية.

٣ ـ الوحدة المصرية ـ السورية

كان من البديهي أن يتحمس الحصري للوحدة المصرية ـ السورية باعتبارها نواة للوحدة العربية الكبرى التي نذر نفسه للدعوة إليها والمناداة بها، وقد اختار الحصري أن يكون تأييده لهذه الوحدة من خلال حوار نشر لأول مرة في عام ١٩٦١ (أغلب الظن قبل وقوع الانفصال) بينه وبين عدد من معارضي الوحدة. ويمكن تلخيص موقف الحصري من هذه الوحدة وما أثير حولها من تحفظات فيما يلي:

أ ـ إن الوحدة ليست سابقة لأوانها، بل إننا كنا ننتظرها، ونتوق إلى ما هو أوسع وأشمل منها منذ مدة طويلة.

---

(٩٠) المصدر نفسه، ص ٩٥ ـ ١٠٤.

(٩١) انظر: المصدر نفسه، ص ٥٠.

ب ـ إن التحجج بوجود تمايزات وفروق بين مصر وسوريا في الثقافة أو مستوى المعيشة كمشاكل تعترض سبيل الوحدة لا يستقيم، لأن هذه التمايزات موجودة أيضاً داخل البلد الواحد، أي داخل كل من مصر وسوريا على حدة.

ج ـ إن القول بأن عدم وجود اتصال جغرافي بين مصر وسوريا يشكل معوقاً للوحدة بدوره غير دقيق، فالاتصال البحري موجود، والاتصال البري وحده هو الغائب، ولن تختلف دولة الوحدة في هذا عن أية دولة يضم إقليمها جزراً أو تتكون هي ذاتها من مجموعة من الجزر (اندونيسيا)، بالإضافة إلى وجود حالة مشابهة لحالة الجمهورية العربية المتحدة، وهي دولة باكستان.

د ـ إن العوامل التي تجمع بين مصر وسوريا عديدة، فأهالي كل منهما يشتركون في اللغة والثقافة، والقطران كونا في عهود عديدة وطويلة من التاريخ دولة واحدة أو كانا داخل نطاق وحدات أوسع منهما، بالإضافة إلى الاشتراك في نظم الحكم (النظام الجمهوري) وتوجهات السياسة الخارجية والتشبع بروح القومية العربية.

هـ ـ إن القول بأن الوحدة بين سوريا والعراق أكثر طبيعية منها بين سوريا ومصر لا ينبغي أن يقام حجة على الوحدة، لأن المفروض أنه إذا كان الأصعب قد تحقق، فيجب أن يتم العمل على تحقيق الأسهل. أما القول بأن مصلحة العروبة تقتضي اتحاد سوريا والعراق دون مصر، فهو مخالف لأبسط مقتضيات الإيمان بوحدة الأمة العربية.

و ـ إن التحجج بالشك في صميمية المصريين في أمر العروبة، كونهم قد تغيروا فجأة تغيراً عظيماً نحو الإيمان بالعروبة، غير سليم أو دقيق، فهو غير سليم لأن المؤمنين بالوحدة العربية يجب ألا يستغربوا هذا التغير، بل إن الغريب هو تأخر المصريين في هذا الإيمان، وهو غير دقيق لأن التغير المشار إليه لم يحدث فجأة، وإنما بدأت تباشيره قبل الوحدة بمدة غير قصيرة منذ زوال ظروف الحرب العالمية الأولى[٩٢].

وكما كان حماس الحصري لتأييد الوحدة المصرية ـ السورية بديهياً، كان موقفه القوي الصارم من الانفصال ومن أيدوه بدورهم موقفاً بديهياً. وقد وصف الحصري الانفصال بأنه «نكسة أليمة»[٩٣]، وتصدى لتفنيد حجج أنصاره أو

(٩٢) ساطع الحصري، «حول وحدة مصر وسوريا،» في: الحصري، حول القومية العربية، ص ٣٣ ـ ٤٧.

(٩٣) انظر: الحصري، الاقليمية: جذورها وبذورها، ص ٢٩.

المبررين له، وطالب بضرورة نقد تجربة الوحدة شريطة عدم التركيز على أخطائها، وألا تحمل بأخطاء ليست لها: وانحاز إلى عبد الناصر دون حزب البعث في هذا السياق، وقدم رؤيته الخاصة لتفسير ما وقع.

وفيما يتعلق بتفنيد آراء مؤيدي الانفصال أو مبرريه، استنكر الحصري أن يبرر الانفصال، كما ذهب شكري القوتلي بأنه «من المحقق المؤكد أن النظام الذي يجوز تطبيقه في مصر لا يمكن ولا يجدي تطبيقه في سوريا لاختلاف البيئات جغرافياً وبشرياً واجتماعياً». ورفض هذا المنطق على أساس أن الدولة الواحدة تضم بيئات متنوعة عديدة لم تحل دون الخضوع لنظام واحد[(٩٤)]. كذلك استنكر الحديث عن الكيان السوري واتخاذه ذريعة لطلب استمرار الوجود السوري، مؤكداً أن حقائق التاريخ لا تؤيد هذه المزاعم بوجه من الوجوه، بل تشهد على أن سوريا الحالية حديثة الوجود والكيان، فقد تكونت بمعناها الحالي بين عامي ١٩١٨ و١٩٤٣[(٩٥)].

ولم يكن تفنيد الحصري للمقولات السابقة يعني أنه يرتفع بالوحدة عن مستوى النقد، بل على العكس طالب بوجوب التعمق في دراسة تجربة الوحدة والتوسع في استقصاء عوامل انفصالها، على أن يتم ذلك بنظرات علمية حقيقية مجردة عن نوازع الحقد والحزبية، وبحيث لا يتم التركيز على أخطاء الوحدة دون غيرها. وقد حمل الحصري حزب البعث المسؤولية في هذا الصدد بسبب استرسال قادته في الحديث عن «الأخطاء والانحرافات والتسلط الفردي والتسلط الإقليمي»[(٩٦)]. كذلك لفت الحصري النظر إلى ظاهرة تحميل الوحدة بأخطاء ليست لها: فصدور أحكام ظالمة من محاكم سورية يتولى أمرها قضاة سوريون خطأ للوحدة؛ وتشكيل لجان للمصالحة في ظل الوحدة قطع لأرزاق المحامين؛ واعتراض الأساتذة المصريين في اجتماعات تنسيق شؤون الجامعات على استخدام تعبير الأمين العام المقترح من أستاذ سوري بدلاً من السكرتير العام خطأ للوحدة، على الرغم من أن الاجتماعات انتهت بموافقة الأغلبية على تعبير الأمين العام؛ وحرمان الأساتذة السوريين من مكافآت الساعات الإضافية نتيجة استقدام عدد كبير

---

(٩٤) ساطع الحصري، «حول بيان القوتلي،» في: المصدر نفسه، ص ٣٣ ـ ٣٦.

(٩٥) ساطع الحصري، «حول قصة الكيان السوري،» في: المصدر نفسه، ص ١١٧ ـ ١١٨.

(٩٦) الحصري، «ملاحظات حول البيان الصادر باسم القيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي والمنشور في الجرائد البيروتية في ٤/٦/١٩٦٢،» ص ٧٩ ـ ٨٠. انظر أيضاً: ساطع الحصري، «موقف قادة حزب البعث،» في: المصدر نفسه، ص ١١٠ ـ ١١٣.

من المعلمين المصريين خطأ للوحدة، على الرغم من أن تحميل الأساتذة بساعات إضافية يخل بحسن سير العملية التعليمية، وعدد الساعات الدراسية تمت زيادته خصيصاً لجلب أولئك المدرسين المصريين على الرغم من أنه تقرر منذ ما قبل الوحدة؛ ومحاولات النيل من الكرامة السورية خطأ من أخطاء الوحدة دونما تحديد لماهية هذه المحاولات، وإن كان بعض مؤيدي الانفصال قد أشار إلى صعوبة الاتصال المباشر بين المواطنين ورئيس الجمهورية عكس التقاليد السورية، وهو الأمر الذي نفاه ساطع الحصري لمخالفته للواقع، إذ كانت الحكومة السورية قد تباعدت عن التقاليد العشائرية منذ مدة طويلة، فضلاً عن مخالفة ما يطالبون به للأسس الإدارية المقررة[٩٧].

ومع ذلك، فأياً كانت الأخطاء التي يمكن أن تنسب للوحدة، فإنها ـ أي الأخطاء ـ لا يمكن أن تبرر الانفصال، ومن يفعل ذلك فإنه «يرتكب خطأ عظيماً يدل على تقصير كبير في الفهم السياسي، فضلاً عن ضعف شديد في الإيمان القومي»، فالخطأ والصواب من الأمور الدارجة والمألوفة في الحياة الفكرية والسياسية، ولو صارت أخطاء الحكومات سبباً لقيام الحركات الانفصالية لتفككت أوصال الدول، ولما بقي على وجه الأرض دولة واحدة[٩٨].

وإذا كان الحصري قد فند آراء أنصار الانفصال أو مبرريه، وطالب بنقد موضوعي لتجربة الوحدة، فكيف كان تفسيره للانفصال؟ ركز الحصري على مسؤولية الاستعمار وأعوانه في هذا الخصوص، سواء باستخدام سلاح المال لشراء الذمم، أو الأسلحة النفسية لإثارة النعرات الإقليمية، وانتقد عدم التفات حزب البعث لهذه المسألة ومشاركة قادته في الانتقادات على النحو الذي سهل انخداع الناس بإشاعات عملاء الاستعمار[٩٩]، وكذلك أشار إلى دور الخلافات بين الجماعات السورية المتنافسة ذاتها في الانفصال، لأنه كان من الطبيعي أن «تحتار مصر أمام هذه الأحوال، وتصبح ـ في آخر الأمر ـ كبش الفداء بين هذه التيارات المتخاصمة»[١٠٠]. ومن ناحية ثالثة، ألمح الحصري إلى أن صدور قوانين التأميم وما

(٩٧) ساطع الحصري، «نماذج من التفكير الضال والمضلل،» في: الحصري، **الاقليمية: جذورها وبذورها**، ص ١٣٠ ـ ١٤٨.

(٩٨) ساطع الحصري، «الأخطاء في الحياة،» في: المصدر نفسه، ص ١٠١ ـ ١٠٢.

(٩٩) الحصري، «ملاحظات حول البيان الصادر باسم القيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي والمنشور في الجرائد البيروتية في ٤/٦/١٩٦٢،» ص ٨٠ ـ ٨٢.

(١٠٠) ساطع الحصري، «ملاحظات حول الحديث المنشور في جريدة الكفاح البيروتية بتاريخ ٢٤/٥/١٩٦٢،» في: الحصري، **الاقليمية: جذورها وبذورها**، ص ٧٥ ـ ٧٦.

نجم عن ذلك من اختلال مصالح الرأسماليين يفسر تحول البعض إلى المعسكر المعادي للوحدة[١٠١].

كذلك أشار الحصري إلى أن «حسابات الموظفين النفعية» لم تخل من التأثير في قضايا الاتحاد والانفصال في سوريا، مذكراً بما سبقت الإشارة إليه من تعبير «الوحدة دون توظف» الذي ذكره في سياق الحديث عن الاتجاهات السياسية في العراق تجاه استقدام مدرسين مصريين وسوريين في العشرينيات[١٠٢].

وبصفة عامة، دخل الحصري بمناسبة الانفصال في واحد من أكثر صداماته السياسية حدة، وهو صدامه مع حزب البعث وتحميله له الكثير من المسؤولية عن الانفصال، وقد كتب الحصري في الأيام الأولى التي أعقبت الانفصال أن أحكام التاريخ «ستكون بالغة الصرامة ـ بوجه خاص ـ على قادة حزب البعث الذين كانوا يتباهون بحمل الوحدة العربية ونشرها بين الناس»[١٠٣]. واتهم قادة الحزب بأنهم «وقفوا ثلاثة مواقف مختلفة خلال مدة تقل عن خمس سنوات: إنهم قالوا أولاً: إما وحدة وإما بلاش. بعد ذلك قالوا: لا وحدة، بل اتحاد، ثم قالوا: لا وحدة ولا اتحاد بل تعاون»[١٠٤]. واتهم المشروع الذي وضعه الحزب في أوائل سنة ١٩٦٢ لإعادة الوحدة بين سوريا ومصر على أسس جديدة، بأنه إقليمي الطابع، لاشتراطه ألا يكون الرئيس ونائبه من إقليم واحد، وترك حرية التشريع للحكم الإقليمي فيما يتعلق بالحريات العامة والتنظيم الشعبي والأوضاع الاقتصادية، بما يفسح في رأيه المجال لزيادة الفوارق بين الإقليمين، وبالتالي يؤدي إلى إضعاف الرابطة القوية التي يجب أن تكون العامل الأساسي في بناء دولة الوحدة[١٠٥].

وفي مقابل الصدام الحاد مع حزب البعث وقياداته وصف الحصري النقد الذاتي الذي قام به عبد الناصر في خطابه بتاريخ ١٦/١٠/١٩٦١ في أعقاب الانفصال بأيام بأنه «مشبوب بحرارة الإيمان، ومقرون بشجاعة أدبية لا مثيل لها في التاريخ»، وأشار إلى أن كل من ينعم النظر في مواد هذا النقد الذاتي «قد لا

---

(١٠١) الحصري، «حول بيان القوتلي،» ص ٣٧ ـ ٣٨.

(١٠٢) الحصري، «ميول الموظفين،» ص ٢٣.

(١٠٣) الحصري، الاقليمية: جذورها وبذورها، ص ٢٩.

(١٠٤) الحصري، «حول الوحدة والاتحاد،» ص ٦٢ ـ ٦٦.

(١٠٥) ساطع الحصري: «مشروع الوحدة الاتحادية الذي وضعته القيادة القومية لحزب البعث،» ص ٤٣ ـ ٤٧، و«نقاش مع أستاذ بعثي،» ص ٥١ ـ ٦٢، في: الحصري، الاقليمية: جذورها وبذورها، ص ٥١ ـ ٥٢.

يقر البعض منها، وقد يراها غير كافية... ولكن مهما كان الأمر لا يستطيع أن يمنع نفسه من الانحناء أمام هذا الإخلاص وهذه الصراحة بكل تقدير وإعجاب وإجلال»[١٠٦].

خاتمة

قدم ساطع الحصري ما يشبه النظرية المتكاملة في الوحدة العربية تتضمن رؤيته لمفهوم الوحدة العربية وعلاقته بدوائر الانتماء الأخرى، وكذلك موقعه على سلم أولويات الأهداف العربية الأخرى، وتعطيه التفرد والأولوية في الحالتين على التوالي، وكذلك تحليله للعلاقة بين هذا المفهوم ومفهوم المصلحة في إطار نظرته «المثالية» إلى مفهوم القومية. واستناداً إلى هذا، حلل الحصري واقع التجزئة العربية وفسره بعوامل خارجية في الأساس من دون أن يهمل أثر العوامل «العربية» التي ترتبت على ظهور الدول القطرية العربية.

ثم راح الحصري يعرض رؤيته لبناء الوحدة المنشودة: أساليب تحقيقها، فركّز على الدعوة، ووافق صراحة على النهج الوظيفي، وضمناً على استخدام القوة لتحقيقها، ورأى لمصر دوراً قيادياً في تحقيقها ونطاقها، فانحاز بداهة إلى الوحدة الشاملة من دون أن يعترض على الوحدات الجزئية شريطة أن تكون خطوة في الطريق إلى هذه الوحدة الشاملة، بحيث إنه اعترض صراحة على الدعوة إلى وحدات جزئية قامت على مفاهيم مناقضة لمفهوم القومية العربية. وشكّل دولة الوحدة، فاختار صراحة الشكل الفدرالي إيماناً منه بحقيقة التنوع في الواقع العربي، على أن يؤخذ بالمضمون الحقيقي لهذا الشكل، فلا يتخذ ستاراً لتفريغ الوحدة من مضمونها، ومن دون أن يعني هذا الاختيار استبعاد إمكانية الاندماج التام لبعض الأقطار العربية. أما نظام الحكم في دولة الوحدة، فقد سكت الحصري عن تقديم نظرة متبلورة له، ربما لأنه كان يعطي هدف تحقيق الوحدة الأولوية على ما عداه من الأهداف، فيقبل الوحدة بغض النظر عن طبيعة النظم الداخلة فيها.

وقد انعكست الأبعاد الفكرية والتحليلية السابقة على موقف الحصري من التجارب الوحدوية العربية، فأيد عمليات التوحيد في شكل دولة وطنية على نحو ما شهدته سوريا والعربية السعودية وليبيا، وتحمس للجامعة العربية في بداياتها، ثم

(١٠٦) ساطع الحصري، «النقد الذاتي في خطاب الرئيس جمال عبد الناصر،» في: المصدر نفسه، ص ١٠٩.

أخضعها للنقد الموضوعي بعد ذلك رافضاً أن يرد عجزها إلى واقع الدول العربية فحسب، ومحملاً الأمانة العامة للجامعة مسؤولية محددة بهذا الخصوص، ودافع عن الوحدة المصرية ـ السورية ضد معارضيها، وأدان انفصال سوريا عنها وكل من شارك في تبريره أو تأييده، وفند حججهم من دون أن ينفي ضرورة النقد الذاتي الموضوعي للتجربة، مع رفضه اتخاذ الأخطاء التي وقعت فيها الوحدة أياً كانت مبرراً للانفصال الذي رده أساساً إلى عوامل خارجية استعمارية، بالإضافة إلى عدد من العوامل الأخرى التي تعود إلى تجربة الوحدة ذاتها.

ومن الظاهر أن الحصري قد نجح بتطوير نظرية أو شبه نظرية للوحدة العربية اتسقت في عناصرها بسبب وضوح منطلقاتها الفكرية، ولم تكن نظريته (أو شبه النظرية) هذه مجرد موقف ايديولوجي، ولكنها استكملت مقوماتها أو كادت على أساس تحليل علمي راق، وإن كانت هنات قد شابته هنا وهناك.

ومن الواضح كذلك أن الحصري، بسبب إيمانه الحقيقي بالقومية العربية وضرورة تحقيق الوحدة العربية المبنية عليها من ناحية، واستخدامه للمنهج العلمي من ناحية أخرى، قد نجح ببلورة مواقف متقدمة من قضية الوحدة العربية بمعايير الظرف الراهن الذي تمر به حركة النضال العربي، وهي ما زالت بصفة عامة صالحة للتطبيق حتى وقتنا هذا. ويظهر إمعان النظر في موقفه من قضية الوحدة والمصلحة على رغم منطلقه المثالي، وضرورة اعتماد الشكل الفدرالي للوحدة، وكذلك موقفه مما يمكن تسميته بلغة اليوم التجمعات الإقليمية أو الجهوية أو الفرعية، كيف أن الرجل قد نجح بأن يقدم منذ عقود من الزمان أجوبة صحيحة عن أسئلة ما زالت جماعات من المفكرين القوميين مختلفة بشأنها عاجزة عن تقديم إجابات واضحة لها.

ولا يعني ما سبق أن ثمة اتجاهاً لتقديس ما أتى به الحصري، فقد عانت أفكاره هنات هنا وهناك تمت الإشارة إليها في سياق هذه الدراسة، وقد تعامل مفكرون عروبيون لاحقاً مع بعض هذه الهنات، وطوروا أفكاراً سليمة بشأنها. وبصفة عامة، فإن الفكر القومي العربي مطالب من خلال رموزه المعاصرة بأن يواصل الجهود الرائدة والعظيمة والمثيرة للاحترام والتقدير التي بذلها ذلك المفكر القومي الكبير من أجل السير بخطى أكثر علمية وأصح اتجاهاً نحو تحقيق أغلى أهداف الأمة العربية.

تعقيب

مجدي حماد

عاصر ساطع الحصري قيام أول وحدة عربية في العصر الحديث وعايش سقوطها وانكسارها بعد ثلاثة أعوام من قيامها، وبالتالي فقد كان أمامه النموذج الذي دعا إليه وأمامه أيضاً انهيار هذا النموذج في الوقت نفسه.

وتنقسم ملاحظاتي على البحث القيم الذي قدمه د. أحمد يوسف إلى شقين أساسيين، يتعلق الشق **الأول** بمجموعة من الملاحظات تدور حول النص الذي تقدم به بحث د. أحمد يوسف، ويتناول الشق **الثاني** مجموعة من الملاحظات حول نص الحصري ذاته.

فيما يتعلق بالشق الأول، أؤكد مع د. أحمد يوسف على الارتباط المحوري والعضوي في فكر الحصري بين الوحدة والقومية. فالقومية لدى الحصري تنزع باستمرار، أو ينبغي أن تنزع إلى الوحدة، وأن معنى ذلك أن الوحدة هي وسيلة تحقيق الذات القومية، ومن هنا كان قوله المحدد ان فكرة القومية العربية تعني الإيمان بالوحدة العربية، ولا مخرج أمامه من أن القومية تُهدي تلقائياً إلى الوحدة. وأهمية ذلك أنه إذا كان المبدأ الحاكم في التنظيم السياسي هو القومية، وعندما يتجلى هذا في مؤسسات دولة، فإن الوضع المثالي أن تكون حدود الدولة متطابقة مع حدود القومية، أي أن تكون خريطة الأمة مطابقة لعقيدتها، وهذا الموضوع بالغ الحساسية لأنه ينقلنا إلى موضوع قريب بعيد في الوقت نفسه، وهو موضوع الصراع العربي ـ الصهيوني، لأن ما يحدث الآن من صعود اليمين الصهيوني الديني في إسرائيل يؤكد أن السعي الآن في إسرائيل هو أن تكون الخريطة مطابقة للعقيدة، والخريطة موجودة في التوراة. وبعد أن نجح اليسار الصهيوني العلماني في بناء الدولة تأتي الآن مرحلة اليمين الصهيوني ليجعل الخريطة مطابقة للعقيدة، وهذا مؤشر هام جداً للمستقبل.

وثمة نقطة أخرى في سياق الحديث عن قضية الوحدة والقومية. أشير إلى تأكيد الحصري أنه ليس هناك اتجاه حتمي في موضوع الوحدة العربية، ولا اتجاه واحد أو وحيد، لأن القومية ـ كما ذهب الحصري ـ قد تكون قوة اقتصادية أو قوة توحيدية.

وفي ما يتصل بموضوع التجزئة، فقد قدم د. أحمد يوسف تفصيلاً دقيقاً لهذا الموضوع الذي يعتبر جوهر نظرية الحصري من حيث درس الواقع والخروج منه بنتائج، وأود التركيز على نقطة واحدة في هذا الموضوع وهي العلاقة الجذرية والعضوية بين الاحتلال والاستقلال، فقد كانت وجهة نظر الحصري في هذا المجال أن الفروق والاختلافات الطبيعية القائمة بين الأقطار العربية سوف تتضاءل كلما تخلصت الدول العربية من النظم التي ورثتها من عهود الاحتلال. ويضيف الحصري إلى ذلك أنه كلما عُدلت النظم والأوضاع القائمة في البلاد العربية وفق ما تقتضيه مصالحها الحقيقية، فإنها ستقترب من يوم الوحدة، وهذه قضية محورية، بمعنى أن الوحدة ترتبط بمصالح الجماهير، وأن الاستقلال يؤدي بالضرورة إلى الوحدة، لأنه يؤدي إلى التخلص من المواريث الاستعمارية فضلاً عما يؤدي إليه من إعلاء الإرادة الشعبية والمصالح الجماهيرية.

وفي هذا السياق أود الإشارة إلى ملاحظة سريعة وهي العلاقة بين الحصري وجمال عبد الناصر، في هذه الجزئية تحديداً، لأن الحصري تكلم كثيراً عن عبد الناصر واعتقادي أنه كان يكنّ له تقديراً كبيراً بحكم دور جمال عبد الناصر في مسيرة الأمة العربية طوال ثورته وحياته. وربما كان وصف ساطع الحصري لعبد الناصر يستحق التوقف عنده حين ذكر أنه «رجل اتسعت همته لآمال أمته»، وهذا وصف بالغ الدقة ويستحق كثيراً من التأمل، ولكن ما يهمني هنا من زاوية أخرى هو تأثر جمال عبد الناصر بساطع الحصري، وليس لدي دليل على ذلك سوى اقتباسين من الميثاق في ضوء ما قدمه ساطع الحصري من أفكار، ويكاد يتراءى دائماً أمامي نص في الميثاق خاص بتعريف الوحدة على أنها عودة الأمر الطبيعي لأمة واحدة مزقها أعداؤها ضد مصلحتها وطبيعتها، وقد تكرر هذا التعبير في كتابات ساطع الحصري. والاقتباس الآخر في الميثاق خاص بمنهاج العمل الوحدوي في مسائل الدعوة والسلمية والتدرج، فيذهب الميثاق إلى أن الوحدة ليست، ولا ينبغي أن تكون فرضاً، لأن الأهداف العظيمة للأمم ينبغي أن تتكافأ لتحقيقها شرفاً مع غاياتها. وعندما حدد المنهاج كان قاطع الوضوح وقريباً جداً مما طرحه ساطع الحصري، وقد أشار الميثاق إلى أن الدعوة الجماهيرية هي المقدمة الأولى، وأن العمل السلمي من أجل تقريب يوم الوحدة يأتي في المقدمة الثانية، ثم

تتمثل المقدمة الثالثة في الإجماع الجماهيري تتويجاً للدعوة والعمل معاً. فهذه فقط ملاحظة قد تكون موضوعاً لبحث آخر حول علاقة التأثير والتأثر بين مفكر قومي وقائد قومي.

وثمة نقطة أخرى أود الإشارة إليها وهي الخاصة بالتنبّه المبكر لدى ساطع الحصري في موضوع اتجاهات الرأي العام تجاه الوحدة، وهي مسألة تستحق التوقف عندها، فهو على الرغم من تأكيده الدائم على أن الوحدة ترتبط بالمصلحة وبالجماهير ورفضه نظرية الإرادة الفرنسية إلا أنه توقف كثيراً أمام دور الرأي العام في مسألة تحقيق الوحدة.

وما قدمه د. أحمد يوسف في بحثه عن المنفعة أو المصلحة يؤكد بالفعل أن ساطع الحصري قد تجاوز الكثير مما كان مطروحاً فكرياً وعملياً في عصره، وأيضاً في ما يتصل بموضوع دوائر وحلقات الانتماء الوطنية والإسلامية والافريقية والمتوسطية، وقد حصر دوائر تحقيق الذات في دائرة القومية العربية باعتبارها دائرة المصلحة والأمن القومي ودائرة تحقيق الذات، وما عدا ذلك فهي مجرد دوائر اجتماع أو تضامن تتسع وتضيق حسب الحال، ولكنها بدءاً بالوطنية فالإسلامية فالافريقية - الآسيوية هي دوائر لا تعارض بينها وبين التوجه العربي، ولكن هناك تعارضاً بين القومية العربية وبين الدوائر الأخرى ذات الطابع الاستعماري وبصفة خاصة المتوسطية والشرق أوسطية.

أما في ما يتعلق بالشق الثاني من الملاحظات، وهو الخاص بمجموعة الملاحظات ما بين النص الذي قدمه د. أحمد يوسف والنص الأصلي لساطع الحصري، فلديّ في البداية نقطة منهاجية أولى هي أن الحصري لا يُفهم ولا ينبغي أن يُفهم إلا في ضوء معاركه: إن تقييم الحصري وكتبه يكون مبتوراً وغير منصف بل وغير دقيق علمياً إذا ما بقي محصوراً بالمعايير الفكرية الأكاديمية المجردة، لأن الحصري كان يجتمع فيه صفة المفكر مع صفة الداعية مع صفة النموذج الحي للفكر والدعوة معاً، بينما صفة الداعية هي العنصر المحوري في فكره وكتاباته وحياته. فالعقيدة القومية ثم الدعوى لهذه العقيدة طوال حياته هي التي دفعت الحصري إلى معترك البحث الفكري والكتابة الفكرية بل والعراك الفكري، فهو لم يأتِ إلى الفكر السياسي من العمل السياسي ولا من البحث الأكاديمي السياسي والاجتماعي، بل بقي نشاطه العمل السياسي الوحيد في مجال التربية بشقيها النظري والعملي، وإن كان ابتعد نسبياً في الفترة الأخيرة من حياته عندما التحق بجامعة الدول العربية كمستشار للدائرة الثقافية في الإدارة الثقافية، ثم عندما تولى إنشاء ورئاسة معهد الدراسات العربية العالية.

وثمة نقطة منهاجية أخرى هي أن الحصري لا يُفهم إلا في إطار زمانه ومكانه، فمن الصحيح أن المشكلات التي كانت قائمة وواجهها الحصري بفكره في كثير منها ما زالت قائمة حتى اليوم، ومن المؤكد لدي أن استجاباته كانت صحيحة في عصره والكثير منها ما زال صحيحاً حتى بعد عصره، إلا أننا ينبغي أن نضع في الاعتبار باستمرار أن أفكار الحصري هي حصيلة زمان ومكان محدّدين بحيث يمتنع عليها باستمرار أن تتخطى هذين القيدين. وثمة نقطة أخرى خاصة بأن الحصري ـ كما قال جمال عبد الناصر يوماً ـ لم ينهمك في النظريات بحثاً عن الحياة، وإنما انهمك في الحياة ذاتها بحثاً عن النظريات، ومن هنا أصالة ما قدمه من ناحية، ومدى عصريته من ناحية أخرى، في موضوع بالغ الحساسية والحيوية وهو موضوع الوحدة العربية.

وهناك نقطة أخرى خاصة بأن الحصري كان محصلة فريدة لعدد من المحددات والأبعاد قد تبدو متداخلة، وأحياناً تبدو متناقضة، ويمكن أن نحددها في ما يلي: العلمانية، العلمية، العصرية، التكامل، الأصالة، ثم على طرف آخر قد يبدو نقيضاً: المثالية والواقعية، ويبدو ذلك في مثالين سريعين، **أولهما** يتمثل في إنشاء جامعة الدول العربية، حيث اعتبرها أولاً تجسيداً لدعوته من أجل الوحدة العربية، ثم بعد ذلك انتقدها انتقاداً شديداً واستقال منها احتجاجاً على ما آلت إليه، وإن كان اللافت للنظر أننا الآن عندما ندافع عن الجامعة فإننا نفصل بينها وبين الأمانة العامة ونقول إن العيب في الدول لا في الأمانة العامة، لأن هذا الخلط هو الذي يجعل الأمانة العامة أمام الرأي العام وكأنها هي التي أخفقت، في حين أن الجامعة في الأساس هي جامعة دول وليست جامعة أمانة عامة، أما الحصري فقد كان يأخذ الجانب الآخر ويرى أن العلة في وقته كانت في الأمانة العامة.

والمثال الثاني يتمثل في رد فعله إزاء ثورة يوليو حيث قابلها بتحفظ في البداية ثم انقلب بعد ذلك إلى تأييدها بشدة وبالذات بعد دستور عام ١٩٥٦.

وثمة نقطة مهمة أخرى في ما يتصل بموضوع المنهج وهي خاصة بموضوع الخيال، لأن الوحدة بالضرورة هي مشروع مستقبلي، وحتى الحديث عن الاستقلال في حينه كان حديثاً مستقبلياً، بل يكاد يكون في ضوء ما كان موجوداً من قوى استعمارية ضرباً من الخيال، وكان الحصري حاسماً في هذه المسألة عندما أكد بالفعل أن هناك خيالاً في بعض الأمور، ولكنه كما قال: إن ثمة خياراً أشد حيوية من الواقع، وهذه ـ في رأيي ـ مسألة محورية لأنه في اعتقادي إذا كنا

نتحدث عن صراعات اجتماعية فنحن بالتالي إزاء صراع إرادات، وفي هذا المجال هناك دائرة واسعة للخيال والأمل من ناحية، إلى جانب الفكر والعمل من ناحية أخرى، ولا ينبغي أن يكون الخيال قيداً على الواقع أو أن يكون الواقع قيداً على الخيال، ولا شك في أن فكرة العروبة في حد ذاتها وفكرة الوحدة العربية هي من أصدق الأمثلة على ما صوره الحصري من العلاقة بين الواقع والخيال.

وفي ضوء هذه الملاحظات المنهاجية أعتقد أن تناول ساطع الحصري لموضوع الوحدة ينبغي أن يميز بين ثلاثة أبعاد للظاهرة القومية لكي نعلم أين نقف وأين كان يقف؟

البعد الأول: الوجود القومي.

البعد الثاني: الحركة القومية.

البعد الثالث: الدولة القومية.

فهذه الأبعاد الثلاثة أحياناً تتداخل في رؤى المفكرين والباحثين، وقد يؤخذ أحدها على أنه مرادف للآخر، في حين أن هناك تمايزات وفروقاً دقيقة بين هذه الأبعاد الثلاثة، لأن هناك حقيقة تتمثل في أن الوجود القومي للأمة العربية حقيقة قائمة، ولم يقف الحصري كثيراً عند هذا الجزء بالتحديد لأنه كان في يقينه أن الأمة موجودة لأنها قائمة، وبالتالي فهي لا تحتاج إلى تأكيد. وأشير في هذا الصدد لما أكد عليه الميثاق من أن الوحدة العربية هي حقيقة الوجود العربي ذاته.

وثمة نقطة أخرى على قدر كبير من الأهمية في مجال بحثنا عن موضوع الوحدة العربية في فكر ساطع الحصري، وهي الخاصة بالحركة القومية. وأي حركة دائماً لها شقان أحدهما فكري عقائدي، والآخر عملي سياسي، والحصري كان نتاجاً للظروف الفكرية والعقائدية التي كانت سائدة، وسوف أتناول في ما يلي أين يمكن أن نجد بعض الثغرات رغم الإيجابيات الكثيرة في هذا الجزء بالتحديد. فعلى الرغم من قيام دولة الوحدة القومية بالفعل بين مصر وسوريا، إلا أن الحصري ظل أميَل للحديث عن جانب الحركة القومية، وبخاصة ما يتصل منها بالجانب الفكري. أيضاً لا يفهم الحصري إلا في ضوء معاركه الفكرية والسياسية، وبهذا المعنى يهمني التأكيد أن أعمال الحصري في ما يتصل بموضوع الوحدة العربية تؤكد أن كلاً من العروبة والوحدة ليستا مجرد اختيار فكري لفكر متصوف يعيش في برج عاجي، وإنما كانت اختياراً يمليه الواقع والوقائع. ولعل معارك الحصري في هذا المجال، ولا سيما موضوع نفي وحدة الأرض، كان مرتبطاً

بمعركة أخرى خاصة بموضوع المواريث الحضارية القديمة التي خاض فيها معارك كثيرة، وفي الحقيقة فإنني، كباحث، تكاد فرائصي ترتعد وأنا أقرأ اليوم ما كان يكتبه ساطع الحصري عن عملاق مصر طه حسين ومدى السمو والرفعة في التناول الفكري لأفكار الطرف الآخر.

وثمة نقطة أخرى أود التوقف عندها وهي الخاصة بموضوع الاستشراف لدى ساطع الحصري وعلاقته بالوحدة العربية، وهناك ثلاث نقاط في هذا الموضوع تحديداً أوجزها في ما يلي:

١ ـ كان رأيه الحاسم أن المستقبل للوحدة.

٢ ـ وكان رأيه أن مصر عربية.

٣ ـ ورأيه أن الدين ليس جزءاً من القومية.

وفي ما يتصل برأيه أن المستقبل للوحدة القومية، كان يرى باستمرار أن الوحدة قوة، وأن الاتجاه هو إلى التكتل والاتحاد، وكان الحصري يعلن هذا في الثلاثينيات من هذا القرن وليس في الخمسينيات، بعد اتفاقية الفحم في أوروبا التي تعتبر نواة الوحدة الأوروبية الحالية. وكانت وجهة نظره باستمرار أن التوجه العالمي هو الاتجاه للتكتل والاتحاد، أي أن الوحدة بعد مرحلة أساسية لديه تقوم على اللغة والتاريخ، هي بعد ذلك استجابة للتحديات، ومن هنا فضلاً عن أنها دائرة تحقيق الذات، فهي أيضاً دائرة تحقيق مصالح الأمن القومي وصيانته. وفي التطبيق كان يرى ـ وهذا للأسف ما زلنا نراه حتى الآن بل وأسوأ مما واجهه الحصري ـ أن الوحدة تواجه المشكلات القائمة من حيث التخلف والتجزئة والتبعية، والأخطر من ذلك أنه تأكد بمضي الوقت أنها ستواجه ما سوف يستجد من تحديات لهذه الأمة المستهدفة من قوى الهيمنة باستمرار، وعندما نشأ التحدي الصهيوني أضيف للتحديات الثلاثة السابقة الإشارة إليها، وبالفعل أصبحت الأمة تواجه محنة نتيجة لعدم قدرتها على تحقيق الوحدة.

أيضاً يؤكد الحصري براعة قدرته على استشراف المستقبل في عجز الدولة القطرية ـ كما نجدها الآن ـ التي كلما تكاثرت عليها الضغوط الأجنبية استأسدت على مواطنيها.

وثمة نقطة أخرى تتصل ببراعته وقدرته على الاستشراف وهي المتعلقة بعروبة مصر، ومن المعروف أنه واكب ثورة ١٩١٩ وصُدم في ما واجهه، وهنا أيضاً اتفق تقييمه مع تقييم جمال عبد الناصر لثورة ١٩١٩، وهي أنها لم تمد البصر عبر سيناء،

ولم تستشف أنه لا تناقض على الإطلاق بين الوطنية المصرية والقومية العربية. وكان للحصري رأي قاطع في مسألة عروبة مصر، ولا نقصد بذلك العروبة البشرية وإنما العروبة بالمعنى السياسي، وقد رصد الحصري ثلاثة مكونات أساسية في هذا الصدد، **أولها**، أن مصر بلد عربي بالقطع وبالضرورة، **ثانياً**، أن مصر يجب أن تصبح عملياً قائدة للوطن العربي. **ثالثاً**، أنه من غير المقبول للمصريين أن يكون لهم أي ارتباط أو التزام بأي عقيدة أخرى غير عقيدة العروبة. لقد ذكر الحصري هذا الكلام في عام ١٩١٩، وأشير هنا لمقاله البارز الذي نشر عام ١٩٣٦ عن «دور مصر في النهضة القومية العربية». وهذا يوضح لنا بجلاء أن صدق النظرية القومية لدى ساطع الحصري ينبغي أن يُستمد من صدق قدرته على التنبؤ والاستشراف. وكان يرى أن مصر ستحقق ذاتها بطريق أفضل من خلال الدائرة القومية، وأنها سوف تحقق مصالحها بطريقة أفضل من الدائرة الوطنية، وأنها بالتالي ستتجه بالضرورة وبحكم حركة التاريخ، وبحكم مصالح الجماهير، إلى الاختيار العربي بشكل حاسم، وهذا ما تحقق حتى قبل جمال عبد الناصر. ولعل أبرز مثال على ذلك، التوجه العربي المصري تجاه فلسطين، وربما يحضرني في هذا السياق مقال رائع كتبه الفريق إبراهيم عطا الله، رئيس أركان الجيش المصري عام ١٩٤٥ ويذكر فيه تحديداً أنه على حدود مصر يتوافد قوم غرباء من اليهود وهم مسلحون بالعلم والمال ويتدفق عليهم المال والسلاح من جميع أنحاء العالم، وأن هذا الأمر يشكل تهديداً لأمن مصر.

ونقطة أخرى في ما يتصل بالاستشراف، وبخاصة بموضوع الدين، وأعتقد أن الحصري قد فزع عندما سمع هتاف: لا إله إلا الله ساطع الحصري عدو الله، ومعنى ذلك أنه أدرك خطورة التكفير عندما يرفع في وجه مفكر ينادي بأفكار، فإذا به يُحرم من الحياة ويحرم من الآخرة أيضاً. ومن هنا كان فصله المطلق بين القومية والدين.

وملاحظتي الأخيرة خاصة بالانتقال من أخطار التجزئة إلى دولة الوحدة، وهنا توجد ملاحظات كثيرة تمس ما قدمه الحصري في هذا الصدد، فكيف نصل إلى دولة الوحدة من واقع التجزئة؟ الحقيقة أن الحصري لم يفصل كثيراً في هذا الصدد كما هو حال الفكر القومي إجمالاً، وبصفة خاصة رغم أنه كان ينتمي بوضوح إلى المدرسة الليبرالية، إلا أنه لم يحدد هل هذا الطريق إلى الوحدة هو طريق ديمقراطي ليبرالي جماهيري أم أنه يمكن أن يتم عبر القوة، حيث كانت له إشارات إلى أن مصر تمثل بروسيا.

وثمة نقطة أخرى خاصة بصيغة دولة الوحدة ذاتها بعد قيامها، وليس هناك تفصيل كثير من جانب الحصري في هذا المجال رغم معاصرته لقيام الجمهورية العربية المتحدة ثم معاصرته للانفصال، فقد كان يمكنه أن يكتب عن تجربة الجمهورية العربية المتحدة نفسها وصيغتها الدستورية والسياسية ثم ما حدث من انفصال وعلاقته بهذه الأسباب.

ونقطة أخرى خاصة بديناميات عملية التوحيد وآلياتها، فالوحدة متى قامت نجد أنفسنا بالضرورة أمام عمليتين متداخلتين، **الأولى: إدارة عملية التوحيد**، فقد كانت هناك دولتان، عملتان، اقتصادان، نظاما ضرائب، وتعليم، وثقافة، سياستان خارجيتان مختلفتان. . . الخ، ومن المهم إدماج كل هذه في عملية واحدة وموحدة كي لا نواجه بما واجهته تجربة الوحدة الأولى من انكسار في ١٩٦١. ويكتب الأستاذ محمد حسنين هيكل أنه اتضح أن الدولة لم تكن موحدة إلا في شخصية البطل، وهو جمال عبد الناصر، لأنه غداة الانفصال كانت هناك دولتان بالمعنى الحرفي للكلمة، وكانت هناك عملتان، وموازنتان مستقلتان، واحتياطي سوري موجود في البنك المركزي في دمشق، واحتياطي مصري موجود في البنك المركزي في مصر، وكان هناك جيشان مختلفان تماماً حتى من زاوية عقائد القتال. ومن هنا أرى أنه لم تكن هناك كتابات كثيرة عن إدارة عملية التوحيد هذه.

والعملية الثانية: مواجهة النزعة الانفصالية، فأي وحدة بالضرورة تتضمن قوى اتصال وفي الوقت نفسه تتضمن قوى انفصالها، سواء القوة التي تعادي الوحدة من البداية لأنها مسألة مصالح وارتباطات أجنبية أو القوى التي تتحول من قوى صديقة للوحدة ومناصرة لها إلى قوى عدائية وتنتقل للصف المعادي للوحدة، كما حدث في تجربة الوحدة المصرية ـ السورية.

وأيضاً فإن هذه العملية المرتبطة بمواجهة النزعات الانفصالية لم تتناولها كتابات كثيرة شأنها شأن إدارة عملية التوحيد.

المنـــاقشـــات

١ ـ عبد الله عبد الدائم (رئيس الجلسة)

البحث الذي قدمه د. أحمد يوسف يبين أن السؤال الأساسي الذي طرحه ساطع الحصري هو التالي: ما هي العوامل التي تميز أمة من الأمم والتي تجعلها مختلفة عن سواها، والتي يمكن بالتالي أن تبرر قيام وحدتها القومية؟ فالحصري لم يضع أساساً لحركة حزبية سياسية يبين فيها دور وتصوير المجتمع في الجوانب الاقتصادية والثقافية والأمنية وغير ذلك، وإنما أراد أن يؤسس فكرة القومية وأن ينتهي إلى العناصر الأساسية التي نستطيع أن نقول من خلالها أن أمة من الأمم يحق لها أن تؤلف كياناً قومياً. فهو حين استبعد العامل الجغرافي كان يقول إن هذا العامل لا يقف عائقاً في وجه قيام القومية، وهو لا يعني بذلك التقليل من أهمية هذا العامل الجغرافي، وأيضاً حين استبعد العامل الاقتصادي أراد أن يقول بأن التباين الاقتصادي بين البلدان العربية أو غير العربية لا يقف حائلاً دون قيام الوحدة بينها، بل إن العكس هو الصحيح، وهكذا عندما استبعد العوامل الاجتماعية، فهو أراد أن يستخلص العناصر التي هي فعلاً قوام الوحدة وأساسها، وهذه العناصر عنده هي اللغة والتاريخ، ولا ننسى أن ساطع الحصري في ذلك الحين بدأ إنتاجه القومي بعد الدراسات والمناقشات العديدة التي شارك فيها مفكرون من أمثال عبد الرحمن الكواكبي وشكيب أرسلان وغيرهما، وكان من قوامها وجوهرها البحث في العوامل التي تجمع الأمم، فهل منها الدين مثلاً؟ ودون التقليل من شأن الدين فإن الدين ليس هو الذي يجمع بين الأمم. فهل هو المصلحة؟ أو الأرض؟ لقد نفى الحصري كل هذه العوامل لا لأنها ليست ذات قيمة ولكن لأنها لا تكوّن عنصراً جوهرياً في بناء الأمة.

وينبغي أن نتذكر أن المضمون الاجتماعي والاقتصادي والاشتراكي للوحدة العربية لم يولد إلا منذ ولادة حزب البعث، ثم بعد ذلك في أيام عبد الناصر. أما

قبل ذلك فلم تكن الوحدة العربية ذات مضمون اجتماعي واقتصادي، وإنما كان الاهتمام منصباً على البحث في مقومات هذه الوحدة، بمعنى: هل يحق للبلدان العربية أن تؤلف وحدة فيما بينها، وإذا كان يحق لها ذلك، فبماذا؟ وما هي العناصر الأساسية في سبيل تحقيق ذلك؟ وكان أن توصل الحصري إلى عنصرين هما: اللغة والتاريخ.

واسمحوا لي أن أضيف تصحيحين أو توضيحين، يختص **أولهما** بما جاء في تعقيب د. مجدي حماد من حديث عن الصلة بين موقف ساطع الحصري من الدين، وأنه قد يكون وليد تلك المظاهرات التي قامت في دمشق من قبل الإخوان المسلمين، والتي نادت بأن ساطع الحصري «عدو الله»؛ أعتقد أن هذا ليس هو التفسير الدقيق، فهذا كان عام ١٩٤٧ أي في وقت متأخر، وكان الحصري قد كون منطقيته القومية، فضلاً عن أن موضوع العلمانية لدى ساطع الحصري لا يعني أبداً استبعاد الدين من الحياة، وإنما يعني الجواب عن السؤال التالي: هل الدين عنصر أساسي من عناصر القومية ومن عناصر الوحدة؟ بمعنى: هل يحق مثلاً للموارنة في لبنان أو سواه أن يكوّنوا دولة لأن لهم ديناً مستقلاً، أم لا؟ فهو أراد أن يقول ان الفارق في الدين ليس ذا شأن في تكوين القومية، ومن ثم فنحن لدينا تراث عربي وإسلامي، وهو تراث للمسيحيين والمسلمين على حد سواء، فالإسلام تراث ودين بالنسبة للمسلمين وهو تراث بالنسبة للمسيحيين ولا يمكن أن تقوم القومية على أساس الدين، فالحصري إذن لم ينف هذا الجانب.

وكما سبق أن أشار د. يحيى الجمل بالأمس، ان مفهوم العلمانية في الأصل، أي في الحضارة العربية الإسلامية، له معنى مختلف جداً عن مفهوم العلمانية في الغرب، فهذا مفهوم اقتبسناه من الغرب ولكن طبقناه على ثقافة مغايرة. فالإسلام بطبيعته، أستطيع أن أقول إنه علماني، بمعنى أنه ليست هناك سلطة إلهية للحاكم يستمدها من الإله كما كان الأمر لدى الغرب، فالحكم للناس وللشعب في الإسلام، وذلك من خلال البيعة وسواها، وفي أمور الدنيا الرأي لهم.. الخ.

ومن هنا فليست هناك رهبانية في الإسلام، وليست هناك سلطة دينية لاهوتية في الإسلام، ومن هنا فليست هناك علمانية بالمعنى الغربي، وما أراده الحصري في الواقع هو أن يؤكد أن الدين ليس شرطاً أو مقوماً من مقومات القومية.

وملاحظتي **الثانية** تتعلق بموضوع الانفصال والانفصالية، وحديث ساطع

الحصري عن الانفصال والعوامل الانفصالية التي يمكن أن تتكون منذ ولادة الوحدة، فأنا أتفق معه حول هذا وأريد فقط أن أضيف أنه في حديث لي مع المرحوم ساطع الحصري، وكان ذلك بعد الانفصال، وكان حانقاً جداً على الانفصال، قلت له إننا كنا نتظر من أستاذنا الكبير ساطع الحصري أن يقول كلمته يوم بدأت أخطاء الوحدة تظهر، ويوم بدأت الوحدة توأد قبل أوانها، فالوحدة لم توأد في أيام الانفصال فقط، وإنما جرى نوع من الوأد لها من خلال أخطاء الوحدة ذاتها، ونحن كنا دائماً نقول إنه إذا كان في الوحدة أخطاء فالانفصال خطأ كله، فهو عملية استعمارية دخيلة قام بها هؤلاء، ولكن هذا لا يمنع أن أخطاء الوحدة هيأت التربة اللازمة لقيام الانفصال، وكان على أمثال ساطع الحصري ـ وهذا ما قلته له ـ أن يرفعوا صوتهم في وقت لم يكن هناك سواهم من هو قادر على أن يرفع صوته عالياً لينبه، إلا أنه لم يقل شيئاً، وقد كنت معه في نقد الانفصال، ولكن كنت أريد تحليل العوامل التي أدت إلى ذلك أكثر من أن نحنق على موضوع الانفصال في حد ذاته.

٢ ـ يحيى الجمل

أود فقط إضافة معلومة بشأن موضوع الانفصال، لأن الكثير منا يحاول أن يلقي أسباب الانفصال على عوامل خارجية، وأنا أتصور أن نكسة الوحدة جاءت من داخلها، ومن داخل النظام الذي قام بالوحدة، سواء كان البعثيون من ناحية، أو النظام الناصري من ناحية أخرى. وأذكر في هذا الصدد واقعة محددة وهي أمانة أمام التاريخ، وهي اعتقادي أن مكتب عبد الحكيم عامر في سوريا يحمل الوزر الأكبر لتسهيل عملية الانفصال. ولا أقول الانفصال، وإنما تسهيل عملية الانفصال، وأذكر أنه كان هناك رجل فاضل في مصر اسمه كمال رمزي ستينو وكان قريباً من عبد الناصر ومحل احترام شديد منه. وقد أوفده عبد الناصر إلى سوريا لدراسة الأوضاع الزراعية هناك، بصفته أستاذاً في الزراعة. وذهب إلى هناك ومكث فترة ثم عاد وقابل جمال عبد الناصر وبدأ يحدثه عن عبد الحكيم عامر ومكتبه هناك وما يحدث في سوريا، وقد سمعت هذه الرواية من غير مصدر، كما سمعتها مباشرة من كمال رمزي ستينو، وذكر أنه رأى كل ألوان الطيف هناك في دمشق، وكان في حالة من الضيق الشديد لهذا الذي يحدث، وانتهى الأمر إلى أنه بعد هذا الحديث بأسبوع أو أكثر وضعت الحراسة على كمال رمزي ستينو، الذي كان كما ذكرت قريباً جداً من عبد الناصر وأحد أعمدة النظام. وهذا يوضح إلى أي حد وصل مدى العبث الذي كان يمارسه المشير عبد الحكيم عامر ومكتبه. فأنا

أعتقد أن هذا الدور التخريبي الذي مارسه عبد الحكيم عامر كان له أكبر الأثر في تسهيل عملية الانفصال، وربما بعد الانفصال اتخذ عبد الناصر قراراً بعزل المشير عبد الحكيم عامر، وطلب أن يحل محله إما كمال الدين حسين أو عبد اللطيف البغدادي ولكن كليهما رفض، وشرحا له ضرورة أن يتولى عبد الناصر زمام الجيش في هذا الوقت ولمدة ستة أشهر وبعدها يمكن أن يتولى أي منهما زمام الجيش. وقد أشار عبد اللطيف بغدادي في مذكراته لهذه الواقعة، واقعة فصل عبد الحكيم عامر من الجيش التي حدثت واستمرت ٤٨ ساعة ثم عاد بعدها عبد الحكيم عامر، ثم بدأ الصراع وبدأ تسلط عبد الحكيم عامر على الجيش إلى أن وصلنا إلى كارثة ١٩٦٧. ولا يعني هذا أنني أعفي عبد الناصر من تحمّل المسؤولية، فهو مسؤول عن خطأ كل من عمل معه وعمل تحت ظله، فعبد الناصر كان عملاقاً، ومهما كانت قوة عبد الحكيم عامر في الجيش إلا أن عبد الناصر لو أراد تحجيمه لحجّمه.

وأيضاً للتاريخ أقول: لماذا كان يتم إبعاد ساطع الحصري وأمثاله، فعبد الناصر عندما ذهب إلى الهند كان سفير ج.ع.م. في الهند هو عمر أبو ريشة، ولما نزل عبد الناصر من الطائرة قدم عمر أبو ريشة نفسه لعبد الناصر الذي بادره معبراً عن دهشته من كونه سفيراً للجمهورية العربية المتحدة دون أن يعرفه عبد الناصر أو يراه، فأجابه عمر أبو ريشة قائلاً: منعني عنك حاشيتك وكبرياء الشام. ولما أدرك عبد الناصر الرسالة من هذه الإجابة طلب منه اللقاء معه على العشاء في بيت السفارة المصرية في الهند.

وأنا أعتبر أن مهمة جيلي هي توضيح بعض الحقائق التاريخية أكثر من الإسهام النظري.

٣ ـ سيد المراكبي

ثمة تعقيب سريع حول ما ذكره د. مجدي حماد من عدم وجود إشارات لتحديد طريق الوحدة واعتبار أن مصر بمثابة بروسيا بالنسبة لساطع الحصري، وأعتقد أنه يمكن اعتبار ذلك، لأن ساطع الحصري من منطلق موضوع تحقيق الوحدة، إلى أي طريق أو مسار يتخذه القوميون، فقد قام بوضع النقاط الأساسية أو التنظير لهذا الأمر.

٤ ـ جاسم علوان

لي تعليق سريع يأتي تأكيداً لما ذكره د. مجدي حماد عن علاقة ساطع الحصري

بعبد الناصر. يقول ساطع الحصري ان الشعوب التي ليس لها زعماء تحاول أن تخلق زعماء لكي يلتف الشعب حولهم، ومصر لديها زعيم وبكل معنى الزعامة، ومن هنا كان يستغرب كيف لا يلتف الشعب المصري والعربي حول جمال عبد الناصر.

وأما عن علاقة عبد الناصر بالحصري، فقد كان عبد الناصر يقدر الحصري تقديراً كبيراً، وعندما أشرت في جلسة سابقة إلى أن الحصري كان يقيم في غرفة صغيرة ومتواضعة في مصر، لم يكن ذلك تقصيراً من مصر أو من جمال عبد الناصر، فقد كان الحصري يرفض أي مساعدة. ونقلاً عن د. خلف أيضاً فإن عبد الناصر طلب طباعة كل كتب ساطع الحصري وتتم مكافأته عليها. وكان الحصري يعيش من عمله وكتاباته وبعض موارده الشخصية.

٥ ـ عاصم الدسوقي

لدي ثلاث نقاط أوجزها في ما يلي:

النقطة الأولى، محاولة نفي المصلحة عن فكر ساطع الحصري، فأنا أرى أن الحصري لا يزال في إطار الفكرة المثالية لأنه في ما يتعلق بحادثة الانفصال عام ١٩٦١لم يلتفت إلى الجانب الاقتصادي في هذا الموضوع الخاص بالتأميم الذي حدث عام ١٩٦١، فالوحدة بدأت عام ١٩٥٨ وكانت تواجه المتاعب والمؤامرات، من الخارج ومن داخل الإطار العربي، ولكنها صمدت أمام هذه المتاعب والمؤامرات بيد أنها سقطت فوراً بعد أقل من شهرين من موضوع التأميم، على اعتبار أنه سوف ينسحب بالضرورة على الإقليم الشمالي، ومن هنا تعارضت المصالح. وهذا في رأيي ما ينبغي البحث عنه وليس البحث عن الظاهرة من الخارج، لأن الحديث عن بعض مظاهر السلوك الفردي وتأثيرها في حادثة الانفصال إنما يأتي من قبيل الحديث عن دراسة الظاهرة من الخارج وليس من الداخل، ومن هنا أرى أن العصب الرئيس في موضوع الانفصال تمثّل في تعارض المصالح الاقتصادية.

النقطة الثانية تتعلق بموقف الحصري من التجارب الوحدوية. وهنا أتساءل عن سبب تأييد الدكتور أحمد يوسف أحمد لموقف ساطع الحصري بالنسبة لنشأة الدولة السعودية، على أساس أن هذا عمل وحدوي؟ فنحن نعلم أن نشأة الدولة السعودية تمت على أساس عملية اجتياح عام ١٩٢٦، وهي ضد أطروحات ساطع الحصري، ففكر الحصري المثالي يستبعد هذا الإجراء، فهل حقيقة يدخل إنشاء

المملكة العربية السعودية في إطار التجارب الوحدوية؟ أم أن هذا موقف سياسي اتخذه ساطع الحصري آنذاك؟

في **النقطة الثالثة** نتساءل: لماذا محاولة نفي العلمانية عن فكر ساطع الحصري في القومية؟ فالقومية نفسها فكرة علمانية. وإذا ربطنا بين الدعوة العربية في مواجهة العثمانية، التي تنفي الرغبة الإسلامية التي قامت بين العثمانيين والعرب، فالعرب هم المسلمون والمسيحيون. وبصرف النظر عن أنه ليس هناك لاهوت أو كهنوت في الإسلام، فهذا موضوع مختلف، ولكن نفي الرابطة الدينية، وعلى وجه الخصوص الإسلام، عن القومية، فهو موقف علماني من جانب ساطع الحصري ويجب علينا عدم محاولة نفيه، حتى نجعله في دائرة الإيمان وليس في دائرة الكفر.

٦ ـ نادية محمود مصطفى

أنا أحيي منهج الاقتراب من قراءة مصادر متعددة في فكر هذا المفكر القومي الكبير، وهو تحصيل مضمون كيفي، ولكن هنا أطرح سؤالاً: ألا يمكن أن نقدم قراءة أخرى ربما من فكر آخر أو إطار مرجعي آخر لهذه الأعمال، لمحاولة اكتشاف قواسم مشتركة بين الدعوة للفكرة العربية والدعوة الإسلامية في هذه المرحلة الراهنة؟ إن كلاً منهما واجه في مرحلته الزمنية تحديات خطيرة، والآن يواجه الجميع التحديات نفسها، بحيث إنه بعد التحديات التي واجهتها الفكرة، أو الرابطة، الإسلامية تحت دعاوى الفكر القومي، فالآن نجد أن الفكر القومي والحركة القومية تواجهان أيضاً بتحديات ودعاوى أخرى مثل العولمة وغيرها. وكلنا يعرف كمّ الضغوط التي تتعرض لها الفكرة العربية والحركة القومية الآن تحت هذه المسميات، فهناك إذن تحديات مشتركة واجهت الفكرة الإسلامية في البداية، وجعلت الفكرة القومية تبرز عليها، والآن نجد أن الفكرة القومية تواجه تحديات تحاول تخطيها.

وثمة نقطة تتعلق بالتساؤل حول ما إذا كان ثمة فارق بين: هل الإسلام مكون أساسي أو ليس مكوناً أساسياً للقومية العربية؟ أنا أرى أن الإسلام مكوّن أساسي في الوجود العربي وفي الفكرة العربية، ولهذا لا نستطيع القول بأن هناك حضارة عربية فقط ولكن هناك حضارة عربية ـ إسلامية.

ونقطة أخرى خاصة بأن دفاعه عن فكرة الوحدة والقومية العربية لا تنفي دفاعه عن الإسلامية، ولكنه رفض أن يكون هناك تنظيم إسلامي سياسي، وطالب

بأن يكون هناك تنظيم سياسي على أساس فكرة العروبة، فهل يمكن إرجاع ذلك إلى طبيعة الظروف في تلك المرحلة من أوائل القرن العشرين؟ وهل كان يعني هذا أنه يرفض تماماً فكرة التنظيم السياسي الإسلامي في الأصل؟ أم أن طبيعة ظروف تلك المرحلة هي التي فرضت عليه هذا الموقف؟

٧ ـ خيرية قاسمية

في ما يتعلق بما ذُكر عن فكرة الإقليم ـ القاعدة أشير إلى أن ساطع الحصري في الثلاثينيات قد بدأ يركز على دور مصر في النهضة القومية، ولكن هذا يتعارض نوعاً ما مع ما كان يعمل له رجال الحركة العربية في ذلك الوقت ـ ومعظمهم من منطقة الهلال الخصيب ـ حيث كانوا يعملون على جعل العراق بروسيا العرب. فهناك إذن تناقض، فساطع الحصري، الذي كان في العراق آنذاك، لا يقبل هذه الدعوة ويرى أن لمصر الدور الأساسي في نهضة العرب القومية، فهل كان الحصري على نقيض هؤلاء الذين كانوا رواداً للحركة القومية؟ أم أنه كان ـ كما أشار د. مجدي حماد ـ يستشرف المستقبل ويرى أن مصر هي المؤهلة أكثر من غيرها لتكون الإقليم ـ القاعدة في الحركة القومية؟

٨ ـ أحمد يوسف أحمد (يرد)

أعتقد أن بؤرة الكثير من المداخلات دارت حول موقف ساطع الحصري من موضوع الدين، والحقيقة أنني حاولت أن أدافع عنه بمعنى أنه رفض التضامن الإسلامي أو رفض العمل على الصعيد الإسلامي، لكنه كان واضحاً شديد الوضوح في أن الدين ليس عنصراً من عناصر القومية، وأنه لا يقبل رابطة سياسية إسلامية ولن تكون. تضامن نعم، أخوّة نعم، ولكن الوحدة السياسية هي للعروبة، فهذا هو موقفه سواء قبلناه أم رفضناه، إلا أنه كان واضحاً تماماً. وربما جاء هذا الموقف نابعاً من حرصه على أشياء معينة، فأتصور أنه كان يخشى لو قال بالدين لأعطى حجة للموارنة مثلاً لأن يطالبوا بالانفصال. وفي رأيي أن واحدة من أخطر المطاعن التي يمكن أن توجه لفكر ساطع الحصري ما أشارت إليه د. نادية مصطفى وهو موقفه من الأقليات، فهو لم يذكرها بحرف، وأتصور أن تفسير هذا ربما ينبع مما قاله الدكتور محمد عبد الشفيع في الجلسة السابقة من أنه كان رجل مشروع أكثر منه باحثاً أكاديمياً، لأنه لو كان كذلك لكان قد توفر على موضوع الأقليات ليدرسه، ولكنه كصاحب مشروع لو أنه أثار قضية الأقليات في هذه الفترة المبكرة التي تعاني فيها الأمة العربية شتى صنوف التجزئة، فكأنما

يضيف هماً على همّ، وبالتالي فمن منظور النقد الأكاديمي جاء تناوله للموضوع قاصراً وناقصاً، ولكن أعتقد أن هذا الموقف له ما يبرره من المنظور السياسي. والحقيقة أن موقفه من الدين أوقعه ـ في تقديري ـ في بعض الأخطاء العلمية التي لم يتح لي الوقت لإيضاحها، فمثلاً عندما وصف تحلل الدولة العربية ـ الإسلامية أرجع هذا إلى أن الرابطة التي تقوم على الدين لا تستمر طويلاً، وفاته أن التحلل أصاب المكوّن العربي في الدولة الإسلامية أيضاً، فلو كانت المسألة العروبة فقط لبقي المكون العربي في الدولة الإسلامية غير متحلل.

أيضاً فعلى الرغم من أنه أبدع في ما يسمى بالخارطة الزمنية لتاريخ العرب، فقد فاته أن يلاحظ أن أطول فترات الوحدة العربية كانت تحت حكم إسلامي سواء دولة الخلفاء الراشدين أو الدولة العثمانية.

والحقيقة أن مشروعه السياسي جعله يقصر ـ في تقديري ـ في بحث الأبعاد المختلفة لموضوع دور الدين، وإن كان ـ في تقديري ـ لديه العذر السياسي وليس لديه العذر الأكاديمي. أيضاً، من ناحية أخرى، أرى أن ساطع الحصري حاول أن يوجد جسراً بين المصلحة والدعوة المثالية. هي فقط محاولة، ومع ذلك يبقى في معسكر الفكر المثالي، لأنه أكد أن الوحدة والقومية التي تبنى على المنفعة ابتداءً لا تُعد في نظره دعوة قومية أصيلة، وإن كان للإنصاف أن ساطع الحصري ـ في سطرين أو ثلاثة ـ قد أشار إلى التأميم كتبرير لم يأخذ به.

وفي ما أثاره البعض من تأييدي لموقف ساطع الحصري من نشأة الدولة السعودية، فأنا لم أفعل هذا لسبب بسيط، وهو أنني لست متعمقاً في دراستها، ولكن فقط عرضت أنه أيد الدولة، والحقيقة أنه تحدث عن الاجتياح ووصفه، وقال إن الأمور في المحصلة النهائية وصلت إلى نتيجة مؤاتية للوحدة العربية، وحمد للسعوديين أنهم لم يعملوا على نشر المذهب الوهابي في المناطق المجاورة لهم بعد أن دانت لهم الأمور في الدولة السعودية. ومن هنا فقد حرص على التأكيد أنهم طبقوا الدين على أنفسهم دون غيرهم.

وفي ما ذكرته د. خيرية قاسمية أتفق معها، وليس عندي تفسير لماذا يرفض نسبة دور بروسيا للعراق ويقبله ضمناً لمصر إلا إذا كان يعتقد اعتقاداً خاصاً أن بروسيا العرب الحقيقية هي مصر، ولو أنني لا أستطيع أن أؤكد هذا الاعتقاد.

ورداً على سؤال جاء مكتوباً في المناقشة وخاصّ بموقفه من حلف بغداد، فالحقيقة أنه في فقرة واحدة اعترض على الحلف دون أن يسميه، وهو يذكر محاولات الدول الخارجية لإدامة الفرقة بين الدول العربية.

٩ ـ مجدي حماد (يرد)

في ما يتصل بموضوع الدين، وما ذكرته تحديداً حول الاستشهاد بميثاق «لا إله إلا الله، ساطع الحصري عدو الله»، كنت أقصد أنه ربما كان موقفه من الدين واستشرافه لخطورة أن تبنى الحقائق السياسية على أساس الدين ما جعله يتأكد من صواب رأيه عندما خرجت هذه المظاهرة عام ١٩٤٧، وربما يوضح هذا جانباً من جوانب قدرته على الاستشراف.

وفي ما أثير عن موضوع الوحدة العربية والوحدة الإسلامية، وفي ما يتصل بدور الدين في النواحي السياسية أذكر أن أحد أساتذة جامعة أسيوط أصدر كتاباً عام ١٩٦٢ بعنوان **الاشتراكية ليست إسلامية** وقامت القيامة، ولجأوا إلى عبد الناصر الذي أمر بنشر الكتاب. وكان يرى أنه إذا تم القول بأن الاشتراكية إسلامية، فماذا لو أخفقت الاشتراكية كتجربة اجتماعية؟ هل يعني ذلك أن الإسلام أخفق؟

وفي ما يتصل بموضوع الوحدة العربية والوحدة الإسلامية، فالكلام المؤكد أنه لا يمكن أن تكون الوحدة العربية مناقضة للوحدة الإسلامية، ولكنني لا أتصور ـ كباحث ينتمي للتيار القومي العربي ـ أن هناك مصلحة مشتركة أو أمناً قومياً مشتركاً يربطني باندونيسيا أو ماليزيا، على رغم أنهما دولتان إسلاميتان، تشتركان في مصالح؟ نعم، ولكن دائرة تحقيق الذات، وهي الدائرة الطبيعية لتحقق الأمن والمصلحة تختلف عن دوائر التضامن الأخرى.

والنقطة الأخيرة، وهي الخاصة بموضوع العراق وبروسيا العرب، فنحن هنا إزاء واقع كان قائماً في الثلاثينيات. فالعراق كان أول الأقطار العربية حصولاً على الاستقلال عام ١٩٣٠ وانضم لعصبة الأمم، وكانت هناك موجة قومية في تلك الفترة في الوطن العربي، من أمثلتها انقلاب عسكري عام ١٩٤١، بقيادة ما كان يسمى في العراق بالمربع الذهبي، ومن هنا بدأ القول بأن العراق هو بروسيا العرب، وأن ياسين الهاشمي (رجل الدولة العراقي) هو بسمارك العرب، وهذه وقائع كانت قائمة بالفعل وليست محلاً لآراء أو اجتهادات.

الفصل الرابع

الفكر التربوي عند ساطع الحصري

عبد الله عبد الدائم

أولاً: الحصري بين القومية والتربية

كثيراً ما يظن أن الفكر التربوي عند ساطع الحصري ليست له منزلة فكره القومي، ولا سيما أن الكثرة الكاثرة من المثقفين العرب عرفت هذا الرائد القومي الفذ من خلال ما كتب حول القومية العربية، وحول القومية بوجه أعم.

والحق، إن الفكر التربوي لدى هذا العلامة الذي أحاط بالعديد من جوانب المعرفة الإنسانية، من رياضية وعلمية واجتماعية وتربوية، لا يقل شأواً وشأناً عن فكره القومي، بل قل، بتعبير أدق، إن الفكرين، القومي والتربوي، متآخذان عنده ومتكاملان يصعب الفصل بينهما. وتلك هي أهم صفة من الصفات المميزة لعطائه.

فهو أولاً **يؤمن بتضامن المعرفة الإنسانية**، ولا يجيز الفصل بين جوانبها المختلفة. وقد كان هو نفسه مثالاً يحتذى بهذا الشأن، حين أحاط منذ بواكير عمره بالعلوم الرياضية وتولع بها ولعاً شديداً على حد قوله في ترجمة حياته، ثم أولع بالعلوم الطبيعية واشتغل بتشريح الحيوانات وتحنيطها، ودرس العلوم السياسية والحقوقية، وأتبع ذلك كله بدراسة علم النفس والتربية والاجتماع. بعد أن كان قد قطع شوطاً كبيراً في دراسة العلوم الطبيعية[1]. وقد كتب وألف في هذه المجالات

---

(١) فريد جحا، معد، «ترجمة ساطع الحصري كما كتبها بقلمه في أواخر عام ١٩٦٠،» المعلم العربي، السنة ٣٠، العددان ٢ ـ ٣ (عدد خاص بالمفكر العربي ساطع الحصري بمناسبة الذكرى المئوية لميلاده) (شباط/فبراير ـ آذار/مارس ١٩٧٧)، ص ٢٤٧ ـ ٢٥٣.

جميعها، سواء باللغة التركية أو باللغة العربية.

وهو ثانياً وبخاصة ينطلق في فكره التربوي من خلال فكره القومي، وينطلق في فكره القومي من خلال فكره التربوي. فالتربية العربية عنده تعني أولاً وقبل كل شيء التخلص من التبعية الثقافية، سواء في العراق أو سوريا أو مصر أو السودان. وفي حديث له مع الدكتور جميل صليبا عام ١٩٤٤ عن تجربته في العراق ـ على سبيل المثال ـ أكد دون لبس أن همه الأول هناك كان تطهير مناهج التربية من رواسب الثقافة الإنكليزية، وإحياء الروح العربية، وبث الفكرة القومية في النشء[٢].

وأهم أهداف التربية لديه ـ كما سنرى ـ توثيق الصلات الثقافية بين البلدان العربية، ووضع نظام تربوي موحد عربي الوجه واللسان، من شأنه أن يجمع أوصال الأمة العربية، عن طريق وحدة الثقافة أولاً وقبل كل شيء. وقد كان هذا الهدف جوهر عمله كله في ميدان التربية. أوليس هو القائل: «اضمنوا لي وحدة الثقافة، وأنا أضمن لكم ما تبقى من ضروب الوحدة»؟[٣].

وقد تجلى ذلك بوجه خاص في حركة الإصلاح التربوي التي قادها في العراق (من ٥/٣/١٩٢٢ ـ ١١/٦/١٩٤١)، وفي تقاريره ومشروعاته من أجل تطوير التربية في سوريا (من ١٩٤٤ إلى ١٩٤٧) وفي حوليات الثقافة العربية الست التي أصدرها بين عامي ١٩٤٩ و١٩٦٣، وفي سائر أعماله ومؤلفاته وكتاباته. وحسبنا أن نذكر ـ من قبيل المثال لا الحصر ـ بعض ما ورد في المقدمة التي صدّر بها للحولية الثقافية الأولى (والتي أعاد نشرها كاملة في مقدمة كل من الحوليات الخمس)، حيث أشار إلى أن أهم أهداف هذه الحولية القضاء على الفروق القائمة بين نظم التعليم العربية ـ بسبب مخلفات الاستعمار ـ وتعديل تلك النظم والأوضاع القائمة في البلدان العربية، وفق ما تقتضيه مصالحها الحقيقية، بنظرات شاخصة نحو المستقبل البعيد والمثل الأعلى الذي تنطوي عليه فكرة العروبة الخالدة[٤]. وفي نهاية هذه المقدمة يرجو أن يكون قد تمكن من إقناع من بيده زمام أمور التربية والثقافة في مختلف البلدان العربية، بأهمية العمل من أجل إزالة تلك الفروق

(٢) جميل صليبا، «تجربتي مع ساطع الحصري،» **المعلم العربي**، السنة ٣٠، العددان ٢ ـ ٣ (شباط/ فبراير ـ آذار/مارس ١٩٧٧)، ص ١٠٣.

(٣) ساطع الحصري، **آراء وأحاديث في الوطنية والقومية** (القاهرة: مطبعة الرسالة، ١٩٤٤)، ص ١٢٠.

(٤) ساطع الحصري، **حولية الثقافة العربية، ١٩٤٨ ـ ١٩٥٨**، ٦ ج (القاهرة: جامعة الدول العربية، ١٩٤٩ ـ ١٩٥٨)، السنة الأولى، «المقدمة،» ص ٩.

الثقافية بكل اهتمام واندفاع، من أجل الوصول إلى وحدة تربوية وتعليمية وثقافية، تقود بالتالي إلى تحقيق الوحدة الشاملة بين أقطار الوطن العربي.

وبوجيز القول، لقد انطلق ساطع الحصري في فكره وعمله في مجال التربية من فكرة أساسية، وهي أن وضع أُسس تربوية سليمة، مبدعة لا متبعة، قادرة على امتصاص التجربة التربوية العالمية في كيانها الذاتي، هي نقطة البدء لخلق أجيال واعية قادرة على تحقيق أماني الأمة العربية. فالعروبة عنده إيمان وعقيدة، والسبيل إليها هي سبيل التربية والتربية القومية بالذات.

لقد ناضل ساطع الحصري نضالاً فكرياً دائباً موصولاً من أجل نشر الوعي القومي والتبشير بوحدة الأمة العربية. وتسلح في سبيل تلك الدعوة بشتى الأسلحة العلمية والفكرية. وربح معركته هذه بقلمه وفكره، دون أن يلجأ إلى سلاح الدعوة السياسية أو الحزبية أو سواهما. ولكنه لم يهمل، كما قد يظن، النضال العملي اليومي من أجل فكرته القومية هذه. فلقد كانت التربية عنده هي مسرح النضال العملي الميداني المباشر من أجل نشر دعوته القومية.

لقد خاض في سبيل هذا النضال العملي - بل السياسي - معارك تربوية كبرى. أبرزها صراعه العنيد مع الإنكليز وممثليهم في العراق، انطلاقاً من إيمانه بأن أمور المعارف - التربية والتعليم - يجب أن تكون في مقدمة الأمور التي ستؤخذ من الإنكليز[٥]. وهو في هذا الصراع قد اختار في الواقع طريق «الجهاد التربوي» من أجل القضية العربية، كما اختار عدد من زملائه في بلاد الشام طريق الجهاد السياسي والثورة المسلحة بعد أن صرع الفرنسيون الدولة العربية السورية الوليدة في «ميسلون» عام ١٩٢٠[٦]. وقد تجلى هذا الجهاد التربوي بوجه خاص في معركته مع «فارل» الإنكليزي الذي كان قابضاً على مقدرات وزارة المعارف العراقية ومع سواه، حول توزيع المساعدات على المدارس الأهلية والطائفية والأجنبية، وفي نقده الشهير لتقرير لجنة «مونرو» الأمريكية، وفي جملة الإصلاح التربوي الذي قام به في العراق. ومثل هذا النضال الميداني ساقه في سوريا، حين تم اختياره عام ١٩٤٤ مشاوراً فنياً لوزارة المعارف. فلقد كان همه الأول - إلى جانب بل من خلال إصلاح نظام التعليم إصلاحاً شاملاً - تخليص سوريا من النظام التعليمي الذي خلفه الانتداب، وتصفية آثار النفوذ الثقافي الفرنسي، وتحرير سوريا من القيود

---

(٥) ساطع الحصري، مذكراتي في العراق، ١٩٢١ - ١٩٤١، ٢ ج (بيروت: دار الطليعة، ١٩٦٧ - ١٩٦٨)، ج ١: ١٩٢١ - ١٩٢٧، ص ١٣ - ١٤.

(٦) يحسن الرجوع إلى: ساطع الحصري، يوم ميسلون، صفحة من تاريخ العرب الحديث (بيروت: مكتبة الكشاف، ١٩٤٧)، ص ١٨٨.

والشوائب التي خلفها الانتداب، ممهداً السبيل بذلك إلى توحيد الأهداف والمناهج مع العراق ومصر وسائر البلدان العربية. ولا أدل على ذلك من المحاضرة المهمة التي ألقاها على مدرج الجامعة السورية عام ١٩٤٧، عن «الاستقلال الثقافي وسياسة التعليم في سورية»[٧]. وفيها يتحدث عما خلفه الحكم الأجنبي من جذور خانقة في مختلف ميادين الحياة، لعل أسوأها وأخطرها تلك التي انتشرت وامتدت في أرض الثقافة والمعارف، الأمر الذي حمله على سن قانون جديد للمعارف، يلغي في جملة واحدة جميع نظم المعارف الموضوعة في عهد الانتداب، ويقرر الأسس التي يجب أن يبنى عليها صرح المعارف الجديد[٨]. ويصف الحصري قانون المعارف العام هذا، الذي وضعه لهذا الغرض، بأنه، بمثابة صك الاستقلال الثقافي في هذه البلاد[٩]. ويضيف دون لبس أن أهم الغايات التي سعى لتحقيقها قانون المعارف الجديد هي: رفع الموانع وهدم الحواجز التي أقامتها سياسة الانتداب بين سوريا وبين سائر الأقطار العربية، في ميدان التربية والثقافة[١٠].

وتشهد كذلك على الطابع النضالي للتربية عند الحصري على نحو ما تجلت طوال عمله في سوريا (لمدة ثلاثة أعوام)، مقاومته العنيدة لمشروع «الاتفاقية الجامعية» التي حاول الفرنسيون ـ في بداية عهد الاستقلال ـ فرضها على سوريا.

فلقد حاولت فرنسا، قبل أن تتخلى عن الانتداب أن تفرض على سوريا معاهدات ثقافية واقتصادية وعسكرية، تحفظ لها مكانتها المتميزة في سوريا. وهكذا قدمت للحكومة السورية مشروع اتفاقية دعتها باسم «الاتفاقية الجامعية» ترمي من ورائه إلى توسيع نطاق امتيازاتها. فوقف الحصري في وجه تلك الاتفاقية المجحفة وسارع فوراً إلى تسليط الأضواء على بنودها، وبيّن أنها تهدف إلى ربط الحكومة السورية بـ «مصلحة المؤسسات الفرنسية» القائمة في سوريا ولبنان، فضلاً عن منحها اللغة الفرنسية والمعاهد الفرنسية امتيازات كبيرة. وقد أدى نقده الموضوعي لهذه الاتفاقية إلى رفض الحكومة السورية لها.

والأدلة كثيرة تشهد جميعها على أن ميدان التربية عند الحصري، كان ساحة للنضال القومي، وأن الترجمة العملية لأفكاره القومية تجلت في أفكاره التربوية بوجه عام وفي نضاله الميداني اليومي من أجل توليد نظم تربوية متحررة من

(٧) ساطع الحصري، آراء وأحاديث في العلم والأخلاق والثقافة، سلسلة التراث القومي. الأعمال القومية لساطع الحصري؛ ٦ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥)، ص ٥٥ ـ ٧٧.

(٨) المصدر نفسه، ص ٥٧.

(٩) المصدر نفسه، ص ٥٧.

(١٠) المصدر نفسه، ص ٧٧.

رواسب الاستعمار، قادرة على إبداع ثقافة عربية موحدة، هي حجر الأساس في بناء الكيان العربي القومي الموحد.

ولـم يقتصر نضاله هذا من أجل توليد تربية عربية أصيلة موحدة، على الصراع بينه وبين سلطات الانتداب في العراق وسوريا ومصر وسواها، بل شمل القيمين على النظم التربوية وعلى الثقافة في البلدان العربية نفسها. ويتجلى ذلك واضحاً في صراعه مع الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية، وفي المعركة التي شنها من أجل الحفاظ على الأهداف القومية الأصيلة لمعهد الدراسات العربية العليا، ذلك المعهد الذي تولى إنشاءه والتدريس فيه وإدارته ثم هجره يائساً بعد سنوات قليلة، لئلا يكون شريكاً في جريمة انحرافه عن هدفه القومي وانقلابه إلى «مؤسسة تمنح الشهادات لجماعة من الطلاب، وتوزع أجور المحاضرات لطائفة من الأساتذة»[11]. ومن خلال هذه الصورة التي رسمناها لعطاء هذا المربي القومي الكبير، يمكن الرد على قولين:

الأول هو أن عطاءه التربوي لم يكن في مستوى عطائه القومي.

والثاني هو أن دعوته القومية كانت مجرد دعوة فكرية نظرية لـم تناضل من أجل تغيير الواقع نضالاً عملياً ميدانياً.

فأستاذنا الكبير، كان يوازن موازنة دقيقة بين النظر والعمل، بين الفكر والتطبيق. وسنرى أن أهم ملامح نظرته التربوية إيمانه بضرورة «التوزين» بين العوامل المختلفة على حد قوله... وهو يدرك أعمق الإدراك أن النظر بلا عمل مُقعد، وأن العمل بلا نظر أعمى.

وهو يملك بالإضافة إلى ذلك كله عقل العالـم المدقق، صاحب المنطق الصارم، الأمر الذي يجعله قادراً دوماً على ربط الأسباب بالمسببات، وعلى وضع نظام دقيق للأوليات، وعلى التمييز بين المستحيل والممكن. وهذا كله من خلال إيمان قومي قادر على أن يعبئ كل الطاقات والعوامل والوسائل في سبيل الهدف المنشود.

لقد كان سعيه التربوي حقاً أداة إيمانه القومي وسلاحه، وكان إيمانه القومي مصدر نضاله التربوي فكراً وعملاً. لقد كان ـ بكلمة واحدة ـ قومياً مربياً ومربياً قومياً. وتلك هي أهم معالـم أصالته.

---

(١١) ساطع الحصري، **ثقافتنا في جامعة الدول العربية** (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٢)، ص ١٥٢ ـ ١٥٣.

ثانياً: مسيرة ساطع الحصري التربوية

لنتريث الآن عند العطاء التربوي للمفكر الكبير، عبر المراحل التي مر بها، ومن خلال الصوى الأساسية التي تحدد مسيرة ذلك العطاء.

وفي وسعنا ـ لهذا الغرض ـ أن نقسم هذا العطاء إلى قسمين أساسيين: **أولهما** يشتمل على أنظاره التربوية العامة وعلى أُمهات أفكاره في حقل التربية والتعليم، على نحو ما نجدها في أبحاثه ودراساته النظرية التي تضمها كتبه ومقالاته في المجالات المختلفة. **وثانيهما** يتصدى لبلائه المشخص وعمله الميداني في مجال تطوير النظم التربوية في بعض البلدان العربية، على نحو ما نجد ذلك في الإصلاحات التربوية التي قام بها في العراق وفي سوريا وفي بعض البلدان الأخرى.

١ ـ أنظاره التربوية العامة

على عكس مما كتب الكثيرون من المتحدثين عن ندرة العطاء التربوي الفكري لمربينا الكبير، قدم هذا المربي زاداً كبيراً وغنياً من الدراسات التربوية النظرية، تتجلى بوجه خاص في طائفتين من الأبحاث: أبحاث تتصل بمبادئ التربية العامة، وأبحاث تعالج المسائل المتعلقة بفن التربية وطرائقه ووسائله.

أ ـ الأبحاث المتصلة بأسس التربية ومبادئها

نقع على هذه الأبحاث بوجه خاص في اثنين من كتبه المنشورة، كما نقع عليها متفرقة ومبثوثة عبر نتاجه كله.

وأهم كتبه المنشورة التي تتصدى لمبادئ التربية العامة كتابان:

أولهما **أحاديث في التربية والاجتماع**[١٢]. وثانيهما كتاب **آراء وأحاديث في العلم والأخلاق والثقافة**[١٣].

والكتاب الثاني هو الذي يشتمل على أمهات الأنظار التربوية لساطع الحصري، بينما يقتصر الكتاب الأول على معالجة موضوعات تتصل بالثقافة العربية

---

(١٢) ساطع الحصري، **أحاديث في التربية والاجتماع**، سلسلة التراث القومي. الأعمال القومية لساطع الحصري؛ ٢، ط ٢ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥).

(١٣) ساطع الحصري، **آراء وأحاديث في العلم والأخلاق والثقافة**، سلسلة التراث القومي. الأعمال القومية لساطع الحصري؛ ٦، ط ٢ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥).

بوجه عام (الثقافة العربية وما يسمى ثقافة البحر الأبيض المتوسط ـ العلاقات الثقافية بين البلدان العربية ـ التعاون الثقافي بين الأمم المتحدة، اليونسكو ـ الثقافة العربية وثقافة الشرق الأدنى) بالإضافة إلى بحث لصيق بالتربية يتصل بالاستقلال الثقافي وسياسة التعليم في سوريا، وهو بحث عاود الحديث عنه في الكتاب الثاني، وستكون لنا عنده وقفات عبر حديثنا عن العمل التربوي الميداني للمربي الكبير. لهذا سوف نقتصر فيما يلي على عرض أمهات الأفكار التربوية لساطع الحصري على نحو ما وردت في كتاب **أحاديث في التربية والاجتماع**.

ويتناول هذا الكتاب بوجه خاص موضوعات ثلاثة أساسية (بالإضافة إلى موضوعات فرعية):

(١) العلاقة بين علم الاجتماع والتربية وفيه يبين الصلة الوثيقة التي ينبغي أن تقوم بين التربية وحاجات المجتمع، مؤكداً أن نجاح المدرسة في مهمتها يجب أن يقدر بمبلغ خدمتها للمجتمع الذي أنشأها. فالمدرسة عنده ـ كما هي عند أصحاب المدرسة الاجتماعية في التربية وعلى رأسهم عالم الاجتماع الفرنسي دوركهايم (Durkheim) ـ مؤسسة اجتماعية تعكس حاجات المجتمع وتحقق أغراض وغايات المجتمع الذي ولدها. وبتعبير آخر، كما يقول بعض علماء الاجتماع الفرنسيين اليوم (من أمثال بورديو (Bourdieu) وباسرون (Passeron) وإيستابليه (Establet)) مهمة المدرسة (ولا سيما في البلدان الرأسمالية) أن تعيد توليد المجتمع الذي ولدها.

ويضرب الحصري أمثلة عن نشوء نظام التعليم الثانوي في مختلف البلدان الأوروبية، تبين التشابك الشديد والترابط المحكم الذي يقوم بين مسائل التربية والتعليم وبين قضايا السياسة والاجتماع. وهذا كله لينتهي إلى القول بأن البلدان العربية تسير في عكس هذا الاتجاه، فلا تربط نظمها التربوية بطبيعة مجتمعاتها، وتقتبس من سواها اقتباساً منقوصاً في هذا المجال مولّدة نظماً تربوية هجينة لا أصلية.

ثم ينتقل الحصري من تأكيد هذه الحقيقة إلى تأكيد حقيقة ثانية تتصل بالعلاقة بين التربية والمجتمع. وقوام هذه الحقيقة أن التربية الملبية لحاجات المجتمع ينبغي أن تنمي روح «النحنية» على حد تعبيره، أي أن تغلب «النحن» على «الأنا» وأن تربي الأطفال منذ نعومة الأظفار على الإيثار بدلاً من تربيتهم على «الأثرة» وحب النفس.

ومن هنا ينتقل إلى الوسائل التربوية التي من شأنها أن تقوي «الاجتماعية» في

نفوس الناشئة وعلى رأسها الألعاب الاجتماعية المشتركة، وتعويد الأطفال والشبان العمل المشترك و«الإلبي» على حد تعبيره، وإشراك الطلاب في الإدارة والمراقبة، وسوى تلك من وسائل تنمية إرادة العمل المشترك، تلك الوسائل التي أكدها المربون المحدثون. ويضيف إلى هذه الوسائل وسيلة يهب لها شأناً خاصاً، ولا سيما في بلداننا العربية، هي الخدمة العسكرية، ويطنب في امتداح هذه الوسيلة، وفي أهمية الحياة العسكرية بوصفها حياة تضحية وإيثار وعمل مشترك، ويتحدث عن تجربة «كتائب العمل» في بلغاريا. وقد بلغ من اهتمامه بهذه التربية أنه أوصى في التقارير التي وضعها لإصلاح التعليم في سوريا، بإنشاء «نظام الفتوة» في المدارس الثانوية. وقد لقيت وصيته هذه أذناً صاغية، وما يزال هذا النظام سائداً في سوريا حتى اليوم، لدى البنات والبنين على حد سواء.

(٢) والموضوع المهم الثاني الذي يتناوله الكتاب الذي نحن بصدده، هو الحديث عن **«تيارات التربية والتعليم» الكبرى في عصره**، منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى تاريخ كتابة كتابه.

وليس المجال مجال التفصيل في الحديث عن تلك التيارات، ولا سيما أن كتب التربية، وكتب تاريخ التربية بوجه خاص(١٤)، حافلة بوصفها ونقدها. وحسبنا أن نشير عابرين إلى أن الحصري يتريث فيها عند بزوغ «عصر الطفل» (على حد تعبير المربية السويدية إيلين كي (Ellen Key))، وعند التعليم العام الإلزامي، وعند تنويع المدارس وتخصيص التعليم، وعند دور الأطفال ودور الحضانة ودور الرضاعة، وعند ما يعرف اليوم باسم التربية الخاصة (أو تربية المعوقين) والاهتمام بالمعلولين والعجزة والأغبياء والعميان، وعند الاهتمام بالأطفال «الشواذ» ووضعهم في صفوف خاصة.

وفي إطار هذا الموضوع الثاني الذي يتناوله الكتاب، نعني التيارات الكبرى في التعليم في عصر الحصري، يتحدث عن طرق التدريس، وعن تطورها بحكم عاملين أساسيين: توسع الدراسات النفسية من جانب، وتطور وجهات النظر الاجتماعية من جانب آخر، الأمر الذي يقوده إلى الحديث عن أهم المراحل التي قطعتها «أصول التربية والتعليم» تحت تأثير هذين العاملين.

وينتقل من ذلك إلى الحديث عن المدارس التي طبقت نتائج هذه الدراسات

---

(١٤) انظر على سبيل المثال: عبد الله عبد الدائم، التربية عبر التاريخ: من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين، ط ١٢ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٦).

الخاصة بطرق التدريس وأصول التربية والتعليم، وعلى رأسها المدارس التي عرفت باسم «المدارس الحديثة» و«المدارس الفعالة» (إشارة منه إلى تلك التي استخدمت ما عرف باسم «الطرق الفعالة» (Méthodes actives) في التربية).

ثم يختم هذا الموضوع بالحديث عن عظماء المربين الذين أطلقوا روح التربية الحديثة هذه، في شتى البلدان.

ويقف وقفة خاصة عند حدائق الأطفال ودور الصغار. ويتريث عند التعليم الاقتباسي والأساليب الإفرادية في التعليم (وما يتحقق حول ذلك من حديث عن نظام الصفوف، وعن الفوارق النفسية والفردية، وعن المدرسة «المفصلة على قد الطلاب» (Sur mesure)، وعن الصفوف المتوازية، والصفوف المتحركة والمتحولة، والدروس الإضافية). وفي هذا المجال يخص خطة دالتون بوقفة مستأنية، كما يتحدث عن خطة ونتكا وسائر الطرائق التي تجعل التعليم إفرادياً.

(٣) والموضوع المهم الثالث الذي يخصه بالعناية في كتابه هذا هو موضوع **«نظم التعليم في سياسة الاستعمار»** والتي يلخصها وصفه لها بأنها نظم تقدم تعليماً من غير تثقيف. ولن نتوقف طويلاً عند هذه المسألة التي يمكن اعتبارها محوراً أساسياً من محاور الفكر التربوي عند ساطع الحصري، فلقد رأينا منذ حين كيف ترجمها إلى نضال ضد التربية التي أشاعها الانتداب في كل من سوريا والعراق. كما أننا سنعود إلى الحديث عنها، عند تصدينا للشق الثاني من عطاء ساطع الحصري التربوي، نعني شق عمله الميداني لإصلاح نظم التربية في البلدان العربية. وحسبنا أن نشير ههنا إلى أنه يتصدى لهذه المسألة في كتابه هذا في نطاقها العالمي الشامل، لا في نطاق الوطن العربي وحده، متحدثاً عن غايات الاستعمار بوجه عام ومشيراً إلى انعكاس هذه الغايات على تعليم أبناء المستعمرات. ومن أجل ذلك يستشهد بما فعلته سياسة الاستعمار الأمريكية مع الزنوج، حين حرمت عليهم تعلم القراءة والكتابة، معرجاً على مناهج التعليم التي وضعها الفرنسيون لأبناء الجزائر، متريثاً عند موقف السلطات التربوية الإيطالية من التعليم الديني في طرابلس الغرب. على أنه يتوقف عند نقطة مهمة، تظهر من جديد ترابط العمل التربوي والقومي عنده، تتصل بدعوة الاستعمار في البلدان العربية إلى تغليب اللغة العامية على الفصحى، وهي دعوة لقيت بعض الآذان الصاغية لدى بعض الكتّاب العرب، وما يزال لها مؤيدوها وأنصارها. وههنا يقول بوضوح وعزم: يجب على كل مفكر عربي أن يحارب اللغة العامية التي يرجو المستعمرون من ورائها خيراً عظيماً لسياستهم، على

حساب الضرر البالغ بمصالح الأمة العربية ومستقبلها[١٥].

(٤) وثمة قسم ثان من الكتاب الذي نحن بصدده، جعل مؤلفه عنوانه: **مشاهدات وملاحظات**. وفيه يبدي ملاحظات تربوية حول بعض المشاهدات التي كانت له في زيارته للمدارس. غير أن أهم ما فيه ذلك البحث الخاص بـ «**التأليف والتوزين في أعمال التربية والتعليم**». وفي هذا البحث يقدم فكرة لعلها من أهم مقومات فلسفته التربوية، قوامها أن التربية السليمة ينبغي أن تنأى عن «الأحكام الثابتة» و«القواعد المطلقة» وأن تأخذ بـ «التوزين بين غايات التربية المتنوعة» وأساليبها المتعددة. وذلك لا يتيسر إلا بالجمع بين وجهات النظر المختلفة، والإحاطة بالنتائج المتنوعة. فأفاعيل الحياة النفسية في منتهى الدقة والإعضال، كما أن مطالب الحياة الاجتماعية في غاية التنوع والتعقيد، و«هذا التعقيد وهذه الدقة وهذا التنوع، تحتم على كل مربٍ ـ يروم القيام بواجباته حق القيام ـ أن ينظر في كل أمر من الأمور من وجوه عديدة...».

(٥) ويشتمل الكتاب الذي نتحدث عنه على قسم ثالث أفرده صاحبه لتراجم كبار «أساطين التربية الحديثة»، كما يشتمل على قسم رابع جعل عنوانه «انتقادات» يتحدث فيه ناقداً عن كتاب **روح التربية** لغوستاف لوبون الذي ترجمه الدكتور طه حسين، كما يقدم فيه نقده الشهير المهم لكتاب طه حسين **مستقبل الثقافة في مصر** الذي صدر عام ١٩٣٨.

ب ـ الأبحاث الخاصة بفن التربية وطرائقه ووسائله

سبق أن قلنا إن الأنظار التربوية التي أتى بها ساطع الحصري تشمل نوعين من الأبحاث: **أولهما** الأبحاث المتصلة بمبادئ التربية العامة، وقد أتينا على الحديث عنها. **وثانيهما** الأبحاث المتصلة بفن التربية، وهي التي سنعرض لها الآن، مدركين أن الفصل بين هذين النوعين من الأبحاث هو من قبيل تسهيل العرض، ما دامت مسائل التربية متشابكة متداخلة عنده.

ولقد كتب ساطع الحصري الشيء الكثير ـ منذ طور مبكر ـ عن فن التدريس وطرق التدريس. ولا عجب في ذلك، فهو دوماً أقرب إلى الأمور العملية المشخصة في ميدان التربية منه إلى الأنظار الفكرية (التي لم يهملها كما رأينا) وذلك بحكم تكوينه العلمي وروح الدقة والوضوح عنده.

---

(١٥) الحصري، أحاديث في التربية والاجتماع، ص ٩١.

(١) وقد بدأ أبحاثه في هذا الميدان منذ الفترة التي قضاها في تركيا، وكانت كتبه كلها بهذه اللغة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى.

وبالإضافة إلى سلسلة الكتب المدرسية التي كتبها آنذاك (في العلوم الطبيعية والزراعية وعلم الحيوان والنبات)، وبالإضافة إلى مقالاته العلمية التي نشرها في المجلات (نحو القطب ـ التلغراف اللاسلكي ـ الأشعة المجهولة ـ الخ. . .) كتب كتاباً في مجلدين بعنوان فن تربية[١٦] (يتضمن مجموعة الدروس التي ألقاها في دار المعلمين)، وكتاباً بعنوان اتنوغرافيا: علم أقوام (وهو مجموعة دروس له في المدرسة الملكية)، وكتاباً عنوانه وطن ايجون يتناول قضايا التربية المدنية والوطنية.

(٢) أما في اللغة العربية فقد كتب الكثير من الكتب والمقالات عن فن التربية بدءاً من مغادرته تركيا إلى سوريا عام ١٩١٩ مشاركاً في الحكومة الفيصلية. وعلى رأس تلك الكتب:

ـ **دروس في أصول التدريس** (في جزأين): أولهما عن أصول التدريس العامة، وقد صدر في بغداد عام ١٩٢٤، وثانيهما عن أصول تدريس اللغة العربية، وقد صدر في بيروت عام ١٩٤٨. وقد لقي الكتاب بجزأيه رواجاً كبيراً وكان المعين الأول للمعلمين في العراق وسوريا وسواهما (ولا سيما في أقطار المغرب العربي). وقد صدرت منه طبعات عديدة.

ـ **مبادئ القراءة الخلدونية: الألفباء، القراءة الخلدونية**، وقد صدر في بغداد عام ١٩٢٢ (ثم في البصرة عام ١٩٢٣).

ـ **مرشد القراءة الخلدونية: طريقة تعليم الألفباء** (بغداد، ١٩٢٢).

ـ **دروس الأشياء للسنة الخامسة الابتدائية** (بغداد، ١٩٢٨ ثم ١٩٣١).

ـ **دروس الأشياء للسنة السادسة الابتدائية: مبادئ العلوم** (بغداد، ١٩٢٩).

ـ **دروس الأشياء للسنة الرابعة الابتدائية** (بغداد، ١٩٣٠).

ـ **مساعد القراءة الخلدونية** (بغداد، ١٩٣٤).

ـ **دروس الأشياء للسنة السادسة الابتدائية: مبادئ الزراعة** (بغداد، ١٩٢٩).

---

(١٦) ترجم الكتاب إلى اللغة العربية كامل نصري عام ١٩٢٥ تحت عنوان علم التربية.

ـ الإحصاء: ملخص المحاضرات التي ألقاها الأستاذ ساطع الحصري في كلية الحقوق العراقية، ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩.

هذا، وقد أصدر منذ عمله في عهد الدولة العثمانية مجلة تربوية مهمة باللغة التركية في ثلاثة مجلدات، كانت أول مجلة تربوية تصدر باللغة التركية، هي مجلة **تدريسات ابتدائية مجموعة سي** التي يدل عنوانها على مبلغ عنايتها بفن التدريس وطرائقه. كما أصدر مجلة **تربية مجموعة سي** التي ظهر منها عشرة أعداد: الأربعة الأولى منها مصورة.

وقد كتب في تلك الفترة مقالات مهمة، معظمها تربوية واجتماعية، في مختلف الجرائد والمجلات.

وبعد انتقاله إلى البلدان العربية، أصدر خلال عمله في العراق مجلة **التربية والتعليم** (التي ظهر منها خمسة مجلدات بين عامي ١٩٢٨ و١٩٣١).

(٣) ومن خلال هذا النتاج المهم الذي تناول الحصري فيه «فن التربية» وطرائقها، نستخلص الكثير من مقومات التربية الحصرية وخصائصها في هذا المجال:

ـ فهو يؤكد أولاً الطابع الإنساني للتربية عنده، ويدعو إلى البحث في طبيعة الإنسان العربي، ما دام لكل طفل «سحنته» (Profil) النفسية، وما دامت للطالب العربي سحنته الخاصة به.

ـ وهو يبين ـ في حديثه عن فن التربية ـ أهمية التربية الجسمية والفكرية والخلقية والاجتماعية، ويبين وسائل هذه التربية وعلى رأسها: الأسرة ـ رياض الأطفال ـ معاهد التعليم. وفي هذه الأخيرة، نعني معاهد التعليم، يتريث عند طرائق التربية البدنية والخلقية والاجتماعية.

ـ وفي حديثه عن دور طرق التدريس يفصل البحث في أمور ثلاثة: قواعد التعليم العامة (معدداً لها) ـ طرق التدريس الأساسية (مشيراً إلى أهمية الاستقراء) ـ خطوات الدرس، متحدثاً حديثاً مفصلاً عما ينبغي أن يتوافر في المقدمة، وفي مادة الدرس، وفي الإلقاء، وفي الاستجواب، وفي وسائل الإيضاح، وفي استعمال الكتب، وفي تلخيص الدرس، وفي الواجبات الكتابية المنزلية.

(٤) وإن ننس لا ننسى عناية الحصري بالاختبارات العقلية (الروائز كما نسميها (Tests)). فقد يتبادر للذهن أن رجلاً كالحصري قد لا يخطر بباله أن يغوص في هذا الجانب التقني الدقيق الخاص بالاختبارات العقلية. ولكنه ـ كما

قلنا ونقول - إنسان جامع لجوانب المعرفة التربوية (وسواها)، يأبى عليه عقله العلمي إلا أن يحيط بسائر جوانب التربية، نظريّها وعمليّها.

وهكذا وقف وقفة طويلة عند الاختبارات العقلية (وكانت آنذاك في بواكيرها) وصنفها في اختبارات فردية خاصة، وفي اختبارات جمعية عامة. واعتمد على نماذج من الاختبارات الفردية والجمعية وضعها مربون عالميون.

وعني بوجه خاص بالاختبار العقلي الجمعي الذي وضعه المربي الإنكليزي بالارد (Ballard) وطبقه على مدارس إنكلترا عام ١٩٢٣. وهو اختبار يتألف من مائة سؤال، بل قام بنفسه بترجمة كتاب بالارد **التربية عن طريق الاختبار** إلى العربية. ووضع انطلاقاً منه نماذج مختارة من الأسئلة، وطبقه في المدارس الابتدائية في بغداد، وأتاح للمربين العرب تطبيقه في سائر البلدان العربية.

(٥) وقبل أن نختم حديثنا عن عطاء الحصري في ميدان «فن التربية» وأساليب التعليم، لا بد من أن نتريث عند جانب من هذا العطاء، جدير بكل إكبار واهتمام. ونعني به ما أتى به من عمل فذ في مجال تعليم اللغة العربية. فلقد أشرنا عابرين منذ حين إلى اثنين من مؤلفاته: **مبادئ القراءة الخلدونية** **ومرشد القراءة الخلدونية: طريقة تعليم الألفباء**. ولكن هذه الإشارة العابرة لا توفيه حقه في هذا الميدان.

لقد عني الحصري بطرائق تعليم اللغة العربية، لأن تعليم القراءة والكتابة مفتاح التعلم والتعليم، ولأن إتقان تعليم اللغة العربية عنده ولا سيما اللغة الفصحى - وهي أهم مقوم من مقومات القومية العربية، وأهم عامل من عوامل الوحدة - لا بد من أن يحتل مقام الصدارة عند المربين العرب.

ومن هنا، وبعد الدراسة الفنية والعلمية لهذا الموضوع، اختار الطريقة الصوتية في تعليم الألفباء العربية (بدلاً من الطريقة الهجائية التي كانت سائدة)، ورأى لذلك وجوب الابتداء في تعليم الألفباء بالكلمات المعلومة. وهكذا أدخل الطريقة الصوتية (التحليلية والتركيبية) في تعليم الألفباء العربية إلى المدارس الابتدائية في سوريا والعراق، الأمر الذي أحدث ثورة في مجال تعليم اللغة العربية.

وفوق هذا وذلك، تحدث الحصري عن سبل وضع مصطلحات علمية عربية جديدة حديث العليم بفقه اللغة العربية وقواعدها، مستهدفاً من وراء ذلك تطوير اللغة العربية وإنماءها بحيث تغدو لغة موحّدة وموحِّدة. وقد ألف لهذه الغاية لجاناً اختصاصية لتقرير المصطلحات العلمية في سوريا منذ عام ١٩٢٠، وفي العراق منذ عام ١٩٢٦.

ونقول هنا عابرين إن مما يثير الدهشة والعجب والإعجاب ما كتبه الحصري «حول قواعد اللغة العربية» و«حول الاصطلاحات العلمية» وحول ما سماه «ملاحظات لغوية»[١٧]. وقد لا يتوقع المرء من رجل تعلم العربية في مرحلة غير مبكرة من حياته، أن يكتب كتابات فقهية لغوية دقيقة في الاشتقاق والتعريب والنحت، وأن يرجع في ذلك إلى كتب فقه اللغة القديمة (مثل كتاب الصاحبي وكتاب الثعالبي وسواهما)، وأن يتبع ذلك بالحديث عن النحت في الكتب الحديثة (مثل كتب جرجي زيدان ومحمود شكري الألوسي وعبد القادر المغربي ومصطفى صادق الرافعي)، وأن يفرد بحثاً مفصلاً لأساليب النحت، وأن يربط ذلك كله بمسألة الاصطلاحات العلمية.

ومنها نجد عنده طائفة من الترجمات الموفقة لبعض المصطلحات العلمية الأجنبية، لا ندري إن كانت مجامع اللغة العربية في البلدان العربية قد أفادت منها.

ولا يقف عند هذا الحد، بل يقدم دراسة نقدية لبعض الاصطلاحات العربية الشائعة، مبيناً قصورها عن أداء المعنى الذي تشتمل عليه الاصطلاحات الأجنبية.

وأعجب العجب ما نقرأه في كتابه الذي أشرنا إليه، تحت عنوان: **قطوف لغوية في تونس**، على أثر رحلة إلى تونس قام بها عام ١٩٥٠، حيث ينقد المصطلحات التونسية الشائعة ويعددها.

٢ ـ العمل الميداني لساطع الحصري

قلنا منذ بداية القسم الثاني من بحثنا، وهو القسم الذي أفردناه للحديث عن مسيرة ساطع الحصري التربوية، اننا سوف نتحدث عن جانبين في هذه المسيرة: **الأول** هو أنظاره وأفكاره ومبادئه التربوية العامة التي يمكن أن نصفها بأنها نظرية على الرغم من أن لها مضمونها العملي، **والثاني** هو ما قام به من عمل ميداني مباشر في ميدان التربية، ولا سيما عن طريق الإصلاحات الكبرى التي تعهدها في العراق وسوريا وفي مصر إلى حد ما وفي بعض البلدان العربية الأخرى وفي جامعة الدول العربية. وهذا الجانب الميداني العلمي هو الذي سوف نتحدث عنه في هذا الجزء من دراستنا.

---

(١٧) يحسن الرجوع في هذا إلى كتاب: ساطع الحصري، **في اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية**، سلسلة التراث القومي. الأعمال القومية لساطع الحصري؛ ١١، ط ٢ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥).

ونخف إلى تأكيد ما قلناه في الجزء الأول من بحثنا، وهو أن الجانب النظري والجانب الميداني العملي في عطاء الحصري التربوي، متشابكان بل متضامنان، يرفد كل منهما الآخر، ويغتذي فيهما النظر بالعمل، والأفكار والمبادئ بالتجربة الميدانية، ويرتد فيهما في الوقت نفسه حصاد الفكر النظري والمبادئ التربوية المستمدة من التجربة العالمية، ارتداداً معكوساً ـ بضرب من التغذية الراجعة ـ على العمل الميداني وعلى الإصلاحات التربوية الفعلية، الأمر الذي يجعل مسيرة ساطع الحصري التربوية مسيرة متلاحمة الجوانب، يؤلف كل منها متناسقاً مؤتلفاً. وهذا أيضاً جانب آخر من جوانب الأصالة في التربية عند ساطع الحصري، وفي هذا رد على بعض الاحكام المتعجلة التي قد يؤدي إليها التقري السريع والناقص لأفكاره التربوية، كالاعتقاد بأن مربينا الكبير لم يعدُ أن نقل الأفكار التربوية العالمية التي كانت شائعة في عصره، في حين أن مربينا الكبير قد استطاع ـ بفضل مصفاته العقلية المنطقية الرائعة، وبفضل نظريته القومية الثاقبة التي كانت تضيء له الطريق، وبفضل هضمه وتمثله للتجربة العربية والعالمية، وبفضل ممارسته للعمل الميداني بوجه خاص ـ أن يولد تربية نظرية عملية ذات طابع فريد، أهم ما فيها تكامل عناصرها، حتى لكأنها البنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً.

وسنعود إلى هذا كله في خاتمة بحثنا، عند حديثنا عن أصالة التربية الحصرية. أما الآن فسوف نمضي في عرض جوانب عطائه التربوي الميداني، وسنرى أنه يجاوز كماً وكيفاً عطاءه النظري، على الرغم من تكامل العطاءين في خاتمة المطاف.

ويشمل هذا العطاء محطات رئيسية كبرى سوف نتحدث عن كل منها ونوجزها هٰهنا فنقول:

إنها تضم ـ بالإضافة إلى عمله الميداني في الحقبة العثمانية ـ ما قام به في سوريا الفيصلية (من ١٩١٩ ـ ١٩٢٠) ـ وما قام به بعد ذلك من دراسة ونقد للنظم التربوية المصرية، ومن بيان لسبل الإصلاح المقترحة (من كانون الأول/ديسمبر ١٩٢٠ ـ آب/أغسطس ١٩٤١) ـ والإصلاحات الكبرى التي قام بها خلال نيف وعشرين سنة قضاها في العراق (من ١٩٢١ ـ ١٩٤١) ـ والإصلاح التربوي المهم الذي وضع أسسه في الجمهورية العربية السورية أيام عمل مشاوراً فنياً فيها (من ١٩٤٤ ـ ١٩٤٧) ـ وعمله التربوي والإداري في الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية (من ١٩٤٨ ـ ١٩٥٧) وما رافق ذلك من إصدار حوليات للثقافة العربية (بين عام ١٩٤٩ ـ وعام ١٩٦٣)، ومن تأسيس متحف للثقافة العربية (عام ١٩٤٩) ومن إحداثه لمعهد الدراسات العربية العليا (عام ١٩٥٣).

ومن العسير أن نتحدث حديثاً وافياً عن هذه الساحات المختلفة للعمل

التربوي الميداني الذي قام به ساطع الحصري وحده خلال سنوات معدودات، والتي تعجز الهمم الكثيرة والكبيرة عن القيام بطرف منه. ولا عجب، فقد كان دأبه على العمل نادر المثل، يشد من أزره إيمانه برسالته القومية والتربوية. ويروي عنه من عرفوه عن كثب، أيام عمله مشاوراً فنياً في سوريا، أنه كان يعمل في اليوم الواحد قرابة عشرين ساعة[١٨].

ومن هنا فإن حديثنا عن هذا العمل الميداني الجبار سوف يكون بالضرورة حديثاً مخلاً، أقرب ما يكون إلى لغة البرقيات. فالحديث الوافي عن ذلك يستغرق مجلدات برأسها[١٩].

لنمض إذن ـ على الرغم من ذلك كله ـ في عرضنا المقتضب للمراحل المختلفة ـ التي أشرنا إليها ـ التي مر بها العمل الميداني لساطع الحصري.

أ ـ ساطع الحصري في الدولة العثمانية (١٩٠٠ ـ ١٩١٩)

فيما يتصل بالحقبة العثمانية: أبلى الحصري خلالها بلاءً حسناً، منذ أن بدأ حياته في وظائف الحكومة قبل انقلاب المشروطية، أي قبل انقلاب الدستور عام ١٩٠٠، وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى ومغادرته الدولة العثمانية إلى سوريا عام ١٩١٩. ونكتفي بأن نشير إلى عملين ميدانيين مهمين (سيكون لهما بعدهما) قام بهما خلال تلك الحقبة: **أولهما** حين تولى مديرية دار المعلمين عام ١٩٠٩ وأسسها على أسس جديدة وألفها من ثلاثة أقسام، الأمر الذي أحدث، كما يقول هو نفسه، «انقلاباً جذرياً في اتجاهات التعليم في جميع الممالك العثمانية، وطورها من أساسها»[٢٠].

وثانيهما الإصلاح الجذري الذي قام به لـ «دار الشفقة» التي كانت تابعة لجمعية التدريس الإسلامية، والذي قاده إلى تأسيس «المدرسة الحديثة» التي كانت تضم ثلاثة أقسام: «عش الأطفال»، أي روضة الأطفال ـ والمدرسة الابتدائية الجديدة ـ و«دار المربيات» لتخريج مربيات ومعلمات يتولين تربية الأطفال في الأعشاش.

---

(١٨) انظر: محمد كمال عياد، «ذكريات عن ساطع الحصري،» المعلم العربي، السنة ٣٠، العددان ٢ ـ ٣ (شباط/فبراير ـ آذار/مارس ١٩٧٧)، ص ١٠٦.

(١٩) من حسن الطالع أن ثمة دراسات تناولت هذا العمل التربوي الميداني، ولعل أبرزها الرسالة التي قدمتها السيدة مسرة الأمير عام ١٩٧٧ لنيل درجة الماجستير من كلية التربية بجامعة دمشق، وموضوعها «ساطع الحصري والتربية»، وتقع في خمسمائة صفحة من القطع الكبير.

(٢٠) الحصري، «خلاصة ترجمة حالي،» ص ٢٤٩.

ب ـ ساطع الحصري في سوريا خلال الحقبة الفيصلية (١٩١٩ ـ ١٩٢٠)

أما في الحقبة الفيصلية في سوريا، فقد تولى منصب مفتش المعارف العام (من ١٦/ ٤/ ١٩١٩ إلى ٣٠/ ٤/ ١٩١٩) ثم منصب مدير المعارف العام (من ١/ ٥/ ١٩١٩ إلى ٢٦/ ٣/ ١٩٢٠) حتى إعلان استقلال سوريا، ثم منصب وزير المعارف (من ١٠/ ٣/ ١٩٢٠ إلى ٢٧/ ٩/ ١٩٢٠)، أي منذ إعلان الاستقلال حتى استيلاء الفرنسيين على البلاد. وقد أصدر خلال تلك الفترة ـ باسم مديرية المعارف ـ مجلة سماها **التربية والتعليم** (١٩١٩ ـ ١٩٢٠) نشر فيها عدة مقالات واستهدف من ورائها تدريب المعلمين بوجه خاص. وكانت اللغة العربية هي المشكلة الرئيسية التي واجهت الحكومة الفيصلية في أول عهدها، إذ كانت اللغة التركية هي اللغة الرسمية في الدولة وفي التعليم. لذلك كان لا بد من تعريب الدوائر الحكومية والمدارس. وقد تم ذلك بسرعة مذهلة، إذ تم إنشاء الشعبة الأولى للترجمة والتأليف في ٢٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٨، ثم ضمت إليها أمور المعارف وأصبحت «ديواناً للمعارف» تولى أمره ساطع الحصري، مستعيناً بأساتذة اللغة العربية وأدبائها من أجل مراجعة الكتب العربية القديمة ونشرات الحكومة المصرية، وبغية اختبار أفضل المصطلحات وتقرير أحسن الأساليب. واستحدثت الحكومة، بفضل توجيهات الحصري، دروساً خاصة بالموظفين تستهدف تعليم الإنشاء العربي. وقد عهد إلى هذا الديوان من جهة ثانية أمر العناية بأساليب التربية الحديثة، والنظر في بعض قوانين المعارف وترجمتها، وتصحيح الكتب المدرسية المعدة للطبع وإحداث مدارس جديدة وتفتيشها وتنظيم ميزانيتها وتعيين معلميها[٢١].

ومن أجل ذلك بدأ الحصري ـ كعادته ـ بدراسة لنظام التعليم في سوريا. وسافر إلى القاهرة لدراسة نظم التربية والتعليم هناك. وبعد الدراسة والتقصي، وجه عنايته إلى تعليم القراءة العربية بالطريقة الصوتية (كما سبق أن ذكرنا) مستفيداً من تجربته في تركيا في هذا المجال.

وعني منذ تلك الفترة عناية كبرى بالمعلم وإعداده، بوصفه عصب العملية التعليمية وأداتها الأساسية، فنظم دورة تدريبية خلال صيف ١٩١٩، دعا لها مفتشي المدارس الابتدائية ومديريها ومعلميها وطلاب دور المعلمين، وألقيت خلال

---

(٢١) خيرية قاسمية، الحكومة العربية في دمشق بين ١٩١٨ ـ ١٩٢٠، مكتبة الدراسات التاريخية (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧١)، ص ٢٣٤، والحصري، يوم ميسلون، صفحة من تاريخ العرب الحديث، ص ٢٣.

الدورة محاضرات في طرق التدريس، وقدمت بعض الدروس النموذجية. وأتبع ذلك كله بوضع خطة لتوسيع التعليم، وزيادة عدد المدارس والمعلمين، وإعداد المعلمين. والتفت فوق هذا كله إلى التعليم العالي، فأعاد إحياء المعهد الطبي (في أيلول/سبتمبر ١٩١٩) في بناء المستشفى الوطني في دمشق، وافتتح معهد الحقوق في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٩، على أن يجري التدريس فيهما باللغة العربية.

ج ـ ساطع الحصري في العراق (١٩٢١ ـ ١٩٤١)

لا شك في أن العمل الميداني الكبير والفريد الذي قام به ساطع الحصري هو عمله في العراق. فبعد الاحتلال الفرنسي لسوريا، وبعد فترة قصيرة قضاها في مصر (من كانون الأول/ديسمبر ١٩٣٠ ـ آب/أغسطس ١٩٣١) قام خلالها بدراسة النظم التربوية المصرية ونقدها، توجه الحصري إلى بغداد في شهر آب/أغسطس ١٩٢١، تلبية لدعوة الملك فيصل له من أجل إرساء ركائز التربية في العراق على أسس حديثة. وطبيعي أن تلقى هذه الدعوة هوى في نفسه، وأن يجعل منها نقطة انطلاقه لإحياء الأمة العربية، وأن يجد في البيئة العراقية مكاناً خصباً لتطبيق أفكاره وخططه التربوية التي كانت تعتمل في فكره منذ أمد طويل.

وقد شغل خلال تلك الفترة مناصب تربوية عديدة مهمة، لا مجال لتعدادها هنا، أبرزها عمله مديراً عاماً للمعارف، وأستاذاً للتربية في دار المعلمين العالية، ومراقباً للتعليم العام، ورئيساً لكلية الحقوق، ومديراً للآثار القديمة، ومستشاراً للملك في شؤون المعارف.

ولقد كانت فترة عمله في العراق عامرة بالإصلاحات التربوية المهمة التي حققها، وعامرة كذلك بالصراعات ولا سيما تلك التي قامت بينه وبين الخبراء الإنكليز العاملين في وزارة المعارف ووزارة الداخلية ووزارة الخارجية، من أمثال فارل ونجاربيت والآنسة جرترودبل وكورنواليس والمستر غلين وسواهم[٢٢].

والحديث عن إصلاحاته التربوية في العراق حديث ذو شجون، ولكنه يلتهم صفحات طوالاً. لذلك سوف نمر مروراً عابراً بأهم الصوى والمعالم في تلك الإصلاحات، مكتفين برؤوس أقلام خاطفة:

(١) بدأ الحصري ـ جرياً على تقاليده العلمية ـ بمسح شامل وتقويم كامل

---

(٢٢) يحسن في هذا المجال الرجوع إلى: ليل صباغ، «ست سنوات من كفاح ساطع الحصري للانكليز في العراق،» المعلم العربي، السنة ٣٠، العدد ١٢ (كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٧)، ص ٩٦٤ ـ ٩٧٧.

لمجال التربية في العراق عام ١٩٢١ (بعد دراسة الواقع العام لذلك القطر والتعرف على مواطن الضعف فيه).

(٢) ويبدأ بعد ذلك ـ على الرغم من العراقيل التي وضعتها السلطات البريطانية ـ في وضع خطة لإصلاح التعليم، شملت مراحل التعليم المختلفة[٢٣]:

(أ) ففي **التعليم الابتدائي** عني بتطوير نوعية هذا التعليم (فضلاً عن العناية بتوسعه الكمي)، ووضع لهذه الغاية منهجاً جديداً (استهدف بوجه خاص القضاء على ثنائية التعليم الابتدائي التي أحدثتها السلطات البريطانية والتزمت بها). ورفد هذا المنهج الجديد بكتب مدرسية ملائمة، وبتوفير وسائل الإيضاح الضرورية. كما وضع خطة لإعداد المعلمين وتدريبهم في أثناء الخدمة، وبالتالي لتطوير دور المعلمين والمعلمات.

كما عني ـ في إطار منهجه الجديد هذا ـ بتوجيه المعلمين وإرشادهم وبالارتقاء بأساليب التوجيه (التفتيش).

ومن أهم ما تضمنته خطته الجديدة في ميدان التعليم الابتدائي إدخال المدارس الأهلية والطائفية في الخط القومي العام للتربية. وقد خاض من أجل ذلك ـ كما رأينا ـ معارك ضارية مع السلطات البريطانية، كان له النصر فيها في النهاية (بحكم حنكته وإيمانه وقوة حجته وبراعته في الحوار)، وذلك حين تمّ له إصدار «نظام المدارس الأهلية والأجنبية» الجديد.

ومن الأمور الشائكة التي نجح بعلاجها في هذا المجال مشكلة مدارس الطائفة الإسرائيلية، ومشكلة المدارس الإيرانية، ومشكلة المدارس الكردية.

(ب) وفي **التعليم الثانوي** أعاد الحصري تنظيم التعليم الثانوي العام والتعليم المهني. ففي **الأول** قام بتوسيع التعليم الثانوي العام في المدن الكبرى بوجه خاص، ودعا إلى إنشاء مدرسة ثانوية داخلية تستطيع أن تجمع الطلاب من مختلف الألوية. كما قام بتطوير المناهج في هذا النوع من التعليم، ووجّه عناية خاصة إلى العلوم الطبيعية (وأثار استغرابه تجاهل تقرير مونرو التام لهذه المادة عند وضعه منهجه). وفي **الثاني** ـ نعني التعليم المهني ـ تصدى لمشكلة عزوف الطلاب عن

---

(٢٣) من أجل مزيد من التفصيل حول إصلاحات الحصري التربوية، يحسن الرجوع إلى: الأمير، «ساطع الحصري والتربية،» ص ٢٧ ـ ١٠٧.

التعليم الصناعي، ولجأ في سبيل حلها إلى إحداث قسم داخلي في مدارس الصناعة يقيم فيه بعض الطلاب مجاناً. كما عارض فكرة إلغاء «مدرسة الهندسة» معارضة شديدة. وتصدى للتعليم الزراعي وحاول إقناع وزارة الزراعة بتأسيس كلية للزراعة، دون أن يمضي مع القائلين بأن من الممكن إحداث نهضة زراعية عن طريق تعليم الزراعة في المدارس القروية. فهو يعتقد أن أهم ما يمكن أن تقوم به الدولة من أجل تطوير الزراعة تأسيس حقول تجريبية زراعية نموذجية، ومدارس زراعية من مستويات مختلفة وأنواع متعددة (مع الاستمرار في تطوير التعليم الزراعي في المدارس الابتدائية كوسيلة تربوية فقط).

(ج) **وفي مجال الامتحانات** أدخل الحصري إصلاحات جذرية، تتفق مع التطور العالمي في هذا المجال. ورأى أن ما يدعى باسم «الامتحانات الموضوعية» (Objective tests) يفيد في تقدير المعلومات القطعية والمكتسبات الواقعية، ولكنه لا يغني عن الامتحانات العادية. والطريقة المثلى عنده هي مزج الأساليب المختلفة تبعاً لمقتضى الحال.

(د) **وفي التعليم العالي** أسس الحصري «دار المعلمين العالية» عام ١٩٢٣، وقام بالتدريس فيها، قبل أن تقرر وزارة المعارف إلغاءها. وقد اعتبر الحصري هذا الإلغاء من أعظم الأخطاء التي ارتكبتها الوزارة. وفي عام ١٩٢٣ قررت الحكومة العراقية تأسيس جامعة تسمى باسم «جامعة آل البيت» وخصصت لها أراضي شاسعة من ممتلكات الأوقاف. وشيدت وزارة الأوقاف مبنى إحدى كلياتها، وهي «الكلية الدينية». وكان القصد من تأسيس هذه الكلية التقريب بين المنتسبين إلى المذهبين السني والجعفري. وقد أراد بعض المسؤولين أن يلحق بتلك الجامعة على الفور «دار المعلمين العالية»، ومدرسة الهندسة، ومدرسة الحقوق التي كانت قائمة فعلاً في ذلك التاريخ. فاعترض الحصري بشدة على إلحاق دار المعلمين العالية بجامعة آل البيت.

وأما مدرسة الحقوق فقد جرى تأسيسها في العام الدراسي ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ وكانت تابعة لوزارة العدل. وفي عام ١٩٢٦ ربطت بوزارة المعارف. وقد درّس الحصري فيها مادة الإحصاء، وتولى رئاستها سنوات أربع، وحاول إعادة تنظيم فروعها، وقام بإصلاحها جذرياً عندما تولى وظيفة «مدير الآثار القديمة ومراقب التربية والتدريس العام» (من ١٦/٩/١٩٣٥ إلى ١١/٦/١٩٤١).

ولقد كانت فكرة تأسيس **كلية الطب** تراود الحصري منذ مطلع وصوله إلى بغداد في النصف الثاني من عام ١٩٢١. غير أنه وجد، بعد دراسته لأوضاع

التعليم الثانوي، أن من الخطأ تأسيس مدرسة للطب على الفور.

وفي عام ١٩٢٧ أُنشئت «كلية الطب» على الأُسس المتينة التي وضعها الحصري.

(٣) وبالإضافة إلى هذه الإصلاحات التي تناولت مراحل التعليم الثلاث، قام الحصري بالإضافة إليها أو من خلالها بإصلاحات أخرى وأعمال ميدانية عديدة.

من أهمها وعلى رأسها خطته التربوية الخمسية التي قدمها في ١٥ كانون الثاني/يناير عام ١٩٣٦. ومن جدائدها الأبحاث التربوية والنفسية التي قام بها، والتي قادته - فيما قادته - إلى وضع اختبارات عقلية (روائز) وتطبيقها كما سبق أن ذكرنا، ومن أبرزها تطبيق مقياس «كلاباريد» (Claparède) في الحساب على ٩٧٢ طالباً في مدينة بغداد، وتطبيق مقياس مونرو واختبار تمييز السخافات، واختبار دوكرولي (Decroly) لترتيب الصور. كما أنه طبع - أثناء قيامه بالتدريس في «دار المعلمين العالية» - كمية من الكراسات اللازمة لبعض الاختبارات الأساسية. ومن منجزاته كذلك، أثناء عمله في «دار المعلمين العالية» تأليف كتاب عن «أصول التدريس» يعتبر في ذلك الحين فريداً في مجال المؤلفات التربوية باللغة العربية.

(٤) على أن علينا ألا ننسى إصلاحات الحصري الإدارية والتنظيمية، ونقده فيها للبيروقراطية السائدة، ودعوته إلى منح مديري المعارف صلاحيات واسعة، وعنايته الخاصة بالأبنية المدرسية.

(٥) وأخيراً وليس آخراً، لا بد من أن نذكر سعيه الموصول آنذاك (وفي ما بعد) لتوثيق الروابط الثقافية بين البلدان العربية، واهتمامه باللغة العربية وبتوحيد مصطلحاتها العلمية والفنية (كما سبق أن رأينا)، وتشجيع تبادل المدرسين والطلاب، وإحياء التراث الثقافي العربي. وظل هذا الهم القومي همه الدائم الأول. وفي هذا المجال لا بد من أن نذكر كيف سارع الحصري إلى القيام بالدراسة اللازمة من أجل وضع قاموس عربي عام ١٩٣١، حين طرحت هذه الفكرة، وكيف وضع خطة عمل لتحقيق هذا المشروع. ولم تكن غايته من ذلك مجرد وضع ألفاظ عربية تقابل المصطلحات العلمية والفنية الأجنبية، بل كان هدفه أيضاً وبخاصة توحيد الألفاظ واستخدامها من قبل سائر البلدان العربية[٢٤].

(٢٤) انظر: الحصري، مذكراتي في العراق، ١٩٢١ - ١٩٤١، ج ٢: ١٩٢٧ - ١٩٤١، ص ٨١ - ٨٥.

وبعد، هيهات أن نكون قد استنفدنا في هذه العجالة الأعمال التربوية الضخمة التي قام بها الحصري أثناء عمله في العراق، بل لعلنا لم نقدم إلا عرضاً خاطفاً منقوصاً ومشوّهاً لعطائه التربوي الميداني الرائع في ذلك القطر. وعزاؤنا في ذلك أن في وسع من يريد التزيد من هذا العطاء، أن يرجع بوجه خاص إلى مذكراته في العراق. وتقع هذه المذكرات في جزأين: الجزء **الأول** (من ١٩٢١ - ١٩٢٧) نشر في بيروت عام ١٩٦٧ في ٦٢٨ صفحة. والجزء **الثاني** (من ١٩٢٧ - ١٩٤٧) نشر في بيروت أيضاً عام ١٩٦٨، في ٦٢٧ صفحة.

د - ساطع الحصري في سوريا (١٩٤٤ - ١٩٤٧)

بعد حصول سوريا على استقلالها - مبدئياً - عام ١٩٤٤، استدعت حكومتها، برئاسة سعد الله الجابري آنذاك، المربي الكبير ساطع الحصري للعمل مشاوراً فنياً لوزارة المعارف، من أجل إصلاح التربية والتعليم في ذلك البلد، وأسندت إليه وظيفة مشاور فني في وزارة المعارف، ليقوم بدراسة أحوال المعاهد العلمية والتعليمية في الجمهورية السورية، ودرس جميع الشؤون المتعلقة بالتربية والتعليم والآثار والثقافة العامة في البلاد، وتقديم ما يراه لازماً من الاقتراحات بهذا الصدد، واقتراح ما يجب لتنظيم العلاقات الثقافية ما بين سوريا والبلدان العربية الأخرى. وقد قدم خلال السنوات الثلاث التي قضاها في سوريا محض تجاربه التربوية وخلاصة أنظاره ومواقفه. واستطاع خلال ذلك الوقت القصير أن يضع خطة كاملة لإصلاح التعليم بمراحله المختلفة، وما تزال عناصرها الأساسية واتجاهاتها الكبرى باقية حتى اليوم.

ومن العسير ههنا أيضاً أن نلخص عطاءه خلال هذه الفترة دون أن نخل به أو نغمطه حقه. ولكن لا بد مما ليس منه بد، في حدود هذا البحث. وههنا أيضاً في وسع من أراد الزيادة في هذا المجال الرجوع إلى بعض المظان الأساسية التي سوف نشير إليها عابرين، ولا سيما تقاريره التي بلغت ١٦ تقريراً، وقانون المعارف العام الذي لخص معظم مقترحاته، بالإضافة إلى تلك الرسالة الجامعية التي أشرنا إليها أكثر من مرة، نعني رسالة السيدة مسرة الأمير عن «ساطع الحصري والتربية» التي قدمتها لنيل شهادة الماجستير من كلية التربية في جامعة دمشق، عام ١٩٧٧.

وما علينا الآن إلا أن نشد الرحال إلى ساحة العمل الميداني والإصلاحات التربوية التي اضطلع بها مربينا الكبير في سوريا، مقتصدين في ذلك اقتصاد المضطر:

(١) بدأ الحصري الإعداد لإصلاحاته ـ شأنه دوماً ـ عن طريق دراسة نظم التعليم، وخرج من هذه الدراسة بستة عشر تقريراً، أصدرها بين شهري آذار/مارس وتموز/يوليو من عام ١٩٤٤، وطبعت كلها في مجلد واحد. وقد ألحق بتقاريره هذه اقتراحات عملية مهمة.

وكان التقرير **الأول**[٢٥] حول «ماكينة المعارف» وبيروقراطية المعاملات الإدارية، نبه فيه إلى بطء المعاملات الجارية، وكثرة الأمور المتراكمة نتيجة عدم توزيع الأعمال والصلاحيات بين الموظفين توزيعاً معقولاً، ونتيجة سوء التنظيم في الإدارة. وقد قدم لهذه الغاية مشروع مرسوم تنظيمي حول تعيين الموظفين.

وتناول التقرير **الثاني** موضوع «ملاك موظفي التعليم» مبيناً نقائض المرسوم التشريعي الذي ينظمه، والإجحاف الذي أصاب الموظفين بسببه، وذلك بسبب اتخاذه كلاً من مصدقات الإجازة الجامعية الأربع على حدة أساساً للتصنيف، بدلاً من اتخاذ الإجازة الجامعية جملة أساساً له.

وتناول التقرير **الثالث** تشكيلات وزارة المعارف، وقدم مقترحات من أجل إعادة تنظيم هذه الوزارة، مقسماً إياها إلى ثلاثة أقسام: الهيئات العلمية، والهيئات الإدارية، والهيئات التفتيشية.

وتناول التقرير **الرابع** تشكيلات المعاهد التعليمية وتحدث في مطلعه عن النظام التعليمي القائم وقدم إحصاءات عن رواده.

وتريث في التقرير **الخامس** عند التعليم الابتدائي، واقترح بوجه خاص إلغاء اللغة الأجنبية في هذه المرحلة من التعليم.

كما تحدث في التقرير **السادس** عن التعليم الثانوي، وفي التقرير **السابع** عن «المعلمين ودور المعلمين»، مبيناً الخطط اللازمة لإصلاح هذه الدور، مؤكداً على ضرورة تنشئة معلمين لبعض الفروع الاختصاصية، داعياً إلى جعل دور المعلمين داخلية. وتحدث في التقرير **الثامن** عن «المباني المدرسية» التي يجب أن يلاحظ في تصميمها ما تقتضيه قواعد الصحة وأهداف التعليم وأصول التربية (أي أن تكون «أبنية وظيفية» (Functional) كما يقال اليوم). أما التقرير **التاسع** فكان حول

---

(٢٥) حول مزيد من التفصيل يحسن الرجوع إلى: ساطع الحصري، **تقارير عن أحوال المعارف في سورية خلال سنة ١٩٤٥** (دمشق: وزارة المعارف، ١٩٤٦)، وإلى البحث القيم الذي نشرته: مديحة العنبري، «تقارير الأستاذ ساطع الحصري في حالة المعارف في سورية،» **المعلم العربي**، السنة ٣٠، العددان ٢ ـ ٣ (شباط/فبراير ـ آذار/مارس ١٩٧٧)، ص ٢٠٤ ـ ٢١٤.

«الآثار القديمة والمتاحف». وتعرض التقرير **العاشر** للتعليم المهني، داعياً إلى إصلاحه وتوسيعه وتنويعه. وخص التقرير **الحادي عشر** بالحديث عن «التفتيش» (التوجيه)، مقترحاً أن يتضمن تفتيش كل مدرسة من المدارس تنظيم ثلاثة أنواع من التقارير: تقرير عام عن المدرسة ـ وتقرير خاص عن المدير والإدارة ـ وتقارير شخصية عن كل معلم على حدة. وتناول التقرير **الثاني عشر** موضوع «التعليم العالي والجامعة السورية» (وسوف نعود إليه فيما بعد). وتحدث التقرير **الثالث عشر** عن «الامتحانات العامة» ورأى في الامتحانات الأربعة التي يمر بها الطالب خلال سبع سنوات إفراطاً لا مسوغ له. وكان التقرير **الرابع عشر** حول «تنويع المدارس وتكييف المناهج» داعياً إلى أن تكون المدرسة الابتدائية مدرسة موحدة وفق منهاج أساسي عام ولكنه مرن يتكيف تبعاً لحاجات المدن والقرى، وتبعاً لحاجات البنين والبنات، كما أكد على ضرورة العناية بالتعليم الزراعي والتعليم النسوي. وتصدى التقرير **الخامس عشر** لموضوع «الأنظمة والقوانين في أمور المعارف والمدارس» وبيّن فيه الأسس والمبادئ التي اعتمدها حين وضع مشروع «قانون المعارف العام» الذي قدمه في التاسع من أيار/مايو ١٩٤٤ ليكون قانوناً أساسياً ينظم أعمال وزارة المعارف ومعاهدها التعليمية ويوجهها. أما التقرير **السادس عشر** والأخير فكان حول «توثيق الصلات الثقافية بين سوريا والبلاد العربية» ذلك الموضوع الأثير إلى نفسه. وقد قدم فيه مقترحات لرفع الحواجز وضمان التقارب وتوثيق التعاون مع وزارات المعارف في البلدان العربية الأخرى لتكوين ثقافة موحدة بين الأقطار العربية جميعها.

تلك هي إذن التقارير الستة عشر التي أعدها الحصري وقدمها ما بين السادس من آذار/مارس والتاسع من تموز/يوليو عام ١٩٤٤، وقد عرضنا هيكلها العظمي دون أن يتسع المجال لبيان ما اشتملت عليه من مضمون تربوي غني وحصيف.

(٢) ولئلا يفوتنا تماماً ما دعت إليه هذه التقارير من إصلاحات تربوية مهمة، وما تعرضت له من مشكلات التعليم في سوريا، وما وصلت إليه من نتائج، حري بنا أن نقدم ـ بإيجاز شديد ـ لائحة بأهم المشكلات التي تصدى لها مربينا الكبير وبأبرز الحلول التي قدمها لها (ولا سيما من خلال قانون المعارف العام):

(أ) تعرض الحصري للنظام التعليمي في سوريا في عهد الانتداب مبيناً بنية المعاهد التعليمية حتى عام ١٩٤٣، مشيراً إلى أهم أغراض السياسة التعليمية

آنذاك. ولقد جعل هدفه الأساسي، كما يستبين من قانون المعارف العام الذي انتهى من إعداده عام ١٩٤٤، تصفية آثار النفوذ الثقافي الفرنسي.

(ب) تناولت الإصلاحات التربوية ـ فيما تناولت ـ رياض الأطفال والتعليم الابتدائي (أهدافه، مناهجه، وطرائقه) ووسائل تطبيق المناهج (المعلمون وإعدادهم ـ توجيه المعلمين وإرشادهم ـ أبنية المدارس ومكتباتها) وتوسيع حجم التعليم الابتدائي. كما تصدى لمشكلة التعليم الأهلي والأجنبي.

(ج) وتصدت هذه الإصلاحات للتعليم الثانوي بنوعيه العام والمهني. وفيما يتصل بالتعليم الثانوي العام تعرضت لحال هذا التعليم في عهد الانتداب، وقامت بجملة من الإصلاحات أهمها: تقصير مدة الدراسة الثانوية ـ تعديل المناهج ـ تطوير الامتحانات ـ إدخال نظام الفتوة ـ إحداث التعليم النسوي ـ تقليص ساعات اللغة الأجنبية.

وفي التعليم الثانوي المهني، تعرضت لحال هذا التعليم في عهد الانتداب ووضعت جملة من الإصلاحات أهمها: وضع مناهج جديدة لمدارس الصناعة ـ إحداث التفتيش الثانوي الاختصاصي (المهني).

(د) وفي التعليم العالي والجامعة السورية أعاد الحصري تأسيس مدرستي الطب والحقوق كما سبق أن ذكرنا خلال فترة وجوده في سوريا خلال الحقبة الفيصلية. وفي إصلاحاته الجديدة قدم الحصري اقتراحات لإصلاح الجامعة السورية، وبيّن سبل الإصلاح، ووضع مشروعاً لإعادة تنظيم الجامعة، وأحدث المعهد العالي للمعلمين (عام ١٩٤٦) وحدد غاياته وجعله داخلياً من حيث الأساس. وفي عام ١٩٥٣ أطلق على المعهد العالي اسم كلية التربية. وعرفت هذه الكلية بعد ذلك إصلاحات عديدة إلى أن آلت إلى ما هي عليه اليوم. وقد أوصى الحصري بضرورة تفرغ أساتذة الجامعة وزيادة رواتبهم، وقد تحققت توصيته مؤخراً بدءاً من العام الجامعي ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦.

(هـ) وفي حقل الإدارة والتنظيم درس الحصري النظام الإداري في سوريا (أو ماكينة الإدارة على حد تعبيره) وحدد سبل إصلاح دوائر الدولة بوجه عام، ودرس النظام الإداري في وزارة المعارف، وبيّن سبل إصلاحه. وقد ترجمت معظم مقترحاته إلى عمل بعد صدور قانون المعارف العام رقم ٤٠، في ٢١/٢/١٩٤٤، الذي تضمن ثلاثة جوانب أساسية: الواجبات ـ الأعمال ـ التشكيلات. وقد صدرت التشكيلات بمرسوم تنظيمي بناءً على اقتراح وزارة المعارف وقرار مجلس الوزراء بتاريخ ٣/٣/١٩٤٥، ويتألف المرسوم من ٤٧ مادة موزعة على سبعة فصول.

(٣) وقد لقيت بعض إصلاحات الحصري بعض الاعتراضات، وأثارت ضجة في الأوساط التعليمية. وتناولت هذه الاعتراضات بوجه خاص موضوع إلغاء اللغة الأجنبية من التعليم الابتدائي، وموضوع تقصير مدة التعليم سنة واحدة وإلغاء القسم الثاني من البكالوريا (شهادة التعليم الثانوي)، وإلغاء تدريس مادة الفلسفة (نتيجة إلغاء القسم الثاني من البكالوريا). وليس المجال مجال مناقشة هذه الاعتراضات. وأياً كان الأمر فقد تركت إصلاحات الحصري بصماتها على نظام التعليم في سوريا (وفي البلدان العربية بعد ذلك)، وما يزال النظام التعليمي القائم حتى اليوم منطلقاً في أهدافه وبنيته وروحه من الإصلاحات التي قام بها الحصري، على الرغم مما أصابته التربية في القطر العربي السوري من تقدم متزايد خلال العقود الأخيرة.

هـ ـ ساطع الحصري في جامعة الدول العربية (١٩٤٨ ـ ١٩٥٧)

في ١٩٤٧/٢/٢٥ استدعت وزارة المعارف المصرية ساطع الحصري لإلقاء محاضرات في معهد التربية في القاهرة، بصفة أستاذ زائر. وتولى هناك إلقاء محاضرات في اجتماعات التربية مدة ثلاث سنوات (حتى عام ١٩٥٠). وفي الوقت نفسه عين مشاوراً فنياً للإدارة الثقافية التابعة لجامعة الدول العربية في ١/ ١٩٤٨/١. بيد أنه استقال من منصبه للتفرغ للعمل في **حوليات الثقافة العربية** التي كان قد بدأ بإصدارها منذ عام ١٩٤٩. وقدم خلال الثلاثة عشر عاماً التي تلت ظهور الحولية الأولى خمسة مجلدات أخرى.

إلا أنه عاد ثانية إلى ممارسة العمل الرسمي الإداري في جامعة الدول العربية عام ١٩٥٣، عندما عين مديراً لمعهد الدراسات العربية العليا الذي أسسه، وأستاذاً دائماً للقومية العربية فيه. ولكنه استقال من إدارة المعهد عام ١٩٥٦ بعد أن شهد انحرافه عن مقاصده واستقال في العام نفسه من التدريس فيه أيضاً.

وكانت الحكومة السعودية قد دعته عام ١٩٥٤ لدراسة أحوال المعارف فيها وتقديم تقرير عن إصلاحها، فقام بهذا الواجب أيضاً.

وفي وسعنا أن نلخص أهم الإنجازات التي حققها في هذه الفترة في الأمور الآتية:

(١) **إصدار حوليات الثقافة العربية** (بين عام ١٩٤٩ وعام ١٩٦٣). وقد سبق أن أشرنا إلى المقدمة المهمة التي صدّر بها الحولية الأولى، والتي أعاد نشرها كاملة في مقدمة كل من الحوليات الخمس التالية، والتي تكشف الأهداف القومية

للحولية بوجه خاص مبينة أن الهدف الأساسي للحولية تسليط الضوء على نظم التعليم واتجاهات الثقافة في البلدان العربية، ليتضح بجلاء أن الفروق القائمة لم تكن وليدة طبيعة البلاد الأصلية وحاجاتها الحقيقية.

(٢) **تأسيس متحف الثقافة العربية** (عام ١٩٤٩). وقد جرى الاحتفال بافتتاح هذا المتحف في القاهرة، بحضور ممثلي جميع الدول العربية عام ١٩٤٩. وكان الهدف من إنشائه إظهار الفروق القائمة بين نظم التعليم ومناهج الدراسة في مختلف الأقطار العربية، واستثارة الهمم للسعي وراء إزالة تلك الفروق.

(٣) **إحداث معهد الدراسات العربية العالية** (عام ١٩٥٣). وقد حدد الحصري في نظام المعهد (المؤلف من أربع عشرة مادة) أغراض المعهد في أربع نقاط (وردت في المادة الأولى):

إعداد شباب عربي مثقف ثقافة عربية عالية ـ نشر الثقافة العربية عن طريق التدريس والتأليف والنشر والمحاضرات العامة ـ إقامة القومية العربية على أسس صحيحة ـ تكييف أسس الثقافة العربية بحيث تنتفع من تقدم المدنية الحديثة.

وقد حدد المبادئ الأساسية التي ينبغي أن تراعى في دراسات المعهد لتحقيق الأغراض المبينة في النظام الأساسي (وذلك في النظام الداخلي للمعهد المؤلف من مقدمة وثماني عشرة مادة). والغاية القصوى من كل ذلك تقوية الوعي القومي في الوطن العربي مع إشاعة الشعور بوحدة الأمة العربية وبث الإيمان بمستقبلها.

ولما تبين للحصري أن المعهد انحرف عما أراده له، ويئس من إمكان تعاون المسؤولين في الجامعة العربية، آثر تقديم استقالته على الرضوخ للانحراف والتحريف. واعتزل بذلك كل عمل رسمي فيه، من إدارة (عام ١٩٥٦) وتدريس (عام ١٩٥٧)، وانصرف إلى التأليف والنشر منذ ذلك الحين.

٤ ـ **نقد أعمال الإدارة الثقافية** (عام ١٩٦١): أُنشئت الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية عام ١٩٤٦. وذكر الحصري أن هذه الإدارة أظهرت نشاطاً كبيراً في السنوات الأولى من تأسيسها (وقد سبق أن ذكرنا أنه عين مشاوراً فنياً لهذه الإدارة من ١/١/١٩٤٨ إلى ٣٠/١٢/١٩٥٠)، غير أنه أضاف أن هذا النشاط أخذ يخبو سريعاً مع الزمن. يضاف إلى هذا أن هذه الإدارة، حتى في سنوات نشاطها الأولى، كانت تكثر من المشاريع دون أن تقرنها بدراسات جادة ودون أن تتبعها بأعمال تنفيذية. وفي الجملة، كان يعوز الإدارة الثقافية أمران: **أولهما** «روح المثابرة»، **وثانيهما** «شيمة العمل التقني» التي تتطلب دراسة الأحوال

ورسم الخطط بالطرق العلمية، مع تثبيت الغايات بصورة واضحة(٢٦).

ونظراً لكون السبب الأصلي في تخلف الإدارة الثقافية في نظر الحصري يكمن في النقص الأساسي الذي لازم تنظيماتها وحرمها من جهاز فني يضمن إنجاز الأعمال وفق خطط مدروسة، اقترح إجراء بعض الإصلاحات الأساسية في تشكيلات جهاز التعاون الثقافي، بوجه عام، والإدارة الثقافية بوجه خاص، لكي يستطيع الجهاز المذكور أن يضطلع بدور مثمر وفعال في تطوير الثقافة العربية وترقيتها(٢٧).

وبهذا ننهي الحديث عن المحطات الأساسية في مسيرة الإصلاح التربوي الميداني الذي قام به الحصري، دون أن نزعم أننا توقفنا عندها جميعها، وأننا أحطنا بكامل مضمونها.

وإذا نحن أضفنا مسيرة الإصلاح الميداني هذه إلى ما ذكرناه من قبل عن أُمهات أنظاره وأفكاره التربوية، تتوافر لدينا صورة شاملة، وإن لم تكن كاملة، عن مسيرته التربوية نظراً وعملاً، مبادئ وتطبيقات. كما أننا ندرك بيقين وبوضوح، بعد أن تحدثنا عن جانبي المسيرة، تكامل هذين الجانبين، ورفد كل منهما للآخر، الأمر الذي يشير إلى سمة أساسية بارزة من سمات الأصالة التربوية لدى هذا المربي الفذ. وهذه الأصالة هي التي سنختم بحثنا بالحديث عنها في الخاتمة التالية.

ثالثاً: أصالة التربية عند الحصري: خاتمة

أشرنا منذ بداية بحثنا وفي تضاعيفه وصلبه إلى أن ثمة من يماري في أصالة التربية الحصرية، ومن يزعم بأنه لا يعدو أن يكون ناقلاً للتجربة التربوية العالمية، متأسياً خطاها، وأنه لم يأتِ بنظرية جديدة في ميدان التربية، أو بفلسفة تربوية ذاتية متميزة.

ولعلنا استطعنا، أن ندرك ـ من خلال عرضنا لأنظاره وأفكاره التربوية، ومن خلال اقتفائنا لخطوات عمله الميداني من أجل إصلاح التربية في البلدان العربية ـ أن شأنه مع التجربة التربوية العالمية كان شأن من يتمثلها، وينقدها ويدرك خلفياتها، ويتخير منها في النهاية ما يسعفه في تقديم العلاج الناجع للنظم التربوية

(٢٦) الحصري، ثقافتنا في جامعة الدول العربية.

(٢٧) المصدر نفسه، ص ١٠٣ ـ ١١١.

العربية، وذلك عن طريق تسليط فكره النقدي المنطقي الصارم عليها من جانب، وعن طريق دراسة حاجات المجتمع العربي وحاجات التربية العربية من جانب آخر، وتخير ما يستجيب لتلك الحاجات بالتالي.

بل إننا نذهب إلى أبعد من ذلك. فهو لم يطلع وينقد ويتخير ما يصلح للتربية العربية فحسب، بل كان غوصه هذا في شعاب الواقع التربوي العربي وفي دروبه، وتبينه لحاجات ذلك الواقع، عامل إبداع وخلق لأنظار وأفكار وممارسات جديدة. وقد تأتى له ذلك بفضل الهم الذي أرقه دوماً، همّ توحيد الأمة العربية وتحقيق نهضتها. فهذا الهمّ المؤرق ـ حين احتك بزناد التجربة العالمية وحين تفاعل مع الملكات العقلية والعلمية التي كان يتصف بها الحصري ـ أطلق شرارة الإبداع عنده من خلال الواقع وبفضل معاناة مشكلات الواقع، لا الإبداع المجاني الدعي.

وإذا نحن حاولنا أن نتقصى جوانب الأصالة والإبداع في التربية الحصرية، أمكننا أن نرصد الأمور الآتية:

١ ـ الربط الوثيق بين التربية والثقافة وبين القومية: وقد يقال إنه في هذا قد تأسّى خطوات الفيلسوف الألماني فخته (Fichte) ولا سيما في «رسائله إلى الأمة الألمانية». وهذا الضرب من النقد كثيراً ما يوجه إلى الفكرة القومية العربية بوجه عام، سواء عند الحصري أو سواه. وهو نقد يختار طريق المقاومة السهل، وتثوي وراءه غالباً رغبة في تشويه أصالة الفكرة القومية العربية.

والحق، ان الحصري ما فتئ يقول ـ في شتى كتبه القومية والتربوية ـ ان فكرته القومية نابعة من حاجات الأمة العربية أولاً وقبل كل شيء، بل إنه قال في أكثر من موضع ودون أي لبس، ان الفكرة القومية في أوروبا نفسها وسواها تختلف باختلاف البلاد، بل زاد على ذلك أن معظم النظريات القومية التي ظهرت في أوروبا في القرن التاسع عشر، كانت تسعى وراء تبرير سياسة الحكومات أكثر مما تعنى باستقراء الوقائع الاجتماعية واستجلاء حقائقها[(٢٨)].

ويعني هذا أن نظريات القومية تختلف باختلاف أحوال الدول والقوميات التي كانت تتنازع الحياة والبقاء في ميدان الحكم والسياسة. ولهذا السبب تعددت وتنوعت النظريات حول مفهوم القوميات، منذ مدة تزيد على قرن[(٢٩)].

---

(٢٨) ساطع الحصري، «حول مفهوم القومية العربية،» في: ساطع الحصري، **في اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية**، سلسلة التراث القومي. الأعمال القومية لساطع الحصري؛ ١١، ط ٢ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥)، ص ١٤٣.

(٢٩) المصدر نفسه، ص ١٤٤.

وهكذا يستبين أن الحصري قد أحاط علماً بعوامل نشأة القوميات المختلفة، غير أنه صاغ الفكرة القومية العربية من خلال الواقع العربي، ومن خلال طبيعة الثقافة العربية وتاريخ الأمة العربية، وانتهى إلى القول بأن قوامها متميز من سواها، وله نسيجه الخاص به، وسحنته الفريدة. وأهم ما فيه عنصران: اللغة والتاريخ (أي الثقافة المشتركة والتاريخ المشترك). ومن هنا جاء ارتباطها الوثيق بالتربية. فالتربية العربية ـ إذا هي أرادت أن تكون ذات طابع ذاتي، وإذا هي أرادت أن تستقي بذورها من حاجات الواقع العربي، وإذا هي حزمت أمرها على أن تغير الواقع العربي وتطوره من خلال ذاته ـ لا بد من أن تكون تربية قومية أولاً وقبل كل شيء، ولا بد من أن تكون مهمتها الأولى نقل تراث الأجداد إلى الأحفاد، والحفاظ على رابطة اللغة العربية، وتأكيد روح العمل المشترك من أجل يقظة الأمة العربية.

وبتعبير آخر، تكمن أصالة الحصري في أنه لم يفصل بين القومية والتربية، حتى ولو كان هذا الفصل فصلاً بين الهدف والوسيلة. فالتربية العربية عنده ليست مجرد وسيلة للقومية، بل هي ذات قوام قومي قائم بذاته، وبحكم طبائع الأشياء، حين تضطلع بالمهمة الأساسية للتربية لدى أمة كالأمة العربية، نعني مهمة تفتيح طاقات الإنسان العربي من أجل بناء الحضارة العربية النابعة من صبوات الوجود العربي وحاجاته الحاضرة والآنية.

وفي مقابل ذلك ليست القومية عنده غاية في ذاتها، بل هي الأداة المثلى لإيقاظ الوجود العربي وشحذ قواه وطاقاته من أجل الكيان العربي الموحد والمنيع والمبدع. وهٰهنا تلتقي مع التربية.

أفنكون مغالين أو متقولين على الرائد القومي الكبير إن قلنا إن التربية عنده هي القومية وإن القومية هي التربية؟

٢ ـ الربط بين الأنظار التربوية والممارسة التربوية الميدانية: قد لا نغلو إذا قلنا إن هذا التأليف بين القومية والتربية الذي هو أحد مظاهر الأصالة في التربية الحصرية، ولّد ضرباً آخر من الأصالة، تجلى في اللحمة التي تقوم عنده بين النظر التربوي والعمل التربوي. فالالتحام بين القومية والتربية قاده بالضرورة ـ كما سبق أن رأينا ـ إلى أن يجعل من التربية ساحة نضاله القومي، وأن يجعل من إصلاح التربية في البلدان العربية معركة لا تقل عن أي معركة سياسية. وقد رأينا ـ في أكثر من موضع ـ كيف أبى أن يقبل أي تزييف وأي تقصير في العمل التربوي، وكيف استقال من مناصبه مرات عديدة حين حيل بينه وبين تحقيق إصلاحاته أو آرائه التربوية.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك استقالته من إدارة «معهد الدراسات العربية العالية» حين انحرف عن أغراضه القومية. ومثل ذلك يصدق على استقالته من عمله في الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، وعلى مغادرته سوريا مستقيلاً من منصب المشاور الفني لوزارة المعارف، وعلى ما كان بينه وبين المسؤولين عن المعارف في العراق، وجلّهم من الانكليز، من صراع دائم أدى إلى انتقاله من منصب إلى منصب، إلى أن حرم من جنسيته وغادر العراق.

فالتربية عنده ليست أفكاراً جميلة وأفكاراً حالمة، وليست مجرد «ابتغاءات» كما يقول بعضهم اليوم (أي مجرد قول «ينبغي»)، ولا هي ضرب من التأنق العلمي المترف. إنها رسالة، وإنها عرق وجهد وكدّ، في سبيل تحقيق أهداف التربية الحقيقية القادرة على بناء أمة.

ولا عجب بعد ذلك أن نجد من يصفه بالعناد، فهو مؤمن بما يفعل، مدرك للأبعاد الإنسانية والقومية لعمله التربوي. وعناده لا يتأتّى إلا بعد أن يكون قد قلّب الرأي على وجوهه المختلفة، وبعد أن يكون قد ناقش وحاور (وما أكثر حواره وأبرعه).

لقد كان يشعر بأن على المسؤولين عن شؤون التربية في البلدان العربية أن يستغلوا كل دقيقة وثانية من أجل تطوير التربية تطويراً سليماً. وكم شكا من الوقت الضائع والجهد المهدور (ومن أبرز الشواهد على ذلك نقده لعمل الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية)!

ولعله كان يردد في أعماقه قول النبي العربي ﷺ: «اللهم إهد قومي فإنهم لا يعلمون».

ولقد كان في الوظائف المهمة التي شغلها مثالاً صارخاً على روح الشعور بالمسؤولية، حتى لكأنه يحاول أن يقوم بما لا يستطيع أن يقوم به أفراد مجتمعون. ولا أدل على ذلك مما أعطى في العراق، ومما أعطى في سوريا خلال سنوات ثلاث، ومما أعطى في «معهد الدراسات العربية العالية» خلال فترة وجيزة جداً، ومن حولياته التي ينوء بإصدارها العصبة أولو القوة والعزم.

وبقول موجز لم تكن التربية عنده عملاً قومياً فحسب، ولم تكن القومية عنده فقط تربية تبني أمة، بل كانت التربية والقومية عنده، مؤتلفين، عملاً وجهداً موصولاً ونضالاً يومياً.

ومن حصاد هذا الجهد تنبع أصالته.

٣ ـ أصالة فلسفته التربوية: هل نتساءل بعد هذا كله عن فلسفة الحصري التربوية؟ أنقول مع من قال بأنه لم يكن صاحب فلسفة تربوية أو نظرية تربوية؟

إن هذا الربط الدقيق الذي حققه بين القومية والتربية هو صلب فلسفته. فإذا كانت غاية التربية ـ في كل عصر ومصر ـ تفتيح قابليات الإنسان وقواه العقلية والجسدية والجمالية والأخلاقية وسواها، إلى أقصى حد ممكن، على نحو يقرب الفرد والمجتمع من أقصى حد من الكمال في شتى جوانب الحياة، فإن صهر الإنسان العربي في كيانه القومي، هو ـ في نظر الحصري ـ سبيل تحقيق تلك الغاية. وبتعبير آخر، قوام فلسفة الحصري التربوية أن الإنسان العربي لا يزكو ويتفتح ويعطي ويبدع إلا من خلال ارتباطه بتربته القومية، حتى لكأنه يربط بين التربية والتربة. والأصل الاشتقاقي الواحد بينهما واضح. أوليست هذه فلسفة تربوية عميقة؟ أوليست هي الفلسفة التربوية التي تثبت الأيام صدقها وبعد نظرها وعمق أصالتها؟

قد يحسب بعضهم من أصحاب النظرة السطحية أن مثل هذا القول ضرب من تحصيل الحاصل. غير أنهم حين يربطونه بما استطاع الحصري أن يفعله بفضل إيمانه بهذه الفلسفة، يدركون ما تشتمل عليه هذه الفلسفة من كوامن الإبداع والتقدم.

ونرجو ألا نُتهم بالإقلال من شأن النظم التربوية العربية القائمة، اليوم، إن نحن قلنا إنها عجزت حتى الآن عن بناء الحضارة العربية الحقة، لأنها لم تنطلق من مثل هذا الربط العضوي الحميم بين الأهداف التربوية والأهداف القومية على نحو ما أراد الحصري...

وبعد، إن الفلسفة التربوية الحقة ليست هي الأفكار والأنظار الباهرة، ولكنها الأفكار ـ القوى (idées-forces)، الأفكار التي تنغمس وتتغذى من تربة الواقع الاجتماعي الحضاري لدى الأمة ومن صبواته وتطلعاته، والتي تعمل فوق ذلك على تغيير ذلك الواقع بالكد والعمل. إنها الفلسفة التربوية الإجرائية الفعالة الدؤوب.

وهذا ما فعله الحصري.

ملحق(*)
ترجمة ساطع الحصري كما كتبها بقلمه
في أواخر عام ١٩٦٠

تمهيد

كتبت إدارة مدرسة ساطع الحصري الابتدائية بحلب، في عام ١٩٦٠، إلى العلامة ساطع الحصري، راجية إياه تزويدها بترجمة حياته، لكي تعد ملخصاً عنها، تسجله على لوحة في المدرسة.

وقد استجاب الحصري لذلك، وأرسل للمدرسة ما طلبت إدارتها منه. . . وها نحن أولاً نقدم النص الكامل لهذه الترجمة كما سجلها الحصري بنفسه، ثم نتمها بالأحداث التي تمت بعد سنة كتابتها، ثم ننهيها بقائمة الكتب التي ألفها بعد التاريخ المذكور.

خلاصة ترجمة حالي

أسرتي ووالدتي من أهالي حلب. والدي السيد محمد هلال الحصري، كان قضى شطراً من شبابه في مصر، حيث درس في الأزهر الشريف.

ويتبين من ترجمة حاله الرسمية أنه نال الإجازة من الأزهر على يد الشيخ محسن الدمنهوري، والشيخ حسن العدوي الحمزاوي. وبعد ذلك عين قاضياً في دير الزور، ثم في حماه (وكانت كلتا المدينتين تابعة لولاية حلب في ذلك التاريخ).

وعند تشكيل المحاكم النظامية في الدولة العثمانية عين رئيساً لمحكمة الاستئناف في ولاية اليمن، وذهب إلى صنعاء للقيام بمهام تلك الوظيفة.

وأنا ولدت هناك ـ في مدينة صنعاء ـ خلال إقامة والدي فيها، في الوظيفة المذكورة (ويصادف تاريخ ولادتي ٥ آب/أغسطس سنة ١٨٨٠).

إلا أن والدي لم يقم هناك مدة طويلة، لأن الموظفين ـ في ذلك التاريخ ـ ما كانوا يبقون في مدينة واحدة أكثر من سنتين، وثلاث على أكثر تقدير. ولذلك

(*) نثبت فيما يلي ما نشرته مجلة: المعلم العربي (سوريا)، السنة ٣٠، العددان ٢ ـ ٣ (شباط/فبراير ـ آذار/مارس ١٩٧٧)، وهو عدد خاص أفردته المجلة لساطع الحصري بمناسبة الذكرى المئوية لولادته حول ترجمة الحصري كما كتبها بقلمه، مع تتمة لهذه الترجمة. وقد أعدها الأستاذ فريد جحا.

تحول مقر عمل والدي - في رئاسة محاكم الاستئناف - إلى أضنة، ثم انقرة، ثم إلى طرابلس الغرب، ثم إلى اليمن مرة ثانية، ثم إلى قونيا، وبعد ذلك إلى طرابلس الغرب (مرة ثانية).

وبطبيعة الحال تنقلت مع والدي بين المدن المذكورة، وبين استانبول، حسب تطلبات وظيفته وتحولاتها، ولكن عندما تعين والدي في طرابلس الغرب للمرة الثانية، كنت قد دخلت القسم الإعدادي من المدرسة «الملكية الشاهانية» سنة ١٨٩٣، فبقيت في القسم الداخلي من المدرسة، إلا أني ذهبت خلال العطلة المدرسية مرتين إلى طرابلس الغرب لزيارة والدي، وإلى بنغازي للالتقاء بأخي الكبير الذي كان يتولى وظيفة المدعي العمومي فيها.

وبعد ذلك تحول والدي إلى استانبول، فبقيت هناك مع أسرتنا إلى حين إكمال دراستي في القسم العالي من المدرسة الملكية سنة ١٩٠٠.

١ - الوظائف التي توليتها، والأعمال التي قمت بها

أ - في عهد الدولة العثمانية

قبل انقلاب المشروطية، أي قبل انقلاب الدستور، بدأت حياتي في وظائف الحكومة سنة ١٩٠٠، حيث عينت معلماً للعلوم الطبيعية في المدرسة الثانوية، التي كانت تعرف باسم الإعدادية، في مدينة يانينا (مركز مقاطعة أبيروس التي أصبحت الآن جزءاً من اليونان).

بقيت هناك حتى سنة ١٩٠٥، وفي خلال السنوات الثلاث الأخيرة من هذه المدة عينت في «معية الولاية» مع الاحتفاظ بقسم من الدروس (كان خريجو المدرسة الملكية الشاهانية يعينون في «معية الولاية» ليتدربوا على أصول الإدارة في مختلف الدوائر التابعة للولاية، تمهيداً لتعيينهم قائمقاماً «كذا» في أحد الأقضية).

وبعد ذلك توليت قائمقامية قضاء «أراد وويشتة» التابع لولاية قوصوه (كان أكثرية أهالي القضاء من البلغار، وكان القضاء في المنطقة النمساوية من المراقبة الدولية التي كانت قد فرضت على ولايات مقدونية الثلاث).

ومن هناك نقلت، ترفيعاً، إلى قائمقامية قضاء «فلورينا»، التابع لولاية مناستير (كان أهالي القضاء مزيجاً من أتراك وبلغار وأروام، وكان القضاء المذكور يقع داخل المنطقة الإيطالية من المراقبة الدولية التي ذكرتهما آنفاً).

بقيت في قائمقامية فلورينا حتى انقلاب المشروطية، أي انقلاب الدستور العثماني.

وقد اشتركت بحركات الانقلاب اشتراكاً فعلياً، ويوم إعلان الدستور، وفي الأيام التي تلته، عهد إلي بمهمة إلقاء الخطب في مركز الولاية «مناستير» على الجماهير من ناحية، وعلى الوفود من ناحية أخرى.

بعد شهر من إعلان المشروطية تركت فلورينا، ومناستير، وحياة الإدارة، وانتقلت إلى استانبول، حيث عدت إلى حياة التعليم.

(إن البلاد التي عملت فيها منذ بدء حياتي الرسمية، حتى انتقالي إلى استانبول، قد توزعت عقب حركة البلقان بين اليونان وبلغاريا وصربيا).

بعد انقلاب المشروطية وإعلان الدستور ـ في استانبول ـ توليت التعليم في عدة معاهدة عالية، اعتباراً من أواخر سنة ١٩٠٨، وقد عينت: أستاذاً للتربية، في الجامعة (وكانت تسمى دار الفنون)؛ وأستاذاً لعلم الأقوام، في المدرسة الملكية الشاهانية (تحول اسمها فيما بعد إلى مدرسة العلوم الإدارية والسياسية)؛ وأستاذاً للتربية والاجتماع، في مدرسة دار الخلافة العليا، وفي دار المعلمين العالية.

هذا وقد توليت مديرية دار المعلمين سنة ١٩٠٩، وأسستها على أسس جديدة، وألفتها من ثلاثة أقسام: قسم لتخريج معلمين للمدارس الثانوية، قسم لتخريج معلمين لدور المعلمين التي تؤسس في الولايات، وقسم لتخريج معلمين للمدراس الابتدائية.

إن عملي في دار المعلمين كان عمل انقلاب جذري، أثر في اتجاهات التعليم في جميع الممالك العثمانية، وطورها من أساسها.

ثم توليت إصلاح «دار الشفقة» التي كانت تابعة لـ «جمعية التدريس الإسلامية» إصلاحاً جوهرياً. وفي الأخير أسست «المدرسة الحديثة» التي كانت تضم ثلاثة أقسام:

عش الأطفال (أي روضة الأطفال) ـ المدرسة الابتدائية الحديثة ـ و«دار المربيات» (لتخريج مربيات ومعلمات يتولين تربية الأطفال في الأعشاش والرياض).

بقيت في استانبول حتى نهاية الحرب العالمية الأولى.

ب ـ في البلاد العربية

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، غادرت عاصمة الدولة العثمانية وانتقلت إلى سوريا. وتوليت هناك الوظائف التالية:

مفتش المعارف العام: من ١٦/٤/١٩١٩، إلى ٣٠/٤/١٩١٩.

مدير المعارف العام: من ١/٥/١٩١٩، إلى ٩/٣/١٩٢٠ (حتى إعلان استقلال سوريا).

وزير المعارف: من ١٠/٣/١٩٢٠، إلى ٢٧/٧/١٩٢٠ (أي منذ إعلان الاستقلال حتى استيلاء الفرنسيين).

عقب استيلاء الفرنسيين، غادرت سوريا، ثم ذهبت إلى العراق مع الملك فيصل، وهناك توليت الوظائف التالية:

معاون وزير المعارف: من ٥/٣/١٩٢٢، إلى ١٧/١/١٩٢٣.

مدير المعارف العام: من ١٧/١/١٩٢٣، إلى ٣١/٨/١٩٢٧.

(كنت ألقي في الوقت نفسه محاضرات في التربية والاجتماع في دار المعلمين العالية).

أستاذ التربية في دار المعلمين العالية من ١/٨/١٩٢٧، إلى ١/١٠/١٩٣١.

مراقب التعليم العام: من ١/١٠/١٩٣١، إلى ٢٢/١٢/١٩٣٤.

رئيس كلية الحقوق ومدير الآثار العامة: من ١١/١٠/١٩٣٤، إلى ١٦/٩/١٩٣٥.

مدير الآثار القديمة ومراقب التربية والتدريس العام: من ١٦/٩/١٩٣٥، إلى ١٢/٩/١٩٣٦.

مدير الآثار القديمة: من ١٢/٩/١٩٣٦، إلى ١١/٦/١٩٣٦.

في التاريخ الأخير قررت الحكومة العراقية نزع الجنسية العراقية عني وإخراجي من البلاد وانتهت بذلك خدمتي في العراق.

أقمت في بيروت بعد خروجي من العراق.

في سنة ١٩٤٤، عندما أعيدت الحياة الدستورية في سوريا، وأخذت الحكومة السورية تستلم السلطات من الفرنسيين، استدعتني لإصلاح معارف

البلاد، وعينتني مشاوراً فنياً لوزارة المعارف، لمدة ثلاث سنوات (حتى ١٩٤٧).

وفي ١٩٤٧/٢/٢٥، استدعتني وزارة المعارف المصرية لإلقاء محاضرات في معهد التربية في القاهرة ـ بصفة أستاذ زائر ـ وتوليت هناك إلقاء محاضرات في اجتماعيات التربية مدة ثلاث سنوات (حتى سنة ١٩٥٠)، وفي الوقت نفسه عينت مشاوراً فنياً للإدارة الثقافية التابعة لجامعة الدول العربية، في ١٩٤٨/١/١، واستمررت في العمل المذكور حتى ١٩٥٠/١٢/٣٠ حين استقلت.

وفي الأخير عينت مديراً لمعهد الدراسات العربية العالية وأستاذاً دائماً للقومية العربية فيه اعتباراً من ـ/١٩٥٣/٤.

وبعد ثلاث سنوات استقلت من المديرية (سنة ١٩٥٦). وبعد سنة استقلت من الأستاذية (سنة ١٩٥٧).

وفي سنة ١٩٥٤ دعتني الحكومة العربية السعودية لدراسة أحوال معارفها وتقديم تقرير عن وسائل إصلاحها. فقمت بالواجب المذكور أيضاً.

٢ ـ دراساتي

أ ـ في المدرسة

لم ألتحق بمدرسة ابتدائية. تعلمت القراءة والكتابة شيئاً وشيئاً من اللغة الفرنسية في الدار، قبل دخولي المدرسة الثانوية.

أتممت دراستي الثانوية والعالية في القسم الإعدادي (أربع سنوات) والقسم العالي (٣ سنوات) من المدرسة المعروفة باسم «مكتب ملكية شاهانية» في استانبول (من ١٨٩٣، إلى ١٩٠٠).

إلا أني لم أكتف بدروس المدرسة النظامية، بل كنت أدرس كثيراً وأطالع كثيراً، خارج الدروس النظامية المقررة في المدرسة.

أولاً: تولعت بالعلوم الرياضية ولعاً شديداً جداً، وصرت أستعير من بعض طلاب مدرسة الهندسة ومدرسة الأركان مذكراتهم المتعلقة بالرياضيات العالية، وأشتغل بحل المسائل الرياضية العويصة. ولذلك لقبني رفاقي باسم «أرشميد» وكادوا ينسون اسمي الحقيقي.

ثم تولعت بالعلوم الطبيعية. وصرت أتوسع في دروسها توسعاً كبيراً، وأشتغل بتشريح الحيوانات وتحنيطها. وواصلت التوسع والتعمق في العلوم

الطبيعية، خلال دراستي للعلوم السياسية والحقوقية في القسم العالي من المدرسة الملكية، ولا سيما بعد تخرجي فيها واشتغالي بتدريس العلوم الطبيعية في إعدادية يانينا، وهناك أتقنت تحنيط الحيوانات، وتيبيس النباتات وأوجدت متحفاً للتاريخ الطبيعي.

وأما دراستي لعلم النفس والتربية وعلم الاجتماع فقد بدأت بعد أن كنت قد قطعت شوطاً كبيراً في دراسة العلوم الطبيعية.

ب ـ رحلاتي الدراسية

قمت بعدة رحلات دراسية في مختلف البلاد الأوروبية بين سنة ١٩١٠ وسنة ١٩١٧.

وحرصت على درس نظم التربية والتعليم واتجاهاتها في بلاد مختلفة، بين صغيرة وكبيرة، قديمة وحديثة. لذلك ذهبت إلى إيطاليا، وسويسرا، وفرنسا، وإنكلترا، وبلجيكا، وهولندا، وألمانيا من ناحية، وإلى رومانيا وبلغاريا من ناحية أخرى.

ج ـ في المؤتمرات والهيئات الدولية

ـ اشتركت في «المؤتمر الأممي الثاني للتربية الأخلاقية» الذي انعقد في «لاهاي» سنة ١٩١٢.

ـ كنت من أعضاء اللجنة العامة... لمعهد جان جاك روسو، الذي أسس في جنيف في السنة المذكورة، وذلك بناءً على طلب واقتراح البروفسور بوفه الشهير.

ـ مثلت العراق في المؤتمر الأممي للحفريات الأثرية الذي انعقد في القاهرة سنة ١٩٤٧.

ـ انتخبت في اللجنة الأممية للتعاون الفكري، التابعة لعصبة الأمم، عضواً في لجنة المتاحف الدائمية ـ سنة ١٩٣٨.

ـ اشتركت في المؤتمر الأممي لعلم الاجتماع الذي انعقد في استانبول (سنة ١٩٣٢) وقدمت فيه بحثاً انتقدت فيه بعض ما ورد من كتاب «غاستون بوفول».

٣ ـ مؤلفاتي

أ ـ باللغة التركية

إن جميع مؤلفاتي حتى نهاية الحرب العالمية الأولى كانت باللغة التركية:

(١) قبل الدستور

سلسلة كتب مدرسية في العلوم الطبيعية. وقد قررت وزارة المعارف العثمانية تدريسها في جميع الولايات.

معلومات زراعية ـ دروس الأشياء (للمدارس الابتدائية) ـ علم الحيوان ـ علم النبات ـ تطبيقات زراعية (للمدارس الثانوية) ـ مقالات كثيرة في بعض المسائل العلمية والاختراعات الحديثة، أذكر منها:

نحو القطب ـ التلغراف اللاسلكي ـ الأشعة المجهولة ـ الحياة في المناجم ـ مناظر الغروب: في الأرض وفي الكواكب.

(٢) بعد الدستور

ـ الكتب: **فن تربية** (دروس في دار المعلمين). في مجلدين.

ـ **اتنوغرافيا: علم أقوام** (دروس في المدرسة الملكية).

ـ **لايحه لرم** (تقاريري) ـ مجموعة التقارير التي قدمتها إلى وزارة المعارف، بعد عودتي من رحلتي الدراسية الأولى (١٩١٠).

ـ **وطن ايجون** (من أجل الوطن) (مجموعة محاضرات في الوطنية والتربية الوطنية).

ـ **اميد وعزم** (الأمل والعزيمة) (مجموعة محاضرات).

ـ **اليابان واليابانيون** (محاضرات في نهضة اليابان وعواملها).

المجلات

ـ **أنوار علوم** (مجلة في العلوم والاكتشافات العلمية).

ـ **تدريسات ابتدائية مجموعة سي** (مجلة مجموعة التدريسات الابتدائية) (ثلاثة مجلدات) وكانت أول مجلة تربوية تصدر باللغة التركية.

ـ **تربية مجموعة سي** (مجلة التربية) (صدر منها ١٠ أعداد ـ الأربعة الأولى مصورة).

المقالات

مقالات كثيرة في مختلف الجرائد والمجلات. معظمها تربوية واجتماعية، بعضها سياسية، قسم كبير منها يتضمن النقد والمناقشة في القضايا الإصلاحية

الهامة. أهم المقالات التي استوقفت الأنظار وأحدثت دوياً كبيراً:

آثار الاستبداد وبذوره الباقية (أربع مقالات متسلسلة) ـ سبيل إصلاح المعارف ـ نظرية شجرة الطوبى ـ التفكير العلمي ـ دوركهايم ونظرياته الاجتماعية (نقد) ـ دفاع عن مدحت باشا ـ قضايا التنظيمات ـ معرض تورينو وطرابلس الغرب ـ خطاب إلى طلعة بك.

هذا، ويجب أن أشير ـ في هذا المقام ـ إلى الأمرين التاليين:

لقد نشرت مقالات عديدة سنتي ١٩٠٨ و١٩٠٩ في مجلة **يتر حقيقت** التي كانت تصدر في «مناستير» بصورة سرية قبل الدستور، وبصورة علنية بعد الدستور، وواصلت مخابرتها والكتابة فيها بعد انتقالي إلى استانبول.

هذا، وكنت عضواً في «جمعية المطبوعات العثمانية» منذ تأسيسها. وآخر عمل توليته في استانبول، قبل انتقالي إلى سوريا، كان رئاسة «مؤتمر المطبوعات».

ب ـ باللغة العربية

(١) خلال وجودي في سوريا (١٩١٩ ـ ١٩٢٠) صدرت باسم مديرية المعارف العامة مجلة اسمها **التربية والتعليم** (١٩١٩ ـ ١٩٢٠) نشرت فيها عدة مقالات.

(٢) خلال عملي في العراق (١٩٢١ ـ ١٩٤١) كتبت كثيراً من التعليمات والتوجيهات التربوية، وطائفة من الأنظمة والقوانين والمنشورات الرسمية. ونشرت الكتب التالية:

ـ **مبادئ القراءة الخلدونية: الألفباء، القراءة الخلدونية ـ مرشد القراءة الخلدونية: طريقة تعليم الألفباء ـ مساعد القراءة الخلدونية ـ دروس الأشياء** (أربعة أجزاء) ـ **أصول التدريس ـ أصول تدريس اللغة العربية ـ نقد تقرير لجنة مونرو** (في نقد التقرير الذي قدمه بول مونرو للحكومة العراقية حول المعارف) ـ **الإحصاء** (محاضرات في كلية الحقوق).

وأصدرت مجلة **التربية والتعليم** (صدر منها خمسة مجلدات بين سنتي ١٩٢٨ و١٩٣١).

نشرت عدة مقالات ومحاضرات في الجرائد العراقية وفي مجلة **الرسالة** المصرية، جمعت بعض هذه المحاضرات والمقالات في كتابين طبعا في القاهرة سنة ١٩٤٤، عنوان أحدهما **آراء وأحاديث في التربية والتعليم** وعنوان الثاني **آراء وأحاديث في الوطنية والقومية**.

(٣) بعد خروجي من العراق، وقبل انتقالي إلى مصر (١٩٤١ ـ ١٩٤٨) نشرت المؤلفات التالية:

ـ **دراسات عن مقدمة ابن خلدون** (نشرت منها جزأين في بيروت سنة ١٩٤٤) وبعد ذلك كتبت أبحاثاً أخرى في الموضوع نفسه، جمعتها مع أبحاث الجزأين المذكورين، ونشرتها في القاهرة سنة ١٩٥٣، بعد أن درست آثاره في تونس خلال رحلتي الثانية لها.

ـ **يوم ميسلون** (مذكراتي عن الأيام الأخيرة للدولة العربية السورية سنة ١٩٢٠).

ـ **تقارير عن حالة المعارف في سورية واقتراحات لإصلاحها**:

الجزء الأول: طبع في دمشق سنة ١٩٤٤.

الجزء الثاني: طبع في دمشق سنة ١٩٤٥.

(٤) بعد انتقالي إلى مصر (منذ سنة ١٩٤٧) نشرت الكتب التالية:

ـ **صفحات من الماضي القريب** (طبع في بيروت، ١٩٤٨).

ـ **آراء وأحاديث في العلم والأخلاق والثقافة** (القاهرة، ١٩٥١).

ـ **آراء وأحاديث في التاريخ والاجتماع** (القاهرة، ١٩٥١).

ـ **آراء وأحاديث في القومية العربية** (القاهرة، ١٩٥١) أعيد طبعها في بيروت مع مقدمة جديدة سنة ١٩٥٧).

ـ **العروبة بين دعاتها ومعارضيها** (طبعتها الأولى في بيروت، ١٩٥٢).

ـ **محاضرات في نشوء الفكرة القومية** (القاهرة، ١٩٥١)، (أعيد طبعها في بيروت، ١٩٥٥).

ـ **العروبة أولاً** (الطبعة الأولى في بيروت، ١٩٥٤).

ـ **دفاع عن العروبة** (الطبعة الأولى في بيروت، ١٩٥٦).

- **آراء وأحاديث في اللغة والأدب (بيروت، ١٩٥٨).**

- **المحاضرة الافتتاحية لمعهد الدراسات العربية العالية (القاهرة، ١٩٥٤).**

- **البلاد العربية والدولة العثمانية (القاهرة، ١٩٥٧)، (طبعة ثانية: بيروت، ١٩٦٠).**

- **حولية الثقافة العربية:**
  - السنة الأولى: حتى ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠ (القاهرة، ١٩٥٠).
  - السنة الثانية: عن ١٩٥٠ ـ ١٩٥١ (القاهرة، ١٩٥٢).
  - السنة الثالثة: عن ١٩٥١ ـ ١٩٥٢ (القاهرة، ١٩٥٢).
  - السنة الرابعة: عن ١٩٥٢ ـ ١٩٥٣ (القاهرة، ١٩٥٤).
  - السنة الخامسة: حتى سنة ١٩٥٧ (القاهرة، ١٩٥٧).

تتمة حياة الحصري

استقال الحصري من الجامعة العربية عام ١٩٥٨ احتجاجاً على ما آل إليه معهد الدراسات العربية، وسكن في فندق متواضع في القاهرة يستقبل طلابه ومريديه، ويؤلف الكتب مكتفياً بدخل كتبه المتواضع، ورافضاً العروض الكثيرة التي بذلت لتقديم معونة له.

وفي عام ١٩٦٥، أعادت له الحكومة العراقية الجنسية العراقية، فعاد إلى بغداد، حيث عاش قرب ابنه وابنته وحفدته، منكباً على إنجاز مذكراته. وفي بغداد توفي في اليوم الرابع والعشرين من كانون الأول عام ١٩٦٨.

تتمة قائمة كتبه ومؤلفاته

- **حول الوحدة الثقافية العربية (بيروت، ١٩٥٩).**

- **ثقافتنا في جامعة الدول العربية (بيروت، ١٩٦٢).**

- **خريطة زمانية: البلاد العربية منذ ظهور الإسلام (القاهرة، ١٩٥٣).**

- **خريطة البلاد العربية منذ ظهور الإسلام (القاهرة، [د. ت.]).**

- **ما هي القومية؟ أبحاث ودراسات على ضوء الأحداث والنظريات (بيروت، ١٩٥٩).**

- حول القومية العربية (بيروت، ١٩٥٧).

- أحاديث في التربية والاجتماع (بيروت، ١٩٦٢).

- أبحاث مختارة في القومية العربية (القاهرة، ١٩٦٤).

- حولية الثقافة العربية، السنة السادسة: عن ١٩٥٧ ـ ١٩٦٢ (القاهرة، ١٩٦٤).

- مذكراتي في العراق، ١٩٢١ ـ ١٩٤١، ٢ ج (بيروت، ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨).

تعـقـيـب (١)

حسن البيلاوي(*)

هذه الدراسة المقدمة هي في الحقيقة دراسة شاملة لعلم من أعلام التربية وهو د. عبد الله عبد الدائم، الذي يقدم لنا دراسة عن علم من أعلام الفكر القومي العربي التربوي وهو ساطع الحصري، فكأننا أمام علم يتحدث عن علم، ومن هنا جاءت الدراسة شاملة. والحقيقة أنه لكل منهج فكري كبير تطبيقاته التربوية. وأمام هذه المقولة أقف قليلاً وأشير إلى أن الفكر التربوي في الوطن العربي جاء من مفكرين تربويين عرب يمكن تقسيمهم إلى فريقين: جاء الفريق الأول بمنطلقاته السياسية ومن خلال خلفيته السياسية والفكرية يتحدث عن التربية. وفريق آخر مهني عاش من خلال البيداغوجيا ـ وهو اللفظ الذي كان يطلقه د. طه حسين على البيداغوجيين العرب ـ وبدأ الحديث عن التربية. وأعتقد أن هؤلاء الذين دخلوا من عالم الفكر السياسي والاجتماعي الكبير إلى التربية تركوا التربية وهمشوها في مكان بسيط، كما تهمش الآن، أما الفريق الآخر فقد انشغل بالفنيات وطرق التدريس والأعمال اليومية، وبالتالي لم يستطع الوصول إلى الفكر القومي الكبير باستثناء بعض الأشخاص مثل د. حامد عمار ومحدثنا اليوم د. عبد الله عبد الدائم. هذه هي صورة الوضع العربي عموماً. بيد أن هناك استثناءات قد تكون كثيرة لا داعي لذكرها في هذا الصدد.

وهنا ينبغي أن نؤكد، إذا أخذنا كل هذه الأشياء في الاعتبار، وسوف أضطر إلى ذكرها سريعاً نظراً لضغط الوقت الذي يتضمن خطاباً هاماً وهو إغفال دور التربية، على رغم أن التربية هي ـ بالفعل ـ ساحة النضال والصراع الاجتماعي الحقيقي، سواء الصراع القومي أو الطبقي أو صراع القوى الاجتماعية، بل إن كل

(*) أستاذ جامعي.

الصراع الثقافي يتحول إلى صراع تربوي، وكذلك الصراع الاقتصادي.. وهكذا قال بوردو، وبساريو، وبيفاكو. وكان بوردو أحد المعاصرين، وإن كانت فترة أعماله متزامنة مع بعض أعمال الأستاذ ساطع الحصري، ولا سيما في مرحلة الستينيات عندما كان بوردو في الجزائر ويتحدث عن أحوال القهر هناك، وبدأ ينظر إلى التربية كصراع ثقافي موجود، كما تحدث عن رأس المال الثقافي والخصائص النفسية... الخ، وكذلك فعل الأستاذ ساطع الحصري ـ فهو أيضاً عالم انثروبولوجي إلى جانب علمه الغزير في مجالات أخرى ـ لكنه وقع في ما وقعت فيه الأحزاب السياسية المعاصرة الآن، ولا سيما في مصر، فهي أحزاب لها خلفيات فكرية كبيرة، لكننا حينما نأتي للتربية لا نكاد نلمح أي فوارق فيما بين هذه الأحزاب سواء في ما يتعلق بالمصطلحات أو الألفاظ أو المطالب، فلا يوجد اختلاف في موقف هذه الأحزاب مثلاً من قضية البطالة، أو من التعليم الفني، أو من عمليات السلّم التعليمي.. الخ. ومن ثم نجد أن صُلب الموضوعات التي تعتبر محل اختلاف شديد، والشعارات التي في التحليل الدقيق لها تتضمن أبعاداً أيديولوجية خطيرة وكبيرة توقفت أو تم تجاهلها تحت ضغط النضال القومي والصراع حول الفكر السياسي.

وعلى سبيل المثال، في فكر الأستاذ ساطع الحصري المفكر التربوي الكبير والعملاق الاجتماعي، كان يؤكد على المعلم، فكان متبصراً على أن المعلم هو بمثابة المثقف العضو وذلك المرتبط بالحركة الاجتماعية لوطنه، وما لم يتعرف المعلم على هذه الحركة الاجتماعية لوطنه فسوف لا يكون معلماً جيداً، ومع ذلك فإن الحصري عندما بدأ يتحدث عن الفنيات نجده تحدث عن البيداغوجيا العادية. وهناك مقولة في بعض أفكار الحقل التربوي ترى أن هذا المعلم العضوي هو ذلك المعلم الناقد، وربما جاءت المدرسة النقدية في وقت بعد الحصري، إلا أنه كانت هناك على الأقل بعض الأفكار الموجودة في ذلك الزمن الذي عاش فيه الحصري مثل الفكر الماركسي بفنياته المختلفة وأفكاره المختلفة حول النضال الاجتماعي والتربوي، وأيضاً الفكر الليبرالي الاجتماعي.. الخ، ولذلك كنت أندهش كثيراً عندما بحثت في فكر الحصري ووجدت كيف أنه ظل يتمسك بالاختبارات العقلية، وأنا لا أعتقد أننا حينما كنا نتحدث عن المثقف العضوي والمعلم العضوي كنا نقف أمام هذه الاختبارات، فهذه الأخيرة وُجه إليها انتقادات شديدة في ذلك الوقت من كل الحركات الماركسية والليبرالية الاجتماعية، وان هذه الاختبارات إنما هي أعمال مهارية ضيقة جداً تعوق حركة الفكر والنضال القومي الموجود. وقد استشهد الحصري بذلك ولا سيما في انتقاده لطه حسين عندما تكلم الأخير عن

العقلية المصرية ومقارنتها بالعقلية الأوروبية. وأشير هنا إلى أنه في ذلك الوقت كان هناك واحد من الرعيل الأول وهو اسماعيل القباني، والذي كان يتميز بالمدرسة التي تقول بالسلوكية والاختبارات، وكان أن دخلت الاختبارات عالم التربية في مصر، وضاق الاهتمام التربوي إلى هذه الاختبارات حتى أضحى الحديث عن النظرية التربوية والفلسفة من قبيل الحديث الذي يجب عدم الخوض فيه، ومن ثم أصبح هذا أحد أدوات الهيمنة التي انتهينا إليها في مجالات الفكر الاجتماعي في التربية، وهذا يمثل ـ في رأيي ـ أحد الأوجه التي يجب أن نناضل ضدها الآن، فلا بد من أن نفسح الباب للرؤى والفلسفات والتفكير الاجتماعي الناقد، الذي سوف تعيقه هذه الامبريقية الضيقة التي آل إليها علم التربية وعلم النفس في الوطن العربي ككل.

على أي الأحوال، فالاختبارات هي التقنيات، وهناك عالم انثربولوجي يسمى والاس، يرى أن أي مهتم أو أي مجتمع مهتم بالحركة الثورية، سواء كان مجتمعاً ثورياً أو حركة ثورية داخل مجتمع غير ثوري، فلا بد من أن تكون المعنويات لديه هي الأساس في الخطاب الجماهيري الشعبي. وأنا أود في هذا الصدد الإشارة إلى أن أي عمل تربوي عموماً من الناحية الفنية لا بد من أن يتضمن ثلاثة جوانب: المعرفة، والمهارة، والتكنولوجيا الموجودة.

وعَود إلى ما يقوله العالم الانثروبولوجي والاس، نجده يقول إن أي حركة ثورية تربوية لا بد من أن تتضمن رفع الوجدان والوعي والمعنويات، وذلك لإيجاد المدرس العضوي والتلميذ العضوي الذي سوف يغير من حركة مجتمعه وأمته، ثم تأتي بعد ذلك المعارف المتخصصة، ثم يأتي التكنيك في المرحلة الأخيرة. وهنا أطرح السؤال التالي: لماذا الحصري، وهو الأستاذ الكبير والمفكر القومي الذي كان يريد أن يغير أمته، لماذا وقف عند التكنيك (الفنيات)؟ وقد قرأت له مقالاً في تطور علم النفس، والحقيقة أنني وجدته تطوراً يحتفل بالسلوكية التي هي الإمبريقية التي تمنع الحرية والإخاء والمساواة.. الخ. ومن هنا أقول إن التربية مجال حقيقي للصراع الاجتماعي، ولا بد لنا من فهم قوانينه جيداً، وأن يكون لدينا ذلك المربي الذي يقف على حقيقة الفكر التربوي ويربطه ربطاً جيداً بفكره القومي والسياسي، وإذا انفصلت هذه العروة فأعتقد أننا سوف نتوه كثيراً.

تعقيب (٢)

محسن خضر(*)

أتصور أن كل خطاب تربوي ليس مستقلاً عن التاريخ، بل إنه يعمل في إطار المصلحة والطبقة واللحظة الاجتماعية. ولم يكن فكر ساطع الحصري بعيداً عن ذلك كله. وأذكر في أطروحتي للماجستير في منتصف الثمانينيات أنني تصديت لتأثير الفكر القومي العربي في التعليم المصري في عهد عبد الناصر والسادات، أي للشجرة التي وضع بذورها ساطع الحصري، وكان من بين أهم النتائج التي أسفرت عنها الدراسة كيف أن كثيراً من المفكرين التربويين في مصر كانوا تلفيقيين في تلفيق الفكر التربوي البراغماتي مع الفكر التربوي القومي تارة ومع الفكر الاشتراكي تارة أخرى، ومن هنا وجدنا على الساحة تلفيقاً أكثر منه تكيفاً وهضماً لهذه التحولات، بمعنى أن المفكر التربوي كان يسير في ركاب الخطاب السياسي ولا يقوده. وأشير في هذا الصدد أيضاً إلى أنني قد أفردت فصلاً كاملاً في كتابي الذي أصدرته عام ١٩٩٢ بعنوان **تعريب مصر السياسي**، للمساجلات التي دارت بين ساطع الحصري ورموز الفكر المصري في هذا الوقت حول عروبة مصر، وكيف قدم الرجل استشرافه الهامّ من أن مصر سوف تقود الحركة القومية العربية، وهذا ما تحقق بعد عقدين من الزمان مع القيادة الناصرية للحركة القومية العربية في الخمسينيات. لكننا يجب أن نتوقف عند المسألة الثقافية التي ينقذها الدرس الحصري في نطاق أن الحصري يرد الاعتبار للمسألة الثقافية، وهو يشبه النهوض أو رد الاعتبار للثقافة الذي نشهده الآن على مستوى العالم سواء من د. محمد عابد الجابري إلى صموئيل هانتنغتون حول صراع الحضارات. إلا أن الحصري قدم ما أسماه طه حسين لاحقاً بتوأمة الثقافة والتعليم عندما قرن المسألة

(*) أستاذ مساعد أصول التربية ـ كلية التربية ـ جامعة عين شمس ـ مصر.

الثقافية بالتعليمية، وهو ما عكف عليه مفكر تربوي عربي كبير آخر هو د. حامد عمار. فنحن إذن نعود للمسألة الثقافية التي أحياها الحصري منذ عقود طويلة. وأود الإشارة هنا إلى أن الحصري من خلال خطابه في التربية يقودنا إلى المسألة التعليمية، ومن الصحيح أن المفكر النهضوي المصري قد سبق الحصري في هذا منذ رفاعة الطهطاوي، حيث اعتبر أن التعليم يمثل أحد المكونات الأساسية للنهضة، وقد ذهب في هذا الاتجاه أيضاً كل من الشيخ المرصفي، وعلي مبارك وصولاً إلى طه حسين، إلا أنه لم يوجد هناك من استطاع ربط المسألة التعليمية بالمسألة القومية هذا الربط المحكم مثل ساطع الحصري.

وهناك مشابهة أرجو أن نلتفت إليها بين حياة وإنجازات الحصري، وبين عمل اسماعيل القباني الذي كان يجمع بين كونه بيداغوجياً ومفكراً، وعمل طه حسين، رغم أنهما اختلفا في دائرة الانطلاق الكبرى، فقد انطلق طه حسين ـ تحت تأثير ثقافته الفرنسية ـ من الإطار الحضاري الإنساني للتربية، أما ساطع الحصري فقد انطلق من مسألة اليقظة القومية والدائرة القومية للنهوض التربوي. وأيضاً أتصور أن إنجاز الحصري يقترب كثيراً من إنجاز الروائي الروسي الكبير تولستوي صاحب مدرسة «اسناي بوليانا» التي أسسها على مدى عشرين عاماً، وأصدر مجلتها ودرس فيها ووضع مناهجها، إلا أن احتفاء تولستوي بتحرير الطفل ومركزية الطفل وقيمة الحرية كان أكبر من احتفائه عند الحصري.

وأود الإشارة هنا إلى مسألة كثيراً ما نغفل عنها ونحن بصدد التحليلات الخاصة بالحصري، فهناك أربع دراسات تصدّت للحصري، هي لكل من: إبراهيم عبد الله الشامي في الجامعة الأميركية في بيروت (١٩٧٢)، ثم وليم كليفلاند (١٩٧١) (كتاب)، ثم نهاد صبيح سعد (تربية عين شمس ١٩٧٥)، ثم مسرة الأمير (١٩٧٧). فمسألة رد الأفكار الحُصرية إلى مصادرها الأوروبية الأصلية هي مسألة على قدر كبير من الأهمية وتستدعي الالتفات إليها لمعرفة كيف ينفتح المفكر التربوي على عالمه، وكيف ينجح، أو يخفق، في تكييف هذه الروافد والمصادر الفكرية الخارجية.

وأشير في هذا الصدد إلى أن الحصري لم يحتفِ بمسألة العدالة الاجتماعية، ولم يستفض في فكره التربوي بخصوص مسألة العدالة الاجتماعية كما فعل مفكر تربوي آخر مثل طه حسين على سبيل المثال. أرى أيضاً أن الفكر الاشتراكي في الخطاب الحصري التربوي كان ضعيفاً على عكس الفكر الامبريقي والبراغماتي في الغرب، إلا أن نقطة الضعف الرئيسية في كتابات ساطع الحصري وفي خطابه

السياسي هي موقفه من التراث العربي، فهذا المفكر الذي أنجز جزأين عن ابن خلدون، وكانت كتاباته السياسية تعكس وعياً قوياً بالتاريخ العربي، يكاد يختفي من فكره السياسي والتربوي هذا المكون التراثي العربي اختفاءً شبه كامل، وهذه مسألة تدعو للحيرة، وكأن ساطع الحصري يقيم المعادلة النهضوية له على مكونين فقط: المكون الحضاري العربي الراهن، والمكون المعاصر الخارجي. ولم يكن للمكون التراثي أي وجود، على رغم اهتمام الرجل وإلمامه بالتراث العربي إلماماً كبيراً، وهذه مسألة تستدعي التوقف في المسكوت عنه في الخطاب الحصري.

وهناك مسألة أخرى تتعلق بغياب نتاج، أو خطاب، فكري خاص بمسألة الأمية والتعليم اللانظامي في فكر ساطع الحصري، وكان فكره مؤسسياً يقتصر فقط على ما نسميه بالتعليم المدرسي.

وأما المسكوت عنه في دراسة الدكتور عبد الله عبد الدائم، فيتمثل في ما ورد في نهاية هذه الدراسة القيّمة عندما فجّر صاحبها المسألة برمّتها وأشار إلى أن النظم التربوية العربية القائمة عجزت حتى الآن عن بناء الحضارة العربية الحقة لأنها لم تنطلق من مثل هذا الربط العضوي الحميم بين الأهداف التربوية والأهداف القومية على نحو ما أراد الحصري. وهنا يمد د. عبد الله عبد الدائم الخط، ويمارس الإسقاط بين فكر ساطع الحصري والواقع التربوي العربي، حيث يحكم بإخفاق التجربة العربية، ونحن نوافقه على إخفاق هذه التجربة العربية، ولكن هذا الإخفاق قد يكون مرتبطاً بإخفاق آخر وهو إخفاق الحداثة العربية في الأساس.

وثمة ملاحظات سريعة أود إيجازها في ما يلي.

أولاً: إن أخطر ما في فكر ساطع الحصري هو كلمة «التوزين» التي أراه يعبر فيها عن تكوينه أو قناعته أو انحيازه الوظيفي للفلسفة الوظيفية في الغرب، وهذا الميل سوف يقوده لاحقاً إلى تخطي مسألة العدالة الاجتماعية والعمل النقدي في مجال التربية وتحرير المعلم والمتعلم معاً.

ثانياً: لم تضع الكتابات والدراسات ـ التي منها هذه الدراسة القيمة ـ التي تناولت ساطع الحصري في إطار الجدل التربوي في عصره، فقد كنت أتمنى أن يجري حوار بين أفكار ساطع الحصري وأفكار التربويين في عصره سواء في العراق أو سوريا أو مصر لكي نعرف موضع الرجل من الفكر التربوي العربي في عصره.

ثالثاً: ان الحصري اهتم كثيراً بالتربية الأسرية وتحدث عن روح المشاركة، إذ أشار إلى ما يمكن تسميته بلغة العصر «المجتمع المدني»، ومارس نقداً هائلاً

للشخصية العربية والتربية العربية في عصره والتي اعتبرها تربية مشوهة ومعوقة للشخصية الإنسانية. وكنت أتمنى لو تعرّض البحث القيم للدكتور عبد الدائم لهذا الجانب.

رابعاً: أيضاً من أفكار الحصري الرئيسية التي ترددت في غير عمل له، فكرة الوحدة في الأساس والتنوع في الفروع، فلم يضع الحصري البيض كله في سلة واحدة، واحترم ـ ما نسميه اليوم بلغة العولمة ـ الخصوصية الثقافية، فهو يرى أن ما يسمى بالثقافة الوطنية عائق دون تحقيق الوحدة القومية، ومن هنا حاول تكييف التعليم تكييفاً يساير ويحاكي مسألة الوحدة والتنوع والمركزية واللامركزية.

وأخيراً، يبقى من بين المسكوت عنه في فكر الحصري: هو كيف تطور فكره في الفترة التركية ثم بعد ذلك في الحقبة العربية؟ والغريب أن لساطع الحصري كتاباً لا يتطرق إليه أحد، وهو يعبر تعبيراً مدهشاً عن احتفاء الرجل بما نسميه الأصالة والمعاصرة والاستفادة من تجارب العصر، وهذا الكتاب عن اليابان، إلا أنني لم أقرأه ولم أسمع عنه.

وفي النهاية، أقول إن الخطاب الحصري يضعنا من جديد في قلب المسألة الثقافية والمسألة الوحدوية والمسألة التعليمية في وطننا العربي وأمتنا العربية، وهو ما يضفي المزيد من الأهمية على هذا الخطاب الحصري التربوي.

المنـــاقشـــات

١ ـ عز الدين اسماعيل

هذا البحث يتّسم بخصوصية خاصة في ما يتعلق بالموضوع، حيث يتعلق الأمر دائماً بالنظر إلى ساطع الحصري على أنه رجل القومية العربية، ودائماً يتجه التفكير إلى المسائل المتعلقة بهذه القضية وبالسياسة بصفة عامة، أما أن نلتفت إلى دور له مهم، وربما لا يقل أهمية عن دوره الفكري، وهو الدور التربوي، فهذا باعتبار أن الدور التربوي لساطع الحصري هو، في رأيي، جزء مهم من هذا المشروع الكبير الذي نذر الحصري نفسه له طوال حياته.

٢ ـ عبد الله عبد الدائم

ولهذا حرص البحث على أن يؤكد أن هذا الجانب التربوي لم يكن هامشياً بالنسبة لهذا الرجل، بل لعله كان هو المنطلق الأصيل والأصلي في مجمل أعمال ساطع الحصري، لأن أي قومية تحتاج أولاً وقبل كل شيء إلى تربية وتربية قومية بصفة خاصة.

٣ ـ لويس سعد

أود هنا الفصل بين ساطع الحصري في إطار مشروعه السياسي القومي، والحصري في إطار مشروعه التربوي، وكما أشار د. عبد الله عبد الدائم من أن التربية هي رأس الحربة في أي مشروع اجتماعي، فهذا الأمر كان الحصري واعياً له وهو ينتقل من مكان لآخر، ويتضح ذلك من حرصه على أن يتولى مناصب في العملية التعليمية، وعندما كانت العقبات تستفحل أمامه كان دائماً يؤثر الانسحاب والاستقالة.

وإذا كانت أفكار هذا الرجل التربوية بنت عصره والمتغيرات في ذلك

العصر، فهل ما طرحه ساطع الحصري آنذاك ما زال ملائماً لإعادة طرحه اليوم؟ ولا سيما أن التربية معنية اليوم بإعادة صياغة الذهنية، وربما أعطت التحولات التي تحدث في العالم اليوم بعض المؤشرات الهامة مثل التجانس والوحدة والكتلة في تكوين الأمة، في حين أنها لم تعد ملائمة اليوم. فنحن نريد التنوع والاختلاف مع احترام التعدد والاختلاف، وربما لم يكن هذا وارداً في مشروع ساطع الحصري الذي كان يدعو إلى توحيد الثقافة، ولكن هل موضوع توحيد الثقافة صحيح من الناحية التربوية؟ أم أن الأمر يحتاج منا إلى التعامل مع الاختلافات والتنوع وبشكل أكثر إيجابية من إهماله تماماً؟ أيضاً في ما يتعلق بالموقف من الغرب وعلومه أجد أن مناهجنا حتى هذه اللحظة ما زالت تركز على اللغة والتاريخ، ولا شك في أن الحصري كان يقف وراء ذلك، بينما يبدو من الأهمية اليوم معرفة موقف العلوم الطبيعية وعلوم العصر من المشروع التربوي اليوم؟

ثم هناك النقطة الخاصة بالتكوين الذهني، وهنا أطرح السؤال: ماذا يحدث لو تحولت القومية إلى عقيدة وليست حركة سياسية؟ نجد الاتحاد الأوروبي اليوم قائماً كحركة سياسية واقتصادية لم يسبقها توحيد ثقافي لدول أوروبا، فهل يمكن حدوث مثل هذا في المنطقة العربية على رغم الاختلافات الحادة بين الثقافات والمصالح؟ وهل يمكننا أن نحترم هذه الاختلافات ونتعامل معها في إطار مشروع قومي لا يأخذ شكل العقيدة التي تؤدي إلى ذهنية أحادية قطعية يقينية مطلقة؟ أتصور أننا نحتاج اليوم إلى ذهنية تحترم التعددية، ذهنية احتمالية.

٤ ـ عبد الله عبد الدائم (يرد)

بالنسبة لما ذكره د. حسن البيلاوي من ارتباط بين النزعة الاجتماعية عند ساطع الحصري وتأكيده على أهمية ربط التربية بالمجتمع وحاجات المجتمع، وبين ما ظهر بعد ذلك من تأثير المدرسة الفرنسية وعلى رأسها بوردو من أفكار حول العلاقة بين التربية والمجتمع، فالحقيقة أن بوردو ظهر في وقت متأخر ووضع مع غيره مجموعة من الكتب الهامة التي تنطلق من نظرية ـ إلى حد ما ـ ايديولوجية ـ قوامها أن التربية في أي مجتمع تعيد إنتاج النظام الاجتماعي الذي أنتجه، فالتربية في النظام الرأسمالي تعيد إنتاج الإطار الرأسمالي والعكس، وهذا موضوع يختلف اختلافاً واضحاً عن أفكار ساطع الحصري في هذا المجال التي تربط الموضوع بالمجتمع.

والنقطة الأخرى التي أتوقف عندها تتعلق بالاختبارات (الروائز) واهتمام الحصري بها، وأنا أرى أن اهتمام الحصري بالروائز (الاختبارات) مهم لأمرين؛

أولهما، أن هذه الفكرة كانت حديثة، ومن الأمور اللافتة للنظر أن يهتم الحصري بهذه الاختبارات النفسية، مما يفصح عن قدرته واطلاعه وعلمه الواسع. وقد استخدم ساطع الحصري الروائز في بعض كتبه الأخيرة (صاحب هذه الكلمات هو الذي وضع كلمة «الروائز» في دنيا التربية العربية بدلاً من كلمة الاختبارات النفسية)، ولا أريد الدخول في جدال حول الروائز، إلا أننا لا نستطيع القول بأن الروائز قد تجاوزها الزمن، بل نستطيع القول بأنها قد تطورت ولا بد منها في بعض الحالات، وهي قد أخذت أشكالاً جدّ متنوعة، وأصبح لها مدارس واتجاهات، بيد أنني ألخص الموقف منها في ما قال أحد الباحثين الإنكليز من أن الحل الصحيح ليس في أن نقضي على الروائز ولكن في أن نجوّدها (Not to end them, but to mend them).

وعلى أي حال، فقد استخدم الحصري الروائز من بين وسائل عديدة، وأشار إلى أنه عندما يتحدث عن الاختبارات فلا يجوز اللجوء إلى طريقة واحدة منها، فهو سوف يتحدث عن اختبارات موضوعية وانتقدها في بعض الجوانب، وقال إنه علينا أن نلجأ حسب مقتضى الحال إلى شكل مناسب من أشكال الاختبارات، ومن هنا فإن الحصري ـ كعادته ـ يوازن بين العوامل المختلفة.

وبالنسبة لما أثاره د. محسن خضر، فإنه يطول الحديث عن نواحي التشابه بين الحصري والقباني وطه حسين، ولكن على أقل تقدير هناك وجه شبه أساسي بالنسبة للتربية، وهو أن طه حسين وإسماعيل القباني أكدا، كالحصري، على مبدأ التعليم الالزامي.

من ناحية أخرى، فإذا كان د. محسن خضر يعجب من موقف الحصري من المكوّن التراثي، وحيث لم يتحدث عنه بإسهاب، ففي رأيي أن تلك الفترة التي كان يعيش فيها الحصري وأمثاله من الباحثين والمفكرين مثل عبد الرحمن الكواكبي ورشيد رضا وغيرهما، فعندما كان يُشار إلى التراث، كان يشار بالدرجة الأولى إلى اللغة العربية حاملة هذا التراث، فالمشكلة كانت في التتريك والتعريب، ومن هنا كانت الدعوة إلى تعليم وإحياء اللغة العربية هي دعوة للاطلاع على التراث العربي بصوره المختلفة، وقد نشأت في دمشق وغيرها من البلدان العربية حلقات ثقافية تحارب التتريك عن طريق بث اللغة العربية والثقافة العربية، مثل حلقة الشيخ طاهر الجزائري في دمشق.

وبالنسبة للغة العربية والوعي بالتراث لم يُتح لي أن أتحدث عنهما (وفي هذا جواب على من وجه لي سؤالاً مكتوباً). وانتقل إلى الحديث عما يشبه المعجزة في

حياة الحصري، وهو ما يتصل بعنايته باللغة العربية وبالمصطلحات العربية، بينما تعلم الحصري اللغة العربية في طور متأخر، وكان لا يجيد الكلام بها ولكنه كان يجيد الكتابة بها. فالحصري تحدث عن المصطلحات العلمية العربية حديثاً طويلاً وانتقد الكثير منها، ورجع في ذلك إلى أساليب العرب في الترجمة سواء بين الأقدمين أو المحدثين، بل وضع بنفسه مصطلحات جديدة وفي منتهى الأهمية، كما انتقد مصطلحات تونس الموضوعة باللغة العربية. ومن هنا يتضح لنا أن ساطع الحصري لم يهمل التراث، ولكن العناية بالتراث في ذلك الحين كانت تعني بالدرجة الأولى العناية باللغة العربية والمصطلحات العربية.

وبالنسبة لما أثاره البعض حول مدى ملاءمة أفكار الحصري لعالمنا اليوم، أود الإشارة إلى أنه ليس في أفكار الحصري ما يناقض اتجاهاتنا اليوم، وهذا يدل على أن اتجاهاته سليمة وكثير منها لا يزال مطبقاً وقائماً في البلدان العربية اليوم، وبصماته لن تنمحي من التربية العربية، لكن التربية الحديثة تطورت، بالطبع، تطوراً هائلاً وزادت على ما جاء به الحصري زيادة كبيرة ـ وهذا طبيعي. ومن هنا لا يمكن أن نسأل الحصري: هل تحدّث عن التربية طوال العمر؟ أو عن التعلم الذاتي، أو المرونة في التعليم، أو ربط التعليم بحاجات القوى العاملة.. الخ؟ ومن هنا أرى أنه ليس في ما قاله الحصري ما ينافي الاتجاهات الحديثة، بل على العكس، نجده ممهداً للاتجاهات الحديثة.

وبالنسبة لتعامل الحصري مع الثقافة أجد أنها ليست ضد التنوع، فالثقافة الموجودة في البلدان العربية هي كثرة في وحدة، فهنالك ثقافة قومية مشتركة، وهناك ثقافات قطرية وثقافات محلية، ولكن هناك فرقاً بين التنوع وبين التعدد والتناقض، فليس هناك تناقض بين الثقافات العربية المختلفة ولكن هناك ألواناً مختلفة. ويكاد الحصري في موقفه من الثقافة سواء في مجال التربية أو غير التربية أن يؤكد دور الثقافة واللغة في بناء القوميات، وهو بذلك يلتقي مع أحدث الاتجاهات الحديثة في ما يتصل بالنظر إلى الثقافة. فقد أكد مؤتمر المكسيك الذي عقد عام ١٩٨٢ على فكرة أساسية، وهي أن الثقافة ليست وسيلة من وسائل التنمية ولكنها غاية التنمية، وهذا التعبير يستدعي منا التفكير ملياً لكي ندرك مدى بُعد نظر ساطع الحصري، وأنه عندما كان يتحدث عن اللغة كأداة من الأدوات، أو كعنصر أساسي من عناصر القومية، إنما كان يتحدث فعلاً عن فكرة حديثة لا يمكن أن تنمحي. فاللغة حاملة التراث، والثقافة حاملة التراث، وهي هدف التنمية، ومن دون الثقافة لن تقوم تنمية.

الفصل الخامس

ساطع الحصري في الفكر القومي

عبد العزيز الدوري(*)

- ١ -

تفترض هذه الدراسة أن ساطع الحصري هو أول من حاول وضع نظرية للقومية العربية، وأنه جعل اللغة العربية أولاً، والتاريخ ثانياً، عنصري القومية الرئيسيين، ومع إشارته إلى مؤثرات أخرى إلاّ أنه اعتبرها جانبية أو محدودة الأثر.

وقد التفت ساطع الحصري إلى الأوضاع والتطورات التي مرت بها البلدان العربية وأخذها في الاعتبار في صياغة نظريته.

فقد أخذ بنظرية المشيئة والإرادة في تكوين الدولة القومية حين كان عثمانياً (شأن كثيرين من المفكرين العرب)، إلاّ أن سياسة الاتحاد والترقي، وانهيار الدولة العثمانية، وربما ما شهد في البلقان من الحركة القومية، جعلته يتجه نحو الفكرة العربية.

وبعد هذا فلنشأته أثرها. فقد درس في المدارس الحديثة، وعمل في التعليم والإدارة في البلقان، كما عمل، وبخاصة في التعليم، في اسطنبول، وعني بالعلوم، وركز على التربية الحديثة، وصار له اجتهاده وفكره فيها.

ولكن هل كانت له (قبل الحرب) صلة بالحركة أو الفكرة العربية؟

كانت له صلة بعبد الكريم الخليل، ويبدو أنه حاضر في المنتدى العربي في

(*) مؤرخ ورئيس جامعة بغداد سابقاً، ويعمل حالياً أستاذاً للتاريخ في الجامعة الأردنية.

اسطنبول، وكان ملتقى أصحاب الفكرة العربية. ويشير الحصري إلى الكواكبي إشارة عارف بفكره.

وقيل انه انتمى إلى العربية الفتاة، وهو يؤكد أنه لم ينتسب إلى أي حزب أو تنظيم، ولكنه كان على صلة بها، فهل اطلع على صحيفة **العربية الفتاة ـ المفيد** ـ التي مثلت الفكر العربي المتقدم؟

لن أشير إلى الفكر الإسلامي المتصل بالجامعة الإسلامية، فمع أنه اطلع على جوانب منه، ولكنه اتخذ وجهة أخرى.

ولم يكن ساطع الحصري بعيداً عن الحركة القومية التركية بعامة، وبخاصة فكر داعيتها ضياء جوق ألب الذي اشتبك معه في جدال في الفترة العثمانية.

ألقى الحصري خمس محاضرات في دار الفنون خلال حرب البلقان (طبعت سنة ١٩١٣) عنوانها «في سبيل الوطن»، ويقصد الوطن العثماني، يظهر فيها عمق فهمه للأفكار القومية الأوروبية وانتقائية في الإفادة من مفاهيمها، وبخاصة الفرنسية (المشيئة) والألمانية (اللغة).

وفي ضوء الأوضاع في الدولة اختار فكرة العثمانية، وبيّن أن العثمانيين لهم دولة مستقلة لها روابط روحية قائمة تتجاوز الاختلافات اللغوية، ولهم وطن يشمل كل الأراضي العثمانية، وهو اتجاه يتمشى وفكرة المشيئة الفرنسية.

يلاحظ أن الفكرة العربية حملها مفكرون من الخط الإسلامي الإصلاحي، مثل الكواكبي والزهراوي، ومفكرون في الاتجاه العربي مثل عبد الغني العريسي وغيره من كتّاب **المفيد**.

ويلاحظ أنهم في تكوينهم الفكري لهم خلفية ثقافية إسلامية، كما أنهم لم يكونوا بمعزل عن الفكر الغربي الحديث.

يعود نشاط الحصري القومي إلى الفترة التي تلت الحرب العالمية الأولى إلى الحرب العالمية الثانية وبعدها، ويمكن الإشارة إلى معاصريه من مفكرين قوميين وأحزاب مثل علي ناصر الدين وزريق وحركة القوميين العرب وميشيل عفلق.

ولكن هل يمكن تبيّن أثر مفكر في غيره من معاصريه أو ممن تلاه مباشرة؟ سواء أكان الحديث على تأثر ساطع أو تأثيره؟ قد يتيسر ذلك حيناً، ولكن يتعذر أحياناً، كما أن التشابه في الآراء قد لا يكون دليلاً على الاقتباس. وقد يكون تلمس الأثر أعقد عند الحديث على حركة أو جهة حزبية.

- ٢ -

لننظر إلى شيء من الخلفية الفكرية.

فالكواكبي (١٨٤٩ - ١٩٠٣) يرى أن العرب قوم متميزون في غنى لغتهم وخصائصهم، ودورهم في الإسلام. وهم أحفظ الأقوام على جنسيتهم، ورابطتهم الأولى العربية بصرف النظر عن مذاهبهم وأديانهم. وعلى هذا الأساس يعتبر العرب أمة وموطنها الجزيرة العربية والعراق والشام ومصر وشمال أفريقيا.

وهو يرى أن العرب وحدهم المؤهلون لقيادة المسلمين ولإصلاح أمورهم. إنه يقرن مجد الإسلام بالعرب، فلم يبدأ الخلل إلاّ حين تسلط الأعاجم، وهذا يتمشى مع دعوته إلى أن تكون الخلافة في العرب كما كانت أصلاً.

ويرى الكواكبي أن الأمة قد يجمعها النسب والوطن وحقوق مشتركة، وكأنه يفكر بكيان سياسي، فهو يناشد قومه (الناطقين بالضاد) في أن يهيئوا لوسائل الاتحاد - كما فعلت أمم أخرى راقية بالعلم - للاتحاد الوطني والوفاق الجنسي والارتباط السياسي.

أما الزهراوي (١٨٢٥ - ١٩١٦) فإنه تمثل الفكرة العربية، ورأى أن اللغة هي الرابطة الأساسية بين العرب، بصرف النظر عن مذاهبهم وأديانهم واتجاهاتهم ومساكنهم، وهي جامعة عظيمة للعرب. وهو لا يرى الجامعة الإسلامية مقبولة كنظام سياسي أو قابلة للتحقيق. ولكن الفكرة العربية/القومية هي الإطار الصحيح، وهي ما يجب الأخذ به.

والمتكلمون بالعربية يشكلون أمة. والبلدان العربية تشمل الجزيرة العربية والعراق والشام ومصر والشمال الافريقي. وهو يشير إلى تنبه العرب وإلى حرصهم على تأييد اللسان.

ولعل الفكرة العربية/القومية أكثر وضوحاً عند عبد الغني العريسي (١٨٥٠ - ١٩١٦). وهو أحد مؤسسي المفيد (جريدة العربية الفتاة) ومن أبرز كتّابها. وقد كتب في المفيد مقالات عن دور العرب في التاريخ وعن الأمة ومقوماتها.

أكد العريسي على فكرة الأمة العربية، وهو يقرر أن اللغة العربية قاعدة العروبة وأن القرآن رسخها. وهو يؤكد على أهميتها ويعتبرها «وسيلة لجماع النهضة»، بل ويرى أن «حياة العرب بحياة لغتهم» فإذا اندرست اللغة اندرس العنصر وعفي على القوم، ويكرر «وإذا ماتت اللغة فالسلام على هذه الأمة».

وهو يرى أن العرب يرتبطون برباطة الجنس واللغة والوطنية (١٩١١). وبعد أن درس في باريس واطلع على الفكر الغربي مباشرة كتب يقول «العربي من وصلته رابطة من نسب، ووحدة من لغة، وكان تواقاً إلى العرب نزاعاً إليهم». وكرر أن العرب أمة وأن العربي «كل من ربطته بهذه الأمة وحدة اللغة وصلة النسب ونزعة العرب». ويضيف: «إن هذا مذهبنا». وكأنه تأثر هنا بفكرة المشيئة.

ويتضح اطلاعه على الفكر الغربي في كلمته التي ألقاها في المؤتمر العربي الأول في باريس (٢٠ حزيران/يونيو ١٩١٣) إذ قال: «إن الجماعات في نظر علماء السياسة لا تستحق هذا الحق إلاّ إذا جمعت، على رأي علماء الألمان وحدة اللغة ووحدة العنصر، وعلى رأي علماء الطليان وحدة التاريخ ووحدة العادات، وعلى مذهب ساسة الفرنسيين وحدة عادات ووحدة مطمح سياسي. فحق العرب بعد هذا البيان أن يكون لهم، على رأي علماء السياسة دون استثناء، حق جماعة، حق شعب، حق أمة»، وأول حق لجماعة الشعوب حق الجنسية، أي القومية.

ويفترض أن الحصري اطلع على **العاصمة**، الجريدة الرسمية لسوريا الفيصلية وهي تتحدث عن الأمة العربية (عدد ١) وتتحدث عن مقوماتها فتبدأ بوحدة اللغة، وتشير إلى رابطة الدين، وإلى الوطن، وتشترط قيام روح عام يتكون في التاريخ، وأخيراً الرغبة في العيش المشترك (العدد ٣).

وتورد أقوال الملك فيصل بأن البلدان العربية وحدة لا تتجزأ وتسكنها أمة واحدة (العدد ٢٥). وتقترح أن يكون الاتحاد الشكل الذي يناسب أوضاع البلدان العربية (العدد ٢٦) وتتحدث عن اللغة باعتبارها رابطة لا تضاهيها رابطة، وان «سقوطنا بسقوطها ونهوضنا بنهوضها».

وتشير إلى خطاب للأمير فيصل جاء فيه «نحن جسم واحد...، لا أديان ولا مذاهب، فنحن قبل موسى ومحمد وعيسى وإبراهيم» (العدد ٣٥). وفيها رد على الإقليميين الذين يتحدثون عن دماء مختلفة: فينيقية وآرامية مع امتزاج بدماء أخرى، فتوضح أن هذه الشعوب جاءت من الجزيرة وأن أصولها اللغوية والبشرية واحدة وأنها ذابت في الأمة العربية وأصبحت العربية لغة الجميع (العدد ٤٨).

يلاحظ إذن أن بعض المفكرين العرب تناولوا مفهوم الأمة، وأكدوا على أهمية اللغة رابطة أساسية، وأن البعض تحدث عن نطاق البلدان العربية، هذا إلى أنهم دعوا إلى القومية رابطة جديدة وسبيلاً للنهضة.

ولعل الحصري اطلع على بعض كتابات وآراء المفكرين العرب، ولكنها لا

تعدو تقديم آراء متفرقة دون توسع...

- ٣ -

ولعل الحصري كان أول من حاول وضع نظرية للقومية العربية، وأول من دعا إلى وحدة عربية شاملة.

لقد درس الحصري الحركات القومية في أوروبا ودرس الفكر القومي الأوروبي في القرن التاسع عشر، وبخاصة لدى الفرنسيين والألمان والإيطاليين، وهو كثيراً ما يستشهد لتوضيح آرائه أو تأييدها بأمثلة من التاريخ الأوروبي، كما أخذ الأوضاع العربية في الاعتبار. ولعله وجد في فكر الألمان وظروفهم ما هو أكثر إفادة لحاجات العرب.

يلاحظ الحصري أن الأمم تتميز من بعضها باللغة وأن أول من نبه لذلك الألمان، واللغة مخزن التراث، وروح الشعب تكمن في لغته. ولعله أفاد أيضاً من ابن خلدون الذي يرى العربية الرابطة الدائمة للعرب.

وهكذا عرف الحصري الأمة وحدة ثقافية أولاً وليس وحدة سياسية. كما يرى أن الوحدة القومية شيء طبيعي. ولاحظ أن العروبة وجدت في التاريخ وأنها قديمة، ولكن الوعي بها واتخاذها وجهة سياسية هو الجديد.

ولكن الحصري رفض فكرة التفوق العنصري لدى المفكرين الألمان واكتفى بالاعتزاز بالحضارة العربية. وإن كانت فكرة المشيئة أو الإرادة في تكوين القومية/الأمة (كما عرضها رينان) تناسب العثمانية، فإنها مرفوضة في الأمة العربية.

والحصري حريص على تحديد مفرداته، وأهمها الوطنية، وتعني حب الوطن وارتباطاً باطنياً به، والقومية وتعني حب الأمة وارتباطاً باطنياً بها. وهناك صلة بين الوطنية والقومية حيث إن حب الوطن يعني حب الناس الذين يسكنونه، والعكس وارد.

وهو يسأل عن العناصر التي تتكون منها القومية وتتألف منها الأمة.

مبدئياً يرفض الحصري وحدة الأصل والمنشأ، لأن الأبحاث العلمية عامة لا تترك مجالاً للشك في أنه لا توجد على وجه البسيطة أمة تنحدر من أصل واحد. ويؤكد أن وحدة الأصل والدم في أية أمة من الأمم إنما هي وهم من الأوهام.

ومع ذلك يلاحظ أن الاعتقاد بوحدة الأصل يؤثر كثيراً في النفوس وأن

الشعور بالقرابة يؤثر فيها. ويبين أن أهم العوامل التي تدفع إلى الاعتقاد بوحدة الأصل وإلى الشعور بالقرابة في الشعوب هي وحدة اللغة والاشتراك في التاريخ.

وهكذا يصل إلى أن اللغة والتاريخ هما المقومان الأهم لتكوين الأمة والقومية، يقول «إن أهم العوامل الأساسية في تكوين الأمة هو اللغة والتاريخ. إن اللغة بمثابة حياة الأمة والتاريخ بمثابة شعورها». ويقول «أكرر ما قلته مراراً أن الأمة كائن اجتماعي، واللغة هي أهم الروابط المعنوية التي تربط الفرد بغيره لأن اللغة هي: (١) واسطة التفاهم بين الناس، و(٢) آلة التفكير عند الفرد، و(٣) واسطة نقل الأفكار والمكتسبات من الآباء إلى الأبناء، ومن الأسلاف إلى الأخلاف. ولهذا فإن وحدة اللغة توجد نوعاً من الوحدة في الشعور والتفكير، وتكون أقوى الروابط التي تربط الأفراد بالجماعات». لهذا يرى أن حياة الأمم تقوم قبل كل شيء على لغاتها.

يقول الحصري «لا نغالي إذا قلنا ان اللغة هي روح الأمة وحياتها وانها بمثابة محور القومية وعمودها، وهي من أهم مقوماتها ومشخصاتها». وهو لذلك يؤكد على اتخاذ الفصحى وعلى تعليمها، وعلى ضرورة استخدامها في الحياة اليومية ويدعو المفكرين للابتعاد عن استخدام اللهجات العامية. ويلح في الوقت نفسه على إدخال إصلاحات على الفصحى في اتجاه تبسيطها لجعلها في متناول الجميع ولتكون وسيلة اتصال فعالة بين أبناء البلاد العربية كافة.

وأما التاريخ فهو بمثابة شعور الأمة وذاكرتها. والذكريات التاريخية تقرب بين النفوس وتوجد بينها نوعاً من القرابة المعنوية.

وهو لا يقصد بالتاريخ ما سطر في الكتب، بل التاريخ الذي يعيش مع الناس، التاريخ المعروف في الأفكار والذي هو تراث. وهو يقدر أنه لا توجد أمة لها وحدة تاريخية في كل فترات وجودها، فالوحدة في التاريخ يجب أن تفهم على أنها الوحدة النسبية التي تظهر في أهم صفحات التاريخ، الصفحات التي أنتجت ثقافة الأمة وأعطتها لغتها الحاضرة وطبعتها بخصائصها المميزة.

وهو يرى أنه يمكن تعليم التاريخ بمنهجية علمية في المدارس العالية، ولكن لا يتيسر ذلك في المراحل الابتدائية والثانوية، إذ لا بد من الانتقاء ولذا يجب أن يدرس التاريخ من وجهة قومية.

وهكذا فإن اللغة والتاريخ هما العاملان الأصليان اللذان يؤثران أشد التأثير في تكوين القوميات. إن اللغة بمثابة روح الأمة وحياتها، والتاريخ بمثابة وعي الأمة وشعورها.

والأمة التي تنسى تاريخها تكون قد فقدت شعورها وأصبحت في حالة سبات، وتستطيع أن تستعيد وعيها بالعودة إلى تاريخها القومي، ولكن الأمة إذا فقدت لغتها تكون عندئذٍ قد فقدت الحياة.

حاول الحصري تقليل أهمية العوامل الجغرافية في تكوين القومية/ الأمة. وهو يقر أن الانفصال الجغرافي قد يؤدي إلى التجزئة، وربما مع الزمن إلى التمايز اللغوي والتاريخي. ومع ذلك فهو يرفض القول بأن الأمة يجب أن تكون لها رقعة أرضية لتسمى أمة. وذهب إلى أن الأمة لا يكون لها أرض مشتركة أو أرض معلومة الحدود إلا إذا كونت دولة قومية. وواضح أن حالة التجزئة العربية وراء ذلك. وهذا طبيعي فهو يرى أن الحدود القائمة مصطنعة فهي حصيلة المساومات والمصالح الاستعمارية.

وفي مناقشة علاقة الإسلام بالقومية، يبدو الحصري متأثراً مبدئياً بموقف العثمانيين من الحركة العربية، فهو يرى أن الولاء للسلطان باسم الإسلام أخر بدايات الفكرة القومية. ويبين أن علماء الدين زمن العثمانيين عارضوا الفكرة القومية معارضة شديدة، وزعموا أنها تخالف أحكام الدين، وقالوا إن إطاعة أوامر الخليفة واجب على المسلمين. ولما قام بعض مفكري العرب يدافعون عن حقوق أمتهم ويطلبون اعتبار اللغة العربية لغة رسمية قام رجال الإدارة العثمانية بتحريك طائفة من رجال الدين لتقديم عرائض وإرسال وفود لاستنكار حركة هؤلاء المطالبين.

ولكنه يلاحظ ناحية تاريخية وهي أن الإسلام أعطى الدافع للفتوح التي نشرت الدين ووسعت نطاق العروبة. والإسلام لا يحتم على أهالي البلاد المفتوحة اعتناق الدين الجديد، لذا استعربت جماعات كبيرة من سكان تلك البلاد دون أن تعتنق الدين الإسلامي، وأن العروبة لم تبق مرتبطة بالدين الإسلامي، فقد تكونت أمم إسلامية غير عربية من ناحية، وجماعات عربية غير مسلمة من ناحية أخرى.

ومن ناحية ثانية، فإن العربية تعرضت لمحن خطيرة منذ قرون نتيجة التفكك السياسي والجمود الفكري والانحطاط الثقافي في الوطن العربي. وذلك يؤدي إلى ارتخاء الروابط بين الأقطار العربية ويفسح المجال لتغلب العامية ويعرّض العربية لخطر التفكك، ولو حدث ذلك لأدى حتى إلى انشطار الأمة العربية إلى أمم مختلفة ولما بقي شيء يستحق التسمية باسم القومية. ولكن القرآن حال دون استشراء التفكك وحفظ العربية وصان العروبة من خطر الانشطار: «إن الديانة الإسلامية لعبت دوراً هاماً في تقدم العربية وتوسعها».

والحصري في هذا التحليل يسير في خط ابن خلدون.

وبعد هذا، فالحصري يقدر أن الأديان العالمية كالإسلام لا تنظر إلى القوميات. والحصري لا يقف ضد الدين بل ضد تدخل رجال الدين في الحياة العامة. ونظرته أن الدين لله والوطن للجميع.

ورفض الحصري النظرية التي تعتبر وحدة الحياة الاقتصادية من الأمور الضرورية لتكوين الأمة. والنظرية تقول إن الأمة تقوم على أربعة أركان أساسية، هي وحدة الأرض، ووحدة اللغة، والنفسية المشتركة ووحدة الحياة الاقتصادية، فهو يرى أن المشاعر الوطنية والقومية لا ترتبط بالمنافع المادية ولكنها فوقها وتشبه حب الأم.

وهو يقر بأن العوامل الاقتصادية تلعب دوراً مهماً في حياة الأفراد والجماعات وتؤثر تأثيراً قوياً في أحداث التاريخ واتجاهاته، ولكن ذلك لا يسوغ اعتبارها حجر الزاوية في صرح القومية.

كما أن وحدة الحياة الاقتصادية تكون مع الدولة، وهذه غير قائمة.

وهو يميز بين الأمة والدولة، بما يتمشى ووضع البلدان العربية، فقد تكون حدود البلاد التي تقطنها الأمة منطبقة على حدود الأراضي التي تحكمها الدولة وقد تكون مختلفة عنها. وقد تكون الأمة «واحدة» على الرغم من كون الدول التي تحكمها متعددة (كحال الأمة العربية)، وقد تكون الأمة موجودة على الرغم من عدم وجود دولة تسوسها... وهو يجد الألمان أعمق تفكيراً وأصدق تعبيراً من الفرنسيين في هذه القضية. وينتهي إلى القول «فأقول إن مفهوم الأمة يجب أن يفصل عن مفهوم الدولة فصلاً تاماً».

وهو يرى أن الأمة «عضوية اجتماعية طبيعية» ذات كيان معنوي خاص، فيحق لها أن تستقل في إدارة شؤونها... وان تؤسس «دولة خاصة بها» مستقلة عن غيرها.

وفي ثنايا كتابات الحصري عودة للتاريخ الإسلامي، وتأتي عادة فيما يتصل بالعروبة.

فهو يرى أن العروبة ثقافة أساسها اللغة، ويرى أن العرب قبل الإسلام كانوا قلة، في الجزيرة العربية وعلى أطراف بعض البلاد المجاورة.

أمّا توسع حدود العروبة إلى سائر أنحاء الوطن العربي الحالي، فقد تم بفضل

الفتوحات العربية، وما تلاها من تعريب. ويذكر أن معظم أقسام العراق والشام وجميع أنحاء افريقية الشمالية كانت غير عربية ولم تستعرب إلاّ بعد الإسلام.

وبهذا المفهوم أوضح أن العروبة قديمة في تاريخ العرب، ولكن الوعي بها حديث. وهنا أبين أن اعتبار اللغة العربية أساس تكوين الأمة العربية فكرة نادى بها المفكرون العرب منذ القرن الثالث الهجري حتى ابن خلدون.

وقد أبدى الحصري ملاحظة ذكية متقدمة في هذا النطاق حين انتقد المؤرخين والكتّاب في تاريخ الإسلام بأنهم لم يقدروا أحداث الاستعراب حق قدرها، فاكتفوا بتفصيل الفتوحات وما تبعها من أحداث سياسية دون أن يعيروا قضايا «استعراب البلاد المفتوحة أدنى اهتمام»، ولا أعرف من التفت إلى هذه الملاحظة بعده.

إن الهدف الأساسي للقومية عند الحصري هو الوحدة العربية. فهو يؤمن بها «إيماناً عميقاً» ويقول «بوجوب العمل من أجلها عملاً متواصلاً». ويقول «إنني أعتقد اعتقاداً جازماً بأن الوحدة العربية ضرورية لحفظ كيان الشعوب العربية كما أعتقد أنها طبيعية بالنسبة إلى حياة الأمة العربية وتاريخها الطويل»، ويرى حتمية تحققها.

وهو يكرر أن كل من ينتسب إلى البلدان العربية ويتكلم اللغة العربية هو عربي، بصرف النظر عن الدولة التي يحمل جنسيتها وعن ديانته ومذهبه وأصله ونسبه، ويرى أن الفروق والاختلافات التي تشاهد بين الدول العربية من حيث النظم المختلفة والاتجاهات السياسية، إنما هي بأجمعها من مواريث «عهود الاحتلال».

أما الحدود الفاصلة بين الدول العربية، فلم تتقرر وفق مصالحها، وإنما وفق مصالح الدول المستعمرة بعد مساومات ومناورات.

وهو يرى من أسباب التجزئة الاستعمار وخضوع البلدان العربية إلى عدوان الدول الغربية، فصار النضال مجزءاً في كل بلد، وتكونت كيانات في الأجزاء، ولذا يحاول في بعض دراساته ومناقشاته تبيان العوامل التي كانت وراء إقامة بعض الدول العربية بعد الحرب العالمية الأولى.

ويحاول الحصري بيان الضرر الكبير الذي تسببه التيارات الإقليمية لمصالح البلدان العربية، كما يتناول دور الدول الأجنبية في إثارة الخلافات وتقوية الإقليمية بشتى الوسائل لتحول دون اتحاد الأمة.

كما يشير إلى آثار التجزئة في خلق مصالح لفئات مع الدول الإمبريالية وقيام طائفة من الزعماء والحكام والساسة الذين «ترتبط مفاهيمهم ومطامعهم بالأوضاع السياسية القائمة، فينزعون إلى المحافظة على كيان الدولة ولا يرضون بزوال هذا الكيان داخل دولة موحدة».

وبذل ساطع الحصري جهداً كبيراً في الرد على التيارات المضادة لحركة القومية العربية إقليمية وعالمية وغيرها.

أما سبيله لتحقيق الوحدة فيقول «إني أعتقد أن أول ما يجب عمله لتحقيق الوحدة العربية في الأحوال الحاضرة هو إيقاظ الشعور بالقومية العربية وبث الإيمان بوحدة هذه الأمة»، وعندما يستيقظ هذا الشعور تمام اليقظة، وعندما ينتشر هذا الإيمان ويرسخ في النفوس، تتوضح السبل وتتمهد الطرق أمام الوحدة العربية وتزول العقبات وتنهار العوائق التي تعارضها فيها بكل سهولة «ولذا فأنا أسعى على الدوام وراء إيقاظ الشعور بالقومية وبث الإيمان بوحدة الأمة العربية».

مع أن الحصري لا يتناول مسألة النظم، فإنه يرى أن الاتحاد بين الأقطار العربية يجب أن يكون على أساس النظام الفدرالي.

إن نظرية الحصري للأمة وللوحدة جعلته يميز صنفين من الوطنية، فهناك الوطن الخاص الذي يتحدد بحدود كل دولة من الدول القائمة، والوطن العام الذي يشمل جميع الأراضي التي تسكنها شعوب الأمة على اختلاف دولها وأوضاعها السياسية. فالأمة التي تكون دولة مستقلة موحدة تتبعها حدود الوطن (العام)، وأما الأمة المجزأة فيكون لها وطن لكل دولة ووطن عام منشود للأمة.

وفي هذا المجال رأى ساطع الحصري للثقافة دوراً كبيراً في تحقيق الوحدة. والثقافة تنحصر بالأمور الذهنية والمعنوية وتتجلى بأحلى مظاهرها في اللغات والآداب بوجه خاص. والثقافة تكون قومية. وهنا يأتي اهتمامه بتدريس التاريخ القومي، وبالعناية باللغة، وبالسعي لتوحيد المناهج التعليمية بين البلدان العربية في المواد المهمة للثقافة القومية كتاريخ الأمة العربية واللغة والأدب وجغرافية البلدان العربية.

كما عمل على إصلاح التعليم (في العراق وسوريا) وتخليصه من التبعية للأنظمة الأجنبية، إذ قال «إذا ما عارضت النظم الإنجليزية في الأولى (العراق) والفرنسية في الثانية (سورية) فإنما فعلت ذلك لغاية واحدة هي إيجاد نظم تعليمية خاصة بالبلاد العربية وتكوين ثقافة مشتركة بين جميع الأقطار العربية».

لقد وضع الحصري نظرية في القومية العربية، أفاد في وضعها من الفكر الغربي في القومية، ومن مفاهيم تراثية، آخذاً في الاعتبار واقع البلدان العربية ومتجهاً إلى الوحدة العربية. وقد استقرت المفاهيم الأساسية التي قدمها ولا تزال في جلها مقبولة.

نلاحظ هنا أن المفكرين في الخط الإسلامي الإصلاحي مثل الكواكبي والأفغاني لم يروا تعارضاً بين القومية والدين، بينما اتخذ الحصري وجهة علمانية.

ـ ٤ ـ

ويمكن الإشارة هنا إلى مفكرين وأحزاب في الاتجاه القومي معاصرين للحصري، للمقارنة في بعض الأمور.

يلاحظ أن الحركة القومية تجزأت بعد الحرب وعمل كل جزء منها على استقلال القطر أكثر مما عمل لتحقيق الهدف القومي بإقامة دولة عربية موحدة.

ومع ذلك ظهر تنظيم أو أكثر بدعوة قومية عامة، مثل عصبة العمل القومي.

وبعد الحرب العالمية الثانية نلاحظ اتساع الدعوة إلى الوحدة العربية بعد استقلال معظم البلدان العربية، والالتفات إلى وضع محتوى اجتماعي اقتصادي للقومية العربية في ضوء حالة التخلف في البلدان العربية، وأخيراً الاتجاه إلى العمل الحزبي.

كما ظهرت اتجاهات متعددة في الحركة القومية. فإذا كان ساطع الحصري يمثل الاتجاه القومي، فهناك الاتجاه الليبرالي الذي مثله قسطنطين زريق، والاتجاه الاشتراكي لدى البعث.

حاول زريق تقديم فكر يعالج المهمات الأساسية في البناء القومي، ودعا إلى تبني المؤسسات الغربية خطوة أولى لمواجهة تحديات العصر. وتنطوي محاولته على صياغة برنامج يعتمد على المفاهيم التحررية الأنكلوسكسونية.

وهو يبدأ بالإشارة إلى أن الأمة العربية تتخبط في فوضى نظرية، وأن العامل الأكبر في ذلك هو «فقدان الشعور القومي الصحيح»، وهو في ذلك يذكر بإشارة الحصري إلى ضعف الإيمان القومي، وقوله «إن النضال في سبيل النهضة القومية يتطلب بذل الجهود لبث «الإيمان القومي» في النفوس ولتقويته». وإذا كان الحصري ينسب هذا الضعف لعوامل كثيرة، فإنه يكتفي بذكر أهمها وهو «سوء

نظرنا إلى تاريخ الأمة العربية من جهة، وعدم توسعنا في دراسة تواريخ الأمم المختلفة من جهة أخرى»، ويدعونا إلى أن نكتب تاريخنا على نمط جديد بعقلية غربية ونزعة قومية.

أمّا زريق فيناقش عناصر من الوعي القومي، ومن بينها فهم تاريخنا والعوامل التي كونته لينتهي إلى أن الأمة العربية لها شخصية خاصة تنفرد بها، وهي «شخصية مؤلفة من عناصر مختلفة أهمها اللغة والثقافة والتاريخ المشترك». وهذا يذكرنا بمكونات الأمة، اللغة والتاريخ، عند الحصري. وأشار زريق إلى أصل الجنس العربي وانتشاره وسيادته على الأجناس الأخرى وامتزاجه بها، ثم إلى هذه المشكلة في لبنان، ودعا إلى تجاوزها والنظر إلى ما هو أهم منها «إلى اللغة والثقافة والعادات والذكريات التاريخية والمصلحة الحاضرة والمستقبلية»، فوسع الروابط القومية. أمّا الحصري فتجاوز موضوع الجنس أصلاً باتخاذه التعريب أساساً للعروبة.

وبعد هذا فبينما يرى زريق أن الظاهرة القومية من البديهيات التي لا تحتاج إلى إيضاح، فإن الحصري كتب الكثير ليوضح ما هي القومية، ولكل موقف دلالته.

ويمكن الإشارة إلى حركة القوميين العرب التي أثر الحصري في فكرها ابتداء (إلى جانب أثر زريق وعلي ناصر الدين)، وهذا يصدق بصورة خاصة على المرحلة الأولى (حتى أواخر الستينيات).

كان لأفكار الحصري دور مهم في فكر الحركة في هذه المرحلة بما في ذلك تأكيده على ضرورة انصهار الفرد في المجتمع، ورفض الاعتراف بشرعية الكيانات القائمة وضرورة انصهارها في جسم واحد. وهذا إلى تأكيده على أن للغة الدور الأول في تكوين الأمة والقومية.

ويبدو اهتمام الحركة بفكره في أنها جعلت قراءة كتبه من أوليات شروط العضوية.

ونشير إلى علي ناصر الدين، لأثره في عصبة العمل القومي، ثم لأثره الكبير في فكر القوميين العرب.

فهو يرى أن القوميين العرب يريدون إنشاء كيان قومي عربي موحد، أي دولة عربية اتحادية كبرى تستند إلى القومية الخالصة.

ويعرّف العربي بأنه من كانت لغته العربية، وإن الأقطار العربية لغتها

العربية، ويعددها في آسيا وشمال افريقيا والسودان، وهي تؤلف وطناً واحداً هو الوطن العربي.

وهذه توازي آراء الحصري.

أمّا الأمة عنده فهي «الجماعة من الناس التي تتوفر لها وحدة اللغة والتاريخ والأدب والذكريات والتقاليد والمنافع والمطامح». ومع أنه تعريف مفهوم في الفكر القومي، إلاّ أنه يضيف التقاليد والمنافع والمطامح.

وهو لا يرى «وحدة السلالة» شرطاً لتكوين الأمة، ويرى أن الأمة غير الدولة، وأن وحدة الأرض ليست شرطاً لوجود الأمة، بل شرط لوجود الدولة.

ويرجع إلى وحدة اللغة ليبين أنها اللغة الفصحى، لغة الأدب، ويلاحظ اتصال تاريخ أهل البلدان العربية تاريخياً، مما يحتم أن تكون ذكرياتهم واحدة.

ثم يتناول «القومية» ويعرّفها، ثم يعرّف الأمة بأنها قوم تجمعهم روابط فيكرر ما ذكره من قبل.

والأمة بنظره «فوق النسب والشعور والإرادة، مسألة عوامل لغوية واجتماعية وتاريخية وثقافية واقتصادية خلال قرون كثيرة متعاقبة». وهو هنا يرفض المشيئة أو الإرادة ويعطي التاريخ دوره، والشبه واضح بآراء الحصري، بل إنه يرى التعريب أساس تكوين الأمة العربية، وانه تم بعد الفتح العربي، وقد أشار الحصري إلى هذا.

وأخيراً يرى أن قضية العرب الكبرى هي قضية إنشاء دولة اتحادية كبرى، ويحاول توضيح الخطوط الكبرى للكيان العربي القومي، ويقول «نعمل كي يتحد العرب ويتحرروا ويستقلوا، إذ لا يمكن أن يستعيدوا تراثهم إذا هم لم يتحدوا ولم يتحرروا ولم يستقلوا».

وهكذا يتبين الشبه الواسع بين آراء علي ناصر الدين وآراء الحصري.

ولننظر إلى شيء من فكر القوميين العرب في المرحلة الأولى في كتاب: **مع القومية العربية** للحكم دروزه وحامد الجبوري، لنجد بعضاً من آراء الحصري (وعلي ناصر الدين).

فالقومية تعرّف بأنها الشخصيّة الجماعية للأمة، إذ «وجدت لدى كل جماعة من الجماعات البشرية لغة خاصة وتاريخ خاص وعادات وتقاليد خاصة وثقافة خاصة، وتكونت في أعماق التاريخ لدى كل جماعة شخصية متميزة».

والقوميات بدأت تتشكل منذ زمن بعيد في التاريخ، وهذا يشبه ما يقوله الحصري عن تكوين العروبة (ولكن الإشارة لأدوار التاريخ ليست واضحة).

ويبين أن الشعور القومي يتكون في التاريخ ويستند إلى وحدة في الروابط القومية، وحدة في اللغة والتاريخ والثقافة والمصلحة والأرض.

ثم رد تناول أسس القومية على أنها وحدة اللغة والتاريخ والثقافة والوطن والمصالح والعادات والتقاليد والأهداف.

وهنا نجد إضافة «الوطن» أو الأرض إضافة للمصالح.

ويشار إلى أن الكتّاب الذين بحثوا موضوع القومية اختلفوا في تحديد الأهمية النسبية للأسس والروابط في تكوين القوميات بين الأرض والمناخ للبعض، وعنصر الإرادة في العيش وتقرير المصير، وأهمية الدين الواحد في إيجاد القومية، وأسطورة العنصر الواحد، مع إشارة إلى رأي الحصري دون ذكره «كما قال البعض بأن اللغة الواحدة والتاريخ الواحد هما الأساسان الأولان في تكوين القومية». ويخلص الحديث إلى أنه لا توجد قاعدة عامة في ذلك وأن لكل قومية ظروف نشأتها الخاصة من حيث أهمية بعض الروابط بالنسبة للأخرى. وهذا يتماشى ورأي الحصري، كما أن الأمثلة التي وردت تذكر بما جاء في مناقشات الحصري.

ثم يكرر أن القومية نشأت في التاريخ، وأن ما ظهر في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر والقرن العشرين هو تبلور الشعور القومي. وبعد هذا نرى رفض الرأي بأن الاستعمار أوجد القومية أو أنها تيار أوجدته الطبقات البرجوازية لاستغلال الشعب كما تقول الماركسية، بل هي واقع تاريخي اجتماعي أقدم من كل ذلك.

القومية العربية هي الشخصية الجماعية للأمة العربية. وهي واقع حياة العرب التاريخي واللغوي والجغرافي والثقافي. وكل ما يحوي هذا الواقع من عادات وتقاليد ومصالح وأهداف واحدة.

أما روابط القومية العربية فهي اللغة والتاريخ والثقافة والوطن والمصلحة والإرادة الواحدة. وهنا دخل عنصر الإرادة الذي رفضه الحصري.

وفي تحديد العربي نرى اللغة العربية والتاريخ العربي والانتماء إلى المجتمع والوطن العربي.

وفي الحديث عن اللغة نجد شبهاً واضحاً بآراء الحصري.

كان الانتقال من نظرية القومية «الخالصة» قومية اللغة والتاريخ، إلى النظرية الشاملة ذات المحتوى الاقتصادي والاجتماعي بالدرجة الأولى في مبادئ حزب البعث العربي الاشتراكي الذي نشأ في أوائل الأربعينيات.

وما يرد هنا بصدد فكر الحصري هو بعض الإشارات الأولية.

يقول ميشيل عفلق «نحن صدرنا من البدء عن فكرة وليست نظرية، إذ انها مستمدة من صميم هذا الشعب العربي الممتد على هذه الرقعة».

وهو يتخذ نظرة عاطفية للقومية... ف «القومية حب قبل كل شيء» و«هي نفس العاطفة التي تربط الفرد بأهل بيته».

والقومية قدر محبب، فالقومية وجود لا حاجة للتعريف بها ولا تطرح نفسها كقضية. وهو يخشى أن تسفر القومية عندنا إلى المعرفة الذهنية والبحث الكلامي، فتفقد بذلك قوة العصب وحرارة العاطفة، وهذه كما تبدو نظرة مخالفة لنظرات الآخرين».

الحب أولاً والتعريف يأتي بعده.

«وإذا كان الحب هو التربة التي تتغذى قوميتكم منها فلا يبقى مجال للاختلاف على تعريفها وتحديدها، فتكون روحية سمحة بمعنى أنها تفتح صدرها وتظلل بجناحيها كل الذين شاركوا العرب في تاريخهم وعاشوا جو لغتهم وثقافتهم أصلاً فأصبحوا عرباً في الفكرة والعاطفة». وفي هذا التحديد قرب من فكر الحصري.

ويقول عفلق «إن القومية العربية لدى البعث هي واقع بديهي يفرض نفسه دون حاجة إلى نقاش أو نضال». وهو يرى أن «حركة البعث لم تكن استمراراً لما قبلها، بل كانت عبارة عن انقطاع أو بتر إرادي واع، وارتفاعاً إلى مستوى جديد من التفكير والأخلاق والجو الروحي».

«أما مجال الاختلاف وضرورة النضال فهما في محتوى هذه القومية، وهذا المحتوى متطور يحتاج في كل مرحلة من مراحله إلى نظرية قومية تلائمه».

وهكذا يقول «لهذا لا موجب لأن نناقش من أننا عرب أم لا، ولكن يجب أن نختار ونحدد مضمون العروبة في المرحلة الحاضرة، أتكون رجعية أم تقدمية؟ أتستقيم مع الاستعمار والاستبداد أم أن شرطها الحرية؟ وهل تبقى مع التجزئة أم أن الوحدة شرط أساسي لها»، وهنا تظهر النقلة النوعية.

لذا فرق حزب البعث، بحسب عفلق، منذ تأسيسه بين «الفكرة العربية» ويقصد بها القومية العربية، وبين «النظرية القومية» فقال: إن الفكرة العربية هي بديهية وخالدة وهي قدر محبب، حب قبل كل شيء، وأمّا النظرية القومية فهي التعبير المتطور عن هذه الفكرة الخالدة بحسب الزمان والظروف، أي أن النظرية القومية تنصب على المحتوى لا على الإطار. وهذه النظرية تتمثل اليوم ـ بحسب عفلق ـ في الحرية والاشتراكية والوحدة.

وهو يذهب إلى «أن القومية العربية هي قومية وعربية»، قومية لأن فيها الشروط الابتدائية لكل قومية، وعربية بمعنى أن فيها التطور الخاص بالأمة العربية عبر مختلف العناصر والحضارات والأزمنة، وأن الصيغة العربية المشتركة التي وحّدت بين هذه العناصر جميعاً هي التي استمرت دون انقطاع.

وحين يوضح ذلك الاستمرار يقول «وكانت اللغة العربية أبرز عنوان لهذا الاستمرار بما تتضمنه اللغة عادة من وحدة في التفكير وفي المبادئ والمثل. وبهذا المعنى فقط يأخذ التاريخ قيمته في قوميتنا، تاريخنا بالدرجة الأولى، والتاريخ العام بالدرجة الثانية».

وهو يرى أن التجزئة علة المشاكل، وأن الوحدة هي العلاج لها، وأنها الإطار الذي تتحد من خلاله بقية الأهداف في الحرية والاشتراكية.

وعفلق يرى أنه «لا يمكن تحقيق الوحدة العربية تحقيقاً جدياً ومتيناً وصامداً للزمن إلاّ إذا حدث انبعاث روحي في المجتمع العربي»، ف «الوحدة العربية هي نتيجة الانقلاب الروحي في المجتمع العربي، وهي أيضاً في نفس الوقت سبب من أسباب هذا الانقلاب».

الوحدة العربية هدف المفكرين القوميين عامة، وينفرد عفلق بهذا التوجه.

ناقش الحصري في مقالاته ودراساته الأفكار السائدة في مصر من فرعونية ومتوسطية وغيرها، وأوضح أسس الفكرة القومية والوحدة العربية.

وكان أول من أكد عروبة مصر، ونوه بدورها المنتظر في الفكرة العربية والوحدة العربية، فهو بيّن أن الطبيعة زودتها بكل الصفات والمزايا التي تحتم عليها أن تقوم بواجب القيادة في إنهاض القومية العربية من موقع متقدم في الحضارة، ومركز ثقافي. ورجع لتاريخها ليبين أن مصر كانت دائماً متصلة ببلاد الشام. «فلا مجال للشك في أن مصر من البلاد العربية ما دامت تشترك مع جميع تلك البلاد في اللغة وفي الثقافة وفي هذا التاريخ الطويل، فضلاً عن اشتراكها في المصائب

والمخاطر، فضلاً عن اتصالها اتصالاً جغرافياً مباشراً يجعلها في القلب من هذا العالم العربي الفسيح».

ويفترض أنه كان لكتاباته بعض الأثر.

الناصرية لم تكن ابتداءً نظرية، بل مجموعة آراء تعرضت لتجارب وممارسات تكونت عنها النظرية.

كان لدى الضباط الأحرار بدايات تفكير عربي. ولكن الثورة قامت ابتداءً لتحقيق هدفين: ثورة سياسية تعطي الشعب حقه بحكم نفسه، وثورة اجتماعية تنتهي إلى تحقيق العدالة لأبناء الوطن.

وفي الصراع مع الاستعمار اتضحت آفاق الثورة، وحددت الدوائر الثلاث: العربية والافريقية والإسلامية. يقول عبد الناصر عن الأولى «أيمكن أن نتجاهل أن هناك دائرة عربية تحيط بنا وأن هذه الدائرة منا ونحن منها، امتزج تاريخنا بتاريخها وارتبطت مصالحنا ومصالحها حقيقة وفعلاً؟» وفي ذلك إشارة إلى أن مصر في الأساس عربية وأن لها وحدة تاريخ ومصالح مع العرب.

العرب أمة واحدة، و«لنا قومية تجمعنا من المحيط إلى الخليج. كلنا عرب نتكلم لغة واحدة».

«وكانت قوى الاستعمار هي التي فرضت هذه التقسيمات على عكس الطبيعة والتاريخ، وعلى عكس إرادة الشعوب» (٢٠ أيار/مايو ١٩٦٤).

وكان عبد الناصر قد أعلن «ان هدف حكومة الثورة أن يكون العرب أمة متحدة» (٢٣ تموز/يوليو ١٩٥٤)، وكرر ذلك «سياستنا تهدف إلى جعل العرب أمة واحدة» (٢٣ تموز/يوليو ١٩٥٥).

وتحدث عبد الناصر عام ١٩٦٢ عن الدوائر الثلاث بوضوح أكبر، فسمى الدائرة الأولى الوحدة العربية، وأضاف «فنحن أولاً وقبل كل شيء أمة عربية، ولذا فإن الوحدة العربية هي في مقدمة ما نفكر فيه».

والناصرية ترى اللغة العربية عنصراً أساسياً في تكوين الأمة. فعبد الناصر بيّن أن العربي «كل من كانت اللغة العربية هي لغته الأصلية»، و«العرب جميعاً يتكلمون لغة واحدة».

حدد الميثاق عناصر الأمة العربية: «وحدة اللغة التي تصنع وحدة الفكر والعقل»، «ووحدة التاريخ التي تصنع وحدة الضمير والوجدان»، «ووحدة الأمل،

إذن وحدة المستقبل والتفكير» (٢٧/٩/ ١٩٦٠).

يقول عبد الناصر (٩ تموز/يوليو ١٩٦٠) «إذا كان تاريخ أي أمة هو صانع ضميرها، فلغة أي أمة هي صانعة فكرها، فإذا كان للعرب وحدة الضمير ووحدة التفكير، فمعنى ذلك أن العرب أمة واحدة».

ألا نرى جل هذه المفاهيم في فكر الحصري؟

يرى عبد الناصر أن القومية العربية تكونت في التاريخ، إذ يبين مثلاً أن الحروب الصليبية لم يكن هدفها إلاّ القضاء على القومية العربية (٢٦ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٨) وكأنه يريد بذلك الأمة العربية، لأنه في إشارته إلى الوجهة القومية يبين أن القومية العربية لم تكن موجودة عام ١٩٥٢ وأنهم أعلنوها في أول ثورة ١٩٥٢ (٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٨).

وهذا ينسجم مع فكرته حين يقول: «إن الشعوب العربية عاشت كأمة واحدة، بل جمعتها في أطول فترات التاريخ دولة واحدة» (١٠ أيار/مايو ١٩٦٤).

فهو يميز بين تكوين الأمة العربية، وبين اتخاذ القومية فكرة ونهجاً. وهذا يذكر بتمييز الحصري بين العروبة في التاريخ، وبين الحس بها في العصر الحديث.

وبعد، فهذه محاولة أولية لتبين دور ساطع الحصري في الفكر القومي، والموضوع يستحق دراسات أشمل وأعمق.

تعقيب (١)

محمد عودة(*)

أعتقد أن أهم ما خلفه ساطع الحصري، أو أهم أثر له، هو شخصيته التي كان لها كاريزما خاصة، وكان يتميز بأسلوبه السهل الممتنع الذي استطاع أن يصل بآرائه إلى مساحة عريضة من المثقفين والباحثين عن المعرفة، كما استطاع أن يصل بهذا الفكر في مرحلة كانت عاصفة، وهي التي تلت الحرب العالمية الثانية، إذ أصبحت البلدان العربية بعدها هدفاً لمطامع واسعة وعاتية، واستطاع الحصري أن يضع القومية العربية كفكرة شعبية لها جمهور عريض في ذلك الوقت.

والحقيقة أن أهم ما يميز هذه الورقة التي قدمها د. عبد العزيز الدوري، أنها تذهب رأساً إلى الموضوع وتبدأ بالقول ان ساطع الحصري هو أول من وضع نظرية للقومية العربية. والواقع في رأيي أن القومية العربية ليست في حاجة إلى نظريات، فهي عاشت ما عاشت الأمة العربية، ومنذ أن خرجت هذه الأمة إلى التاريخ لم تختف، وإذا أردنا أن نعرف أن القومية هي اللغة والتاريخ فإن العرب قد خرجوا إلى التاريخ في القرن السادس وبعقيدة غيرت حياة الإنسانية كلها، وكانت هناك أمم تعربت وأسلمت، وأمم أخرى أسلمت فقط، وأقليات تعربت فقط، ومن هذا المحيط الواسع كانت الحضارة العربية الإسلامية. ثم تحول التاريخ وصادفت الأمة العربية من الابتلاءات والاختبارات ربما ما لم تصادفه أمة أخرى، فقد واجهت مثلاً مائتي عام من الحروب الصليبية، التي كانت حروباً استعمارية، وانتهت بانتصار العرب وهزيمة الصليبيين، ثم واجهت تحدياً آخر تمثل في الاستعمار الأوروبي الذي بدأ بسقوط غرناطة، وبدأ برحلة فاسكو دي غاما الذي أراد أن يلتف حول ظهر الإسلام وينتزع تجارة التوابل من العرب الذين ادعى أنهم

(*) صحافي وكاتب مصري.

أعداء المسيح. ثم بدأ تقسيم الأمة العربية منذ ذلك الحين، منذ القرن الخامس عشر حتى القرن العشرين، إذ وقع العرب تحت سيطرة عصر السيادة الأوروبية، وكان أن قُسمت البلاد العربية كالكعكة بين كل أنواع الاستعمار. وربما قاست الأمم الأخرى استعماراً واحداً، إلاّ أن الأمة العربية وُزعت بين الإنكليز والفرنسيين والإيطاليين والألمان. وكانت روسيا القيصرية تريد الاتجاه إلى المياه الدافئة، وأرادت كل دولة استعمارية فرض ثقافتها ولغتها على الدول التي بسطت سيطرتها وهيمنتها عليها، ومن ثم أصبح هناك تشتت عقلي وفكري وروحي، ولكن منذ اللحظة الأولى كانت المقاومة العربية باسلة، وانتهت هذه المقاومة العربية بانتصار تاريخي، حيث سقطت الامبراطورية البريطانية وانتهت في خليج السويس، كما سقطت الامبراطورية الفرنسية ودفنت في الجزائر، وانتهى عصر السيادة الأوروبية على يد العرب، ولكن بمجرد انتهاء خمسمائة عام من الاستعمار الأوروبي وُوجه العرب بعدوّ آخر بعد عام ١٩٥٦ عندما رأى الأمريكان أن هناك فراغاً في منطقة الشرق الأوسط بعد سقوط الامبراطوريتين البريطانية والفرنسية ولا بد من أن تملأه الولايات المتحدة. ومن هنا كانت المواجهة الحادة والعنيفة بين الولايات المتحدة وعبد الناصر، ولكن المعركة بدأت مع استعمار جديد وهيمنة جديدة أقوى من كل ما فات وهو الاستعمار الأمريكي، الذي ظلت مصر تواجهه منذ عام ١٩٥٦ وحتى عام ١٩٦٧. وحينما استقلت الجزائر رفعوا شعار لا نريد كوبا ثانية في البحر الأبيض. وحينما قام العراق بعض الشيء استدرجوه إلى حرب مع إيران، ثم إلى مأساة العراق، وكل هذا لعدم وجود أي قوة عربية في هذه المنطقة. ومن هنا فالمواجهة الأمريكية هي ـ في رأيي ـ مواجهة من نوع جديد لأن الولايات المتحدة فرضت دولة جديدة في المنطقة وقررت ـ كقاعدة استراتيجية ـ أن هذه الدولة الجديدة ـ وهي إسرائيل ـ لا بد من أن تتفوق تفوقاً نوعياً على كل الدول العربية مجتمعة، وبالفعل مكنتها من هذا الوضع.

إذن فهذه هي المشكلة العربية، وهذه هي القضية العربية التي يجب أن ندرس ساطع الحصري وأثره في ظل حقائقها هذه، فنحن نعيش الآن مواجهة عاتية، مع استعمار جديد بطول الأمة العربية وعرضها، وبكل الوسائل والحرب الاقتصادية والسياسية والعسكرية. ومن هنا فالعرب قاموا منذ البداية، ولم تكن القومية فقط مجرد اللغة والتاريخ، ولكن لا تصلح اللغة والتاريخ من غير تصنيع ـ فالمانيا مثلاً اتبعت تصنيعاً مكثفاً لتسبق به انكلترا وفرنسا ـ أو تسليح بأسطول ينافس الأسطول الإنكليزي. ولم يكن من الممكن تحقيق القومية الألمانية وفرض الوحدة الألمانية وإتمامها لولا ذلك.

وثمة نقطة أخرى أود الإشارة إليها وهي خاصة بما ذكره د. عبد العزيز الدوري من أن ساطع الحصري كان أول من أكد عروبة مصر، والواقع أن بالمرستون وزير خارجية انكلترا في أوائل القرن الماضي ذكر أن ما يريده محمد علي هو إقامة دولة عربية عصرية غنية قوية تحل محل الامبراطورية العثمانية المريضة، وقال إن هذا ربما يكون شيئاً جيداً ولكنه ضد المصالح الأوروبية العليا. وقد حدثت مناقشة حادة جداً في مجلس العموم البريطاني بين الذين قالوا بأن قيام دولة عربية غنية قوية عصرية سوف ينقل الحضارة ويجعل الحضارة الغربية تتعايش مع الشرق، ومن ثم يحل مشكلة الشرق والغرب. ولكن انتصر الرأي القائل بأن قيام هذه الدولة التي كان يريد محمد علي إقامتها سوف يكون خطراً على المصالح الأوروبية العليا وليس المصالح البريطانية فقط. وأود الإشارة هنا إلى أنه لأول وآخر مرة في التاريخ اتحدت أوروبا كلها ضد عدو مشترك هو محمد علي، بل لقد جاء الأدميرال تشارلز نابييه لكي يصفّي محمد علي، ولكنه أصبح من أنصاره. وكان هناك ضباط حاربوا مع ابراهيم باشا وقالوا إن جيش ابراهيم باشا ومحمد علي قوة حضارية لا بد من تأييدها. ومن هنا نشأ الخطر العربي وأصبح الهدف هو إبعاد مصر عن المحيط العربي وهو ما ظلت تؤيده بريطانيا وغيرها من القوى الدولية الكبرى.

ما أريد قوله ان الفكرة العربية رسخت وترسبت في مصر بعنف، وأشير هنا لما قاله الخديوي اسماعيل من أننا لا نريد أن نجعل مصر قطعة من أوروبا ولكن أن نجعلها الجسر الذي تتفاعل عليه الحضارة العربية والحضارة الأوروبية. وفتح الخديوي اسماعيل مصر لكل المثقفين العرب الذين قدموا إلى مصر وأغنوا الثقافة العربية، ومن ثم بدأوا في مدها إلى افريقيا. وأيضاً أشير هنا إلى أن الثورة العرابية عندما قامت كانت ثورة مصرية، وكان من أبرز رجالها محمود سامي باشا البارودي الذي كان يؤمن بجمهورية عربية تجمع كل الناطقين باللغة العربية وتستطيع أن تكون قوة محايدة، للسلام، في هذه المنطقة. وقد حدث أن أرسل الخديوي توفيق للسلطان عبد الحميد يقول له إن العرابيين يريدون بعث مشروع محمد علي ونقل الخلافة العربية للقاهرة. وكان هذا من أسباب مساعدة السلطان عبد الحميد للإنكليز، وقام بإصدار فتوى إسلامية بأن الثورة العرابية ضد الإسلام ومارقة عن الدين، وعندما زار الخديوي عباس حلمي استانبول أرسل له المسؤول السوري عزت العابد، وكان مستشاراً للسلطان، يقول له أرجو أن تدرك أن السلطان مستريح إلى وجود الإنكليز في مصر لأنه يرى أنهم ضمانة ضد طموحات أولاد محمد علي.

ومن هنا أؤكد أن الفكرة العربية كانت موجودة في مصر. وأشير إلى أن فكرة الحزب العربي الذي كان سيقوم في مصر عام ١٩١٣، الذي يؤكد في مشروعه أن المصريين ينتمون إلى «الأمة العربية ذات الفضل العظيم في حفظ الإسلام ونشر راياته على أرجاء المعمورة، وما مجد الترك الحاضر إلا بعض مجد العرب الغابر، ولولا العرب أنفسهم لما قام الترك».

كما يؤكد هذا الحزب العربي المصري على أن العروبة تجمع بين المسلم والمسيحي، ومن الخطأ خلط اللغة والأدب بالدين، فاللغة لا تختص بدين دون آخر، كما أكدت اللغة على الوحدة الوطنية بين المسلمين العرب والمسيحيين العرب عبر التاريخ، وكشفت عن دور المسيحيين في الحضارة العربية، وأنهم والمسلمين شركاء في جميع المناصب والمباحث. وكذلك يذهب هذا الحزب إلى تأييد المؤتمر العربي المنعقد في باريس، حيث اعتبر أن هذا المؤتمر حجة أمام أوروبا على أن للعرب وجوداً حياً لا يُستهان به، وخصائص قومية لا يمكن انتزاعها، وأن هذا المؤتمر يمثل الأمة العربية ويحقق كلمة التضامن الاجتماعي. ويشير مشروع هذا الحزب أيضاً إلى أن ما يتهدد فلسطين هو أخطار الاستيطان الصهيوني، فقد سُلبت نصف أملاك وعقارات وأراضي الوطنيين في فلسطين، وانتقلت هذه الأراضي إلى الإسرائيليين المستعمرين الذين لا يزالون يبذلون كل جهودهم لامتلاك ما بقي. وقد أسس لهذه الغاية عدد كبير من الشركات والمصارف ترمي لغاية واحدة هي تحقيق المملكة الإسرائيلية. إذن هذا الوعي كان موجوداً في مصر العربية عام ١٩١٣.

وأشير أيضاً في هذا الصدد إلى أنه في عام ١٩٣٦ دُعي مكرم عبيد سكرتير عام حزب الوفد المصري إلى القدس وألقى هناك خطاباً مشهوراً في الهيئة العربية العليا صاحبة الدعوة، وأشار في خطابه إلى قولته المشهورة «نحن عرب.. نحن عرب.. نحن عرب»، وهذا الحديث من جانب مكرم عبيد كان له أكثر من مغزى. ولا ننسى في هذا الصدد أن حزب الوفد هو الذي مهّد للجامعة العربية، وكان الإنكليز يريدون الهيمنة والسيطرة على الجامعة العربية، وأن يجعلوها أداة في المواجهة مع الأمريكان والروس، وكان أن بذلت حكومة الوفد مجهوداً كبيراً في التوفيق بين الهاشميين والسعوديين والقوميين.

وبالنسبة لما أثاره د. الدوري عن عبد الناصر والناصرية، وأن الأخيرة لم تكن ابتداعاً نظرياً، بل مجموعة آراء تعرضت لتجارب وممارسات، أعتقد أن هذا ظلم كبير للناصرية، فمن طلائع المصريين الذين تطوعوا في حرب فلسطين كان

الرائد جمال عبد الناصر، الذي ذهب لمفتي فلسطين يخبره بأنه ومجموعة من الضباط يريدون الذهاب لفلسطين لعدم وجود ضباط مدربين هناك، وقال المفتي انه لا بد من استئذان رئيس الوزراء محمود باشا النقراشي، ولكنه رفض، وكان عبد الناصر في ذلك الوقت قد قرأ كتاب أمين سعيد عن **تاريخ الثورة العربية**، وكان هذا الكتاب من بين مجموعة الكتب التي يتم تدريسها للضباط الذين أصبحوا في ما بعد «الضباط الأحرار». وكان عبد الناصر مدرساً في كلية أركان الحرب وقال إن من يقرأ خريطة المنطقة يدرك أن فلسطين معركتنا وأنها أمن قومي لمصر. وفي هذا الوقت تكونت، دون علم الحكومة، مجموعة بقيادة العقيد أحمد عبد العزيز الذي كان مشهوراً في المقاومة باسم النمر، لأنه خاض مواجهات عديدة في معارك فلسطين. وكان أكثر من أقلق الإسرائيليين قبل قيام الحرب هي مجموعة الضباط التي ذهبت إلى هناك بقيادة أحمد عبد العزيز، وكانت هذه المجموعة قد ذهبت للقتال لا بطريقة عفوية وإنما من خلال دراستها وقراءتها ورؤيتها لتاريخ الثورة العربية ولخريطة الشرق الأوسط. وفي فلسطين أشار أحمد عبد العزيز إلى أن المعركة الحقيقية في مصر، وأننا لن نستطيع تحرير فلسطين قبل تحرير مصر، وكان أن صقلت رؤية عبد الناصر العربية ووعيه العربَ في أشهر معركة في حرب فلسطين وهي معركة حصار الفالوجا، وخيانة بعض الجيوش العربية آنذاك، الأمر الذي جعله يدرك أن المعركة الحقيقية في مصر، وأن معركة مصر ليست في مصر وحدها، وإنما هي في تحرير الأمة العربية.

ومنذ قيام الثورة في تموز/يوليو ١٩٥٢ كانت الرؤية العربية واضحة في أن المعركة تتمثل في ضرورة تغيير النظام في مصر وإيجاد دولة في مصر تستطيع مواجهة إسرائيل، وأن تحرير مصر لا يمكن قبل تحرير الأمة العربية من النظم التي أدت إلى خسارة حرب فلسطين عام ١٩٤٨.

وقد حدث أن تطورت الناصرية بعد ذلك، فميزة عبد الناصر الأساسية ـ كما ذكرها نهرو ـ أنه كان يتعلم دائماً ويستوعب دائماً، ولهذا تطورت الناصرية، ثم أدرك عبد الناصر أن القومية ليست مجرد تاريخ ولغة، ولكن معركة، ولهذا ساعدت ثورة يوليو الثورة الجزائرية وكل الثورات التي قامت، ولا سيما ثورة اليمن التي حولت اليمن من الإمامة الزيدية ومن مستعمرات إنكليزية إلى دولة وجمهورية ديمقراطية تعددية.. الخ، أيضاً ساعدت ثورة يوليو على تحرير شمال افريقيا، وأسقطت حلف بغداد.. الخ. ما أريد قوله انه أصبح أمن ورخاء مصر عبارة عن الأمن العربي ودعمه.

وأشير في هذا الصدد لما يوجهه البعض من اتهام لمصر بأنها توسعت. لم يكن في الأمر توسع، وإنما كان ذلك لأن الاستعمار ـ كما قال عبد الناصر ـ في أي نقطة عربية يعتبر تهديداً للحرية في كل الأمة العربية، وكان ربط الثورة المصرية بالثورة العربية، وربط الثورة العربية بثورات التحرير في العالم الثالث، وكان أن قامت القوة الثالثة، التي استطاعت الوقوف أمام الكتلتين في الشرق والغرب.

تـعـقـيـب (٢)

محمد عبد الشفيع عيسى

يمكن القول، بلغة التعبير البلاغي، إن موقع ساطع الحصري في تطور الفكر القومي العربي المعاصر، يتحدد على النحو التالي:

لقد قام عدد من الأدباء، والكتاب، والممارسين الثوريين في أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين، بوضع بذور الفكرة القومية العربية... وجاء ساطع الحصري، ليبدأ العمل الفكري في أواخر العشرينيات تقريباً، حتى اكتمل عطاؤه، أو كاد، في أواسط الأربعينيات وما بعدها، فأصبح أبرز من تعهدوا البذرة بالسقيا والرعاية... حتى استوت من البذرة نبتة، برزت منها الساق، باسقة العود... ومع الحصري وبعده، جاء كتّاب آخرون، وقادة سياسيون وحزبيون، وزعماء قوميون، فتعهدوا هذه الساق، حتى تكونت لها أغصان وأزهار وثمار، فصارت النبتة شجرة كاملة.

ومن أجل ترجمة هذا التعبير البلاغي إلى اللغة العلمية المجردة نقول إن المساهمات الفكرية في حقل القومية العربية، قبل ساطع الحصري، تركزت في تأكيد «النظرة» القومية العربية في المقام الأول. وكانت لهذه النظرة روافد عديدة، منها الرافد الأدبي ـ الشعري، وروافد الكتابة التاريخية ـ الاجتماعية ـ السياسية بنَفَس إسلامي (الكواكبي ـ رشيد رضا...) أو بنفس عروبي مناهض للعثمانية (العريسي ـ الزهراوي ـ عازوري)، أو بزخم الممارسة «الثورية» المناهضة للطورانية والتتريك في المشرق العربي (حزب اللامركزية الإدارية العثماني ثم المؤتمر العربي الأول ـ الجمعيات العربية السرية ـ الثورة العربية الكبرى ١٩١٦...).

ومن هذه المناهل للبذرة القومية، انطلق ساطع الحصري ليحوّل «النظرة» فيها إلى «نظرية» في الأمة والقومية عموماً، والأمة العربية والقومية العربية خصوصاً.

. . . ومن المنابع الفكرية والحركية الخاصة بشخص أبي خلدون (عنايته الخاصة بالفكر القومي الألماني والفرنسي، وتجربته «المرة» مع العثمانية، وممارسته الثرية في سوريا الفيصلية، وعنايته اللاحقة بالتاريخ العربي، واهتمامه بالتربية فكراً وعملاً. . .) ـ منها جميعاً استمد ساطع الحصري المادة الأولية التي صنع منها قماشته الفكرية المتميزة: «نظرية» متكاملة الأركان. . . مؤسسة على وحدة اللغة والتاريخ، ومتمحورة حول (اللغة) في المقام الأول. . .

وهكذا: من «النظرة» إلى «النظرية»، يتحدد جوهر المساهمة الحصرية في مسيرة تطور الفكر القومي العربي، نقلة تكاد توازي الانتقال من التغير بالكم إلى التغير في الكيف، كما يقال بلغة «الديالكتيك».



باستواء «نظرية» الحصري، و«تنزيلاتها» على معالجة القضايا التي أثارتها الممارسة السياسية العربية، في أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات، برزت في حقل القومية العربية دائرتان: دائرة فكرية بصفة أساسية، ودائرة حركية ـ تنظيمية بصفة أساسية دائماً.

فأما الدائرة الفكرية فقد تكونت من عدد من الكتاب والمفكرين المبرّزين، أهمهم ساطع الحصري نفسه، وفي القلب منهم قسطنطين زريق، ونقولا زياده. . . ولم يكن هؤلاء منقطعي الصلة بالممارسة السياسية وتفاعلاتها الخارجية، بل على العكس كانوا، ونذكر هنا المطارحات الثرية للحصري في مواجهة الاتجاهات الداعية إلى أفكار أو مذاهب سياسية معارضة أو مناقضة للقومية العربية: سوريا الكبرى والهلال الخصيب، الشرق الأوسط، البحر الأبيض المتوسط، «الكيان الخاص» اللبناني أو المصري. . . إلخ.

كما لم يكونوا منقطعي العلاقة بالدائرة الحركية ـ التنظيمية أيضاً، التي تمثلت آنئذٍ ـ أساساً ـ في كل من حزب البعث، ثم البعث العربي «الاشتراكي»، وحركة القوميين العرب. . . ونذكر هنا بصفة خاصة صلة الرومانسية الأولى لروافد البعث بالمفهوم الحصري للقومية (القومية حب. .)، وصلة (القوميين العرب) بأفكار قسطنطين زريق حول النكبة، والتحرر العربي، والمبدأ القومي. . . غير أن من المهم أن نميز الطابع الرئيسي لمساهمة (الحلقة الفكرية) و(الحلقة الحركية ـ التنظيمية). . . فلقد ركزت الأولى على صياغة مفهوم نظري أساسي للقومية وللعروبة، فكرياً وسياسياً بصورة عامة، بينما ركزت الأخرى على اتخاذ القومية العربية، أو ربما الانطلاق منها كما بلورها الأولون، نحو صياغة مفهوم للتغيير العربي (الثوري)

قائم على الوحدة العربية بالذات... (وحدة ـ حرية ـ اشتراكية، عند البعث، و: وحدة ـ تحرر ـ ثأر، عند القوميين العرب)... وبعبارة أخرى: اتخاذ الوحدة مدخلاً لتغيير الواقع العربي كله، تغييراً ثورياً، أو (انقلابياً) كما كان يقال أحياناً...

... فهذه إذن لمحة موجزة عن صورة الفكر القومي العربي وصلته بالممارسة في الأربعينيات والخمسينيات.

في الستينيات ظهر بُعْدُ جديد في قلب القومية العربية، كفكرة وحركة... وهو الزعامة الناصرية...

إن قيادة جمال عبد الناصر لمعركة التحرر العربي من مطلع الخمسينيات قد قادها إلى استكشاف وبلورة طريقها إلى التغيير العربي الثوري... ومن **فلسفة الثورة** (١٩٥٣) إلى خطب عبد الناصر الموجهة إلى جماهير الأمة العربية في المشرق والخليج وشبه الجزيرة العربية والمغرب، إلى **الميثاق الوطني** (١٩٦٢)، إلى محاضر محادثات الوحدة (١٩٦٣)، إلى لقاءات عبد الناصر بقيادات الطلبة والشباب في مصر (الجمهورية العربية المتحدة) في فترة ١٩٦٧ ـ ١٩٧٠... عبر كل هذه الخطى، كان عبد الناصر يبلور فكره السياسي المرتكز إلى الممارسة القيادية، انطلاقاً ـ بلا ريب ـ من روافد الفكرة والحركة القومية: بما في ذلك كتابات الحصري وأعمال البعث والقوميين العرب... إلخ.

واستطاع عبد الناصر أن يحقق النقلة الكيفية (الكبرى) في مسيرة القومية العربية، ليتحول الجميع من بعد ذلك إلى كواكب ـ منيرة أو «مطموسة» ـ حول الشمس البازغة: أي حول مزدوجة القيادة والقاعدة ـ قيادة عبد الناصر وقاعدة الجمهورية العربية المتحدة.

ومن منظور القومية العربية، كمذهب فكري ـ سياسي، فقد كانت مساهمة عبد الناصر الرئيسية هي تحويل القومية العربية من مشروع ايديولوجي (تحددت صورته على أيدي الحلقتين الفكرية والتنظيمية للأربعينيات والخمسينيات كما أشرنا) إلى «أيديولوجيا»... وهكذا برزت وتبلورت ايديولوجيا القومية العربية، من خلال قيادة عبد الناصر التي أدت الأدوار التالية في صيرورة الأيديولوجيا:

١ ـ إنتاج الخطاب الأيديولوجي أو العقائدي، القومي ـ الثوري، الذي نقل مركز الفكر والحركة من القومية والوحدة، إلى الثورة العربية بالذات... الثورة العربية الواحدة... (إن سلامة الثورة العربية لا تتجزأ) والتي يجب أن تنجز أداتها

الثورية التنظيمية الموحدة، عبر الزمن.

ولهذه الثورة، الواحدة الشاملة، ثلاثة أضلاع هي: الحرية، والاشتراكية، والوحدة...

٢ ـ إيصال الخطاب إلى أوسع قاعدة جماهيرية عربية ممكنة، عبر قدرات القائد، الزعيم الكارزماتي الفذ، بالاستفادة من تكنولوجيا الاتصال المستحدثة (الراديو الترانزستور...).

٣ ـ استجابة القائد لردود أفعال المخاطبين بالأيديولوجيا، ومن ثم تعديل صورة الخطاب، إذا كان هذا ضرورياً.

... ومن حول الحركة القومية العربية الجديدة بقيادتها الناصرية، التفّ ممثلو الفكرة والحركة، اختياراً أو اضطراراً، للتعامل مع الزعامة، إيجاباً وسلباً... وانصرف ساطع الحصري لتأصيل فكره ـ نظريته القومية، وبخاصة من خلال نشاطه الثقافي والإداري المباشر على رأس «معهد الدراسات العربية العالية» التابع لجامعة الدول العربية (معهد البحوث والدراسات العربية الآن). ولكن دائرة فكرية (معاصرة) أخذت في البروز منذ أوائل فأواسط الستينيات «متحلقة» حول الناصرية إيجاباً وسلباً، ومناظرة لحلقة الأربعينيات والخمسينيات، التي عملت مقابل «البعث» و«القوميين العرب» آنذاك.

... وتكونت الحلقة الفكرية (الجديدة) من مفكرين مبرزين في صدارتهم اثنان: عبد الله محمد الريماوي، وعصمت سيف الدولة... ويضاف إليهما نديم البيطار.

في أواسط الستينيات ظهر للريماوي: **المنطق الثوري للحركة العربية الحديثة، والقومية والوحدة في الحركة القومية العربية الحديثة** ـ وظهرت لسيف الدولة **أسس الاشتراكية العربية** ـ ولنديم البيطار **الأيديولوجية الانقلابية**...

وتتابعت المؤلفات، من باطن الناصرية وربما في مواجهتها أحياناً... وصار الحصري يرقب ثمار ما أبدعه يراعه في إنبات وإنضاج الغرس القومي، وكانت آخر أعماله عقب الانفصال: **الإقليمية: جذورها وبذورها**، ربما ليؤكد به، انتماء «الأب المؤسس» لأيديولوجيا الزعيم السياسي (الملهم) الذي سلمه بيديه «جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية» باسم الجمهورية العربية المتحدة...!

وجرت مياه كثيرة في الأنهار بعد ذلك:

١ ـ عدوان ١٩٦٧ والنكسة.

٢ ـ تحول القومية العربية من الهجوم إلى الدفاع... وصعود الحركة السياسية الإسلامية إلى مركز الممارسة العربية.

٣ ـ تجدد الحديث عن القومية العربية في الثمانينيات، من خلال أعمال «مركز دراسات الوحدة العربية» في بيروت، ومن خلال جيل (جديد) من الباحثين والكتاب، يكرسون أعمالهم لقضايا (جديدة): دور الدولة، العلاقة بالتراث، والصلة بين العروبة والإسلام، وجدلية الانتماء القومي الأكبر والانتماءات الصغرى.

ولا يزال الحديث يدور... والتجدد يترى كل يوم، ويثري القومية العربية فكراً وعملاً.

ويبقى صوت ساطع الحصري قوياً دائماً، مذكّراً الجميع بما لا ينبغي أن ينساه أحد: أمة عربية واحدة، قائمة على وحدة اللغة والتاريخ...

المنـــاقشـــات

١ ـ فاروق العشري

لقد أوضحت الأضواء التي ألقيت على فكر ساطع الحصري القومي، أهمية التأكيد على دور التاريخ واللغة ودور التربية ارتباطاً باللغة كمقومين محوريين في فكر الحصري. وإذا ما انتقلنا إلى عالم اليوم في ما يتعلق بالفكر القومي نجد أن هناك إضافات فرضها الواقع حتى في ما يتعلق بالقومية العربية. وهنا أؤكد ما ذكره د. محمد عبد الشفيع عيسى من أن الفكر الناصري قد أضاف إلى هذين الاعتبارين ـ اللغة والتاريخ اعتبارات أساسية أخرى، في مقدمتها، أن المنطلق التقدمي لبناء الوحدة على أساس العدل الاجتماعي أصبح لا يمكن إغفاله، وبخاصة بعد أن حركت الثورة الاجتماعية الروسية عام ١٩١٧ العالم كله شرقه وغربه.

٢ ـ عبد العزيز الدوري (يرد)

بالإشارة إلى ما ذكره الأستاذ محمد عودة فرأيي أن القومية سواء كانت في حاجة لنظرية أو ليست في حاجة إليها، فقد وضع ساطع الحصري هذه النظرية، أما إذا كان الحديث عن تكوين الأمة العربية كأمة في التاريخ فقد بذلت من جانبي جهداً كبيراً في دراسة هذا الموضوع، الذي أصدرت كتاباً فيه بعنوان **التكوين التاريخي للأمة العربية** حتى أوضح هذه النقطة.

أمّا بالنسبة لما قيل عن عروبة مصر فأنا أعرف تماماً ذلك الخطاب المشهور لمكرم عبيد الذي أشار إليه أ. محمد عودة، الذي قال فيه «نحن عرب»، وأشكر الأستاذ عودة على ما ذكره بالنسبة للحزب العربي في مصر عام ١٩١٣. وأنا في الحقيقة لم أعرف عن هذا الحزب وسوف أسأل عن مصادر المعلومات التي يمكن جمعها في هذا الصدد.

أما بالنسبة للناصرية فأتصور أن النظرية اكتملت، ومنذ أول بيان بعد الثورة ذكرت أن ها هي القومية العربية قد بدأت، ولا يمكن أن أتحدث عن الناصرية وكأننا أمام شذرات غير ناضجة وغير مكتملة، وأعتقد أن الملاحظات التي تفضل بها علينا أ. عودة تؤيد هذه النقطة، وأن هناك تكاملاً، وتطوراً وإغناء وإضافة إلى الناصرية، وبهذه المناسبة أشير إلى أنني لم أقصد الحديث عن فكر القوميين العرب كله، أو فكر قسطنطين زريق كله، أو فكر البعث، ولكن فقط حاولت تلمس المواضع التي أجد فيها قرابة أو شبه ارتباط.

الفصل السادس

فكر ساطع الحصري وتحديات الحاضر والمستقبل في الوطن العربي (حلقة نقاشية)

أحمد يوسف أحمد

قبل أن أبدأ الحديث، أود أن أرحب بحضراتكم في معهد البحوث والدراسات العربية، وأشير إلى أن لقاءنا هذا يجسد صورة من صور الوفاء لذلك الرجل الذي أسس المعهد وكان أول مدير له، وظل حتى اللحظة الأخيرة يحمل رؤية سليمة لمهمته، لم يضعف في وقت من الأوقات إزاء إغراء أن يتحول هذا المعهد إلى مجرد مؤسسة مانحة للشهادات. وقد أكد الحصري هذا المعنى في كتابه الشهير **حول الوحدة الثقافية العربية** الذي يشمل فصلاً كاملاً عن معهد البحوث والدراسات العربية، يعلن فيه ساطع الحصري عن استيائه من تحول المعهد أولاً إلى معهد مانح للشهادات، وعن تحول أسلوب الدراسة ثانياً إلى الأسلوب التقليدي القائم على امتحان الدارسين في ما يملى عليهم. ولعل هذا الأمر وثيق الصلة بموضوعنا اليوم «فكر ساطع الحصري وتحديات الحاضر والمستقبل في الوطن العربي». إن رؤية الحصري لمهمة المعهد وأساليب التدريس فيه لا تزال رؤية سليمة ثاقبة ولا أقول تصلح للحاضر فقط بل إننا في الحاضر نكاد نلهث خلفها حتى الآن. ونحن لا ندعي أننا حققنا ما كان يحلم به الرجل وما احتج به في متوسط الخمسينيات، ولعل في هذا ما يعطي فكرة كافية عن قيمة الحصري مهما اختلفنا أو اختلف البعض منا في هذه الجزئية أو تلك.

مجدي حماد

الموضوع المطروح في خاتمة ندوتنا هو هذه الحلقة النقاشية عن فكر ساطع الحصري وتحديات الحاضر والمستقبل. وحسناً فعل الصديق الدكتور أحمد يوسف في نحت هذا العنوان إذ كان العنوان الأصلي هو «ماذا بقي من فكر ساطع الحصري؟» الحقيقة أنه لو ظل العنوان القديم على ما هو عليه لكان من الواجب أن نتساءل: وماذا لو لم يبق من فكر ساطع الحصري؟

خيرية قاسمية

نحن نعيش الآن في مرحلة قد تكون أحسن حالاً من الظرف الذي عايشه ساطع الحصري، ولكن لا تزال هناك سلبيات شكا منها الرجل وهي قائمة في مجتمعنا السياسي وفي الواقع العربي حالياً. والسؤال هو: هل يمكن القفز على هذه السلبيات مهتدين بما وضعه الحصري من أسس؟ فلنبدأ بإيجاز بالسلبية الأولى: نحن ما زلنا نشكو من التجزئة والكيانات القطرية، وكان حُلم الحصري أبعد في مراميه مما كان في عهده، ربما لا تكون قد حدثت حروب أو استخدمت أسلحة حديثة في ضرب بعضنا البعض. لكن هذه التجزئة، وإن كانت قطرية، ما زال يتعين التغلب عليها، ليس بضربة واحدة ولا جملة واحدة لإزالة هذه الأسلاك الشائكة، على حد تعبير الحصري، الذي كان يعتبر أن الحدود بين الكيانات قد قامت نتيجة المساومات والمناورات السياسية الخارجية، ورأى فيها أسلاكاً شائكة منذ وجود الانتداب والاحتلال الأجنبي، ولكنها ما لبثت أن أصبحت مبنية بالأسمنت المسلح بعد الاستقلال، فأصبحت إزالتها أكثر صعوبة مما كانت في وقت الانتداب أو الاحتلال، حتى إنه في وقت السيطرة الأجنبية كان يمكن اختراق هذه الحدود، بل أمكن تقديم وتبادل العون بين الثورات المختلفة؛ ما بين ثورة عبد الكريم الخطابي في المغرب التي كانت تستجيب لها مثلاً الثورة في سوريا. هذه التجزئة هل يمكن التغلب عليها من خلال ما وضعه الحصري من مبادئ، حيث وجد في الثقافة أول سلاح بشرط توافر وحدة الثقافة؟ وهذه الوحدة تتم في إطار التنوع الذي يحافظ على كل بلد بخصوصياته. صحيح أن الجامعة العربية وإدارتها الثقافية وغيرها تعمل جهدها، وقد نقول إن المنظمة العربية للثقافة (ألكسو) تبذل قصاراها في هذا المجال. لكن الطريق لا يزال طويلاً.

في الثلاثينيات والأربعينيات، وفي ظل نظم الاحتلال كان هناك التلاقي والمؤتمرات: مؤتمر طبي أو مؤتمر موسيقي أو غيره. المؤتمرات اليوم، ومنها ندوتنا هذه، قائمة ولكن هل سيستمر أثرها أم أنه يزول مع انتهاء انعقاد الندوة أو

انفضاض المؤتمر؟ إن ما نريده فعلاً هو أن تكون هناك لقاءات مثمرة تصل إلى وضع، لا أسميه وحدة عربية كاملة، فهذا ما زال حلماً بعيداً، ولكن أقول إنه خطوة على الطريق تهتدي بما ذهب إليه وناضل من أجله ساطع الحصري الذي سيظل بيننا في هذا المجال، بل إن الحصري وهو يشرح الكيانات الإقليمية يرى أنها ليست كلها وليدة المناورات والمساومة الأجنبية. إن بعضها وليد فئات نخبة حاكمة هي نخبة من البرجوازية أو من التجار الذين وجدوا في إنشاء الحدود مكسباً لهم، فصعب عليهم التخلي عنه. كيف نستطيع أيضاً أن نجد طريقاً لكي يتخلى هؤلاء عن بعض مصالحهم؟ ولنفتح أدراج الجامعة العربية لنرى ما تحتويه من مشاريع وحدة اقتصادية ومخططات تضمن المصالح المشتركة وربما تصلح هذه المشاريع الإنمائية، إذا وصلنا بها إلى حد التنسيق الأعلى، لتصبح مشاريع قومية مشتركة لها أيضاً موقع على الخريطة الاقتصادية، بحيث تحقق ما نتوخاه من شركة المصالح والمنافع.

على أن ساطع الحصري في آخر رسائله حول القومية العربية لم يستبعد قضية المصلحة. فلنجعل المصلحة من جملة الركائز التي نستمع إليها ليتخلى بعض هؤلاء المنتفعين بالكيانات القطرية عن بعض أطماعهم. من ناحية أخرى، فالهيمنة الأجنبية موضوع يؤرقنا حالياً، فهي لم تعد تحتاج إلى جيوش ودبابات، بل الهيمنة تمارس الآن في بعض الزوايا العربية بوسائل شتى: بالإذعان، بالإعلام، وقد سبق الحصري عصره بالنسبة للهيمنة إذ كان يرى أن النفوذ الثقافي أو الهيمنة الثقافية هي وسيلة للنفوذ السياسي، وأي تحرر لا يصبح كاملاً إلا بالاستقلال الثقافي. ولذلك كان يرى أن الحصول على الاستقلال الثقافي هو الطريق الصحيح للتدرج نحو الاستقلال الحقيقي. ولا أقول إنه طلب ذلك دفعة واحدة بل بالتدرج، على أساس مبدأ «خُذ وطالب». وليس المقصود هنا مناورة سياسية بل هو التدرج الذي يتحسس الخطى قبل الخوض في المعركة، ومن خلال الاستقلال الثقافي يمكن أن نتخلص من أي هيمنة أجنبية. وفي رأيي أننا يمكن أن نهتدي إلى حد ما بأفكار الحصري في هذا المجال إذا أخذنا بعين الاعتبار الأفكار المستجدة والأحوال المتغيرة.

أخيراً، فالحصري لم يكن يعيش خارج العالم إطلاقاً، بل كان يريد أن يأخذ ثمار الثقافات الأجنبية، وعندما ألغى دراسة اللغات الأجنبية في المدارس الابتدائية، لم يكن ذلك كرهاً بالثقافة الأجنبية، بل كنوع من الشفقة على الأطفال الصغار، إذ يصعب عليهم أن يتعلموا لغتهم الأم بالاقتران مع تعلمهم لغة أجنبية أخرى. ولكن في الصفوف الابتدائية العليا كان يقبل بإدخال المواد الأجنبية، وهنا

نأخذ بعين الاعتبار أيضاً آخر مستجدات التقنيات الحديثة التي لم تصل إلى الحصري في عصره، فلم يكن هناك مثلاً إنترنت أو تكنولوجيا متقدمة، لكنه وضع مبادئ عامة بمعنى أنه ينبغي أن نساير ما في العالم، وأن نأخذ أحسن تقنيات العصر لنصبح جزءاً من العالم وليس خارجه. العولمة ما كانت مبتدعة بعد، ولكنه كان يستشرف المستقبل.

محمد الخولي

على امتداد يومين، ظللنا مشدودين بحديث الماضي، لا بالمعنى السلفي، ولكن بمعنى الدرس التاريخي، حيث كنا مشدودين إلى استعراض أفكار ودعوات الأستاذ ساطع الحصري.

وبادئ ذي بدء، أود أن أنبه إلى أن الدارسين لفكر وطروحات ساطع الحصري وأمثاله من الرواد الدعاة والمفكرين سيظلون دوماً بحاجة إلى ما قد نسميه «موجز الأعمال»، أو ثبت المقتطفات وملخص الآراء التي تبناها الرائد أو المفكر في هذه القضية أو تلك. لقد احتجت مثلاً إلى معرفة رأي البروفسور نعوم تشومسكي في علاقة اللغة بالقومية.. ورغم غزارة إنتاج هذا العالم الأمريكي الكبير في غير مجال استطعت أن أحصل على بغيتي بفضل كتاب فيه موجز آرائه بعنوان *Chomsky Reader* يحوي عروضاً مكثفة لأبرز طروحاته واتجاهاته.. ولقد يضطلع معهد البحوث والدراسات العربية بإعداد مثل هذا الـ «Reader» عن أعمال وأفكار ساطع الحصري، وبصدد الحديث عن المستقبل ونحن ننطلق من أرضية ساطع الحصري، أريد أن أشير بإيجاز شديد إلى خمس ظواهر أو خمسة تحديات هي:

١ ـ **العولمة**: ونجد أن أخطر ما فيها هو التيار الكاسح لأساليب الحياة ـ حتى لا نقول الثقافة ـ الأمريكية الذي يكاد يجتاح كل أجزاء الوطن العربي.. تيار العولمة ـ الأمركة هذا كفيل إذا مضى في طريقه بغير مواجهة إيجابية واعية ـ نافذة وفاحصة ـ إلى تشويه الطابع القومي وتغريب شخصية الإنسان العربي وتهجين اللغة التي يستخدمها في تواصله مع الجماعة التي ينتمي إليها.

٢ ـ **التصادم الحضاري**: تعلمنا من الحصري قيمة كان هو يجسدها بامتياز في نهج حياته وتكوينه، هي قيمة حوار الحضارات وتفاعل الثقافات. لكن ها نحن وقد فرضت علينا نظريات ـ منها مثلاً نظرية صموئيل هانتنغتون، في هارفرد، القائلة بتصادم الحضارات.. حيث المقولة الرئيسية تتمحور حول شعار: الغرب في

مواجهة الآخرين، وحيث يُصنِّف عالم الإسلام ـ وهو يضم بالضرورة الأمة العربية ـ من بين القوى المرشحة للتصادم إلى درجة الصراع مع الحضارة الغربية ـ الهيلينية ـ الأمريكية في القرن القادم.

٣ ـ **نفي الآخر**: وتلك دعوة أو تيار قرأنا عنه مؤخراً في أدبيات الغرب السياسية، وهو تيار يتجاوز حتى حكاية الصِدام بين الحضارات.. حيث التصادم معناه بداهة الاعتراف بالطرف الآخر.. ولكن ها نحن نقرأ دعوة في كتاب بعنوان **غضبة الأمم** تقول بانتهاء عصر القوميات تماماً وسقوطها كما سقطت الامبراطوريات، وفي هذا الكتاب فصل عن الشرق الأوسط ينفي تماماً وجود أمة عربية بالمعنى الذي نفهمه، في حين أنه يكرس وجود إسرائيل.

٤ ـ **الشرق أوسطية**: وهي المقولة التي دعا إليها، ولا يزال، شمعون بيريس في كتابه الشهير **الشرق الأوسط الجديد**. وهي تنطلق من الشعار الدائم الذي يطرحه المشروع الاستيطاني الصهيوني في منطقتنا ـ شعار: «خريطة جديدة وعلاقات جديدة»، ويتطلع بداهة إلى اصطناع صيغة من تعاون الوجود والجوار والمصالح مع أقطارنا العربية وصولاً إلى مناطق النفط في الخليج.. وهذا يقتضي تمييع الصيغة التاريخية للوجود القومي العربي، وبخاصة في المشرق، من خلال إدخال عناصر غير عربية في هذا الوجود: إيران وتركيا، فضلاً عن إسرائيل.

٥ ـ **نهاية الدولة القومية**: وتلك دعوة قد ترتبط بدورها بنهاية العولمة.. ويتبناها فريق من مفكري المؤسسة السياسية الأمريكية (ومنهم مفكرون من أصل ياباني)، وهم يراهنون على ازدياد أهمية عناصر «اللادولة» في إدارة دولاب الحياة في مجتمع القرن القادم.. وفي مقدمتها عناصر القطاع الخاص، والشركات المتعددة الجنسيات والمؤسسات عبر الوطنية، وظهور ما يوصف بأنه المستهلك الدولي الذي يتعامل عن طريق الاتصالات الفضائية متجاهلاً حدود الدول القومية، وعامل حركة رؤوس الأموال بمئات المليارات عبر الكرة الأرضية بما يخلق مصالح «فوق ـ وطنية» و«فوق ـ قومية».

في ضوء هذه الظواهر الخمس أو التحديات الخمسة.. تصبح إعادة قراءة الحصري واستدعاء أفكاره التأسيسية والتأكيد على ما ذهب إليه من وحدة الثقافة وعنصر اللغة ووحدة التاريخ فرضاً واجباً على مستويات شتى، تبدأ بمستوى استيعاب طروحات الحصري وتتواصل بإثرائها والإضافة إليها بفعل ظواهر الحاضر وتطلعات المستقبل.

مجدي حماد

من المهم حقيقة الربط بين العولمة والأمركة حيث يتصف النمط الأمريكي بالإغراق الشديد والتبسيط والحرص على التفصيلات، والهدف الأساسي من هذا كله هو نفي الانتماء، نفي الولاء، بل نفي الوطن ونفي القومية. وهذا بالضرورة ناجم عن تصادم الحضارات. وقد أعلنوا ذلك بمنتهى الوضوح كقولهم إن الإسلام هو العدو دون لف أو دوران، وما يرتبط بذلك من نفي الأمة العربية. وبالعكس يقولون بتأكيد وجود أمة يهودية، وهو ما يذكرني بالتعبير النادر لحلمي شعراوي وهو النفي مجدداً حول التاريخ. وفي ما يتعلق بالشرق أوسطية فقد اختلف الأمر بين ما طرحه شمعون بيريس في **الشرق الأوسط الجديد** وبين مجيء نتنياهو الذي خالف هذا التوجه تماماً، حيث اختفى في مرحلته الكلام عن الشرق أوسطية إذ إن نتنياهو أراد أن يؤكد انتماءه الغربي، بمعنى أنه لا يمكن أن يندمج مع هذه المنطقة (العربية) المتخلفة سياسياً واقتصادياً وثقافياً، بل إنه ليس محتاجاً إلى هذه المنطقة، ولهذا كان اتجاه نتنياهو إلى أعماق روسيا والصين واليابان، فضلاً عن علاقته الأساسية مع الولايات المتحدة الأمريكية. ومصطلح الهيمنة تعبير جيد للغاية لأنه يوضح ما يجري أمامنا. ففي الخمسينيات والستينيات كان الاستعمار مجسداً أمام أعيننا وكان واضحاً ومحدداً. ولكن مع بداية السبعينيات بدأت هذه الملامح تتغير على المستوى الدولي، وأصبح الأمر وكأن هناك هيئة سياسية تدير العالم باستخدام أدوات وأساليب مختلفة: مخابرات، احتكار السلاح، احتكارات البترول، وبدأت القوة تتعدد وتتوزع وتنتشر، وهذا ما يجعل مواجهة هذه الهيمنة أمراً في غاية الصعوبة، وخصوصاً أن المعركة الحقيقية هي معركة العقل والوعي، ومن ثم تأتي خطورة ما يحدث وأهمية تحديه والتصدي له بكفاءة عالية.

محمد عودة

في رأيي أن التناقض الرئيسي هو بين الأمة العربية والهيمنة الأمريكية، هذا التناقض غير المتكافئ إنما يأتي من الصورة الجديدة للاستعمار، وهو أخطر من الاستعمار الأوروبي وصور الاستعمار القديم. فالولايات المتحدة لها هدفان أساسيان في منطقتنا وهما: (١) ضمان تدفق البترول إلى دول الغرب (٢) الحفاظ على أمن إسرائيل.

بعد ذلك يأتي احتواء القوة العربية، وهذا ما يضمن لها أساساً أمن إسرائيل التي يتأكد وجودها كقاعدة رئيسية ضد ـ عربية منذ نشأتها حتى الآن. ويتمثل ذلك في ضمان تفوق إسرائيل النوعي على جميع البلدان العربية مجتمعة، وهذا ما

بلغه الوضع حالياً في ظل إدارة الرئيس كلينتون. وبالنسبة للنظرية الأمريكية لا يوجد في اعتبارها أمة عربية، بل إنها ترانا عبارة عن عشائر وقبائل متناقضة بعضها مع بعض، وكل محاولة للقيام بجمع شمل عربي أو إنشاء قوة عربية لا بد من أن تسحق. وبعد عام ١٩٥٦ قالوا إن سقوط الإمبراطورية الفرنسية والإنكليزية سيترك فراغاً في المنطقة ينبغي لأمريكا أن تملأه فوراً، ومن ثم كانت المواجهة بينهم وبين جمال عبد الناصر من عام ١٩٥٦ حتى عام ١٩٦٧. ولما استقلت الجزائر قالوا إن قيام قوة جديدة في الأمة العربية لا بد من احتوائها، ثم عملوا على سحقها وتخريبها من الداخل، والحكاية نفسها جرت مع العراق.

إن المشكلة الحقيقية تتمثل في أن النظم العربية أو معظم النظم العربية تعتقد أن حمايتها الحقيقية مكفولة تحت المظلة الأمريكية، ولهذا فقدرة المواجهة محدودة. ومع ذلك فقد نستطيع أن نطرح للمناقشة نقاطاً عديدة، منها مثلاً:

١ ـ ان هذه النظم العربية لو قدمت تنازلات لشعوبها أقل كثيراً مما تقدمه للولايات المتحدة لكان ضمان أمنها كنظم أقوى، بمعنى أن القوة الواعية المثقفة لو استطاعت أن تقنع هذه النظم بدعم التوجهات الديمقراطية لاستطعنا أن نقف على أقدامنا خصوصاً وأن مواردنا وطاقاتنا تسمح لنا بذلك.

٢ ـ الواقع أن قوة الخصم جاءت أساساً من انقسام القوى العربية الفعالة وتفككها. ونحن الآن في حاجة إلى الرجوع إلى المفاهيم والثوابت الأساسية، ونحن في حاجة لتعبئة كل القوى القومية بمعناها الواسع (القومية أو الاشتراكية بل والماركسية). نحن الآن في مواجهة خطر داهم، ولا بد من أن ننسق وأن نحاول خلق هذه الجبهة العربية العريضة التي تستطيع أن تبدع الحلول الممكنة.

وإذا استطعنا أن نجعل من مثل هذه الندوة شرارة إعلامية للدعوة العريضة للتكامل والتناسق للقوة القومية والقوة الرافضة للواقع الحالي لكنا في سبيل خلق جبهة عريضة توصلنا إلى أساليب تبدع الحلول.

إن القوة التفاوضية العربية غير محدودة. ومع ذلك فموقفها تجاه الولايات المتحدة يعتبر أغرب موقف في بابه. فالعرب أكبر زبائن للولايات المتحدة باعتبارهم أكبر المشترين للسلاح الأمريكي، وهم يشترون الأسلحة لتظل مودعة في صناديقها. وقد قال يوماً خبير أمريكي في الطيران: نحن ندرب الطيار العربي على مدى خمس سنوات وهذه المدة تسمح بظهور طراز جديد من الطائرات، وهو ليس مدرباً عليه، ومن ثم فهناك حلقة مفرغة وأسلحة متطورة لا تستعمل قط. وعموماً فالعرب هم العنصر الأساسي في حل مشكلة صناعة السلاح في أمريكا. وهناك

أيضاً استثمار الودائع العربية في الغرب في حدود ما يقرب من تريليون دولار في أمريكا وأوروبا. وبعض الحكام مصممون على ألا يأخذوا فوائد عن هذه الأموال من البنوك الأمريكية، فهذا حسب رأيهم حرام وربا. وذات مرة قال كاتب عراقي مقيم في أمريكا: أعطوني هذه الأموال الحرام! وسوف أشتري بها نصف أعضاء الكونغرس.

كذلك لدينا الميزان التجاري بين العرب وأمريكا، وهو يعتبر من أفضل الموازين التجارية لصالح واشنطن مع دول أجنبية. وعلى العكس فالميزان التجاري بين أمريكا والصين هو في صالح الصين. وهناك أيضاً البترول العربي حيث إن أكبر الشركات البترولية الأمريكية تحقق أرباحاً من البترول العربي لأن ٥٠ في المائة من هذا البترول تستخدمه أمريكا أو تديره شركاتها، بل إن البترول العربي كان أساس المعجزة اليابانية وأساس المعجزة الأوروبية ولكنه للأسف أساس الخيبة العربية.

وطبعاً حينما نفكر بهذه الطريقة في إطار ندوة ساطع الحصري نؤكد أن الرجل كان ينطلق من إيمان صوفي بالأمة العربية، وبأن قوة العرب هي في وحدتهم، وإن كان علينا أن نضع الحصري في إطار الواقع الذي عاشه، فقد كان في وقت ما متناقضاً بين عصر العثمانية والإمبريالية والصهيونية وتعقّد موقف العرب وهزيمة فلسطين. ولكنه استطاع أن يصمد ويرفع لواء القومية العربية بالصمود والإصرار. وقد قابلته شخصياً مرة أو مرتين وكنت أرى فيه شخصية حامل الدعوة، وكانت له جاذبية خاصة إذ تستطيع أن تجلس وتستمع إليه وتقرأ له بسهولة السهل الممتنع في كتاباته. ونحن نريد شخصيات بهذا الشكل من سلالة ساطع الحصري مع تطوير آرائه. وليس لنا أن نشعر بالتشاؤم. وعندما نتأمل في خريطة الأمة العربية بعد الحرب العالمية الثانية ونقارنها بالخريطة الحالية، مهما كانت السلبيات، نجد أن الجزائر مثلاً كانت مقاطعة فرنسية، والآن على رغم مأساتها فما زالت تعتبر من أكبر وأهم الدول العربية بعد أن ظلت فرنسا تحاول بكل جهد فرنسة الجزائر خلال ١٣٠ سنة. وقدمت الجزائر مليون ونصف مليون شهيد ثم أصبحت دولة عربية إسلامية كبيرة. اليمن كذلك كان إمامة زيدية في القرون الوسطى وسلسلة محميات لبريطانيا، واليمن اليوم دولة عربية مكتملة. ليبيا هي الأخرى كان فيها أكبر قاعدة عسكرية خارج الولايات المتحدة إلى جانب قاعدة بريطانية في طبرق، والآن هي دولة صامدة طوال ٢١ سنة من الهيمنة الأمريكية. ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى الآن لم يوجد بلد عربي لم تقم فيه ثورة. وثورة فلسطين مثلاً بدأت من عام ١٩٦٥ داخل فلسطين وقاومت داخل فلسطين.

إذن الخريطة العربية تميزت وتغيرت خلال السنوات الخمسين الأخيرة، بصورة جذرية. والمشكلة عندنا أن بعض المثقفين يعانون التشاؤم المفرط واليأس. والحل ليس أن نركن إلى سماع موسيقى الترفيه عن النفس، وإنما بأن نفهم أن أمتنا مريضة ويجب أن نبحث عن علاج لها مهما يكن، ولا نقول إن حالتها ميؤوس منها. وأنا أعتقد أن رجلاً مثل ساطع الحصري عاش ٨٨ سنة، وظل حتى آخر لحظة يبحث ويفكر، مثل هذا الرجل يعتبر نموذجاً لا بد من أن يظل حياً أمامنا باستمرار.

مجدي حماد

أتصور أن الهدف الرئيسي للهيمنة الأمريكية هو ضرب الاستقرار العربي أو القوة العربية، ضربة ١٩٦٥ لليمن وحرب الخليج وتحطيم العراق والحصارات المختلفة على الأمة ليس بصورة مباشرة فقط كما هو الحال في ليبيا والسودان، ولكن بطريقة غير مباشرة من خلال الحصار بالسلاح والغذاء والديون. لكن النقطة المحورية هنا على نحو ما ذكر الأستاذ محمد عودة هي حول أوراق التفاوض العربي. صحيح أن هناك استثمارات وميزاناً تجارياً عربياً وهناك صفقات السلاح والنفط، لكن المشكلة الأساسية هي أن الإرادة السياسية غير موجودة. إن الأمة بالقطع لا ينقصها لا الموارد ولا التضحيات لأن التاريخ الطويل يؤكد أنه لديها مبادئ صحيحة، وعندها موارد كافية، وقدمت قبل ذلك كثيراً من التضحيات. وفي اعتقادي أن خطاب النخبة العربية الحاكمة الآن للولايات المتحدة هو كالآتي: نحن أحسن من يخاطبكم في هذه المنطقة. نحن نصادقكم مقابل حماية الكراسي التي نجلس عليها. ومن هنا تأتي قوة العدو من التجزئة. ومن هنا لا بد من أن نحيل مرة أخرى على تصور ساطع الحصري لهذه التجزئة، فتجميع القوة هو الأساس، وبناء القوة العربية هو الذي يجدد إرادة المقاومة والتحرر والاستقلال. وفي اعتقادي أن الولايات المتحدة تصورت أنها صفّت حساباتها مع القومية العربية مرة واحدة وإلى الأبد، وستحاول بكل الوسائل ألا تتكرر مرة ثانية تجارب الخمسينيات والستينيات.

أحمد يوسف أحمد

أعتقد أن أهم الأشياء التي يمكن المفكر القومي أن يتأملها في فكر الحصري هو ما يتعلق بمنهجه العلمي، إذ إن الحصري يلفت النظر في مجادلاته العلمية بشكل واضح للغاية. والواقع أن قدرته على المجادلة العلمية بعقل بارد، رغم

ارتباطه القومي، أمر يدعو إلى أن نتحلى به في هذه الظروف. هناك أيضاً قدرته على أن يجمع بين الثابت والمتطور في الوقت نفسه. ومن خلال التجربة الشخصية في دراسة جانب من فكره لأغراض هذه الندوة استرعى نظري أنك إذا رتبت أفكاره بحسب تاريخ صدورها فستجدها متسلسلة بصورة طبيعية. وهناك أفكار طرحها الحصري في الثلاثينيات، واستمرت صحيحة، وإن أضاف عليها بعض الأمور بما يعكس نوعاً من أنواع الرؤية المتسقة الثاقبة أو الاختيار الفكري السليم مع القدرة على التنويع. وأقرب مثال على ذلك هو ما سبق وأوضحته حول محاولته تطوير فكرته بين الفائدة والمصلحة. إن الشعور القومي والشعور العاطفي يجب ألا يبررًا عقلياً، لكنه أكد لنفسه في خضم معركته أنه يستحيل أن يقول للناس مثلاً أنتم عرب وكفى، وبالتالي عمد إلى تطوير أفكاره، وبدأ يقول كلاماً لا يختلف عن كلام الواقعيين، وطبعاً استمر فكره بأن القومية شعور عاطفي، ولكنه في كل وقت كان قادراً على تطوير نفسه. هذا النهج العلمي القابل للتطور هو ما نحتاج إليه الآن. والنقطة الثانية هي أن فكر ساطع الحصري يجب أن يُجلى بصورة واضحة لأن الفكر القومي العربي (التقليدي) متهم بأمور ليست فيه: مثلاً هو متهم بأنه لا يعترف بحقيقة التنوع، في حين أن الحصري معترف بحقيقة التنوع. ونحن ننسى أحياناً أن فكر القومية العربية طوّر نفسه وأصبح يأخذ بالصيغة الفدرالية، والحصري يقول هذا منذ أواخر العشرينيات، أو على الأكثر منذ الثلاثينيات. والحقيقة أن الفكر القومي التقليدي الذي كان قادراً على تقديم الإجابات منذ عقود من الزمن ما زال صالحاً إلى حد بعيد. وأنا من الذين عانوا الكثير من الجدل حول ما يسمى بالتجمعات الفرعية أو التجمعات الإقليمية، وأشهد أن القوميين العرب، أو أصحاب الفكر العربي، اختلفوا حولها اختلافاً حقيقياً بين مؤيد ومعارض، وكنتُ من القائلين بأنه لو نجحت هذه التجمعات في إنشاء وحدة حقيقية بين أطرافها فهذا خير، لكن المشكلة أنها عاجزة، في تصوري، عن تحقيق هذا الهدف.

والحصري يلفت النظر منذ عشرات السنين بأنه كان قادراً على وضع الأمور في صيغتها الحقيقية بمعنى أنه إن كانت وحدة جزئية حقيقية وخطوة على الطريق إلى وحدة عربية فنحن معها، أما إن كانت وحدة بعيدة عن الحقيقة العربية الكلية فنحن ضدها، لأنها ستكون عقبة على طريق الوحدة. وهكذا فكأن الحصري كان يحارب معنا معاركنا مثل الشرق ـ أوسطية أو المتوسطية بضراوة ووضوح ورؤية سديدة. وأقول للبعض ممن لم يقرأوا ما كتبه الحصري عن موضوع الثقافة العربية في مواجهة الثقافة الشرق ـ أوسطية إن الرجل كان يتحدث بضراوة عن محاولة

اليونسكو وضع مكتب ثقافي شرق أوسطي في المنطقة العربية.

من ناحية أخرى، ففي تقديري أن العلمية خانت الحصري في بعض الأحيان، إذ كان لديه مشروع سياسي يريد أن يدافع عنه. وقد تحدث عن العلاقة بين العروبة والإسلام بشكل كان، من وجهة نظري الشخصية، تنقصه بعض الدقة العلمية، أو كانت تنقصه العلمية في بعض جوانبها. وقد أشير في سياق الندوة إلى افتقار أفكار الحصري إلى بُعد العدالة الاجتماعية. ومع ذلك يبقى لهذا الرجل أنه امتلك منهجاً ورؤية ثاقبة، وامتلك أدوات منهجية استطاع بفضلها أن يقدّم إجابات سليمة لمشكلات الأمة العربية منذ عقود من الزمن. وما زالت هذه الإجابات صحيحة في معظمها. وهنا تأتي أهمية الاقتراح الذي طرحه الأستاذ محمد الخولي حول إعداد «مختصر أفكار الحصري»، وهو يضاف إلى ما أنجزه مركز دراسات الوحدة العربية من نشر الأعمال القومية الكاملة للحصري. ولما كان الحصري يجد نفسه وسط معارك هائلة، فقد كان يعتبر أن كتاباته هي سلاحه في خوض غمار هذه المعارك. ولذلك فكثيراً ما كرر ما كتبه، بل كثيراً ما اضطر إلى إعادة نشر ما سبق أن كتبه منذ ثلاثين سنة. ولذلك، فمن يقرأ كتبه دفعة واحدة يجد أن كثيراً من مقالاته مكرورة وكذلك كثيراً من الأفكار. وأنا أعتقد، دون أي مبالغة، أن من ثمار هذه الندوة التأكيد على الدعوة إلى إعادة قراءة هذا الفكر، لا على أساس تسلسل زمني، ولكن على أساس تمحوره حول أبعاد معينة، بحيث يكون لنا جزء أو مجلد واحد جامع ومكثف بدلاً من ١٦ مجلداً متفرقة... ومن هنا يستطيع الباحث الجاد أن يلتمس فيه بكل أمانة ماذا قال الحصري في القومية عبر الزمن، وسيجد بناء متسّقاً، وماذا قال في الوحدة العربية عبر الزمن، وسيجد بناءً متّسقاً، وماذا قال في التربية عبر الزمن، وسيجد الاتساق نفسه. أعتقد أن هذه ليست بالخطوة الصعبة أو البعيدة عن إمكانات مركز دراسات الوحدة العربية، وأتصور أن هذه الندوة خطوة مهمة على طريق تحقيق هذا الهدف.

عبد الله عبد الدائم

نحن نسمع الكثير عما يجري في العالم، ونرى أساليب الاقتصاد الحر والسوق الحرة التي تغزو العالم، ونرى الدول الكبرى والإمبريالية الأمريكية شرسة، ويكاد العالم ترتعد فرائصه من هذا الواقع. ولكن في نظري ليس هناك ما يدعو إلى مثل هذا الخوف أو هذا الرعب. وما ينبغي أن نؤكد عليه في نظرنا ـ نحن المثقفين ـ أنه لا مكان للخوف ولا لليأس.

إن عالم العولمة بدأ الغرب يرفضه، أو يبين مخاطره. والغرب اليوم يقول بأن

التاريخ لا ينتهي، وأن هذا العالم المتوحش الذي يعتدي فيه الإنسان على أخيه الإنسان، وتسيطر فيه النزعة الفردية المطلقة ويحكمه مبدأ الأنانية، وابتزاز الإنسان للإنسان، وسطوة القوي على الضعيف ـ هذا أمر مغاير لطبيعة الأشياء وطبيعة العالم وطبيعة الإنسان. وكلنا يعلم أن التململ بدأ هنا وهنالك في أوروبا بشكل واضح. ونحن في الواقع لسنا في عالم استقرت أركانه وأصبح علينا بالتالي أن نخضع له. وهذا العالم ليس قدراً مفروضاً علينا كما نقرأ ونسمع، فنحن أمام عالم الاحتمالات الممكنة. لذا أردت استخدام تعبير المفكر الفرنسي لوران بقوله: «إن عالمنا هو عالم عدم اليقين، واليقين الوحيد فيه هو عدم اليقين»، كما يقول أصحابه. فهو عالم ليس كما نتخيل تم وضع أسسه وانتهى أمره. كذلك فالعولمة التي نتحدث عنها ـ وما قد تأتي به من مخاطر ثقافية قد تهدد الثقافة العربية أو الثقافة الإسلامية أو ثقافات أخرى ـ هذه العولمة في نهاية المطاف قد تكون أحسن حدود الإنسان وقد تكون أسوأها. والكل في النهاية خاضع لما يفعله الإنسان. وقد علمتنا تجربة الإنسان الطويلة أن الإنسان كان يعرف كيف يستخرج من المشكلات والصعوبات مواقف جديدة ويعرف كيف يتجاوزها. وتاريخ البشر هو تاريخ تجاوز الإنسان لذاته، كما يقول هيغل، بمعنى أن الفكر الإنساني يغالب الفكر الإنساني، وبالتأكيد يتجاوز ما هو عليه.

فإذا انتقلنا إلى الوضع العربي السيىء، نرى أن الأستاذ محمد عودة قد قدم عرضاً رائعاً للموقع التفاوضي القوي للدول العربية. والذي يفزعنا في هذا الواقع هو الخلط الكبير بين الأمر الممكن وبين الأمر القائم، وأنا أقول إن هناك واقعاً ممكناً، وعلينا أن نحاول تخطيه، بل هناك أحياناً مستحيل ممكن، ولولا المستحيل الممكن لما ظهرت الدعوات الإنسانية الكبرى بما في ذلك الديانة الإسلامية، فمن كان يتصور أن الدين الإسلامي مثلاً يمكن أن يظهر في أرض صحراء؟ وهكذا بالنسبة للحضارات كلها. فهناك مستحيل ممكن. وعندما أقول مستحيلاً ممكناً أقصد أن إرادة الإنسان ونوعية الإنسان تستطيع أن تجعله ممكناً. وطبعاً لا أقول هذا بمجرد الخيال، بل أقوله لأن عالم القطب الواحد، كما تعرفون، هو في طريقه إلى الزوال، ولا بد من أن يتكون عالم ذو أقطاب مختلفة. أقول هذا وقد تطرق الأستاذ محمد الخولي إلى بريجنسكي في كتابه **رقعة الشطرنج الكبيرة** الذي يقول بصدد الولايات المتحدة الأمريكية إن الإمبريالية لا بد من أن تتعارض مع الديمقراطية، فكيف تجمع الولايات المتحدة الأمريكية بين الديمقراطية والإمبريالية، وكيف تستطيع أن تقنع العالم بنظامها مدّعية أنه نظام ديمقراطي؟ بل أكثر من هذا، يقول إن كل هذه الدعاية الأمريكية يمكن أن تتعرض للخطر لأن زبائن هذه الحضارة

الأمريكية، ولا سيما في العالم الثالث، سوف يدركون أننا لم نقدم لهم شيئاً، بل زدنا في سوء أحوالهم. فماذا يكون رد الفعل؟ إن هذا كله يبين أن الموقف العربي لا يؤول إلى التشاؤم ولا يدعو إلى الخوف أو الرعب، بل يدعو إلى العمل والإرادة التي تحدّث عنها ساطع الحصري، وإلى البدء بالثقافة وحماية الثقافة كما حدثنا عنهما الحصري. ومن هنا، ولنا في تاريخ بعض الشعوب عبرة. إن معجزة اليابان لم تتم فقط كما يقول المحللون الاقتصاديون عن طريق إرسال البعثات العلمية إلى الغرب، أو عن طريق استقدام صناعيين اختصاصيين من الغرب إلى اليابان. هذا جانب صحيح، ولكنها تمت لأن الضمير القومي أكد أهمية تحرير إرادة العمل المشترك لدى اليابانيين، بمعنى أن يعمل الياباني في الصناعة والزراعة والتجارة وهو يشعر أن عمله يصب في النهاية في المصلحة القومية ولتحقيق الأهداف القومية المرسومة، وأنه يشارك في مشروع حضاري ياباني. وهذا ما كان في نهضة اليابان. فشرارة التقدم تتكون من هذا اللقاء بين الجهاد العالي لأي أمة وإرادة العمل المشترك لأبنائها.

ولقد تأملت تجربة الولايات المتحدة الأمريكية إذ كانت يوماً ١٣ ولاية منقسمة على نفسها متصارعة، أسوأ من حال الدول العربية الآن، وعندما كانت مستعمرة من جانب الإنكليز والإسبان والبرتغال كان هناك في الولايات المتحدة دعاة للانفصال، ودعاة لإبقاء الأوضاع على حالها، ودعاة للوحدة من أشهرهم هاميلتون وماديسون وغيرهما. وأحب أن أسوق لكم مثالاً مما ذكره الرئيس الأمريكي ماديسون في إحدى رسائله حين قال: «إن كل من يحسب أن الجوار بين الأمم يخلق الوئام وليس الخصام فهو إنسان جاهل بحقائق التاريخ»، فلا يزيل الخصام بين الدول المجاورة إلا وجود هيئة تنظم العلاقات فيما بينها كما حدث بعد ذلك في الدستور الاتحادي الذي قامت على أساسه الولايات المتحدة الأمريكية.

إذن الأبواب ليست مغلقة لمن أراد أن يجتهد. والعمل ليس مغلقاً لمن أراد أن يعمل. المهم أن نريد ونحقق إرادة العمل المشترك، وليس هناك مستحيل، وتجربة الأمم والشعوب تقول إنه لولا هذه الإرادة الإنسانية لما تقدمت الإنسانية، وستظل الإنسانية تراهن على طبيعة الخبرة للكائن الإنساني الذي يتميز، بتعبير وجيز، بعناصر أساسية ثلاثة: هنالك الغريزة التي توحّد بين الكائن والحيوان. وهنالك الاجتماعية التي تلقنه قيم المجتمع. ثم هنالك التطلع إلى ما يدعوه الفلاسفة بالقيم المتعالية، أي القيم الفكرية والروحية التي تسمو به وتسمو بالمجتمع وبالإنسانية. وأنا أعتقد أن الدرس الذي يعلمنا إياه ساطع الحصري عند مطالع القرن الحادي

والعشرين هو هذا الدرس بالذات.

بهجت قرني

أولاً لاحظت أن الشباب لا يعرف ساطع الحصري، وهذه أكبر إهانة لذلك المفكر الكبير. ثانياً إن من أفضل الكتب التي صدرت بدراسة تحليلية عن ساطع الحصري كتاب من تأليف زميل كندي هو بيل كليفلاند. على أنني أشعر صراحة أن ثمة تقصيراً في الواقع من جانب الباحثين والمفكرين على مستويين: المستوى الأول هو التوعية السياسية للشباب، والمستوى الثاني هو البحث العلمي الجاد لإحياء هذا الفكر القومي، ومن ثم تأتي أهمية الاقتراح الممتاز الذي قدمه الأستاذ محمد الخولي ثم طوره الدكتور أحمد يوسف.

وليس كافياً أن نؤيد مثل هذه الاقتراحات من الناحية العاطفية، بل علينا أن نوجه المؤتمر خطوة عملية بادئين بتنفيذ الفكرة المطروحة حول إعداد موجز أفكار ونظريات ساطع الحصري على شكل ثبت مختصر (Reader). وأعتقد أنه يجب أن نلتزم في هذا الصدد بعدة مبادئ، أهمها: إحياء هذا الفكر بمعنى ألا يكون مجرد تجميع أوتوماتيكي أو إداري لكتابات وأعمال ساطع الحصري، ولكن يكون عملاً ثقافياً وعلمياً هدفه أساساً تصنيف أعمال الحصري. وهذا التصنيف يهدف إلى النظر في بعض المتغيرات التي تكلم عنها الرجل وأيدت ما ذهب إليه في حياته، فضلاً عن بعض التغيرات التي قد تتطلب بعض المراجعة. ولو أن الحصري عاش لقام بهذه المراجعة وأجرى بعض التغييرات الأساسية على أفكاره وبالنسبة لبعض المتغيرات العالمية، وأنا أختلف في هذا المجال مع الزميل محمد الخولي، إذ أعتقد أن الكلام عن العولمة، حتى من جانب صموئيل هانتنغتون، يؤكد الصفة الريادية لساطع الحصري وأعماله. فنحن في مجال السياسة كنا نتكلم عن النواحي العسكرية والجغرافية لكن ها هي العلاقات الدولية الجديدة تؤكد أهمية العامل الثقافي الذي ارتكز إليه الحصري. فنحن ممكن أن نعرض هذه الريادة ونؤكدها لأنها تأتي من صميم العلاقات الدولية الجديدة.

إن العولمة، على رغم ما يقال عنها، تؤكد ناحية أساسية، وهي ضعف الكيانات الصغيرة وأهمية التكتلات والتجمعات الكبيرة، وهو ما كان يشكل أساس العمل القومي عند الحصري. وهكذا فالتغيرات العالمية والعلاقات الدولية المستجدة تؤكد الصفة الريادية لأفكار الرجل. ومع ذلك فيجب ألا نقف عند هذا الحد، بل يجب أن نتجه إلى الناحية النقدية. وسأتناول هنا نقطتين: **الأولى** على المستوى الإقليمي، قد يتطلب الأمر بعض المراجعة لمقولات الحصري، ومن المتغيرات

الإقليمية التي قد تتطلب مراجعة لكتاباته ومقولاته موضوع الدولة القطرية، فالذي يقال حالياً هو أن الفكر القومي الموجود حالياً يقول بأن الدولة القطرية كيان مصطنع، ولكن ها هي الدولة القطرية باقية. وما ألاحظه أن الدولة القطرية ازداد عنفوانها وأصبحت المرجع الرئيسي للكثيرين. والسؤال الذي يمكن أن أطرحه: كيف تتواكب وتتكيف كتابات الحصري مع هذا الموضوع؟ النقطة الثانية تتعلق بالتغيرات التي تعرّض لها المجتمع المدني بعد الخمسينيات والستينيات، حيث كان يسود التيار القومي. إنك لا تستطيع أن تقول حالياً إن التيار القومي هو التيار الوحيد أو التيار المسيطر في المجتمع المدني العربي. هناك تيارات أخرى، منها مثلاً التيار الإسلامي. فكيف يتكيف التيار القومي في المرحلة الحالية مع سائر التيارات الموجودة؟ وما هي أوجه الاختلاف والاتفاق؟ وعلى صعيد المجتمع، أو المجتمعات العربية المختلفة، الفكر القومي عامة ينظر للدول القطرية ليس على أنها فقط مصطنعة، بل على أنها كتلة صمّاء، ويرى أن الدولة القطرية تتكون من جماعات مختلفة: الماركسيون تكلموا عن الطبقات، ونحن يمكن أن نتكلم عن جماعات. وفي الستينيات كانت الجماعات المسيطرة، هي الجماعات العسكرية، أما حالياً فلم تعد هذه هي الجماعات المسيطرة بل أصبح هناك جماعات رجال الأعمال. فكيف يتكيف الفكر القومي، وفكر ساطع الحصري بالذات مع هذه المتغيرات الجديدة؟ أريد أن أقول إن الهدف من الاقتراح الممتاز الذي أشرت إليه لإخراج كتابات ساطع الحصري وإحيائها، هو أن نتسلح بالنظرة النقدية، بمعنى محاورة مؤلفها وليس بالضرورة محاكمته، ولكن محاورته لتحديث آرائه، وتكون هذه مناسبة لإخراج الفكر القومي ذاته من غرفة العناية المركّزة، بل يمكن أن تكون مناسبة لولادة جديدة لفكر قومي معاصر يصلح موجّهاً للقضايا والاتجاهات، ومرشداً للعمل السياسي، وبخاصة بين صفوف الشباب.

حلمي شعراوي

أتيحت لي فرصة إذ كنت طالباً في منتصف الخمسينيات لكي أزور معهد الدراسات العربية وأقترب من الأستاذ ساطع الحصري على مدى نحو أربعة أشهر، وكنت مهتماً أيامها بالحصول على مواد علمية حول دور الثقافة في الوحدة العربية. وقد أكد لي الحصري أن ليس هناك شيء اسمه دور الثقافة في الوحدة وإنما هناك شيء اسمه وحدة الثقافة العربية. وكانت هذه هي الفكرة المحورية كما لمستها عند الحصري، ومن ثم كان يركز في أحاديثه معي على نقطتين: وحدة الثقافة العربية والسلّم التعليمي العربي. وكان يقول إن القوى الاستعمارية خلقت نظماً تعليمية

مختلفة، الأمر الذي أدى إلى كسر الوحدة العربية وأنه ينبغي اتباع سلّم تعليمي واحد بالنسبة للأقطار العربية. لكن ها هي المسألة الثقافية تعود الآن بقوة، وأصبحت القضية الآن هي أن الهيمنة، أو العولمة، بدأت تدخل في المجال الثقافي، ويمكن أن تؤدي إلى تحريف الثقافة العربية وإلحاق أخطار جسيمة بالكيان العربي ذاته.

فإذا انتقلنا إلى موضوع مهم آخر، هو إشكالية المشروع الصهيوني، لكان علينا أن نتأمل مقولات الحصري في ضوء ما يطرحه علينا حالياً هذا المشروع الصهيوني مجدداً من مقولات، من قبيل: ما بعد الصهيونية، أو تجديد الصهيونية، أو إعادة كتابة التاريخ. وفي هذا الإطار ينشدون امتداد دوائر حلفاء الصهيونية من واشنطن وموسكو إلى حيث حلفاء جدد في الهند أو الصين والعالم الثالث وعالم الجنوب. وأنا أقصد أن الصهيونية تريد أن تطرح نفسها كأيديولوجيا قومية ودينية، في وقت نحن نستهين فيه بهذه العناصر بالنسبة لأنفسنا، وهذا أمر غير مفهوم. وفي رأيي أن علينا أن ندرس مشروع القومية عند ساطع الحصري في إطار الواقع العربي، ومشكلتنا أن بعضنا يحاول من خلال ادعاءات التحديث أو التطوير أو نفي التعصب إلى آخر تلك الاتهامات التي نلقيها على أنفسنا ـ نحاول التخلي عن هذا الفكر القومي والتمسك به، بينما المعسكر الصهيوني يطرح نفسه دون أي خجل في صورة إيديولوجية قومية، لا بل نحن على العكس نسايره بشعارات من قبيل الشرق ـ أوسطية أو المتوسطية أو الحوار الثقافي. وها نحن نشاهد المثقف العربي وكأنه يقدم تنازلات ويتخلى عن مقولاته الثقافية والأساسية بطريقة تدعو للاستغراب، بينما المثقف الصهيوني ثابت تماماً عند كل المقولات التي تدعيها العولمة. من هنا فما أطرحه مجدداً هو إعادة قراءة ساطع الحصري وإعادة تأمل المقولات القومية والوحدة العربية بصورة حديثة ومجددة يمكننا أن ندفعها إلى الأمام وندافع عنها، وهذا ما أتصور أن يقوم به الشباب بالدرجة الأولى.

مجدي حماد

هكذا نكون قد اقتربنا من لحظة الختام. وأعتقد أننا قد اقتربنا من شخصية ساطع الحصري وإنجازاته وأعماله سواء في الندوة الفكرية أو في هذه الحلقة النقاشية، التي أكدت ما تناولته الندوة من أفكار وقضايا تجمع بين عبقرية الأصالة والمعاصرة في الوقت نفسه.

برنامج الندوة(*)

اليوم الأول: السبت ٢٤ نيسان/ابريل ١٩٩٩

٩,٠٠ ـ ١٠,٠٠	تسجيل
١٠,٠٠ ـ ١٠,٣٠	افتتاح
١٠,٣٠ ـ ١٢,٠٠	**الجلسة الأولى**
	رئيس الجلسة: أ. د. يونان لبيب رزق
	الباحث: د. خيرية قاسمية
	البحث: حياة ساطع الحصري: دروس وعبر
	المعقب: د. عبد الله عبد الدائم
	المناقشات
١٢,٠٠ ـ ١٢,٣٠	استراحة شاي
١٢,٣٠ ـ ٢,٣٠	**الجلسة الثانية**
	رئيس الجلسة: أ. د. يحيى الجمل
	الباحث: د. محمد عبد الشفيع عيسى
	البحث: نظرية ساطع الحصري في

(*) عقدت جميع الجلسات بقاعة نفرتيتي في فندق شبرد بالقاهرة عدا الجلسة الختامية التي عقدت بمدرج ساطع الحصري في معهد البحوث والدراسات العربية (١ شارع اتحاد المحامين العرب ـ غاردن سيتي ـ القاهرة).

القومية العربية: جدلية الإثبات والنفي

المعقبان:

أ. محمد الخولي

أ. حسين معلوم

المناقشات

اليوم الثاني: الأحد ٢٥ نيسان/ ابريل ١٩٩٩

١٠,٠٠ ـ ١٢,٠٠ **الجلسة الثالثة**

رئيس الجلسة: د. عبد الله عبد الدائم

الباحث: د. أحمد يوسف أحمد

البحث: ساطع الحصري والوحدة العربية

المعقب: د. مجدي حماد

١٢,٠٠ ـ ١٢,٣٠ **استراحة شاي**

١٢,٠٠ ـ ١,٣٠ **الجلسة الرابعة**

رئيس الجلسة: د. عز الدين اسماعيل

الباحث: د. عبد الله عبد الدائم

البحث: الفكر التربوي عند ساطع الحصري

المعقبان:

د. حسن البيلاوي

د. محسن خضر

المناقشات

١,٣٠ ـ ٣,٠٠ **الجلسة الخامسة**

رئيس الجلسة: د. خيرية قاسمية

الباحث: د. عبد العزيز الدوري

البحث: ساطع الحصري في الفكر القومي

المعقبان:

أ. محمد عودة

د. محمد عبد الشفيع عيسى

٦,٠٠ ـ ٨,٠٠

المناقشـات

ختام الندوة

حلقة نقاشية عقدت بمدرج ساطع الحصري في معهد البحوث والدراسات العربية في موضوع: «فكر ساطع الحصري وتحديات الحاضر والمستقبل في الوطن العربي».

فهرس

ـ ب ـ

ـ ت ـ

ـ ث ـ

- ج -

- ح -

- خ -

- د -

- ض -

- ط -

- ع -

ـ غ ـ

ـ ف ـ

ـ ق ـ

ـ ن ـ

ـ هـ ـ

ـ و ـ

ـ ي ـ

هذا الكتاب

يحتوي هذا الكتاب على بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية ومعهد البحوث والدراسات العربية في القاهرة، وقد شارك فيها نحو ثلاثين باحثاً عربياً.

تكمن أهمية الحصري في أنه كان أبرز المؤسسين للفكرة القومية العربية، ولهذا اتسمت كتاباته بعمق الريادة وعبق البداية في الفكر القومي. فقد نجح بتطوير نظرية للوحدة العربية اتسقت في عناصرها بسبب وضوح منطلقاتها الفكرية، ولم تكن نظريته هذه مجرد موقف ايديولوجي، ولكنها استكملت مقدماتها على أساس تحليل علمي..

إن الحصري، بسبب إيمانه الحقيقي بالقومية العربية وبضرورة تحقيق الوحدة العربية، واستخدامه للمنهج العلمي من ناحية أخرى، قد نجح ببلورة مواقف متقدمة من قضية الوحدة العربية بمعايير الظرف الراهن الذي تمر به حركة النضال العربي، وهي ما زالت بصفة عامة قابلة للتطبيق في وقتنا هذا. وفي هذا السياق تتضح الأهمية التاريخية لنظرته إلى الإمكانات الكبيرة التي تنطوي عليها فكرة القومية العربية في معركة النضال ضد الامبريالية، مترجماً بدقة الثوابت السائدة في الأمة العربية، ومستشرفاً في الوقت نفسه أوسع آفاق المستقبل.

يتضمن هذا الكتاب ستة فصول، يركز كل منها على جانب من جوانب فكر الحصري من خلال بحث معمق متبوع بتعقيبات ومناقشات.

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «سادات تاور» شارع ليون

ص.ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣ ـ بيروت ـ لبنان

تلفون: ٨٦٩١٦٤ ـ ٨٠١٥٨٢ ـ ٨٠١٥٨٧

برقياً: «مرعربي» ـ بيروت

فاكس: ٨٦٥٥٤٨ (٩٦١١)

e-mail: info@caus.org.lb

Web Site: http://www.caus.org.lb

الثمن: